المعز لدين الله

إمام الشيعة الإسماعيلية
ومؤسس الدولة الفاطمية فى مصر

تأليف

حسن إبراهيم حسن

دكتور فى الآداب (القاهرة)
ودكتور فى الفلسفة ، ودكتور فى الآداب (لندن)
أستاذ التاريخ الاسلامى ورئيس قسم التاريخ
بجامعة فؤاد الأول

طه أحمد شرف

ليسانسيه فى الآداب ، دبلوم معهد التربية العالى للمعلمين
ماجستير فى الآداب ، ودكتور فى الآداب
مدرس التاريخ بمدرسة الحلمية الثانوية
وكلية الآداب

١٣٦٧ هـ — ١٩٤٧ م

الناشر
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى باشا ــــ القاهرة

مطبعة الشبكشى بالأزهر بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

أخذنا على عاتقنا كما ذكرنا فى كتابنا « عبيد الله المهدى » ، أن نحلل الشخصيات الفاطمية الفذة ، وأن نميط اللثام عن كثير من الحقائق التى كانت — ولا تزال — غامضة فى تاريخ المذهب الإسماعيلى ، مذهب الفاطميين ، وحاولنا أن نحقق هذه الرغبة بتحليل شخصية عبيد الله المهدى ، إمام الشيعية الإسماعيلية ، ومؤسس الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب

والآن نعرض لتحليل شخصية أخرى من أبرز الشخصيات فى تاريخ الدعوة الإسماعيلية عامة ، وتاريخ الفاطميين خاصة ، وهى شخصية المعز لدين الله ، الخليفة الفاطمى الرابع .

فكما أن حياة عبيد الله تمثل عصرين مختلفين ، هما عصر الاستتار ، أى العصر الذى كان فيه الإمام الإسماعيلى مستترا عن أعين العباسيين ، عاملا على توجيه الدعوة فى أرجاء العالم الإسلامى كافة ، لتأسيس الدولة الإسماعيلية المنشودة ، وعصر الظهور ، أى ظهور عبيد الله المهدى ، وجلوسه على العرش الفاطمى ، وحمله الإمامة فى حياته ، وديعة يردها عند وفاته إلى إمام الاستقرار ، وهو القائم ، الذى تمتع بالإمامة فى حياته ، وورّثها ابنه المنصور من بعده - كذلك يمثل عصر المعز لدين الله دورين مختلفين ، هما الدور المغربى الذى دانت فيه لسلطانه بلاد المغرب وصقلية ، والدور المصرى الذى تم فيه فتح مصر والشام وأخذت الدعوة الإسماعيلية تنتشر فى بلاد الحجاز وفارس واليمن ، وفى الهند نفسها

هكذا رسم عبيد الله المهدى للخلفاء الفاطميين السياسة التى ساروا عليها فى الدور المغربى ، ومهد المعز لدين الله السياسة التى سار عليها خلفاؤه فى الدور المصرى .

كان عصر المعز لدين الله حافلا بمظاهر القوة والعظمة . ولا غرو ، فقد استطاع ، بما أوتيه من ذكاء فذ ومهارة حربية ممتازة ، أن يوحّد بلاد المغرب كافة تحت رايته ، وينتصر على الأمويين وحلفائهم الروم فى غير موقعة ، حتى كان الأمويون يخشون على بلادهم من أن تقع فى قبضته ، وسارع الروم إلى محالفته ، خوفا من أن تقع قلورية فى يده كما حاول الفاطميون فى عهده أن يتخذوا من جزيرتى صقلية وإقريطش قنطرة يعبرون منها إلى إيطاليا شمالا ، وإلى مصر والشام شرقا ، واتخذ من فتح هذه البلاد وسيلة لقلب الخلافة العباسية السنية ، وإحلال الخلافة الفاطمية الشيعية محلها

وقد عول المعز على نشر الدعوة الإسماعيلية فى العالم الإسلامى ، فأنفذ دعاته إلى الآفاق ، وزوّدهم بمنشوراته أو محاضراته فى المذهب الإسماعيلى وألف هو وأفذاذ دعاته كتب الباطن ، كما كانوا يسمونها . وكانت منشورات المعز تلقى على أنصار هذا المذهب فى بلاد المغرب ، وكانت هذه المنشورات أو المحاضرات أشبه بمجالس الحكمة التى كانت تلقى فى مصر وفى قصور الخلافة ومساجدها يتلقى الإسماعيلية أصول مذهبهم عن طريق المنشورات والكتب . كما كانت احتفالات الفاطميين الرائعة فى عهد المعز لدين الله ، كالاحتفال بصلاة الجمعة ، وصلاة العيدين ، ومولد النبى ، ومولد على وابنيه الحسن والحسين ، ومولد الإمام الجالس على العرش ، مثلا احتذاه من جاء بعده من الخلفاء . وكان لنظم الحكم الدقيقة ، التى سار عليها المعز لدين الله ، أثر بعيد فى رقى بلاده . ولا غرو ، فقد كان يمثل الحاكم المستنير ، الذى يجمع فى يده السلطات كلها ولكنه يسعى دائما لإسعاد شعبه ، ويعتبر الحكم أمانة من الله ائتمنه عليها ، وأن زعامته المسلمين واجب ألقاه على عاتقه انتسابه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فجاءت نظم الحكم التى سنها مثلا أعلى فى الدقة والإتقان ، حتى فاقت أمثالها عند الأمويين والعباسيين .

وإن مدينة القاهرة المعزية التى تعد الآن من أمهات مدن الشرق ، والجامع الأزهر أقدم جامعات العالم ، ليدينان بوجودهما إلى المعز لدين الله ، ويشهدان على نهضة الفنون فى عهد المعز ، الذى فاق خلفاء عصره من الأمويين والعباسيين .

وقد بحثنا شخصية المعز لدين الله والمذهب الإسماعيلى فى عهده من النواحى

الدينية والسياسية والثقافية والاجتماعية مستعينين بما عثرنا عليه من المراجع الإسماعيلية المخطوطة والمنشورة ، وألحقنا بالكتاب كثيرا من الوثائق التى تصور تاريخ هذا العصر أروع تصوير وذيلنا الكتاب بثبت يشمل المصادر ، مرتبة على أحرف الهجاء بالنسبة لأسماء المؤلفين ، وبفهارس شاملة لأسماء الأعلام من الرجال والنساء والأماكن والحوادث التاريخية الهامة

وقد أخذنا على أنفسنا أن نوالى البحث فى تاريخ المذهب الإسماعيلى من الناحية السياسية بوجه خاص ، وما أدخل عليه من تطورات ، وذلك فى عهد المستنصر بالله الفاطمى والحسن الثانى النزارى ، أحد أجداد سمو أغا خان .

وإننا فى هذا المقام ، نهدى أجزل الشكر وأجمله ، إلى حضرة صديقنا الوفى الأستاذ مصطفى السقا ، الأستاذ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، لتفضله بمراجعة هذا الكتاب ، وإمدادنا بكثير من المعلومات التاريخية والأدبية ، وحضرة حسن أحمد محمود افندى الطالب بقسم الماجستير بكلية الآداب ، لمساعدته القيمة فى عمل الفهارس .

٢ يناير ١٩٤٨

حسن ابراهيم حسن   طه أحمد شرف

محتويات الكتاب

صفحة

مقدمة الكتاب ٣
محتويات الكتاب ٦

الباب الأول — المعز لدين الله منذ ولد إلى أن ولى الخلافة .

١ — بيت المعز ٢ — مولد المعز ونشأته ٩-١٣
٣ — تولية المعز العهد والخلافة ١٩

الباب الثانى — المعز لدين الله الفاطمى فى بلاد المغرب

١ — علاقة المعز بالأدارسة وزعماء المغرب ٢٤
٢ — علاقة المعز بالأندلس ٣ — علاقة المعز بجزيرة إقريطش ٣٦-٤٦
٤ — علاقة المعز بجزيرة صقلية ٥ — أشهر ولاة المعز بصقلية ٥٢-٦١

الباب الثالث — المعز لدين الله وفتح مصر

تمهيد ٦٧
١ — العوامل التى ساعدت المعز على فتح مصر ٦٩
(ا) نجاح الدعوة الفاطمية فى مصر والمشرق ٦٩
(ب) ضعف الدولة العباسية ٧٦
(حـ) ضعف الدولة الإخشيدية فى مصر (ى) قوة الدولة الفاطمية ٧٩-٨١
٢ — جهود المعز فى فتح مصر
(ا) مسير جوهر إلى مصر (ب) فتح مصر ٨٤-٨٥
٣ — المعز لدين الله وفتح بلاد الشام
(ا) عوامل فتح الشام (ب) جعفر بن فلاح وفتح الشام ٩١-٩٣
٤ — النزاع بين المعز والقرامطة
(ا) علاقه المعز بالقرامطة قبل ثورة الحسن الأعصم ٩٨
(ب) العوامل التى أدت إلى قيام الحرب بين القرامطة والفاطميين فى مصر والشام ١٠٣
(حـ) الصراع بين القرامطة والفاطميين إلى أن وصل المعز إلى مصر ١٠٦
١ — جعفر بن فلاح والحسن الأعصم ١٠٦
٢ — جوهر الصقلى والحسن الأعصم إلى أن وصل المعز إلى مصر ١١٢
(ى) النزاع بين المعز والحسن الأعصم ١١٥

صفحة

(هـ) أفتكين التركى والمعز لدين الله الفاطمى ١٢٧

الباب الرابع — نظم الحكم فى عهد المعز لدين الله

١ — النظام السياسى

تمهيد ١٣٤

(ا) الخلافة (ب) الوزارة ١٣٥-١٤٥

٢ — النظام الإدارى

(ا) ولاية الأقاليم

١ — فى بلاد المغرب ٢ — فى مصر والشام والحجاز ١٥١

(ا) فى مصر (ب) فى بلاد الشام (حـ) فى الحجاز ١٦٠—١٦٣ ١٦٥

(ب) الشرطة ١٦٦

٣ — النظام المالى ١٦٨

٤ — النظام الحربى ١٧٥

(ا) الجيش (ب) البحرية ١٧٥-١٨٤

٥ — النظام القضائى

(ا) القضاء (ب) الحسبة (حـ) المظالم ١٩٠—٢٠٠ ٢٠٣

الباب الخامس — الفن والثقافة وأهم مظاهر الحياة الاجتماعية فى عهد المعز لدين الله

١ — الفن فى عهد المعز

(ا) فى بلاد المغرب ... (ب) فى مصر ٢٠٧

١ — تأسيس مدينة القاهرة قصر المعز ٢١٠-٢١٧

٢ — بناء الجامع الأزهر ٢١٩

٢ — الثقافة فى عهد المعز

(ا) الثقافة العلمية ٢٢١

١ — ابن هانىء الأندلسى ٢ — تميم بن المعز ٢٢٥-٢٣٠

(ب) الثقافة المذهبية

١ — ثقافة الدعوة الإسماعيلية فى المغرب ٢٣٢

٢ — الدعوة الإسماعيلية فى مصر ٢٤٠

الدعوة الفاطمية فى المساجد ٢٤٠

صفحة

١ ـــ الدعوة الفاطمية فى مسجد عمرو ٢٤٢
٢ ـــ الدعوة الفاطمية فى جامع ابن طولون ٢٤٢
٣ ـــ الدعوة الفاطمية فى الأزهر ٢٤٦
٤ ـــ الدعوة السرية وأعلام الدعاة ٢٥٢
أبو حنيفة النعمان — جعفر بن منصور اليمن ٢٥٨-٢٦٨
٣ ـــ أهم مظاهر الحياة الاجتماعية ٢٧٢
(أ) مظاهر الترف والثروة (ب) الحفلات والأعياد ٢٧٣-٢٨٤
٤ ـــ أخلاق المعز وصفاته ٢٨٧
٥ ـــ خاتمة القول فى المعز لدين الله ٢٩٠

ملاحق الكتاب

الملحق ١ ـ رسالة المعز إلى أبى الحسن على الإخشيد يطلب إليه إنجاد مسلمى إقريطش ٣٠٣
الملحق ٢ ـ عهد جوهر الصقلى إلى المصريين ٣٠٤
الملحق ٣ ـ رسالة المعز لدين الله إلى الحسن الأعصم القرمطى ٣٠٧
الملحق ٤ ـ موقف المعز من أهل سجلماسة ٣١٧
الملحق ٥ ـ نصيحة المعز لعامل سجلماسة ٣٢٠
الملحق ٦ ـ تهديد المعز إمبراطور الدولة البيزنطية لاستيلائه على إقريطش ٣٢١
الملحق ٧ ـ كلام فى مجلس خوطب به رسول الأموى ٣٢٢
الملحق ٨ ـ رد المعز على عبد الرحمن الناصر الأموى ٣٢٥
الملحق ٩ ـ نقض المعز كتاب الناصر ٣٢٧
الملحق ١٠ ـ بعض التشريعات الإسماعيلية فى عهد المعز لدين الله ٣٣٩
الملحق ١١ ـ ما ينبغى أن يستعمله الدعاة إلى الأئمة صلوات الله عليهم فى دعائهم إليهم ٣٤٢
الملحق ١٢ ـ فى الحث على طاعة الفاطميين ٣٤٥
الملحق ١٣ ـ مدح المعز كتامة ٣٤٦
الملحق ١٤ ـ اشتغال الأئمة فى صلاح الأمة ٣٤٨
الملحق ١٥ ـ توقيع فى ذكر عاشوراء ٣٤٨
الملحق ١٦ ـ النهى عن الغلو فى أولياء الله ٣٤٩
الملحق ١٧ ـ نصيحة المعز لعماله ٣٥٠
الملحق ١٨ ـ نصيحة المعز لأحد العمال ... ٣٥١
الملحق ١٩ ـ فى ترتيب استعمال العمال على العمل ٣٥٢
مصادر الكتاب — فهارس الكتاب ٣٥٣

المعز لدين الله

الخليفة الفاطمى في المغرب ومصر

(٣٤١ — ٣٦٥ هـ)

الباب الأول

المعز لدين الله منذ ولد إلى أن ولى الخلافة

١ — بيت المعز

يعتبر المعز لدين الله ، الخليفة الفاطمى الرابع ، من كبار رجال عصره ؛ فقد بذ أقرانه ومنافسيه ، علما وسياسة وحربا لهذا لا نغلو إذا قلنا إن نفوذ الدولة الفاطمية بلغ أقصى مداه فى عهده ، وإن الفاطميين لم يستطيعوا أن يحتفظوا بذلك التراث المجيد الذى تركه لهم هـــذا الخليفة ومن ثم أخذت الدولة الفاطمية فى الضعف والانحـــلال بعد وفاة العزيز بن المعز وسقطت فى ميدان التنافس بين السنية والشيعة ، بعد أن تركت أثرا لا يمحوه توالى الأيام والأعوام

وقد ساهم المعز لدين الله فى إنعاش الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب ومصر ، واستولى على جميع البلاد الإفريقية على البحر الأبيض ، عدا طنجة وسبتة ، وتوغلت جيوشه فى بلاد الشام وهددت بغداد حاضرة العباسيين فى ذلك الحين واستطاع هذا الخليفة أن ينظم هذا الملك الواسع ، بما سنه من النظم الإدارية الحازمة. ولم يكتف بذلك بل نهض بالناحية العلمية والثقافة المذهبية ، حتى أصبحت المنصورية فى بلاد المغرب ، والقاهرة فى مصر ، كعبة العلماء والطلاب والمستجيبين والدعاة وعمل على تقدم النهضة الاجتماعية فى بلاده ، فعظمت دولته ، وتدفقت عليها الأموال ، وعمها الرخاء .

ولكى نرسم صورة واضحة عن حياة المعز لدين الله ، لابد لنا من أن نتعرض للكلام على مولده ونشأته ، ونبين أثر البيئة التى ترعرع فيها ولا غرو ، فقد نشأ المعز فى ذلك البيت الذى كان يرنو ببصره إلى الزعامة والملك وحاول تحقيق ما كانت تصبو إليه نفوس العلويين ، برغم ما وقف فى طريقهم من عقبات . لكن هذا البيت ظل يعمل في السر أحيانا ، وفى الجهر أحيانا أخرى ، حتى تُوِّجت جهوده بقيام الدولة الفاطمية فى المغرب ، فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، على يد عبيد الله المهدى . ثم خلفه القائم والمنصور ، فمكّنا لهذه الدولة الفتية حتى إذا جاء المعز لدين الله ، وجد الأمور موطأة ممهدة لنشر نفوذه . وبسط سلطانه فى المغرب والمشرق وقد أحرز المعز نجاحا هائلا فى هذه السبيل ولا نغلو إذا قلنا إنه يعتبر المؤسس الحقيقى للدولة الفاطمية لأنه وطد سلطانها ووسع رقعتها ووضع نظام الحكم الذى أصبح نبراسا يهتدى بهديه من جاء بعده من الخلفاء والأمراء والسلاطين .

ينتسب المعز لدين الله إلى الرسول ﷺ عن طريق ابنته فاطمة الزهراء ، وإلى على بن أبى طالب ، ابن عم الرسول وزوج ابنته فاطمة . فهو فاطمى ، لأنه من سلالة فاطمة ، وعلوى لأنه من سلالة على وقد اشتهر أفراد بيت المعز بالكفاح فى سبيل زعامة المسلمين وإمامتهم لأن علىّ بن أبى طالب وأبناءه من بعده كانوا يرون أنهم أحق من سواهم بالملك وإمامة المسلمين ولذلك قامت الحروب بين العلويين وبين الأمويين والعباسيين حتى حمل الإسماعيلية لواء الكفاح حول منتصف القرن الثانى للهجرة ، وتكللت جهود هذا الفريق بقيام الدولة الفاطمية ـ على ما رأينا ـ فى سنة ٢٩٦ هـ .

وبقيام الدولة الفاطمية ، انتهى أخطر دور مر على الأئمة الإسماعيلية العلويين ، فانقضى « دور الستر » ، وجاء بعده « دور الظهور » وبعبارة أخرى انقضى دور التجارب والمحن ، وحل محله دور الاستقرار والعمل [1] .

وإذا كان أبو القاسم بن الحسين ، الإمام المستقر [2] ، قد نشأ وترعرع فى دور

(١) أنظر ما كتبناه عن الأئمة ونوابهم فى كتاب « عبيد الله المهدى » للمؤلفين ص ٢٥ — ٩٢ .

(٢) الامام المستقر هو الذى يستطيع توريث الامامة لسواه .

الستر (١) ، وشاركه فى ذلك عبيد الله الإمام المستودع (٢) ، ونالها من الأذى شىء غير قليل فى سلمية ، وفى طريقهما إلى بلاد المغرب ، ثم فى بلاد المغرب نفسها فقد جنى كل منهما ثمار ما غرسه آباؤه وأجداده ، وتمتع كل منهما ـ فى عهد عبيد الله ـ بفترة ، سادها الاستقرار ، فاستطاع عبيد الله أن يجلس على عرش الدولة الجديدة ، وأن يرأس الدعوة الإسماعيلية خليفة ؛ كما استطاع أبو القاسم أن ينعم بولاية العهد ، ويطمئن إلى أن العرش الفاطمى سيئول إليه بعد وفاة المهدى . وهكذا شاهد هذان الإمامان الإمام المستودع ، والإمام المستقر ، عصرين متناقضين متباينين ، هما عصرا الستر والظهور .

على أن المعز لدين الله لم يشارك جده الإمام القائم وهو الإمام المستقر ولا نائبه عبيد الله المهدى ، الإمام المستودع ، فى الجمع بين عهدى الستر والظهور ؛ فقد ولد فى أخريات حياة عبيد الله ، وتنسم الحياة فى عهد هذا الإمام المستودع وبعبارة أخرى كان لوجود المعز فى دور الظهور أثره فى حياته ؛ فقد استطاع أن يتغذى بلبان الحرية ، وينعم بحياة أبناء الخلفاء وأولياء العهود فلم يتعرض لتلك المحن التى تعرض لها جده القائم ، ولا مساعد جده الإمام المهدى ولا غرو فقد كان لقيام الدولة الفاطمية أثره الكبير فى وضع حد لنهاية هذه الآلام ، التى قاساها أفراد البيت العلوى فى دور الستر ، كما كان بداية عهد ازدهار وسعادة ، تمتع بهما هذا البيت الذى طالما صب عليه الأمويون والعباسيون من بعدهم كل ألوان الظلم والعسف.

وكان المعز لدين الله علويا لحما ودما ، فلم يكن من أبناء ميمون القداح ـ حجج الأئمة الإسماعيلية فى دور الستر ـ لأنه لا يمت إلى عبيد الله المهدى ، الخليفة الفاطمى بصلة النسب والقرابة ، وإن كان يمت إليه بصلة التعليم الروحى حسب . فقد رأينا عند دراستنا تاريخ الأئمة المستورين ونوابهم ، ونسب عبيد الله الفاطمى (٣) ، أن هناك فرعين متمايزين فرعا خاصا بالأئمة ، يبدأ بالحسين بن على ، وينتهى بالإمام القائم ، وهو الخليفة الفاطمى الثانى ؛ وفرعا خاصا بنواب الأئمة ، ويبدأ بسلمان الفارسى ،

---

(١) ويبدأ باستتار محمد بن إسماعيل ، وينتهى بقيام الدولة الفاطمية .

(٢) الامام المستودع هو الذى يتمتع بالامامة فى حياته ولا يورثها غيره

(٣) انظر كتاب عبيد الله المهدى للمؤلفين ص ١٥٦ - ١٦٩

وينتهى بعبيد الله المهدى . وقد دخل فرع الأئمة فى دورين اثنين ، كان أئمة الدور الأول معروفين للناس جميعا يثورون على الأمويين حينا ويلجئون إلى إخفاء ما فى نفوسهم حينا آخر . وليس هناك ما يمنع من تسمية هذا الدور من أدوار تاريخ الإسماعيلية ، بدور الظهور الأول .

وأئمة هـــذا الدور الذين يعترف بهم الإسماعيلية هم على بن أبى طالب والحسن بن على ، والحسين بن على ، وعلى زين العابدين ، ومحمد الباقر ، وجعفر الصادق . وأما أئمة الدور الثانى ، فلم يكونوا معروفين لكافة الناس ، كانوا يعملون فى استتار ، وينظمون الدعوة بعيدين عن أعين الرقباء ، مستعينين بدعاتهم وحججهم ، ويلتف حولهم مستجيبوهم الذين يغرقون فى حبهم ، ويغمرونهم بكثير من أموالهم . وبذلك استطاع هؤلاء الأئمة أن يكونوا مجتمعات إسماعيلية بحتة ، فى كافة أرجاء العالم الإسلامى . وكانت هذه المجتمعات تموج بالذين يخلصون لأئمة هذا الدور ، أى دور الاستتار ، ويتفانون فى حبهم ، دون أن يعرفوا أشخاص أئمتهم على وجه التحقيق .

ذلك أن هؤلاء الأئمة قد حاطوا أنفسهم بسياج من التخفى والكتمان ، حتى لا ينالهم ما نال آباءهم وأجدادهم من إلقائهم فى غيابات السجون وإزهاق أرواحهم . وأئمة هذا الدور ، أى دور الستر ، هم محمد بن إسماعيل ، ويلقب بالمستور حينا ، والمكتوم حينا آخر ، ثم ابنه الإمام عبد الله الأكبر ، ثم الإمام أحمد التقى ، ثم الإمام أبو القاسم بن الحسين الوفى ، الذى تسمى بعد ذلك القائم بأمر الله ، وجلس على عرش الخلافة الفاطمية بعد وفاة عبيد الله المهدى ، ثم ابنه المنصور اسماعيل والد المعز

وهكذا ينتسب المعز لدين الله إلى أحـــد فروع البيت العلوى ، وهو الخليفة الرابع عند طائفة الإسماعيلية ، ويفصل بينه وبين على بن أبى طالب اثنا عشر إماما ، منهم ستة فى دور الظهور الأول[١] ، وأربعة فى دور الستر الأول[٢] ، واثنان فى دور الظهور الثانى[٣] . وعلى هذا لم نضع عبيد الله بين أئمة الاستقرار الإسماعيليين . ولا بدع

(١) وهم الحسن ، والحسين ، وعلى زين العابدين فمحمد الباقر ، فجعفر الصادق ، ثم إسماعيل بن جعفر الصادق

(٢) وهم محمد بن إسماعيل ، وعبد الله الأكبر ، وأحمد التقى ، والحسين الوفى .

(٣) وهما القائم بأمر الله (٣٢٢ — ٣٣٤ ﻫ) والمنصور إسماعيل أبو المعز (٣٣٤ - ٣٤١ ﻫ)
ويقصد بهذا الدور الفترة التى تبدأ بقيام الدولة الفاطمية فى سنة ٢٩٦ ﻫ ، وتنتهى باختفاء الامام الطيب ابن الخليفة الآمر سنة ٥٢٦ ﻫ .

فى ذلك ، فإنه ينتمى إلى بيت غير البيت الذى ينتمى إليه القائم وسواه من الأئمة أجداد المعز

ولندع إحدى نساء المهدى توضح لنا حقيقة هذا البيت الذى ولد فيه المعز ونشأ وترعرع ؛ فقد كانت تقول ، « لولد المهدى ونسائه بعد وفاته: والله لقد خرج هذا الأمر من هذا القصر ، يعنى قصر المهدى بالله (صلع) ، فلا يعود إليه أبدا ، وصار إلى ذلك القصر يعنى قصر القائم بأمر الله فلا يزال فى ذرية صاحبه ما بقيت الدنيا[١] » . ولو كان أبناء القائم من ذريه المهدى ، لما عبرت هذه السيدة بذلك، لأنه يدل على أن ذرية المهدى غير ذرية القائم ، كما يدل على أن المعز لدين الله لا ينتمى إلى بيت عبيد الله ، أى إلى البيت القداحى ، وإنما ينتسب إلى جده القائم وأبيه المنصور ، وهما من سلالة أئمة الاستقرار .

٢ — مولد المعز ونشأته :

ولد أبو تميم معد بن المنصور ، بمدينة المهدية ، قاعدة الفاطميين ، فى ١١ رمضان سنة ٣١٩ هـ ، وذلك فى أواخر عهد الخليفة المهدى بالله ؛ فأدرك فى حياته ثلاثة من الخلفاء الفاطميين هم : المهدى ، والقائم ، والمنصور. وعاش فى عهد إمامة الاستيداع (من سنة ٣١٩ إلى سنة ٣٢٢ هـ) ثم فى عهد إمامة الاستقرار (من سنة ٣٢٢ إلى سنة ٣٤١ هـ) وكانت أم المعز أم ولد وكان فى دور الرضاع فى الوقت الذى أخذ فيه نفوذ المهدى يبلغ غايته ، فترنى هذا الطفل فى قصور المهدية ، ينعم بما ينعم به صغار الأمراء

وكانت تبدو على معد أمارات النجابة منذ نعومة أظفاره ، حتى لقد اختبر المهدى ذكاءه وأعجب به . وتنبأ بأنه سيكون له شأن كبير يخبرنا المعز بذلك فيقول : « إنى لأذكر يوما حملت فيه إليه (أى إلى المهدى) ، وأنا يومئذ فطيم أعقل الكلام[٢] »

(١) النعمان المغربى المجالس والمسايرات جـ ٢ ص ٦٢١ .

(٢) ولد المعز فى رمضان سنة ٣١٩ هـ ، ومات المهدى فى منتصف ربيع الأول سنة ٣٢٢ هـ ومعنى ذلك أن المعز عاش فى حياة المهدى سنتين ونصف سنة فقط . وإذن هل كان المعز فى هذه السن المبكرة بحيث يستطيع أن يعى ما دار بينه وبين المهدى من حديث ؟ وإذا صح ما ذكره المعز فانه يدل على ذكاء خارق ، استطاع به أن يعى هذا الحديث بعد وقت طويل

وأحفظ ما يكون فتناولني وقبلني ، وأدخلني تحت ثوبه وكشف عن بطني وألصقها ببطنه . ثم أخرجني وبارك علي ، وسألني عن حالي وأجلسني في حجره ودعا لي بمأكل ؛ فأتيت بطبق من فضة مذهب فيه موز وتفاح خريفي وعنب فوضع بين يدي ، فلم أتناول منه شيئا فأخذه بيده ، وناولنيه ، فأخذته بيدي ، فقال : امض به فكل منه أنت ما فيه ، وأعط الطبق فلانة ، وذكر بعض البنات وهي يومئذ في مثل سني ، فقلت له : لا ! بل آخذ أنا الطبق وأعطيها مافيه . فضحك (المهدي) وتعجب من انتباهي لذلك ودعا لي بخير . . . وقال سيكون له شأن (١) »

وهكذا عاش المعز في المهدية والمنصورية حاضرتي الفاطميين بإفريقية ، وتمتع برؤية الأئمة الخلفاء الثلاثة ، حتى كان المهدي يجتمع به وبجده القائم وأبيه المنصور ، ويقول « ما على ظهر الأرض مجلس أشرف من هـــذا المجلس اجتمع فيه أربعة أئمة » .

وقد سن المهدي سنة جديدة في تربية أولياء العهد والأمراء ، تتلخص في أن يتعهد الجد ، لا الأب ، ولي العهد ، الذي سيصبح « ولي الزمان » وخليفة في الوقت نفسه ولذلك كان المهدي يهتم بتربية المنصور أكثر من اهتمام أبيه القائم به . كما كان القائم يهتم بتربية المعز اهتماما بالغا ، يفوق اهتمام المنصور به ، حتى لقد قال المعز نفسه عن أبيه المنصور والخليفة المهدي « ما علمت أحدا ممن يقرب من المهدي كان يحل محل المنصور... وإن المهدي (صلع) كان يغذيه بالحكمة ، ويرشحه للإمامة(٢) » .

ويبدو أن الخلفاء الفاطميين كانوا يعدون أولياء العهود إعدادا مذهبيا دينيا ، فيحتمون عليهم البحث في كتب الباطن ، ويشجعونهم على الإمعان في فهمها . وكان الجد يتولى هذه المهمة بنفسه ، ويتعهد ولي العهد . وبهذا كان المهدي يعلم أن القائم سيخلفه ، وأن المنصور سيخلف القائم ، وكذلك كان الخليفة القائم يعلم أن المنصور سيخلفه في العرش والإمامة ، وأن حفيده المعز سيخلف المنصور

ويمتاز الدور الفاطمي المغربي بإباحة اطلاع الأمراء ، مثل المعز وسواه ،

---

(١) النعمان : المجالس والمسايرات ج ٢ ص ٦١٦ — ٦١٧

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٥٣٩ — ٥٤٠

على أسرار المذهب الإسماعيلى ، وإلمامهم بها إلماما يجعلهم صالحين لزعامة تلك الجماعة ، من الناحية الروحية والإدارية معا ، حتى إننا نرى المهدى يهتم اهتماما بالغا بتعليم المنصور وتهذيبه ، ولا يفارقه إلا فى القليل النادر : « فكان يغذيه بالحكمة ، ويرشحه للإمامة » ، ويعطيه الكتب المذهبية ليدرسها ، حتى يكون على علم تام بالمذهب ومبادئه . وكانت هذه الكتب تسمى كتب الباطن ، أو كتب الطب الحقيق .

انظر إلى المهدى يقول للمنصور ، وقد أعطاه كتابا من كتب الباطن : « يا بنىّ ! ذلك هو الطب الحقيق ، وهو طب الأرواح فى الدار الآخرة ، به يعالج من ألمها ، ويداوى من سقمها انظر فيه ، واعرف معانيه ، واحفظ أصوله ، فإن فيه أصولا من العلم الشريف فإذا أنت حفظت ذلك ، وأتقنت معرفته ، فاصرفه لأعطيك غيره [1] » وكذلك نرى الخليفة القائم يقصر جهوده على تنشئة حفيده المعز الذى كان موضع حبه وإعجابه ومات القائم فى سنة ٣٣٤ هـ ، وقد أخذ المعز منه كثيرا ، فى الناحيتين السياسية والروحية .

وقد نسأل عن السبب الذى حدا الخلفاء الفاطميين على الاهتمام بالأحفاد أكثر من الأبناء ، فيحدب المهدى على المنصور ، ويحنو القائم على المعز . والواقع أن هذا النوع من تعليم الأئمة وإرشادهم أحفادهم ليدل على مهارة سياسية ؛ فإن الآباء كثيرا ما كانوا ينجبون أبناء من أمهات متعددة . ولو أظهر الأب عطفه على واحد منهم ، وآثره على من سواه ، أغضبهم من ناحية ، وأثار حفائظ أمهاتهم من ناحية أخرى ؛ وهذا يؤدى إلى قيام المنافسة بينهم .

فها هو ذا القائم يلقى على حفيده المعز درسا نافعا فى طاعة الآباء والحدب على الإخوة ، ويوضح له سبب محبته له ، وإيثاره إياه ، فيقول: «اسمع ما أقول لك. إن أخوف ما أتخوفه عليك ، من أبيك . . . ما أعلمه من ميله إلى أمهات إخوتك ، فأخشى خشية المشفق عليك ، أن يعدل بهذا الأمر عنك إلى غيرك منهم وكلاّ ! لا يفعل الله ذلك ، إن شاء الله ولكن متى رأيت منه أثرة عليك أو ميلا عنك ، فاصبر صبر من أحله الله محلك وأقامه مقامك ، فأنت صاحبها ولولا صغر

---

(١) النعمان المجالس والمسايرات جـ ٢ ص ٥٤٢

سنك (١) اليوم ماعدتك (٢) وعن قريب تصير إليك ، فأوصيك بتقوى الله ، واحتمال ماحملت ، والصبر على مضض مايؤتى إليك . وإخوتك إخوتك ، فأحكم معاملتهم فى يومك وغدك(٣)»... (وقال) : الإخوة الإخوة ، (يتهول أمرهم لما كان ناله المعز صلى الله عليه وسلم ، فى سياسة أمرهم). ومن هنا نرى أن الخلفاء الفاطميين فى الدور المغربى ، كانوا يعملون على تهيئة الأمراء من الأبناء والأحفاد ، وإعدادهم للحكم والسياسة ، واستطاعوا بذلك أن يعدوا للدولة نفرا من خيرة الخلفاء ، كالمعز لدين الله .

ولم يقف الأمر عند ذلك الحد ، فقد كان الخليفة القائم يأنس إلى المعز ، ويتخذه واسطة بينه وبين الرعية ، ليزوده بالخبرة التى تجعل منه حاكما ممتازا وسياسيا بارعا ، وليكفل بذلك ولاء أشياع مذهبه ، ورجال بلاطه وولاته وغيرهم من ذوى المناصب العالية فى دولته . ويقول صاحب كتاب المجالس والمسايرات : «كان المعز لدين الله ﷺ ، يحل من القائم والأئمة من ذريته الطاهرين ، محلا خصيصا منذ نشأته ، وكان يقربه ويدنيه ، ويسر إليه دون أبيه . وكان رسوله وسفيره إلى الناس فيما يأمر به ، وينهى عنه ، ويحتاج إليه . فإذا خلا كان بين يديه ، ومتى غاب عنه أرسل إليه » (٤).

وهكذا نال المعز ، قبل أن يلى الخلافة قسطا غير قليل من التعليم ؛ وكان من أثر اتصاله بجده القائم وغيره من رجال الدعوة أن تعمق فى دراسة أصول المذهب الإسماعيلى ، وألم بكثير من كتب الباطن . ولما كان المعز على شىء كبير من الذكاء ، عمل على تعلم كثير من اللغات ؛ فتعلم اللغة الإيطالية القديمة (اللاتينية) ، لقرب بلاده من إيطاليا . ولا غرو ، فقد أخذت جيوش الفاطميين فى صقلية تغزو إيطاليا الجنوبية ، وخصوصا قلورية (كالابريا) ، وإيطاليا الشمالية ، وتستولى على جنوة نفسها . وكأن المعز كان يطمع فى الاستيلاء على إيطاليا ، فتعلم لغتها

---

(١) كان عمر المعز حين وفاة القائم ، أى حين أوصاه هذه الوصية ، لا يزيد على خمس عشر سنة لأنه مات فى سنة ٣٦٥ ﻫ ، وله من العمر ست وأربعون سنة .

(٢) أى ما جاوزتك

(٣) النعمان : المجالس والمسايرات ج ٢ ص ٤٦٧ — ٤٦٨

(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ٥٣٨ — ٥٣٩

ومهما يكن من شيء، فقد استطاع المعز أن يتعلم هذه اللغة فى صباه حين كان فى جزيرة صقلية، مما يدل على أنه لم يكن من الأمراء الخاملين، بل كان كثير الترحال والاختلاط بالناس. كما تعلم اللغة الصقلبية التى كانت سائدة فى هذه الجزيرة. وإذا علمنا أنه كان من جند المعز الذين غزوا مصر فرقة كبيرة تسمى فرقة الصقالبة، وأن أساتيذ المعز فى طفولته كانوا من هؤلاء الصقالبة، أدركنا لماذا تعلم هذه اللغة. وعلى هذا النحو تعلم المعز اللغة السودانية، لأن السودانيين كانوا يكونون جزءا كبيرا من جيشه، ولأنه قدعول على فتح مصر وضم السودان إليها كذلك تعلم المعز لغة البربر، لأنه يقيم بين أظهرهم. وقد رأى أن يتعلم لغتهم ليتقى شرهم. وهكذا أتقن المعز اللغة العربية إتقانا نراه فى تلك الملاحق التى نقلناها عن النعمان. ثم «أخذ - كما يقول المقريزى [1] - نفسه بحفظ اللغات الأخرى، فابتدأ بالبربرية فأحكمها، ثم بالرومية، ثم بالسودانية، ثم بالصقلبية».

ويظهر أن ذكاء المعز وهو أمير، قد اشتهر لدى الخاص والعام، وأنه عرف فى جميع مراحل حياته بحل المعضلات، والتغلب على كل ما يشكل على سواه من الأمراء والعلماء، يدل على ذلك ما ذكره أبو حنيفة النعمان من أن المنصور خرج ذات يوم، ومعه المعز وكثير من حاشيته، وخرج النعمان معهم كذلك، وقد عرضت على المنصور شكاية من رجلين من أصحاب الضياع، ليفض النزاع بينهما، فأشكل الأمر على الخليفة وعلى النعمان نفسه، وعلى كل من كان معهم، حتى لقد قال النعمان لزميل له: «لقد اشتبه علىّ أمرهما، وحسبك ما ترى من توقف أمير المؤمنين (صلع)، والمنصور، من الفصل بينهما»، ثم جعل يدلى لزميله بما يدل على كفاية المعز فيقول: إن المتخاصمين «لو وقفا بين يدى الأمير - أعنى المعز لدين الله (صلع) - لفصل بينهما . والله ما ضاق علىّ أمر قد رأيته، ولا اشتبه عندى وجه الحق فيه، فرفعته إليه، إلا أجابنى عنه قبل استيفائه آخره، أو عند ما يستوفيه، بجواب ما خطر ببالى، بعد الروية له، والفكر فيه الأيام الكثيرة، والليالى العديدة، مما

(١) اتعاظ الحنفا ص ٦٥. ويخبرنا المقريزى أيضا أن المظفر الصقلبى، معلم المعز لدين الله، كان مدلا عليه، لأنه أستاذه ومعلمه، وأنه ثار ذات يوم فى وجه المعز، فنطق بكلمة صقلبية وعاها المعز فى ذهنه. ولما تعلم اللغة الصقلبية ، ومرت به تلك الكلمة، فاذا هى شتيمة، فبقيت فى نفسه،،، حتى قتل المظفر الصقلبى هذا هو ورفيقا صقلبيا آخر (اتعاظ الحنفا ص ٦٥)

لا أشك فيه أنه الحق الذى لا وجه له غيره ، (١) ولما أدرك الخليفة المنصور عجزه عن الحكم بين المتخاصمين ، أحال الأمر على الأمير المعز ، ففصل بينهما سريعا، فصلا يدل على ذكائه .

ولم يكن المعز فى حياة أبيه بعيدا عن الإدارة والحكم ، بل كان أبوه يستشيره فى أمور الدولة ، كما كان الموظفون يرجعون إليه فى دقائق أعمالهم. وكان يختلط بهم، ويقف على أخطائهم ، ويراقبهم عن كثب . وكان أهم ما يعنى به المعز فى حياة أبيه المنصور ، الإشراف على هيئة القضاء فى بلاده ، فيولى النعمان قاضى قضاة المنصور شيئا غير قليل من الاحترام . ومما يدل على اهتمام هذا الأمير بالقضاء ، حثه النعمان وجميع القضاة على عدم الأخذ بشهادة الكاذب ، وذم القضاة الذين يخالفون ذلك(٢) كما كان القضاة يستشيرونه فى كثير من الأمور ، حتى إن النعمان كثيرا ما كان يلجأ إليه حين تلتبس الأمور عليه

ولما كانت السقيفة التى اتخذها المنصور للنظر فى القضايا تضيق بالمتقاضين ، أشار المعز على أبيه ببناء مكان فسيح يتسع لهؤلاء المتقاضين . وهكذا عمل المنصور على تنشئة المعز تنشئة قوامها المرانة والدربة والخبرة ، وتزويده بالوسائل التى تجعل منه أميرا مستنيرا وخليفة قادرا على تصريف شئون دولته

وتدل هذه الوصية التى أوصى بها المنصور ابنه المعز على عظيم ثقته به ، وتقديره مواهبه ويقول المعز « لما احتضر المنصور بالله ﷺ جعل يوصينى بما أعمل عليه بعده ... وأوصى إلى رجل من عبيده كان قائما بين يديه ، ثم نظر إليه وقد دمع ، فقال : والله لتعاينن من مولاك هذا ، ومن جميع أفعاله وسيرته ، وما يجريه الله عز وجل من الخير على يديه ، ويصنعه من الجميل له ، ويؤيده به ، ويمكنه له ، ويفتحه عليه ، ما لم تر ، ولا سمعت قط مثله فقال الرجل : يامولاى ! وأى شىء بقى له من ذلك لم تفعله أنت ؟ قال : كثير والله جدا ، هو فى القوة لم يظهر بعد إلى الفعل ، يظهره الله له ، ويجريه على يديه » (٣)

(١) النعمان المجالس والمسايرات ج ٢ ص ٣١ — ٣٢ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١٦ — ١٧

(٣) النعمان : المجالس والمسايرات ج ١ ص ٩٠ — ٩١ .

وترجع ثقة المنصور بابنه الأمير معد إلى أمرين أولهما ، توقد ذكاء المعز وحسن تدبيره ، وثانيهما ، مبادىء العقيدة الإسماعيلية التى تنص على أن الإمام اللاحق يفوق الإمام السابق علما ودراية وتجربة . وفى ذلك يقول المنصور « إنه لا يأتى إمام إلا أعطاه الله فضل الإمام الذى مضى قبله وعلمه وحكمته ، وزاده مثل ستة أسباع ذلك » (١)

وإذا علمنا أن المعز لدين الله أفاد كثيرا من اتصاله بجده القائم ، وانتفع بعلوم أبيه وحكمته ، أدركنا أنه كان أحق الفاطميين بزعامة العالم الإسماعيلى بعد المنصور ، حتى إن جده القائم عرف ذلك فيه وقال له « لولا صغر سنك ، لجعلت هذا الأمر إليك ، ولكن أنت أبو تميم حقا كما كنيت » (٢) ، أى أن التئام أمور الدولة واتساعها سيتم على يديه وهكذا رشح المنصور ابنه المعز للإمامة والخلافة معا ، لا لأنه كان أحب الناس إليه ، بل لأنه كان أقدر أبنائه على النهوض بأعباء الخلافة والدعوة .

٣ — تولية المعز العهد والخلافة :

إن نظام ولاية العهد عند الفاطميين ليؤلف فصلا رائعا فى تاريخ الخلافة الفاطمية فى الدور المغربى فإن انتقال الإمامة من الخليفة المهدى إلى الخليفة القائم ، كان معناه رد الوديعة إلى صاحبها الشرعى . فقد أدى المهدى إلى القائم « أمانته ، وسلم إليه رتبته ، وأعطاه وديعته التى استودعها الله إياه له ، لم يجعل لسائر أولاده فيها نصيبا ، بل أقر الحق فى مقره ، وجعله فى مستقره » (٣) ومن ثم لم يكن بد من أن يضع أئمة الاستقرار الذين يبدءون بالخليفة القائم نظاما لانتقال الإمامة والخلافة معا من شخص إلى آخر.

( ) النعمان جـ ١ ص ٧٥

(٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٤٦٧ — ٤٦٨

(٣) الداعى إدريس زهر المعانى (من المنتخب) ص ٧٠ .

وقد سن القائم فى نظام ولاية العهد سنة طيبة سار عليها خلفاؤه من بعده ؛ ففرض على كل من الخلفاء الفاطميين أن يعين من يخلفه قبل أن يدفن سلفه بيده ، وأن يشهد على هذا التعيين أخلص الناس إليه . ويقول الداعى إدريس إن الخليفة القائم الفاطمى أشهد « جوذرا » أحد المخلصين من أنصار الفاطميين على ذلك وقال له : « ياجوذر ! إنه لايحل أن يدفن الإمام الإمام الذى قبله ، حتى يقيم حجة لنفسه ، وليس يحل ذلك لى حتى أقيم حجتى . وقد ارتضيتك لهذه الإمانة دون جميع الخلق ، وتلا عليه قوله سبحانه ؛ « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها (١) » إلى آخر الآية ثم قال ادن منى ! فلما دنا منه قال هات يدك ! فبسط يده وهو مرعوب لهيبته ، وقال إنا أخذنا عليك عهد الله وغليظ ميثاقه ، أنك تكتم عنى ما أظهره وأكشفه لك قال نعم يامولاى صلى الله عليك ! فقال له : ولدى إسماعيل المنصور هو حجتى وولى عهدى ، فاعرف حقه وقدره ، واكتم أمره وسره ، حتى أظهره فى الوقت الذى يريد الله فيه ظهوره (٢) » .

ومن الغريب أن المنصور لم يعرف أنه ولى العهد ، إلا قبل وفاة القائم بثلاثة أيام (سنة ٣٣٤ ﻫ) ، مع أنه قد نص على توليته العهد منذ اثنتى عشرة سنة ، أى فى سنة ٣٢٢ ﻫ (٣) لذلك لما دنت منية القائم أظهر « جوذر » عهد المنصور لجميع الإسماعيلية ، فدانوا له بالطاعة . ولابد أن يكون الخليفة المنصور قد فعل يوم وفاة أبيه القائم مع ابنه المعز ما فعله أبوه معه ، أى أنه ولى المعز عهده ، وأخفى أمره على الناس ، إلا بعض خواصه المقربين إليه وكان المعز فوق ذلك يعرف أنه ولى العهد ، منذ أخبره القائم قبيل وفاته بأن الأمر سيئول اليه بعد أبيه ؛ مما يجعلنا نعتقد أن تولية المعز العهد بعد المنصور ، كان أمرا مقررا بين القائم والمنصور نفسه ؛ وإن فى تلك العبارة التى ذكرها القائم للمعز ما يؤيد هذا حين قال له « فأخشى خشية المشفق عليك أن يعدل (المنصور) بهذا الأمر إلى غيرك منهم (أى من

---

(١) سورة الأحزاب آية ٧٢

(٢) الداعى إدريس : زهر المعانى (من المنتخب) ص ٧٢

(٣) النعمان المجالس والمسايرات ج ٢ ص ٤٦٨

إخوة المعز) . وكلا لا يفعل ذلك إن شاء الله ». وهكذا نستطيع أن نقول ، إن المعز تولى العهد وله من العمر اثنتان وعشرون سنة .

وإن تعيين الإمام بالنص أمر مسلم به عند الإسماعيلية ، حتى إن المنصور قال للمعز حين عهد إليه « والله ما أنا آثرتك بما آثرتك به ، بل الله آثرك واختصك وأعطاك واجتباك . والله لو ملكت من الدنيا درهما فما فوقه من غير هذا الوجه ، لما استجزت أن أخص به أحدا من ولدى دون أحد . فأما ما خولنى الله من الكرامة ، واصطفانى به من الإمامة ، فإنما هو متاع عندى ، وعارية فى يدى ، إلى انقضاء المدة وتمام العدة ثم هو لك بحكم الله وأمره وإعطائه ، لا عن أمرى وحكمى واختيارى واختصاصى إياك به (١)» وكان يتحتم على الخليفة أن يستغل تجاربه فى تثقيف ولى عهده ؛ فنرى المنصور يوصى المعز بقوله : « إنى أجمع لك الوصايا كلها فى كلمة واحدة : فانظر فما كنتَ رأيتنى أفعله فافعله . وما كنت رأيتنى تركته فاتركه ، واصنع بعد وفاتى ما كنت رأيتنى أصنع في حياتى فنعم السلف أنا لك (٢)» .

وأما تولية المعز الخلافة الفاطمية ، فإنه اعتلى العرش فى اليوم الذى توفى فيه أبوه المنصور أبو الطاهر إسماعيل وذلك فى سلخ شوال سنة ٣٤١ ﻫ ؛ فأخفى موت أبيه إلى أوائل شهر ذى الحجة من السنة نفسها ، حتى لا تتعرض بلاده للثورة وإذا كان القائم قد أخفى موت المهدى سنة كاملة وأخفى المنصور موت القائم سنتين ، فإن المعز لم يفعل ذلك لأن أمور الدولة كانت حين ولى الخلافة أكثر استقرارا ، وأدعى للطمأنينة ، مما فى عهد أبيه وجده

ولم تكن إدارة البلاد ، وتسيير شئون الدولة أمرا جديدا على المعز ؛ فقد مرن عليها ، وتدرب على تصريف شئونها منذ أيام القائم ولم يشعر رجال الدعوة وأساتذتها ودعاتها ومستجيبوها بأن المعز شخص غريب عنهم فقد كان خير معين وملاذ للدعوة فى عهد الخليفة المنصور ، كما أمنت الرعية جانبه ، لأنهم

(١) النعمان المجالس والمسايرات ج ١ ص ١٥٢ — ١٥٣

(٢) المصدر نفسه ج ص ٩٦ — ٩٧ .

ألفوا كياسته وحسن تدبيره . ولم يكن الجند أقل ميلا إلى المعز من الرعية ؛ فطالما أنسوا إليه ، واستعانوا به ، ولذلك أصبحوا بعد توليته الخلافة أسلس قيادا ، وأكثر طاعة وعلى أيديهم تمت الانتصارات الرائعة فى الشرق والغرب وفى البر والبحر .

ولما ولى المعز الخلافة ، حرص على أن يتقرب إلى الرعية ، وإلى الكتاميين خاصة ، وكان يقف منهم موقف الأستاذ من تلميذه والأب من أبنائه وكثيرا ما كان يجتمع بكبار شعبه ، ويزودهم بنصائحه ، ويضرب لهم المثل الأعلى ، ويبين لهم أنه يتعب ويشق فى سبيل هناءتهم وسعادتهم ويطلب إليهم مساعدته على النهوض بالدولة والدعوة . انظر إليه وهو يعظ «جماعة من مشايخ كتامة ووجوههم» ، فيقول «إنى أنزلت كباركم منى منازل الإخوة ، وصغاركم منازل الأولاد ؛ وأنتم فى خير زمان ؛ فاعرفوا قدر النعم عليكم وقيسوا أنفسكم اليوم بمن مضى منكم بالأمس ، من قوم أنتم بعض حسناتهم . . . وأنتم اليوم معنا فى خير زمان مع خير إمام ؛ برّ بكم ، عطوف محسن إليكم ، يقيلكم العثرة ، ويغفر لكم الزلة ، ويحسن إلى محسنكم ، ويتغمد[(١)] عن مسيئكم [(٢)]» .

ولم يقف المعز عند ذلك الحد ، بل جعل يرسم لرعاياه ما يجب عليهم أن يسلكوه فى حياتهم ، ويبين لهم الصفات التى يجب أن يتحلوا بها حتى يكون مجتمعه وحدة لا تفكك فيها يتضح ذلك من وصيته التى أوصى بها شعبه المغربى والكتاميين منهم خاصة حين يقول لهم «أريد منكم ثلاثا ، وأكره لكم ثلاثا أريد منكم الصدق ، وأكره لكم الكذب ؛ وأريد منكم العفاف ، وأكره لكم الخيانة ، وأريد منكم التواضع ، وأكره لكم الكبر . وهذا أخوف ما أتخوفه عليكم [(٣)]» .

ولم تكن الرعية أقل حبا للمعز ودولته فقد شعر المغاربة وعلى رأسهم الكتاميون ، أن الدولة الفاطمية هى التى سمت بهم إلى الرفعة ، ووحدت بلاد المغرب ، وأنه لولا تلك الدولة لظلوا خاملين . ومن ثم لهجوا بالثناء على الفاطميين . وكثيرا

---

(١) يتغمد يتستر وهو متعد وقد يضمن معنى يصفح ، فيعدى بعن

(٢) النعمان المجالس والمسايرات ج ١ ص ٩٦ — ٩٧

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٨٧

ما تغنى زعماؤهم بفضل المعز ، وقالوا له « يا أمير المؤمنين ! نحن عبيدكم ، وما فعلته فينا من جميل فالله يجزيك به ولو شكرناك باقى أعمارنا لم نبلغ أقل إحسانك إلينا وفضلك علينا » . وقد حقق المغاربة جميع آمال المعز ، فأداروا دفة الحكومة بطريقة تثير الإعجاب ، وحاربوا فى شجاعة نادرة المثال وهكذا نال المعز إعجاب رعاياه ، حتى إنه «لم يبق منهم أحد إلا أتاه وأحسن إليهم [(١)] » .

كان على المعز إذن ، بعد أن وطد علاقته مع رعيته أن يستغل ذلك لمصلحة دولته ودعوته ، وأن يكرس جهوده وجهود رعيته لرقى بلاده ، فاستطاع أن يكون جيشا قويا ، وأن يصطنع قوادا أقوياء ، تركوا لهم تراثا مجيدا يشيد به الأبناء والأحفاد فظهر فى عهده جوهر الصقلى، الذى تم على يديه توحيد جميع بلاد المغرب تحت راية الفاطميين (فى ٣٤٧ ﻫ) كما تم على يديه فتح مصر، وظهر فى عهده زيرى بن مناد الصنهاجى وأبناؤه ، وخاصة بلكين الذى خلف المعز على بلاد المغرب والحسن بن على الكلبى صاحب صقلية ، ومؤسس الأسرة الكلبية فى هذه الجزيرة وغير هؤلاء كثير.

وكان على المعز فوق ذلك أن يصلح ما أفسده أبو يزيد مخلد بن كيداد فإن المنصور لم يستطع أن يقضى على آثار تلك الثورة الجامحة ، ولم يأخذ المغاربة الذين كانوا يمالئون ابن كيداد بالشدة ، بل لاينهم واستمالهم[(٢)]. ولما أدرك المعز أنه أرضى رعيته ، ونظم جيوشه ، عمل على توحيد جميع بلاد المغرب تحت رايته واستطاع فى سنة ٣٤٧ ﻫ أن يقضى على خطر الأمراء المستقلين فى بلاد المغرب ، كأميرى فاس وسجلماسة ، وأن يفل شوكة بنى عمه الأدارسة ، ويقضى قضاء يكاد يكون تاما على نفوذ الأمويين فى بلاد المغرب بالفتك عن اتهم بمالأتهم والتقرب إليهم ولم يكتف بتوحيد جميع بلاد المغرب (الأقصى والأوسط والأدنى) تحت رايته ، بل عمل على إثارة مخاوف الأمويين والإغارة عليهم فى عقر دارهم ، وانتصر على أسطولهم وخرب موانيهم ، كما حارب الروم الذين تحالفوا مع الأمويين ، ورغبوا فى الوقت نفسه فى الانضمام إلى الثوار فى صقلية ، والوقوف فى وجه الفاطميين ، واستطاع أن يغزو جنوب إيطاليا (قلورية) ، وعنى عناية تامة بالنهوض بالدعوة الفاطمية .

(١) ابن الأثير الكامل ج ٨ ص ٨٠
(٢) المصدر نفسه ج ٨ ص ١٧٩ — ١٨٠

الباب الثاني

المعز لدين الله الفاطمي

١ — علاقة المعز بالأدارسة وزعماء المغرب

ولى المعز لدين الله الخلافة الفاطمية ، بعد أن أذكى أبو يزيد مخلد بن كيداد (١) تلك الثورة ، التي كادت تعصف بهذه البلاد ، وتركت شمالى إفريقية فى حالة يرثى لها، وأثرت فى موارد الدولة الفاطمية ، حتى أصبح بيت المال خلوا من الصفراء والبيضاء، وقضى الخليفة الفاطمى المنصور البقية الباقية من خلافته ، فى إصلاح ما أفسده

(١) نشأ أبو يزيد فى مدينة توزر أكبر مدن بلاد الجريد ، وهو من زناتة ، ينتمى إلى "الكاهنة" التى وقفت حجر عثرة أمام المسلمين الأوائل حينا من الزمن ، واعتنق منذ صغره مذهب الخوارج الغلاة الذى يقضى بتكفير أهل الدين واستباحة أموالهم والخروج على ملوكهم ، حيث لا طاعة لهم إلا لله وانتقل أبو يزيد إلى تاهرت ، حاضرة المغرب الأوسط ، وأخذ يعلم الصبية فيها ، ثم فر إلى "نفوس" حين خرج أبو عبد الله الشيعى قاصدا سلجماسة لتخليص المهدى ، واتخذ من تعليم الصبية وسيلة لنشر مذهبه. واستقامت له الأمور منذ أواخر عهد المهدى ، وزاد خطره بعد وفاته ، وساعدت قبائل نفوس والزاب والمغرب الأقصى ، واستولى على مدن كثيرة ، وأصبح خطرا يهدد كيان الفاطميين باستيلائه على مدينة الأدريس ، مفتاح المهدية ، وأغار على المهدية نفسها ، وبلغ أوج عظمته فى سنة ٣٣٣ هـ . وكان يركب حمارا ، فسمى صاحب الحمار ، وتسمى أيضا شيخ المؤمنين

وقد استعان القائم بقائده زيرى بن مناد زعيم قبيلة صنهاجة ، واتخذ مدينة "المحمدية" مركزا يوجه منه ضرباته إلى جيوش أبى يزيد ، الذى لم يلبث أن تركه كثير من أنصاره ، ولم يبق معه سوى قبيلى هوارة ، وبنى كملان . واضطر إلى الارتداد عن المهدية إلى القيروان ، غير أن أهلها امتنعوا عليه فاضطر إلى التقهقر مع من بقى معه . فهلك كثير منهم . ولما ولى المنصور للخلافة بعد القائم ، قوى مركزه كثيرا بانضمام صنهاجة إلى الفاطميين ، وتمكن من هزيمة أبى يزيد ، وطارده فى الصحراء ، ثم قبض عليه وساقه إلى المهدية ، فمات بها متأثرا بجراحه ، وذلك فى سنة ٣٣٦ هـ .

أبو يزيد ، وإعادة تنظيم بلاده » (١)

والحق أن هذه الثورة كادت تقضى على نشاط الفاطميين السياسى والحربى معا ، فشلت أيديهم ، وحالت دون تحقيق تدبيرهم لفتح مصر ، فلم يحاول القائم (٣٣٤ ﻫ) أو المنصور (٣٤١ ﻫ) أن يجدد ما بدأه عبيد الله من تركيز جهود الدولة لفتح هذه البلاد والاتجاه نحو الشرق ، كما أتاحت هذه الثورة الفرصة لأهالى الأقاليم المغربية النائية لشق عصا الطاعة ، والوقوف فى وجه الفاطميين

على أن عبيد الله المهدى استطاع أن يقضى على أدارسة فاس ، باستعانته بحليفه موسى بن أبى العافية ، وقائده المشهور مصالة بن حبوس . وبفضل هذين الرجلين زالت دولة الأدارسة ، أو كادت ، من فاس . إلا أن زوال هذه الدولة الشيعية قد ترتب عليه أمران ، كلاهما خطر على الفاطميين ؛ أولهما تكتل الأدارسة وأنصارهم فى بلاد الريف ، مما جعلهم يعدلون عن سياسة التقرب إلى الفاطميين ، ويرتمون فى أحضان أعدائهم الأمويين فى الأندلس ؛ وثانيهما : استبداد موسى بن أبى العافية وأبنائه ببلاد المغرب الأقصى ، وإعلانهم استقلالهم عن الدولة الفاطمية ، بل إنهم أعلنوا انضمامهم إلى الأمويين أعدائهم الأساسيين فى الأندلس . ومن ثم تحتم على خلفاء عبيد الله ، وبخاصة القائم والمعز ، العمل على ازدياد نفوذهم فى المغرب الأقصى وبلاد الريف ، للقضاء على نفوذ الأدارسة وبيت ابن أبى العافية من ناحية ، وعلى نفوذ الأمويين من ناحية أخرى

استقام الأمر لموسى بن أبى العافية ، على ما يقوله السلاوى (٢) ، فى المغربين الأقصى والأوسط ، منذ زال نفوذ الأدارسة من فاس فى عهد عبيد الله المهدى ومن ثم خلع طاعة الفاطميين . ودخل فى طاعة عبد الرحمن الناصر ، الخليفة الأموى فى الأندلس (٣٠٠ - ٣٥٠ ﻫ) ، خصوصا بعد أن أخذت مطامع الأمويين تتجه إلى هذه البلاد ، فاستولوا على مدينة سبتة فى سنة ٣١٩ ﻫ ، وخطب موسى لهم على منابر بلاده دون الفاطميين وساعده على ذلك موت القائد الفاطمى المشهور

(١) حسن إبراهيم حسن الفاطميون فى مصر ص ٨٦ — ٨٧

(٢) الاستقصا ، لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٨١

مصالة بن حبوس ، وانتصاره على الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس الملقب بالحجام ، الذى يعتبر آخر أدارسة فاس (سنة ٣١٣ هـ) ، فصفا له ملك بلاد المغرب ، وعلى أدارسة الريف فى سنتى ٣١٨ ، ٣١٩ هـ ، وما بعدهما ولم ير الفاطميون بدا من أن يحتفظوا بهيبتهم فى تلك البلاد النائية ، وأن يقبضوا على أنصار الأمويين فيها ولذلك أرسل عبيد الله جيشا بقيادة حميد بن يصال ، صاحب تاهرت من قبل الفاطميين ، وابن أخى قائدهم المشهور « مصالة بن حبوس » ، واستطاع حميد أن يحل الهزيمة بموسى بن أبى العافية، الذى فر من مدينة فاس . ومن العوامل التى ساعدت على انتصار الفاطميين ، أن الأدارسة انتهزوا فرصة هجوم حميد ابن يصال (٣١٧ هـ) على مدين بن موسى بن أبى العافية ، ولما سمع ولد موسى بقدوم حميد هربت جنوده من فاس ، وتظاهر بنو إديس على قائد موسى ابن أبى العافية ، فهزموه وغنموا أكثر عسكره » (١).

وقد قلد القائد الفاطمى « حامد بن حمدان » ولاية إقليم فاس، وعاد هو إلى تاهرت . بيد أن هذا الوالى تعرض لهجمات منافسى الفاطميين ، فقتله أحمد بن أبى بكر بن سهل الجذامى ، واستولى على فاس ، وأرسل رأسه ورأس ابنه إلى موسى ابن أبى العافية ، «فبعث موسى إلى قرطبة إلى عبد الرحمن الناصر، وخطب للأمويين فى بلاد المغرب من جديد » (٢) وقد حدث ذلك كله بعد وفاة عبيد الله المهدى ؛ مما يدل على مدى الاضطراب الذى ساد الدولة الفاطمية فى ذلك الوقت .

على أن الخليفة الفاطمى القائم لم يكن أقل اهتماما بشأن المغرب من سلفه عبيد الله ؛ فقد أرسل فى سنة ٣٢٢ هـ — ٣٢٣ هـ قائده المشهور ميسورا الفتى (٣) ، الذى استولى على فاس من مغتصبها أحمد بن أبى بكر الجذامى ، وساقه أسيرا إلى المهدية، وأثار الخلاف بين ابن أبى العافية والأدارسة، الذين أصبحوا عونا للفاطميين. ويرى ابن عذارى أن ميسورا لم يستطع الاستيلاء على فاس ، وأن أهلها قاوموه

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٢٢٢

(٢) السلاوى الاستقصا ، لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٨٢

(٣) ويسمى ميسورا الخصى أيضا

سبعة أشهر دون جدوى (١) وبذلك خضع الأدارسة للفاطميين ، على ماسنرى ، بعد أن خضعوا للأمويين من قبل .

وابن خلدون (٢) يرى أن ميسورا الفتى فتح مدينة فاس ، وولى عليها الحسن ابن القاسم اللواتى ، وأن الفاطميين استردوا نفوذهم فى هذه البلاد ، فخطب للقائم على المنابر ، وضربت السكة باسمه هنالك ، واستمر الحسن بن القاسم اللواتى على حكم هذه البلاد نحو اثنتى عشرة سنة ، إلى أن خلعه أحمد بن أبى بكر ، بعد أن أطلق سراحه من المهدية فى سنة ٣٣٥ هـ .

والواقع أن خطر بيت ابن أبى العافية ظل جاثما على صدر الفاطميين ؛ فقد استطاع موسى أن يعتصم بأحد الحصون ، ويناوئ الفاطميين وأنصارهم . وينادى فى الوقت نفسه بزعامة الأمويين . ولم يزل خطر آل أبى العافية عن المغرب الأقصى إلا فى أخريات عهد المعز لدين الله ، حيث انقرضت دولتهم فى سنة ٣٦٣ هـ. واستمر نفوذهم فى أطراف المغرب ، حتى قضى عليه يوسف بن تاشفين (٣) . وبذلك نرى أن هذه الأسرة قد أتعبت المعز لدين الله ، وأن جوهرا الصقلى لقى عناء كبيرا فى حملته الكبرى على بلاد المغرب سنه ٣٤٧ هـ .

أما موقف الفاطميين من الأدارسة ، فقد رأينا كيف ساهم موسى بن أبى العافية مع الفاطميين فى القضاء على أدارسة فاس ، منذ أوائل القرن الرابع ، وكيف اتحد موسى هذا مع ابن عمه مصالة بن حبوس (من سنة ٣٠٥ إلى سنة ٣٠٩ هـ) عليهم ، حتى قضوا على نفوذ يحيى الرابع بن إدريس بن عمر (٢٩٢ — ٣١٠ هـ) ، الذى فر إلى المهدية نفسها ، ومات بها فى سنة ٣٣٢ هـ

والواقع أن الأدارسة ، بعد يحيى هذا ، لم يستكينوا لهذه النهاية المؤلمة ، حيث ثار أحدهم ، ويدعى الحسن بن محمد المشهور بالحجام (٣١٠—٣١٢ هـ) ، على الوالى الفاطمى ، وقبض عليه ، واستبد بأمور فاس ، وهزم جيوش ابن أبى العافية غير

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ٢١٧ .

(٢) العبر جـ ٦ ص ١٢٥ — ١٢٦

(٣) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى جـ ٣ ص ٢٨٤ .

مرة . إلا أن موسى لم يزل به حتى هزمه وطرده عن فاس ، « وانتظم له الأمر فى المغربين الأقصى والأوسط » . وكان من أثر هذا الانقلاب أن لجأ أدارسة فاس إلى بنى عمهم فى إقليم الريف ، وكانوا يحقدون على ابن أبى العافية ، الذى لم يلبث أن قلب للفاطميين ظهر المجن ، فأبطل الخطبة لهم من بلاده ، وخطب للأمويين [1] .

وقد تكشفت للفاطميين والأدارسة نيات ابن أبى العافية ، واتحدت رغبة كل منهم فى القضاء عليه . وليس معنى ذلك أن الأدارسة كانوا يميلون إلى الفاطميين ، بل إن كلا من هؤلاء وأولئك ، رغب فى الانتقام من ابن أبى العافية ؛ أما الفاطميون فقد حنقوا عليه ، لأنه استبد بالمغرب الأقصى دونهم ، وتحالف مع أعدائهم الأمويين ؛ وأما الأدارسة فلأنه انتزع منهم إقليم فاس بالمكايد حينا ، والحروب حينا آخر ؛ ولذلك انضموا إلى ميسور الفتى ، قائد الفاطميين ، فى صراعه مع موسى بن أبى العافية فى سنتى ٣٢٣ ، ٣٢٤ هـ ، واستردوا ما كانوا قد فقدوه ، بل استولوا على جميع البلاد التى كان يتحكم فيها ابن أبى العافية [2] غير أن سياسة الأدارسة قد أثارت حنق الخليفة الناصر الأموى عليهم . وكان من أثر ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد على الفاطميين أنهم لم يستطيعوا أن يحموا الأدارسة ، وتركوهم طعمة للأمويين

والواقع أن ميسورا الفتى قائد الفاطميين ، لما طارد موسى بن أبى العافية إلى الصحراء ، انتقلت السلطة فى بلاد المغرب الأقصى إلى القاسم . وأخيه إبراهيم [3] ، وكانا من زعماء الأدارسة ، ودخلت بلاد ابن أبى العافية تحت حكم القاسم ، الذى اتخذ من قلعة حجر النسر بإقليم الريف مقرا لإمارته [4] وكان يرى وجوب

---

(١) انظر كتاب « عبيد الله المهدى » للمؤلفين ص ١٩٧ — ١٩٩

(٢) ابن عذارى البيان المغرب ج ٢ ص ٢١٧

(٣) يعرف القاسم بقنون وإبراهيم بالرهونى . وهما أخوا الحسن بن محمد بن القاسم ، آخر أمراء أدارسة فاس وهو المعروف بالحجام

(٤) لما أجلى ابن أبى العافية أدارسة فاس إلى الريف ، أصبحت رياستهم فى يد إبراهيم بن محمد بن القاسم ، فاختط لهم قلعتهم « حجر النسر » فى سنة ٣١٧ هـ (ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٦ ، ٧) . وكانت سياسته ترمى إلى التقرب من الأمويين أما أخوه القاسم الذى خلفه فقد انحرف عن الأمويين إلى الفاطميين

التخلص من سيادة الأمويين عليه ، ووجوب القضاء على أسرة ابن أبى العافية ، وفى سبيل ذلك تعلق بالفاطميين . يقول ابن خلدون (١) « تولى على بنى محمد القاسم الملقب بقنون ، وهو أخو الحسن الحجام ، واسمه القاسم بن محمد بن القاسم . وقام بدعوة الشيعة انحرافا عن أبى العافية ومذاهبه » ، واستمر حتى توفى فى سنة ٣٣٧ ﻫ .

وتولى بعد القاسم ابنه أحمد المعروف بأبى العيش . وقد وصفه السلاوى (٢) ، بأنه « كان فقيها ورعا ، حافظا للسير ، عارفا بأخبار الملوك وأيام الناس ، وأنساب قبائل العرب والبربر ، شجاعا جوادا وكان يعرف فى بنى إدريس بأحمد الفاضل » . وقد غير سياسة أبيه ، فانحرف عن الفاطميين إلى الأمويين ، لبعد الشقة بين المهدية وبين بلاده الريف ، ولقرب الشقة بين قرطبة وبين بلاده . إلا أن سياسة التقرب إلى الأمويين قد أطمعت عبد الرحمن الناصر الأموى فى ملك الأدارسة ، فعمل على الاستيلاء على طنجة ليضمها إلى سبتة ، وكان قد استولى عليها فى سنة ٣١٩ ﻫ ـ على ما رأينا وقد حاول أبو العيش الوقوف فى وجه الناصر ، لكنه بعد أن أدرك خطل سياسته فى التقرب إلى الأمويين والتباعد من الفاطميين ، اضطر إلى التسليم والإذعان ، « بعد أن أرسل اليه الخليفة الأموى جيشا وأسطولا حاصراه وضيقا عليه » واستمرت الحال على ذلك حتى مات أبو العيش فى عهد المعز سنة ٣٤٨ ﻫ .

ولم يكتف أبو العيش بذلك ، بل اشترك مع الناصر فى حروبه مع الفرنجة ؛ ولذلك استخلف أخاه الحسن بن القاسم قنون على بلاده ، وقصد الأندلس . فكان فى هذا العمل معنى التبعية المطلقة للأمويين فى أسبانيا . يدل على ذلك أن الأدارسة حين هموا فى سنة ٣٤٧ ﻫ بإعادة بناء مدينة «تيطوان» المجاورة لسبتة ، لكى ينافسوا بها تلك المدينة ، أنف أهالى سبتة من ذلك ، واستعانوا بالخليفة الناصر الذى أرسل الجيوش من الأندلس لمحاربة الأدارسة ، فاضطر هؤلاء إلى التسليم ، وبعثوا أولادهم

---

(١) العبر ج ٤ ص ١٧

(٢) الاستقصا ، لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٨٥ .

مراهين[١] إلى قرطبة [٢] » .

وهكذا لم تكن الأمور قد استقرت بعد للفاطميين فى بلاد المغرب . فلم يكن بد من أن يعمل المعز لدين الله على إخضاعها وإقرار الأمن فى ربوعها ؛ وبذلك يستطيع أن يوجه جيوشه إلى بلاد أسبانيا ، ثم إلى مصر ، ومد نفوذه إلى المشرق .

وقد قام المعز لدين الله بجهود جبارة فى سبيل إخضاع جميع بلاد المغرب ، وتم ذلك على مرحلتين ، كان جوهر الصقلى بطل المرحـــلة الأولى ، وزيرى بن مناد الصنهاجى بطل المرحلة الثانية . وكانت الظروف تحتم عليه أن يقوم بعمل جدى فى بلاد المغرب الأقصى ، كى لا تضيع هيبة الفاطميين هنالك ؛ فقد استطاع الأمويون أن يخضعوا كثيرا من أمراء تلك البلاد ، بالقوة تارة ، وبالخديعة تارة أخرى ، منتهزين فرصة بُعد تلك البلاد عن حاضرة الفاطميين

يدل على ذلك هذا الوصف الممتع الذى أورده السلاوى [٣] عن طريقة توغل نفوذ الناصر فى شمال إفريقية ، فيقول : « وكانت قوات الناصر تجوز من الأندلس إلى العدوة [٤] ، يقاتلون من خالف الأدارسة من البربر ويتألفونهم . والناصر محمد مساعد لمن عجز منهم برجاله ، مقو لمن ضعف منهم بما له ، حتى ملك أكثر بلاد المغرب ، وبايعته قبائله من زناتة والبربر ، وخطب له على منابره ، من تاهرت إلى طنجة ، ماعدا سجلماسة ؛ وبايع الناصر أهل فاس فيمن بايعه من بلاد العدوة » .

وليس هذا فقط ، بل كان هناك من الحوادث ماأثار مخاوف الفاطميين على ملكهم فى أقصى المغرب . فقد جذب الناصر إليه كثيرا من أمراء زناتة ورؤساء « تاهرت » « ووهران » وسواها ، حتى إنه فى سنة ٣٤١ هـ « أدخلت بين يدى الناصر بعض رءوس كبار الفاطميين التى احتزها حلفاؤه بالمغرب ، وعلى رأسهم رأس القائد الشيعى ميسور ، ورأس محمد بن ميمون ، وغيرهما من رءوس أعلام

(١) أى رهائن .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٢٣٠ ، ٢٣١ .

(٣) الاستقصا ، لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٨٥ .

(٤) العدوة بضم العين ، هى الأرض المرتفعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسى ، وتسمى عدوة المغرب ، وتقابلها عدوة الأندلس .

الشيعة ، وعشرة من جنودهم أدخلت منكسة ، ومعها عدة من طبولهم فرفعت هذه الرءوس والبنود والطبول على باب قصر قرطبة ، وأقيمت له ولمن جاء بعده الكرامات الواسعة » (١)

ولاشك أن المعز لدين الله كان يطمع فى أخذ بلاد الأندلس ، وأن الرسائل قد تبودلت بينه وبين الناصر ، وقامت الحروب بين الفريقين . ولكى يحفظ المعز هيبته فى شمال إفريقية ، لم يكن بد من أن يجهز الجيوش ، ويقضى على نفوذ الأمويين فى هذه البلاد .

وتتلخص السياسة التى رمى المعز من ورائها ، إلى تسيير تلك الجيوش الضخمة بقيادة وزيره وقائده جوهر فى اشتراك كثير من الأمراء الموالين للفاطميين ، حتى تكون المظاهرة أشد إحكاما . ولذلك وضع على رأس الحملة مع جوهر عددا كبيرا من هؤلاء الأمراء ، مثل زيرى بن مناد الصنهاجى ، أمير « أشير » ، وجعفر بن على الأندلسى ، أمير « المسيلة » وغيرهما . كما كان يرمى من وراء تلك الحملة الكبيرة إلى إخضاع الأمراء الثائرين على الحكم الفاطمى ، والفتك بمن انضموا إلى الأمويين ، وجعل بلادهم تحت إشراف جماعة عرفوا بإخلاصهم للفاطميين .

وكانت وجهة هذه الحملة بلاد تاهرت للانتقام من واليها الفاطمى ، يعلى بن محمد ، لانضمامه إلى الأمويين ، وانحرافه عن الفاطميين ؛ ويبدو أن يعلى هذا تظاهر لجوهر وزيرى بن مناد ومن معهما بالإخلاص ، إلا أنه بدا منه مايدل على عدم إخلاصه للفاطميين أو لحملة جوهر ، ولذلك قبض عليه وعلى أبنائه ، وهدمت حاضرة ولايته (٢) . ويرى بعض أن يعلى بن محمد الزناتى ظل على إخلاصه للناصر الأموى ؛ وأنه كان نائبه ببلاد المغرب ؛ ولذلك قاوم الجيوش الفاطمية . فأسره جوهر ثم قتله (٣) . وسواء جهر يعلى بعدائه للفاطميين أو بإخلاصه لهم ، فإنه كان أموى النزعة ، كما كان القبض عليه وعلى أنصاره ثم القضاء على مركز مؤامراتهم ، من أكبر

---

(١) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٢٣٤

(٢) ابن الأثير الكامل ج ٨ ص ١٨٩ .

( ) السلاوى الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٨٦ .

عوامل نجاح جوهر، الذى وضع بلاد المغرب الأوسط فى قبضة زيرى بن مناد، على ما سنرى

قصد جوهر بعد ذلك إقليم فاس، وحاصر حاضرته انتقاما من مغتصبها أحمد ابن أبى بكر بن سهل الجذامى، الذى خلع طاعة الفاطميين، وانضوى تحت لواء الأمويين. ولكن هذا الوالى استطاع أن يصد جيوش الفاطميين الذين لم يتم لهم فتح هذه المدينة إلا بعد استيلائهم على سجلماسة (١)

ولم يقل اهتمام الفاطميين بالاستيلاء على سجلماسة عن اهتمامهم بالاستيلاء على فاس أو تاهرت. ولاغرو فقد استبد بحكمها ابن واسول، وتسمى أمير المؤمنين، وتلقب الشاكر لله، وصك النقود باسمه. وعلى الرغم من استقلاله عن الأمويين، كان شوكة فى جنب الفاطميين، الذين رأوا أن نفوذهم لن يستقر فى هذه البلاد مع وجود حكام ذوى نفوذ، كالشاكر بالله محمد بن الفتح المعروف بابن واسول صاحب سجلماسة.

أعد المعز لدين الله حملة لقتال ابن واسول، ضمت كثيرين من الكتاميين. ولكى يثير المعز حماسة رجال هذه الحملة جعل يقول لهم: « والله ما أردت بهذا البعث الذى بعثتكم فيه شرا أستدفعه، ولا دفع مكروه أخافه، ولا استكثارا من دنيا أصيبها. أما المكروه فقد علم الخاص والعام والقريب والبعيد، أن غاية أمانى من حولنا من أهل الأرض من المتغلبين، ممن دان بملة الإسلام والمشركين، أن يسلموا منا، ويعافوا من بأسنا. وما أحد منهم أمسى وأصبح اليوم بحمد الله يطمع فى شىء مما عندنا. أما اكتساب حطام الدنيا، فما نحن ننفق من أموالنا على هذا البعث ما لا نرى أنا نرتجع مثله؛ وإن مكننا الله وأيدنا ونصرنا. ولكننا أردنا بذلك وجوها، منها ما افترضه الله عز وجل علينا من جهاد من خالف أمرنا وتسمى بأسمائنا، وادعى ما جعل الله عز وجل لنا » (٢)

اضطرب محمد بن الفتح، وهرب من سجلماسة حاضرة ولايته، حتى قبض عليه

---

(١) ابن خلدون: العبر ج ٤ ص ٤٦ — ٤٧

(٢) النعمان: المجالس والمسايرات ج ٢ ص ٢٩

وهو يحاول التسلل عائدا إلى سجلماسة (١) وكان اهتمام المعز بفتحها عظيما ، حتى إنه ضرب النقود فيها باسمه . ويقـــول النعمان إن المعز دعا « بمال أتاه مما ضرب بمدينة سجلماسة باسمه ، ففرقه على من حضر ، وقال تبركوا به ؛ فهذا من أول ما ضرب لنا بالموضع الذى افتتحه الله علينا » . وقد عامل الفاطميون الشاكر بالله ، كما عاملوا صاحب فاس ، وشهروا بهما معا ، ووضعوا على سجلماسة وفاس واليين من أخلص ولاتهم

لم يبق أمام جوهر ورجاله سوى أدارسة الريف والبلاد الخاضعة للأمويين أما البلاد الخاضعة للأمويين ، فسنتناولها بالبحث عند كلامنا على علاقة المعز بالناصر . وأما أدارسة الريف فقد كانت رياستهم فى يد الحسن بن القاسم قنون ، الذى لم يستطع مقاومة جيوش الفاطميين ، ورأى الســـلامة فى الهرب إلى الأندلس ، والاحتماء بعبد الرحمن الناصر ، مما يدل على مدى شعور أدارسة الريف بالتبعية للأمويين واستطاع جوهر أن يمد نفوذ الفاطميين إلى سواحل المحيط الأطلسى ، أى على جميع أنحاء المغرب الأقصى والأوسط ، ويأسر بعض الأدارسة ، ويبعث بهم إلى المهدية ؛ ولم يمتنع عليه من بلاد المغرب سوى سبتة وطنجة

وهكذا انصرف جوهر راجعا ، كما يقول السلاوى (٢)، « بعد أن دوخ البلاد وأثخن فيها ، وقتل حماتها ، وقطع دعوة المروانيين فيها ، وردها إلى العبيديين ، فخطب لهم على جميع منابر المغرب ، وانتهى القائد جوهر إلى المهدية ، دار المعز لدين الله ، وقد حمل معه أحمد بن أبى بكر أمير فاس وخمسة عشر من أشياخها ، وحمل أيضا محمد بن أبى الفتح أمير سجلماسة ، ودخل بهم أسارى بين يديه فى أقفاص من خشب على ظهور الجمال ، وجعل على رءوسهم قلانس من لبد مستطيلة ، منبتة بالقرون ؛ فطيف بهم فى بلاد إفريقية وأسواق القيروان ، ثم ردوا إلى المهدية ، وحبسوا بها حتى ماتوا فى سجنها » .

وليس معنى ذلك أن جوهرا قد تغلب بحملته التى شنها فى سنتى ٣٤٧ - ٣٤٨ هـ

---

(١) النعمان المجالس والمسايرات ج ١ ص ٣٢٧ — ٣٢٨

(٢) الاستقصا ، لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٨٦ — ٨٧

على جميع متاعب الفاطميين فى بلاد المغرب الأقصى خاصة ، فإن الأدارسة لم يلقوا جميع أسلحتهم ، كما أن الأمويين ظلوا على عدائهم للفاطميين ، لم تمسسهم تلك الحملات بسوء ، بل ضاعفوا جهودهم ، على ما سنرى ، فى الاستعداد الحربى لصد الفاطميين، إذا حدثتهم أنفسهم بغزو بلاد الأندلس ، أو الاستيلاء على طنجة وسبتة منهم . ولذلك كان لزاما على المعز أن يعالج هذا الموقف من جديد .

ويظهر أن الحسن بن القاسم الإدريسى ، الذى فر إلى قرطبة ، عاد لمناوأة الفاطميين ، وإعلان ولائه للخليفة الناصر ثم لابنه الحكم المستنصر من بعده . وقد ذكر السلاوى سبب هذا التقرب ، فعزاه إلى خوف الحسن ابن القاسم من الأمويين فى الأندلس ، لقرب المسافة بين بلاده وبلادهم وكان من أثر ذلك أن بعث الخليفة المعز الفاطمى قائده بلكين بن زيرى بن مناد الصهاجى ، الذى استطاع « أن يعيد الخطبة للفاطميين فى بقايا دولة الأدارسة ، ويبطل الدعوة للأمويين منها » (١)

ومع ذلك لم يستطع المعز القضاء على الأدارسة ، لأن الحكم الثانى فى الأندلس استغل ضعفهم ، فعمل على بسط نفوذه فى جميع بلادهم فى إقليم الريف . وقد أرسل قائده ومولاه غالبا على رأس جيش كثيف لمحاربة الحسن بن القاسم ، فانتصر عليه ، وأسره هو وأهل بيته وقد أقاموا فى الأندلس طول عهد المعز تقريبا ، حيث عفا عنهم الحكم الثانى ، إلا أنه لم يلبث أن غضب عليهم وطردهم من قرطبة ، ففروا إلى تونس ، ومنها رحلوا إلى مصر فى عهد العزيز الفاطمى ، الذى رحب بهم ، وأمد الحسن بجيش قصد به إفريقية ، وأعانه زيرى بن مناد بجيش آخر ، لاسترداد بلاده من الأمويين. إلا أن المنصور بن أبى عامر حاجب الخليفة هشام الثانى المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٩ هـ) ، أرسل إليه جيشا ضخما استطاع أن يحل به الهزيمة ، وقتله فى سنة ٣٧٥ هـ ، حيث انقرضت دولتهم ، ولكن جماعة منهم استطاعوا أن يرثوا الدولة الأموية بالأندلس ، وهم بنو حمود (٤٠٧ - ٤٤٩ هـ) .

هكذا زالت دولة الأدارسة بالمغرب ، بعد أن تربعت على العرش نحو قرنين .

---

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ج ٣ ص ٢٨٥

وساهم فى القضاء عليهم آل ابن أبى العافية والفاطميون والأمويون أنفسهم

والواقع أن ملك الفاطميين فى المغربين الأوسط والأقصى، لم يصف لهم تماما بعد سنة ٣٤٧ هـ، وأن ما فعله جوهر وزيرى بن مناد لم يقض على ثورات المغاربة، وخصوصا زناتة، وإنما نجح الفاطميون فى إضعاف الأدارسة والقضاء عليهم فى النهاية فقد انتهز الزناتيون فرصة خروج جيوش المعز إلى مصر، فثار فى سنة ٣٥٩ هـ أحد زعماء زناته، ويدعى أبا خزر الزناتى على المعز، الذى خرج إليه بنفسه، إلى أن وصل إلى «باغاية»، ففر أبو خزر من وجهه، فأرسل إليه المعز قائده زيرى بن مناد، فلم ير هذا الثائر بدا من التسليم. وفى شهر ربيع الثانى سنة ٣٥٩ هـ، «وصل أبو خزر الخارجى (الزناتى) إلى المعز مستأمنا، وطلب الدخول فى طاعته، فقبل منه المعز ذلك، وفرح به، وأجرى عليه رزقا كثيرا»[١].

وليس هذا فقط بل إن محمد بن الحسن بن خزر المغراوى أشعل نار الثورة فى بلاد المغرب، واستغل المعز المنافسة الحادة التى كانت قائمة بين زناتة وصنهاجة لمصلحته، وحال دون اتحادهما، وأرسل يوسف بلكين بن زيرى بن مناد لحرب ابن خزر الذى حلت به الهزيمة وقتل كثير من جنده، وذلك قبيل رحيل المعز إلى مصر.

ولم يقف خطر زناتة عند ذلك الحد، فقد اتحدوا مع صاحب المسيلة وأعمال الزاب، وكان يحقد على زيرى بن مناد، قائد المعز لدين الله، وحارب الفريقان زيرى وقتلوه، وكان لذلك أثره فى ازدياد المنافسة بين الصنهاجيين والزناتيين. وانتقم يوسف لأبيه من زناتة شر انتقام، فقتل منهم كثيرا وسبى كثيرا حدث ذلك كله والمعز لايزال بإفريقية، فسر لهذا الصراع الذى تفاقم بين هاتين القبيلتين المغربيتين «وزاد فى إقطاع بلكين المسيلة وأعمالها»[٢]

وكانت بلاد المغرب كافة يسودها الاضطراب، وليس أدل على ذلك مما قاله يوسف بن زيرى بن مناد حين عزم المعز لدين الله على توليته بلاد المغرب

(١) ابن الأثير الكامل جـ ٨ ص ٢١٥.

(٢) المصدر نفسه جـ ٨ ص ٢٣٤ — ٢٣٥.

« يامولانا ! أنت وآباؤك الأئمة من ولد رسول الله ، ﷺ ! ما صفا لكم المغرب ؛ فكيف يصفو لى ، وأنا صنهاجى بربرى ؟ »[١]

وكاد انتقال المعز إلى مصر (من شوال سنة ٣٦١ إلى رمضان سنة ٣٦٢ ﻫ) يثير أهالى بلاد المغرب كافة على يوسف بن زيرى بن مناد ، لولا ما أوتيه من صلابة وقوة . فقد انتهز أهالى باغاية وتاهرت خروج المعز ، واشتغال يوسف بلكين بن زيرى بن مناد بتوديعه . وثاروا على والى كل منهما وطردوه . ولم تقف الحال عند ذلك الحد ، فقد هبت قبيلة زناتة وثارت فى تلمسان ، ولكن أبا الفتوح يوسف بن زيرى ، استطاع أن يخمد هذه الثورات .

٢ — علاقة المعز بالأندلس

لم تكن علاقة المعز بالأمويين فى الأندلس على شىء من الصفاء ولا غرو فإن العداء بين بنى هاشم وبنى أمية يرجع إلى أيام الجاهلية ، وتفاقم العداء بينهم فى الإسلام كذلك . وقد استمر العداء بين الأمويين فى الأندلس وبين العلويين فى المغرب

ومن عوامل الكراهة بينهم خوف الأمويين من الفاطميين على بلادهم . لهذا لا نعجب إذا رأينا عبد الرحمن الناصر الأموى يشجع أبا يزيد مخلد بن كيداد فى ثورته على القائم والمنصور ويمده بالجيوش . كما اعترف له أبو يزيد بالسيادة الروحية على البلاد التى انتزعها من الفاطميين [٢] ، حتى إننا نرى أبا يزيد يرسل فى سنة ٣٣٣ ﻫ « إلى الناصر وفدا يخبره بتغلبه على القيروان ورقادة وما جاورهما ، وهزيمته لجند أبى القاسم (القائم) الشيعى ، ويظهر خضوعه له واعترافه بولايته »[٣].

ولقد تضاعف الخوف حين قضى الفاطميون على ثورة أبى يزيد فى أوائل عهد المنصور ، وزاد هذا الخوف حين تولى المعز لدين الله العرش ، وكان هذا الخليفة الجديد يمتلىء حنقا على الأمويين ويتطلع إلى عرش قرطبة . والواقع أن جميع

---

(١) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ٦٤ ؛ والخطط ج ١ ص ٣٥٢ .

(٢) Altamira : Cambridge Mediaeval History, vol. iii. p. 423

(٣) ابن عذارى البيان المغرب فى أخبار المغرب ج ٢ ص ٢٢٨

شمالى إفريقية أصبح مجالا حيويا هاما للفاطميين ، ولذلك لم يكن بد من أن يصطدموا بالأمويين فى شمال إفريقية وإذا علمنا أن المعز لدين الله كان يدرك سهولة فتح بلاد أسبانيا ، ويعتقد أن ما لديه من الجنود والعتاد أكثر مما كان لدى طارق بن زياد حين تم له فتح هذه البلاد . وأنه كان يرى أحقيته بملك أسبانيا من الأمويين وبزعامة العالم الإسلامى منهم ومن العباسيين وسواهم ، أدركنا خطر المعز الفاطمى على الناصر الأموى ، وسوء العلاقة بينهما

وقد أشعل نار هذا العداء المستحكم بين الأمويين والفاطميين ، إثارة كل منهم رعايا الآخر ، فنرى عبيد الله الفاطمى يثير ابن حفصون (١) على الأمويين ، فينادى بأحقيتهم ، ويعلن ولاءه لهم ، ويؤيد حقهم فى زعامة العالم الإسلامى ، ويتنبأ بامتلاكهم بلاد الأندلس والقسطنطينية . وقد شمر الأمويون ، وخصوصا فى عهد الناصر (٣٠٠ – ٣٥٠ هـ) عن ساعد الجد فى مقاومة هذه النزعة السياسية الدينية الخطيرة ، فحاربوا الثائرين فى الأندلس فى عنف وشدة ، ووقف علماء هذه البلاد يندون بآراء الفاطميين وأنصارهم ولم يكتف الأمويون بذلك ، بل حولوا وجوههم شطر إفريقية ، ليجعلوا خط دفاعهم الأول عن بلاد الأندلس فى هذه البلاد ، فاستغلوا النزعة المذهبية القومية فى بعض قبائل المغرب الأقصى وأثاروهم على الحكم الفاطمى.

يتبين ذلك من تشجيع عبد الرحمن الناصر لـ موسى بن أبى العافيـــة ، الذى انتزع أرجاء المغرب الأقصى تقريبا من الأدارســة باسم الفاطميين ، وإثارته على عبيد الله المهدى ثم على خلفائه من بعده . وبفضل تدخل الأمويين خطب للناصر على منابر بلاد ابن أبى العافية ، وأرسل أسرى الفاطميين وأنصارهم إلى قرطبة فلم يكن بد إذن من أن يحارب الفاطميون عدوين ، عدوا فى الداخل ، وعدوا فى الخارج ؛ إلا أنهم أخذوا على عاتقهم محاربة العدو الداخلى أولا ، فشغلوا أنفسهم عن عدوهم الخارجى الأساسى ، وهم الأمويون . وهكذا احتفظ الأمويون ببلادهم بعيدة عن التطاحن الحربى ، بفضل بعد نظرهم فى السياسة وهذا ما نراه اليوم فى نزعات كبار الساسة ؛ فانجلترا مثلا تعمل دائما على أن تكون ميادين الحروب بعيدة عن بلادها الأصلية وكانت ألمانيا تسعى فى الحرب الماضية إلى ذلك . وتقلدهما اليوم الولايات المتحدة الأمريكية

(٣) انظر كتاب « عبيد الله المهدى » للمؤلفين ص ٢٥٤ – ٢٥٥

وعلى الرغم من أن الأمويين كانوا يبغضون الأدارسة العلويين بغضهم الفاطميين ، كانوا يقربونهم إليهم ، ليستعينوا بهم على محاربة الفاطميين من جهة ، ومد نفوذهم فى شمال إفريقية من جهة أخرى . وكان عبد الرحمن الناصر يرمى من وراء ذلك إلى تحقيق غرض مزدوج ، هو تثبيت نفوذه فى شمال إفريقية ، وإشعار الأدارسة بتبعيتهم للأمويين ، وإثارة الخلاف بين الأدارسة وبين بنى أعمامهم الفاطميين .

وليس هذا فقط ، بل إن عبد الرحمن الناصر أخذ على عاتقه تشجيع قواد الفاطميين على الثورة ؛ فضم إليه حميد بن يصال ، صاحب تاهرت وابن أخى مصالة بن حبوس ، قائد الفاطميين المشهور الذى لجأ إلى الأندلس ؛ كما استمال يعلى بن محمد الزناتى صاحب تاهرت . وبهذا أصبحت قرطبة مركزا للثورة على الفاطميين ، الذين لم يروا بدا من أن ينتقموا لأنفسهم من عبد الرحمن الناصر بإرسال الحملات التأديبية الإرهابية إلى بلاده .

وأخذ الأمويون فى أسبانيا يلعنون الفاطميين على منابرهم ، كما فعل آباؤهم فى الشام من قبل ، وكانوا يرمون من وراء ذلك إلى إثارة الفاطميين ، إلا أن المعز أخذ يغض من شأن بنى أمية ، فيقول فيهم : إنهم « طرداء رسول الله ﷺ ، لا يدفعون ذلك ولا ينكرونه هم ولا من انتصر لهم ؛ فهم أهل اللعنة من الله ومن رسوله ، ثم قال والله إن فى أنسابهم لمقالا واتساعا للطعن ومجالا ، ولكنهم لو نسبوا إلى القردة والخنازير لكانوا أفضل ممن نسبوا إليه ، عبدالملك بن مروان ، اللعين ابن اللعين الطريد ابن الطريد لعن رسول الله ﷺ جده الحكم . . . ونفى رسول الله ﷺ جده لأمه معاوية بن مغيرة بن أبى العاص بن أمية فتخلف ، فأمر عليا ، صلوات الله عليه ! فضرب عنقه . فهذه أصولهم التى ادعوها ، وأنسابهم التى انتسبوا إليها ، فكفاهم عارا وخزيا ونقيصة[١] » .

ومن عوامل العداء بين الفاطميين والأمويين ما كان من اتخاذ عبدالرحمن الناصر فى إفريقية الشمالية بعض المدن ذات الموقع « الاستراتيجى » الخطير ، ليجعلها

---

(١) النعمان المجالس والمسايرات ج ٢ ص ٨١ — ٨٢ .

مراكز يغير منها على قلب الدولة الفاطمية فى بلاد تونس ، أو على الأقل يستطيع أن يدفع منها خطر الفاطميين إذا أغاروا على بلاده ؛ ولذلك استولى مدينة على سبتة فى سنة ٣١٩ ﻫ ، وثنى بطنجة بعد ذلك وكان من أثر استيلائه على هذين الموقعين وغيرهما من المواقع أن زاد حنق الفاطميين على الأمويين .

ولى المعز لدين الله عرش الفاطميين فى سنة ٣٤١ ﻫ ؛ وقد عم الاضطراب شمالى إفريقية ، وتفاقم هذا الاضطراب بتدخل الأمويين فى شئونه . ولذلك عمل على طرد الأمويين من هذه البلاد ، فأرسل حملتين كبيرتين لإخضاع جميع بلاد إفريقية الشمالية لسلطانه ولكنه رأى استحالة إخراج الأمويين من سبتة وطنجة لقربهما من أسبانيا ، فاتجه بعد ذلك نحو مصر .

ونستطيع أن نجمل الحوادث التى وقعت بين المعز والأمويين فيما يلى فى سنة ٣٤٣ ﻫ استولى عبدالرحمن الناصر على إحدى مدن شمال إفريقية ، وأخذ ينشر منها الدعوة إلى الأمويين ، وأدرك رغبة المعز لدين الله فى فتح بلاده ، فعول على الصراع معه . ولكى يجرب قوته البحرية هاجمت إحدى سفنه سفينة فاطمية فى البحر على مقربة من صقلية . ويخيل إلينا أن سفينة الأمويين كانت من نوع السفن الاستطلاعية . وقد استولت على رسالة كان قد بعث بها والى الفاطميين بصقلية إلى الخليفة المعز لدين الله ، وأغرقت السفينة الفاطمية وهرب من كان بها

ومن حسن الحظ أنا عثرنا على تفصيل واف لهذه الحوادث فى مصدر إسماعيلى قيم ؛ فقد تناولها النعمان المغربى فى الجزء الأول من كتابه «المجالس والمسايرات[1]» . ومع أن هذا الحادث لا يعد من الحوادث الخطيرة فى حد نفسه رأى المعز أن يبرهن للناصر على مدى قوته البحرية ورأى فى الوقت نفسه أن يلقى الرعب فى قلوب رجاله ، حتى لا تحدثهم أنفسهم بالاقتراب من سواحل الفاطميين . لذلك أمد المعز الحسن بن على ، عامله على صقلية ، بأسطول يلحق بسفينة الأمويين ، ويقوم بمظاهرة بحرية مفاجئة على السواحل الأسبانية . ومن الغريب أن أسطول الفاطميين برغم صغره استطاع فى سنة ٣٤٤ ﻫ أن يصل إلى « المرية » قاعدة أسطول الناصر ،

---

(١) ص ٢٢٣ — ٢٨٦

وألحق به هزيمة منكرة ، وألقى الرعب فى قلوب أهالى هذه البـــلاد ، فنزل « من بالأساطيل من رجال البر واستولوا على المرية وانهزم عنها جمع الأموى فأحرقوا جميع ما بها من المراكب والخزائن والعود (١) والعـدد ، وانتهبوا جميع ذخائرها ، وهرب من استطاع الهرب من أهلها(٢) ». وبم نعلل هذا النصر ؟ وهل كان راجعا إلى مهارة رجال الأسطول الفاطمى فى المعارك البحرية ؟ أو إلى عنصر المفاجأة وحده ؟ يبدو أنه كان لهذين العاملين معا دخل كبير فى الخسارة الفادحة التى لحقت بالأمويين .

وكان رد الناصر على جرأة المعز بطيئا ، فلم يقدم على الانتقام كما أقدم المعز ، بل قام فى العام التـالى (٣٤٥ هـ) بمظاهرة بحرية على سواحل إفريقية ، وعمل فى الوقت نفسه على الاستعانة بالروم ، فتحالف معهم . ولم تشر المراجع السنية بوجه عام إلى تحالف الناصر مع قسطنطين الثامن امبراطور الدولة البيزنطية (٣٣٣-٣٤٨ هـ = ٩٤٤-٩٥٩ م) فى سنة ٣٤٤ هـ. حقيقة استغل الأمويون عداء البيزنطيين للفاطميين، فاتفق الناصر مع قسطنطين الثامن قبل ذلك الوقت بست سنوات (٣٣٨ هـ) ، وعقدت معاهدة بين الفـريقين . على أنه لا يبعد أن تكون هذه المعاهدة قد اشتملت على نص يتعلق بموقف كل من هاتين الدولتين من الدولة الفاطمية ، بدليل أن الروم قد لبوا نداء الناصر وعملوا معا على أن يحصروا الفاطميين هؤلاء من الغـــرب وأولئك من الشرق . وفى ذلك يقول النعمان (٣) « بعد أن كتب (الناصر) إلى طاغية الروم يسـأله النصرة ، وأهدى إليه هدايا ، وأرسل إليه رسلا من قبـله ، فأجابه إلى ذلك . وجاءت أساطيـل الروم من القسطنطينيـة . ومراكب بنى أمية من الأندلس »

وقد ذهب ابن عذارى إلى القول بأن الناصر استطاع أن يخرب إحدى موانى شمالى إفريقية ، وأمر بلعن الفاطميين من منابر الأندلس ، وكتب بذلك إلى جميع عماله (٤) . أما المراجع الإسماعيلية فترى أن الهزيمة قد حلت بالناصر ، وأن المعز

(١) يقصد بالعود قلاع السفن وساريا تها

(٢) النعمان المجالس والمسايرات ج ١ ص ٢٢٥ — ٢٢٦

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٢٦

(٤) ابن عذارى البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٦

« أمر بأن يكون العساكر فى كل مرسى بطريق الأندلس » ، وأنه قصد ناحية غير آهلة بالسكان خالية من الجند فى شمال إفريقية. ومع ذلك فإنه لم يستطع أن يحقق ما كان يرمى إليه ، إذ « خرج إليهم أهل تلك الناحية ، فقتلوا منهم بشرا كثيرا وهزموهم ، فمات فى البحر منهم أكثر ممن قتلوه ، وغنموا ما كان معهم من السلاح ، ووجهوا رءوس من قتلوه وبما غنموا »(١) إلى المعز

وكذلك أخفق البيزنطيون فى صراعهم مع الفاطميين وقد صور النعمان (٢) هذه الحروب فى هذه العبارة فقـــال : « وأقبل أسطول الروم فلقى أسطول أمير المؤمنين دون صقلية . . . ففتح الله لوليه على الروم ، فهزمهم فى البحر ، وقتل رجاله منهم خلقـا عظيما ، وولوا هاربين بين يدى أسطوله إلى مجاز رية » (٣) ، ليحموا بلدهم . واتبعهم إلى ما هنالك ، فلقوه فى البحر فهزمهم ، فنزل عسكر البر بأرضهم ، فأنكى بالقتـل فيهم ، وأحرق مدائنهم وأخرب كنائسهم ، وبلغ غاية الأمل من النكاية . وأرسل ملك الروم إلى أمير المؤمنين ـ عم ـ بأموال عظيمة ، وهدايا جليـلة ، ورغب فى التوقف عمن بقى من الروم بأرض قلورية ، على ما قطعـه على نفسه يؤديه عنهم ، وأسرى من أسارى أهل المشرق ، ليطلقهم فى كل عام لمدة يسيرة يسأل الهدنة فيها »

وهكـذا كان مصير ذلك الصراع أن أخفق الناصر الأموى من الناحيتين الحربية والسياسية ، ولذلك لجأ كما تقدم إلى الحط من شأن الفاطميين فى بلاده ؛ وسبهم من فوق المنابر ، حتى لا تضيع هيبته أمام سلطان المعز ونفوذه وليس هذا كل ما قام به الخليفة الأموى الناصر فى سبيل مناوأة الفاطميين بل عمل على مهادنة مسيحي الشمال ومصالحة ملك ليون، حتى يتفرغ للصراع مع الفاطميين. ولما كان الناصر يعلم أن الغلبة تقررها القوات البحرية وحدها،بذل جهودا جبارة فى إعداد أسطول ضخم ، وذلك فى سنتى ٣٤٥،٣٤٦هـ ، ومن ثم لم يجد ـ كما يقول دوزى (٤) ـ

(١) النعمان المجالس والمسايرات ج ١ ص ٢٢٨ — ٢٢٩

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٢٨ — ٢٢٩

(٣) يقصد به الخليج الذى يفصل بين صقلية وإيطاليا .

(٤) Hist. des Musulmans d'Espagne, vol. ii. pp. 165-6.

عمال دور الصناعة وقتا للراحة ، وبذلك استطاع أن يشحن جميع موانى بلاده بالسفن الحربية »

وبينما كانت المعدات قائمة على ساق وقدم فى شبه جزيرة أيبريا كانت رسل الناصر تغدو وتروح فى حاضرة الفاطميين ، يستميلونهم تارة ويهددونهم أخرى ولم يشأ عبد الرحمن الناصر أن يصارح الفاطميين برغبته فى الصلح ، بل لجأ إلى المداورة . وقد أوضح النعمان [1] المغربى ذلك بقوله إن الناصر حين رأى هزيمة الروم وما حـــل به هو من نكبات ، وخاف الوقعة به ؛ دس رسولا من قبله ، وكتب كتابا على لسان بعض رجاله إلى بعض رجال أمير المؤمنين فى الموادعة والصلح وكف الحرب . ويذكر ما يتوقع فى ذلك من سفك دماء المسلمين ، واشتغال بعضهم ببعض عن غزو المشركين وجاء الرسول بالكتاب ، وأدى بلسانه عن الخائن ما لم يؤد الكتاب به من طلب الصلح والألفة ، وكف الحرب والفتنة ، وذكر ذلك لأمير المؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ شفاها »

وكان رد المعز ، على ما نرى فى قسم الملاحق ، غاية فى الروعة من الثقة بالنفس وتفنيد مزاعم عبد الرحمن الناصر ، فقـد قال المعز لدين الله للرسول إن الناصر استعان عليه بالروم المسيحيين، وافتخر (المعز) بما أحرزه من نصر على الأمويين والروم، ورأى أن فى اتخاذ الناصر لقب «أمير المؤمنين» تعديا على حق من حقوقه، فيقول: «إنا أهل ذلك دونه ودون من سواه ، ويرى أن فرض الله علينا محاربة من انتحل ذلك دوننا وادعاه [2]»

ويؤكد المعز فى الوقت نفسه ذلك العداء القديم بين الأمويين والعلويين، ويرى استحالة الاتفاق بين البيتين، ويعقد العزم على مواصلة الصراع مع الأمويين .ومن ثم نراه عاطل الرسول، ولا يجيبه إلى الموادعة والصلح. بل يبعث فى نفسه وفى نفوس الأمويين جميعا الفزع والخوف، فيقول له: « ما أنا بالمداهن فى دين الله ، ولا بالراكن بالمودة إلى أعداء الله ، ولا بالمخادع فى أمر من أمور الله عز وجل ارجع بجوابى هذا إليه فما له عندى سواه ، ومالى من الأمر من شىء إن الأمر كله لله ، عليه توكلت

(١) المجالس والمسايرات ج ١ ص ٢٣٠

(٢) النعمان المجالس والمسايرات ج ١ ص ٢٣٣

وإليه أنيب . فإن حركنى الله إليه ، وقذف فى قلبي حربه وغزوه ، فلا أشك أن الله عز وجل أراد قطع دابره ، واستئصال شأفته ، وتطهير الأرض من رجسه ، وحسم أيامه ومدته » (١)

ويظهر أن تعذر الصلح بين البيتين قد آلم الناصر الأموى ، فتوالت رسله ورسائله على الفاطميين . من ذلك أنه أرسل أحد رسله إلى المعز يحمل إليه رسالة يستعطفه فيها ويتوعده ، وأرسل إلى أحد كبار رجال الدولة الفاطمية كتابا آخر ، أكثر استجداء ، وأتبع ذلك كله برسالة ملأها بالوعد والوعيد ، وتنصل فيها من جميع الرسائل السابقة . وكان يرمى من وراء ذلك ـ كما يقول النعمان ـ إلى تخدير أعصاب المعز ، حتى يعد العدة لقتاله . ويظهر أن المعز قد أدرك ذلك فقال « إنما أراد هذا الفاسق أن يقطع الزمان بهذه المراسلة والمكاتبة بيننا وبينه » (٢)

شحن عبد الرحمن الناصر موانيه بالسفن والعتاد الحربى والجنود (٣) ، وقضى على مقاومة ملك ليون الجديد (٣٤٦ هـ) الذى نقض الصلح الذى عقده أبوه مع الخليفة الأموى ، ورفض تنفيذ شروطه . وقد أخذ الناصر يتطلع إلى إفريقية ، فأرسل إليها حملة بحرية . وكان القسم الغربى من ساحلها الشمالى تقريبا خاضعا له ، كما استطاع أن يستميل إليه يعلى بن محمد الزناتى ، صاحب تاهرت ، حاضرة المغرب الأوسط ، وأن يضم إلى صفوفه كثيرا من أدارسة الريف الذين ولوا وجوههم شطر قرطبة وموانى أسبانيا كما كان بيت ابن أبى العافية على وفائه للأمويين ، ولذلك لم يجد عبد الرحمن الناصر بدا من إيقاع الرعب فى قلب المعز لدين الله ، بالهجوم عليه فى عقر داره .

وقد أمّر الناصر حاجبه أحمد بن سعيد على جيش كبير وأسطول ضخم ، واستطاع الأمويون أن يأخذوا الفاطميين على غرة (٣٤٦ هـ) وأن يحلوا الهزيمة بأمير البحر الفاطمى وبوالى صقلية الحسن بن على ، وتوغلوا فى القسم الشرقى من مملكة المعز ، وحاصروا مدينة تونس القريبة من المهدية ، وأرغموا أهلها ، وكان

(١) النعمان المجالس والمسايرات جـ ١ ص ٢٣٨

(٢) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٣٨

(٣) Dozy Hist. des Musulmans d' Espagne. vol. ii. p. 166

أكثرهم من اليهود ، على أن يدفعوا إلى القائد الأموى مبلغا كبيرا من المال

هذا ما ذهبت إليه المراجع السنية التى أشادت بجهود الخليفة الناصر الأموى على أننا لم نجد ما يؤيد هذه المعلومات فى مراجعنا الإسماعيلية ، التى لا نشك فى أنها تتوخى الصدق فى كثير من الأحيان ، مما يثير فى نفوسنا الشك ، إذ كيف تستطيع جيوش الأمويين أن تغير على تونس القريبة من المهدية ، فلا يحرك المعز ساكنا لينتقم لنفسه وشرفه العسكرى ، وهو الذى آلمه أن يعتدى الأمويون على إحدى سفنه الصغيرة ؟ ويظهر أن الخليفة الناصر أرسل حملة بحرية للإغارة على بعض موانى إفريقية البعيدة عن تونس ، وأنه غنم بعض الغنائم .

وسواء كان هجوم الأمويين على تونس أو على الجزائر أو مراكش ، أو أن هذه الحملة الأموية قد حققت الغرض الذى كان يرمى إليه الأمويون ، وهو الانتصار على الفاطميين أو لم تحقق ، فإنها قد نجحت فى إثاره سخط أهالى المغرب الأقصى على الفاطميين ، وأدت إلى جذب بعض أمراء الفاطميين إلى الناصر وكانت من الأسباب التى أدت إلى إرسال حملة جوهر الكبرى إلى بلاد المغرب فى سنة ٣٤٧ ﻫ ولذلك كانت مهمة جوهر الصقلى متشعبة النواحى ، فقد كان عليه أن يعاقب ولاة الفاطميين الذين مالئوا الأمويين ، كيعلى الزناتى صاحب تاهرت ، وغيره ، وأن يسترد جميع البلاد التى استقلت عن الفاطميين كسجلماسة ، والتى كانت تخضع اسميا للناصر كبلاد ابن أبى العافية ، وأدارسة الريف وقد نجح جوهر فى تحقيق هذا كله ـ كما رأينا وأخيرا ، كان عليه أن يطرد الأمويين من سبتة وطنجة ، وبذلك يقضى على نفوذهم فى هذه البلاد وقد أدرك الخليفة الأموى ذلك كله ، فعين على سبتة فى سنة ٣٤٦ ﻫ واليا اشتهر بالشجاعة ، وأمره بتحصينها وتجديد سورها (١) غير أن جوهرا عجز عن الاستيلاء عليها

وكان جوهر يرمى من وراء اصطدامه بالأمويين فى سبتة وطنجة ، إلى الوقوف على قوتهم ، حتى إذا تم له النصر ، استطاع أن يخطو الخطوة التالية ، وهى محاولة فتح بلاد الأندلس نفسها ، وبذلك يتمكن الخليفة الفاطمى من « قطع دابره

(١) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٢٣١

(الناصر) ، واستئصال شأفته ، وحسم أيامه ومدته .

وكان المعز يرى أنه إذا تعذر عليه الانتصار على الناصر فى إفريقية ، عدل عن فتح بلاد الأندلس ، وعمل على الاحتفاظ بما فتحه جوهر الصقلى ، وبلكين ابن زيرى بن مناد فى شمال إفريقية وحال دون توغل جيوش الناصر فى هذه البلاد ، ثم تفرغ بعد ذلك لتوجيه نشاطه نحو المشرق لفتح مصر ، واتخاذها قاعدة يوجه منها حملاته إلى العباسيين

والواقع أن المعز لدين الله رأى باعتباره خليفة علويا أن يقضى على خلافتين سنيتين ، فحاول القضاء على الخلافة الأموية بالأندلس ، ولكنه وجدها قوية نشيطة ، كما حاول القضاء على الخلافة العباسية ، فولى وجهه شطر مصر ، حتى إذا تم له فتحها ، استطاع أن يحقق ما عجز عنه آباؤه وأسلافه من قبل ، فيضم بلاد الشام والحجاز ، ويمد نفوذه إلى بغداد . ومن ثم نرى المعز يأمر أئمة المساجد والمؤذنين « ألا يؤذنوا إلا ويقولوا فيه حى على خير العمل ، وأن يقرءوا بسم الله الرحمن الرحيم فى أول كل سورة تسليمتين ، ويكبروا على الجنائز خمسا ، ولا يؤخروا العصر ، ولا يبكروا بالعشاء ، ولا تصيح امرأة وراء جنازة ، ولا يقرأ العميان على القبور إلا عند الدفن[1] » .

والواقع أن الحروب التى شنها المعز فى بلاد المغرب قد أثارت مخاوف الأمويين فى الأندلس ، الذين لم يعد لهم نفوذ فى إفريقية ومما يدل على خوف الأمويين من الفاطميين ما جاء على لسان المعز نفسه من أن الناصر الأموى « لما أحس بالعساكر التى أوجناها المغرب ، اشتد خوفه ، واستولى عليه ذعره ، فأرسل أوثق قواده عنده بعسكر أوعب فيه إلى ناحية المرية ، فضرب على ساحل البحر مضاربه ، وأناخ به عسكره ، إلى أن وافى به بعض أهل يعلى اللعين (صاحب تاهرت) يخبرونه بقتله وقتل أهل بيته ، واستيلاء العساكر (الفاطمية) فى ساعة واحدة على مدينته وقياطينه[2] وجاء فى مركب آخر مخبر يخبر عن هرب صاحب سجلماسة ، ولم يكن علم بأسره فما هو إلا أن بث ذلك فى العسكر ، فنفروا نفرة واحدة ، فما

---

(١) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٢٣١

(٢) العدد والأسلحة والعبيد وما إلى ذلك

اجتمع منهم اثنان ، وما بقى بالمناخ إلا مضرب القائد (١) » وإن دل ذلك على شيء ، فإنما يدل على اهتمام الأمويين بكل ما يحدث فى بلاد المغرب ، وخوفهم من إغارة الفاطميين على بلادهم

ومن أهم الحوادث التى وقعت بعد الحملة الفاطمية الكبرى فى المغرب سنة (٣٤٧ هـ) وفاة الحسن بن أحمد بن إبراهيم بن إدريس بمدينة قرطبة سنة ٣٥٩ هـ ، وكان عبد الرحمن الناصر قد اتخذه رهينة، ليضمن ولاء أتباعه وأنصاره للأمويين ، وكان معه فى سجنه بقرطبة ابناه محمد والحسين وظلا إلى خلافة الحكم الثانى ، حيث عادا إلى المغرب فى شهر رجب سنة ٣٥٤ هـ (٢) وإنما فعل الأمويون ذلك لينشروا نفوذهم فى إفريقية ، وعلى هذا النحو استمر الصراع السياسى بين الأمويين والفاطميين.

٣ — علاقة المعز بجزيرة اقريطش

كانت جزيرة إقريطش (كريت) فى قبضة العباسيين ، ولقربها من مصر كان يشرف عليها والى هذه البلاد . وقد استوطنها منذ أوائل القرن الثالث إلى منتصف القرن الرابع الهجرى ، جماعة من مهاجرى الأندلس ، يعرفون بأهل الربض (٣) وكان هؤلاء الربضيون قد ثاروا على الحكم بن هشام الأموى حول سنة ٢٠٤ هـ ، وحاصروه فى قصره بقرطبة ، ولكنه انتصر عليهم فى واقعة « الربض » المشهورة ، وقتل منهم عددا كبيرا ، وأجلى البقية الباقية منهم عن الأندلس ، فقصد بعضهم مدينة فاس بالمغرب الأقصى ، وقصد بعض آخر مدينة الإسكندرية

ويظهر أن هذا الفريق كان يميل إلى إثارة الشغب ، فأثاروا الرعب فى قلوب أهالى الإسكندرية ، فى عهد ولاية عبد الله بن طاهر (٢١١ - ٢١٣ هـ) واعتصموا بهذه المدينة ، وطردوا أهلها منها ، وولوا عليهم واحدا منهم يعرف بأبى حفص عمر بن شعيب البلوطى ولكن والى مصر استطاع أن يهزمهم ، ويجليهم عن الإسكندرية ، ويمثل معهم الدور الذى قام به الحكم الأموى من قبل ، فطردهم

---

(١) النعمان المجالس والمسايرات جـ ١ ص ٣٢٦

(٢) ابن عذارى البيان المغرب جـ ١ ص ٢٣١

(٣) الربض بفتحتين للمدينة ، ما حولها ، وجمعها أرباض أى ضواحى

عن مصر ، وطاردهم إلى جزيرة إقريطش ، فعمروها ، وتولى أمرهم جميعا هذا الثائر الخطير أبو حفص عمر بن شعيب

وظل الربضيون بجزيرة إقريطش زهاء قرن ونصف قرن ، فى أمن ودعة . حتى طمع الروم فى بلاد الدولة العباسية ، وبدءوا فى منتصف القرن الرابع الهجرى يوجهون ضرباتهم المتتالية إليها من كل ناحية ، فهاجموا شمالى العراق ، وشمالى الشام ولم يكتفوا بذلك ، بل هاجموا جزيرة إقريطش فى أواخر حكم الدولة الإخشيدية ؛ فطلب الربضيون النجدة من خلفاء بغداد ، ومن سيف الدولة الحمدانى الذى اشتهر بحروبه مع الروم ومن ولاة مصر ؛ فلم يسعفهم هؤلاء ولا أولئك ، فولوا وجوههم شطر المنصورية ، يطلبون النجدة من المعز لدين الله ، فهم بمساعدتهم ، وبعث إليهم أساطيله ، واتصل بالإخشيديين فى مصر وحثهم على إنجادهم ، كما اتصل فى الوقت نفسه بالروم وحذرهم مغبة التعرض لهؤلاء الربضيين .

ويدل اتصال المعز بالربضيين على مهارته السياسية ، لأنه كان يعلم أنهم يتبعون العباسيين السنيين ، ومن ثم رغب فى أن يفصل بين هؤلاء وأولئك ، وأن يجعلهم من رعاياه الموالين له ويبدو أن المعز أراد بذلك أن يبين للعالم الإسلامى أنه وحده هو الذى يستطيع أن يأخذ بناصر الربضيين دون العباسيين الذين ضعف أمرهم فى ذلك الحين كما عول على أن يلقى الرعب فى قلوب الروم ، ويبين لهم أنه يستطيع أن يقف فى وجههم ، ويقضى على جيوشهم إذا حاولوا أخذ إقريطش

وكان المعز لدين الله قد أحل الهزيمة بإمبراطور الروم ، وبحلفائه الأمويين فى الأندلس ، وعقد معه هدنة أمدها خمس سنين . وقد هاله أن يغير الروم على جزيرة إقريطش ، بقيادة الدمستق[1] ، ويهددوا بهجومهم هذا جناح المعز الأيمن من جهة ، ويحولوا بذلك بينه وبين فتح مصر والقضاء على العباسيين من جهة أخرى لذلك عمل الخليفة الفاطمى على نقض هذه الهدنة ، والوقوف فى وجه مطامع الروم ، وما كاد أهالى جزيرة إقريطش يرسلون إلى المعز « مركبا فيه رجال من قبلهم مع وجه من وجوههم... يستغيثون به ، ويسألونه استنقاذهم وإعانتهم » ، حتى أمر المعز

(١) يقول النعمان (ج ٢ ص ٤١٣) هو أقرب القواد إلى إمبراطور الروم وأخصهم به .
يقول فورنيل (Fournel : La Conquête de l'Afrique par les Arabes, p. 332) إن الروم حاصروا هذه الجزيرة بقيادة نقفور فوكاس الذى حاصر حاضرتها « كاندى » أكثر من سبعة أشهر ، ثم فتح الجزيرة كلها

بالأخذ فى الأهبة والعدة ، ليكون نفوذ الأساطيل إليهم فى أول زمان الإمكان. واقتفى المعز أثر الرسول ﷺ حين نبذ عهد المشركين من العرب إذ خانوه ، فنزل قوله تعالى « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء » (١)

أرسل المعز رسالتين تعدان من خير الوثائق فى تاريخ العلاقة بين المعز والإخشيديين ، ثم بينه وبين الروم كما أسهب القول مع رسول الإقريطيشيين ، فأوضح لنا بهذا كله سداد رأيه ومهارته السياسية . كما تدلنا محادثته مع رسول الربضيين على أهمية جزيرة إقريطش للمعز نفسه ، وعلى أن أهلها كانوا على علم تام برغبة المعز فى فتح مصر . فقد أوضح الرسول للخليفة الفاطمى أهمية هذه الجزيرة من الناحية الاستراتيجية ، وبين له أن من يستولى عليها يستطيع أن يستولى على مصر والقسطنطينية ، وأنه يجد من مرافئها ملاذا لأساطيله ، ومن معادنها خير معين لتقدم صناعته وهكذا جعل الرسول « يذكر له قدر البلد وموضعه من بلد الروم ومن مصر ، وأنه فرضة لهما ، وأن الله تعالى إن أقدره على دفع المشركين عنه وملكه إياه ، كان سبب فتح القسطنطينية والمشرق عليه إن شاء الله . وعدد ما فيه من الآلات والمعادن ، وما يتهيأ به من إنشاء الأساطيل وقربه من القسطنطينية ومصر (٢)» .

والحق أن رد المعز على رسول الربضيين ليدل على ما كان يجيش فى نفسه من آمال لفتح هذه الجزيرة وصد الروم عنها. ولذلك نراه يلوم الرسول وأهل إقريطش، لأنهم لم يتصلوا به قبل أن يستفحل خطر الروم ، ويظهر له أنه سيقوم بهذه المساعدة ، لأنه كرجل من سلالة محمد ﷺ ، يجب عليه أن ينظر إلى جميع المسلمين على أنهم رعاياه . ويدل رده على الرسول على أنه جاد فى إعداد العدة لصد الروم. وقد أبقى المعز الرسول ليكون فى صحبة الأسطول الفاطمى ، وأرسل إلى أهل إقريطش يخبرهم « بما عزم عليه من إغاثتهم ونصرتهم فى أول وقت الإمكان من الزمان » (٣)

وكان المعز يجد فى تلبية مطالب أهل إقريطش ما يحقق آماله الواسعة فى مد نفوذه إلى الشرق ، لأن من يستولى على هذه الجزيرة يسهل عليه فتح مصر والبلاد الواقعة

---

(١) النعمان : المجالس والمسايرات جـ ٢ ص ٤١٢

(٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٤٢١

(٣) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٤٢٣

على ساحل البحر الأبيض الشرقى وهذا يفسر لنا إقدام الألمانيين والإيطاليين فى الحرب العالمية الثانية على الاستيلاء على هذه الجزيرة وما يتبع ذلك من انتصاراتهم فى ميدان البحر الأبيض المتوسط

وأما اتصال المعز بالإخشيديين فى عهد وصاية كافور على « صاحب مصر » كما أطلق عليه المعز ، فإن مسلمى هذه الجزيرة كانوا قد اتصلوا به قبل أن يتصلوا بالمعز ، لأنهم كانوا « من أهل دعوته ، تجمعهم دعوة آل العباس » أضف إلى ذلك أن جزيرة إقريطش كانت مستودعا هاما لتموين مصر فى ذلك الحين ، حتى كانت سفن أهل هذه الجزيرة « ومراكبهم بخيرات بلدهم وأطعمتها تمـــير أهل مصر ، وهداياهم تصل إلى عمالها » ومع ذلك عجز هؤلاء الإخشيديون أن يمـدوا يد المعونه لأتباعهم ورعاياهم من المسلمين فى إقريطش ، ولكنهم أرسلوا فى الوقت نفسه إلى المعز سرا ، عن طريق بعض كبار الشخصيات المصرية ، يستحثونه لنجدة الربضيين ، وتظاهر الأخشيديون بالاستعداد للعمل على طرد الروم ، فأنزلوا بعض سفنهم إلى البحر الأبيض .

وقد عمل المعز لدين الله على الاستعانة بالسفن المصرية ، واستحث الإخشيديين على الإسراع لنجدة المسلمين فى إقريطش ، فذكر لهم أنه قد عقد العزم على صد الروم عن الجزيرة ، وتعهد بأن يتعاون كل من الأسطولين المصرى والفاطمى على طرد العدو ، وأن توزع الغنائم والأسلاب بين هؤلاء وأولئك بالعدل . وإنما فعل المعز ذلك ليجذب إليه قلوب الإخشيديين خاصة ، والمصريين عامة ، ويقضى على مقاومة الروم قبل أن يستفحل خطرهم وفى ذلك يقول المعز لكافور ، الذى آلت إليه الوصاية على أولاد الإخشيد

« لا تخش على مراكبك منا ، فلك علينا عهد الله وميثاقه أنا لا نكون معهم إلا بسبيل خير ، وإنا نحلهم محل رجالنا ، ونجعل أيديهم مع أيدينا ، ونشركهم فيما أفاء الله علينا ، ونقيمهم فى ذلك وغيره مقام رجالنا ، ومراكبك مقام أساطيلنا ، حتى يفتح لنا إن شاء الله ، ثم ينصرفوا اليك[1] » .

وقد وضع المعز خطة العمل المشترك مع الإخشيديين وهى تقضى بأن

---

(١) النعمان المجالس والمسايرات جـ ٢ ص ٤١٨ — ٤١٩

يرسلوا رجالهم وسفنهم إلى إحدى الموانى الفاطمية فى برقة القريبة من إقريطش ، وأن يكون ذلك فى شهر ربيع الآخر من سنة ٣٥٠ هـ ، ثم يؤكد للإخشيديين أنه قد عقد العزم على مهاجمة الروم ، سواء اشتركوا معه فى ذلك الهجوم أو تقاعدوا عن معونة أهل هذه الجزيرة . وهكذا اتخذ المعز لدين الله من موانى برقة مراكز أساسية لمهاجمة الروم فى إقريطش ، كما اتخذ الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية ، تلك الموانى لطرد الألمان منها

وأما موقف المعز العدائى من الروم ، فنقف عليه من رسالته التى أرسل بها إلى إمبراطور القسطنطينية ، يهدده فيها بنقض الهدنة التى بينهما ، ويحتج عليه لهجومه على المسلمين فى إقريطش ، ويبين له أن العالم الإسلامى ملك للفاطميين ، لا للعباسيين الذين اغتصبوا الأمر منهم

« فإقريطش وغيرها من جميع الأرض لنا ، بما خولنا الله منها ، وأقامنا له فيها ، أطاعنا منها من أطاعنا ، وعصانا من عصا ، وليس بطاعتهم يجب أن نملك ، ولا بعصيانهم يحق علينا أن نترك[1] » .

وهذا القول لا يترك مجالا للشك فى أن المعز لدين الله قد عقد العزم على أن خل العالم الإسلامى فى حوزته كما أنه قد أعلن للروم أنه لن يترك لهم شيئا من هذه البلاد ، لأن الاعتداء على أى جزء منها ينطوى على التحدى للفاطميين أنفسهم

ولم يقف المعز فى إثارة مخاوف الروم عند ذلك الحد ، فقد كشف لإمبراطورهم عن ضرورة تنحيه عن إقريطش التى هاجمها قائده « الدمستق » ، وإلا قطعت الهدنة ، وحلت محلها الحروب[2]

وهكذا تتضح سياسة المعز نحو إقريطش ومن بها من المسلمين ، فلم يقر للعباسيين بملكيتها ، أو للروم بالعبث بهـــا ، حتى لا تصبح عقبة فى سبيل مد نفوذه إلى الشرق . والحق أن تدخل المعز فى شئون هذه الجزيرة لون من المظاهرات السياسية التى

---

(١) النعمان المجالس والمسايرات جـ ٢ ص ٤١٤

(٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٤١٦

استغلها لإظهار قوته للعالم الإسلامى ، وللروم أنفسهم ، ولون من الدهاء السياسى الذى ينطوى على ذلك البرنامج الواسع النطاق ، الذى كان يرمى من ورائه إلى ضم سائر العالم الإسلامى إلى أملاكه

لذلك لا نعجب إذا رأينا المعز لدين الله يتودد إلى أهل إقريطش وإلى كافور الإخشيدى ويرجع تودده إلى أهل إقريطش إلى إثارة كراهيتهم العباسيين الذين تركوهم تحت رحمة الروم دون أن يبذلوا جهدا فى سبيل تخليصهم كما يرجع تودده إلى صاحب مصر إلى تلك السياسة التى درج عليها آباؤه وأجداده ، حتى يتم للفاطميين إخضاع هذه البلاد دون إراقة كثير من الدماء وقد حفظ لنا التاريخ بعض الرسائل الودية التى أرسلها الفاطميون إلى الإخشيديين يستميلونهم إليهم فقد حاول الخليفة القائم بأمر الله الفاطمى (٣٢٢ — ٣٣٤ هـ) أن يستميل إليه محمد بن طغج الإخشيد ولم يكن خلفاؤه أقل منه فى ذلك فقد كان المعز خاصة دائم الاتصال بكافور الإخشيدى الذى آلت إليه السلطة بعد وفاة محمد بن طغج الإخشيد ، حتى أصبح كافور شديد الميل إلى العلويين ، وبذلك عمل المعز على عدم إثارة الشكوك فى نفس كافور[١] حتى يضمن انقياده له ، واطمئنانه إليه

ولم تمدنا المراجع التاريخية بشىء عما كان للجهود التى بذلها المعز لمساعدة المسلمين فى إقريطش من أثر فهل انضم أسطول مصر إلى أسطوله ؟ أو تم إخراج الروم من هذه الجزيرة ؟ هذا ما لم تذكره المراجع الإسماعيلية غير أن ابن خلدون[٢] يؤكد احتلال الروم هذه الجزيرة فى سنة ٣٥١ هـ فيقول إن الربضيين من مهاجرى الأندلس استقروا بهذه الجزيرة منذ أخرجهم إليها عبد الله بن طاهر الذى كان واليا على مصر فى سنة ٢١١ هـ ، فكأن خروجهم من هذه البلاد وقصدهم إقريطش كان فى هذه السنة .

استقر الربضيون فى إقريطش مائة وأربعين سنة ، ثم غزاهم الروم وطردوهم منها فى عهد «أريانوس بن قسطنطين الثامن» إمبراطور الدولة البيزنطية فى سنة ٣٥١ هـ[٣] .

---

(١) انظر ملحق رقم (١)

(٢) العبر جـ ٤ ص ٢١١

(٣) ورد فى العبر لابن خلدون (جـ ٤ ص ٢١١) أن ذلك كان فى سنة خمس والثمانمائة وهو —

ومهما يكن من شيء فإن احتلال الروم هذه الجزيرة قد تم فى الوقت الذى كان المعز لا يزال فى بلاد المغرب ويظهر أن اهتمام المعز بفتح مصر وإعداد العدة لذلك الفتح، واشتغاله بعد ذلك بفتح الشام، وصراعه مع منافسيه القرامطة هنالك، كل ذلك قد حال دون استرداده هذه الجزيرة من الروم، واستغلال موقعها الاستراتيجى لمصلحته الحربية

٤ — علاقة المعز بجزيرة صقلية

سن الخليفة المهدى لمن خلفه من الفاطميين نظاما جديدا يقضى بأن يكون إلى جانب والى هذه الجزيرة جيش احتلال فاطمى قوى يدفع خطر الأعداء عنها وكوّن بعض الولاة لأنفسهم على مر الزمن عصبية قوية وتمتعوا بشيء غير قليل من الاستقلال وخير مثال لذلك الأسرة الكلبية؛ فولى الخليفة المنصور الحسن بن على الكلبى، فى سنة ٣٣٦ هـ، وأصبح حكم هذه الجزيرة مقصورا على هذه الأسرة. فلما ولى المعز لدين الله الخلافة أقر الحسن فى ولايته، واستطاع هذا الخليفة أن ينتصر بمساعدة ولاة هذه الجزيرة من الكلبيين على أعدائه من الأمويين أولا ثم على الروم ثانيا كما استطاع أن يهدد إيطاليا، وأن يلقى الفزع فى قلوب أهالى الجزء الغربى من البحر الأبيض المتوسط

ولما ولى المعز الخلافة فى سنة ٣٤١ هـ، كان الحسن الكلبى يلى جزيرة صقلية وقد عمل منذ تقلد ولاية هذه الجزيرة فى عهد الخليفة المنصور الفاطمى على إخضاع جميع الروم فيها إلى نفوذ الفاطميين، ولكن النزاع قد تفاقم بينه وبين الأهالى. ولم ير مسيحيو صقلية وقلورية بدا من الالتجاء إلى أباطرة الدولة البيزنطية، الذين استجابوا إلى ندائهم، لأنهم كانوا يعملون على مناصبة العباسيين فى المشرق، وشغل المسلمين فى المغرب والأندلس بمحاربة الفاطميين فى صقلية. لذلك أرسل الإمبراطور قسطنطين

خطأ مطبعى بالطبع، لأن ابن خلدون ذكر قبل ذلك أن خروج الربضيين كان فى عهد عبد الله بن طاهر (٢١١ – ٢١٣ هـ)، وأنهم استقروا بجزيرة إقريطش مائة وأربعين عاما، فيكون خروجهم منها فى سنة ٣٥١ هـ. أو فى سنة ٣٥٠ هـ وإذن فإن عبارة خمس وثلثمائة ،، يجب أن تكون ،، خمسين وثلثمائة أو إحدى وخمسين وثلثمائة

الثامن (٣٠٧–٣٣٣هـ = ٩١٩ – ٩٤٤م) جيوشه إلى هذه الجزيرة، واشتبكوا مع جيوش الحسن الكلبي الصقلية وجيوش الخليفة المنصور المغربية وكان قد أمد بها الحسن في أواخر حياته، فاستولت على كثير من أمهات مدن قلورية وصقلية الموالية للروم مثل جراتشي Geraci [1] حيث حلت الهزيمة بالجيش البيزنطي وقتل قائده، وأرغم الإمبراطور على طلب الصلح، وتعهد للحسن الكلبي، بأن يدفع أهل قلورية الجزية للفاطميين وأن يحترموا الشريعة الإسلامية. واستطاع الوالي الفاطمي — كما يقول ابن خلدون [2] — أن يبني المساجد في المدن الرومية وإن قرب صقلية من إيطاليا قد أتاح له الفرصة للإغارة على جنوبها، وفتح قلورية، وإخضاع هذه الجزيرة للفاطميين، ولذلك اصطدم مع أباطرة الدولة الرومانية الشرقية وعلى الرغم من مهادنة أباطرة الروم في أواخر حكم المنصور، الحسن الكلبي، ظل الصراع عنيفا بين الحسن والمعز من ناحية، وبينه وبين الروم من ناحية أخرى[3]

وفي عهد المعز لدين الله لم يحترم الإمبراطور قسطنطين الثامن شروط الهدنة التي عقدها مع الحسن الكلبي وشجعه على ذلك ما أحرزه من الانتصارات الباهرة على العباسيين والحمدانيين في المشرق، وطمع في أن يحرز في المغرب ما أحرزه من الانتصارات في المشرق. وقد عول على أن يشغل المعز بهذه الحروب حتى تتاح له الفرصة للقضاء على الدولة العباسية المتداعية ولذلك أرسل في سنة ٣٤٥هـ (٩٥٦م) حملة برية بحرية، وركز الروم جهودهم في فتح بلرمو، وكانت موالية للمسلمين، ففتحوها بعد حصار طويل شاق وأخذت انتصارات الروم تتوالى في قلورية التي عجزت عن صد جيوش الفاطميين، واستطاع الروم بعد هذه الانتصارات أن يرسلوا جيوشهم إلى صقلية نفسها ويستولوا على مدينة ترميني Termini التي تبعد عن بلرمو بأربعة عشر ميلا غير أن الروم لم يتمتعوا بثمار هذه الانتصارات الرائعة في صقلية، وعادوا أدراجهم إلى قلورية

ونستطيع أن نصور في إيجاز موقف الفاطميين في صقلية في خلال هذه الحروب

---

(١) ويسميها ابن الأثير (جـ ٨ ص ١٧٨) ،، جراجة ،،

(٢) العبر جـ ٤ ص ٢٠٩

(٣) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٧٨

التى استمرت قرابة خمس سنين فقد كان الحسن الكلبى فى صقلية على رأس جيش قوى ، وكان أخوه عمار على رأس جيش فاطمى آخر فى قلورية إلا أن الحسن كان أكثر حرية فى العمل من أخيه ، فقد تخلص بإخراجه الروم من « ترميني » من الخطر الذى كان يتهدده فى صقلية . أما أخوه عمار فقد كانت جيوش الروم تطارده من مكان إلى مكان ، ولم يخلصه إلا انضمام أخيه الحسن إليه (سنة ٣٤٧ هـ) . فقد استطاع أن يعبر خليج مسيني بين صقلية وقلورية ، وينضم إلى جيوش الفاطميين بقيادة أخيه عمار، وما زال الحسن وأخوه يغزوان مدن قلورية واحدة إثر أخرى، وإمدادات الفاطميين تتوالى عليهم ، حتى اضطر الإمبراطور البيزنطى أن يرسل إلى الفاطميين فى سنة ٣٥٠ هـ رسولا من قبله يسمى « سقراط » ، يطلب عقد هدنة مماثلة لتلك الهدنة التى أبرمت فى عهد الخليفة المنصور الفاطمى ، وتقضى بأن تدفع قلورية الجزية للمسلمين

وهكذا انتهى الدور الأول من هــــذه الحروب التى شنها المعز لدين الله على الروم فى صقلية وقلورية إلى هـذا النصر المؤزر وزال خطر الروم عن هـذه البلاد إلى حين ، وذلك بفضل جهود الحسن وأخيه عمار ، وغيرهما من أفراد الأسرة الكلبية. على أن الإمبراطور قسطنطين لم يقف مكتوف الأيدى أمام المعز والكلبيين، فاتفق مع عبد الرحمن الناصر الأموى على محاربة الفاطميين فى صقلية ـ على ما رأينا ـ وعلى مهاجمة إفريقية نفسها من الشرق فى الوقت الذى يهاجمها منه عبد الرحمن الناصر الأموى فى الغرب ، ولكن جيوش المعز استطاعت أن تحبط هـذا المشروع الخطر ، وانتصرت على الروم فى البحر الأبيض (١) ، كما انتصرت على الأمويين واضطر الإمبراطور البيزنطى إلى طلب الصلح بعد أن حلت به هــــذه الهزائم المتتالية ، وعقدت بينه وبين الخليفة الفاطمى المعز هدنة أمدها خمس سنين

وقـد أفاض المؤرخون فى ذكر الحـرب التى قامت بين أنصـار الفاطميين وأنصار البيزنطيين فى صقلية ، فقـد استطاع أحمد بن الحسن بن أحمد الـكلبى أن يستولى فى سنة ٣٥١ هـ ، على قلعة طبرمين ـ وكانت من أمنع القلاع فى صقلية ـ

---

(١) أنظر ص ٤٠ ـــ ٤٣ من هذا الـكتاب

بعد مقاومة عنيفة . وطلب أهلها « أن يؤمنوا على دمائهم ، ويكونوا رقيقا للمسلمين وأموالهم فيئا [١] » . وقد أقام أحمد بن الحسن الكلبي في هـذه المدينة جماعة من المسلمين ، وطرد أهلها عنها ، ولم يكتف بذلك بل سماها ـ كما قال ابن الأثير ـ[٢] : « المعزية » تيمنا باسم المعز لدين الله وكان لسقوط هـذه المدينة أثره في المدن الأخرى المعادية للفاطميين ، فقد أخذت تفتح أبوابها للجيوش الفاطمية التي أخذت في احتلالها إلا أن مدينة « رمطة » أبت أن تستسلم للفاطميين الذين حاصروها بقيادة الحسن بن عمار في رجب سنة ٣٥٢ هـ وأرغم أهلها على طلب النجدة من الإمبراطور « نقفور فوكاس » (٣٥٢ — ٣٥٩ هـ = ٩٦٣ - ٩٦٩ م) ، وكان قد انتصر على العباسيين والحمدانيين ثم على الربضيين بجزيرة إقريطش وقد عمل هـذا الإمبراطور على أن يتشبه بمن سبقه من الأباطرة البيزنطيين في الاتجاه نحو الغرب ، لينال فيها ما ناله من شرف الانتصار في الشرق ، وليشغل الفاطميين خاصة عن التطلع إلى بلاد المشرق

وقد بلغ من اهتمام الإمبراطور نقفور فوكاس بمحاربة الفاطميين ، أنه أعد أسطولا ضخما ملأه بالمؤن والذخيرة ، واختار له مشهوري قواده ، وأعد جيشا يقرب من خمسين ألف رجل مجهزين بأحسن آلات الحرب ، وأمر عليه رجلين ، أحدهما مانويل Manuel ، وكان يمت إليه بصلة القرابة. وكان الروم يعتقدون أن النصر معقود لهم ، ولا عجب فإن صقليـة لم يدخلها من قبل جيش بلغت قوته قوة هذا الجيش البيزنطي ، على ما ذكره ابن الأثير

أما جهود المعز لدين الله وأنصاره في صراعهم مع نقفور فوكاس وأنصاره من أهل صقلية ، فتتجلى في إعداد أحمد بن الحسن الكلبي ، والي صقلية ، الأسطول الصقلي إعدادا كاملا ، وفي إعداد جيوشه البرية وتوزيعها على موانى صقلية الشمالية الشرقية ، وفي ذلك المدد الذي أمد به المعز واليه على هذه الجزيرة . وقد وصل أسطول الفاطميين إلى هذه الجـــزيرة في منتصف سنة ٣٥٣ هـ (٩٦٤ م) وقسم الحسن الكلبي وابنه أحمد الجيوش الفاطمية الرئيسة قسمين قسما بقيادة الحسن بن عمار ، وقد

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٩٥

(٢) المصدر نفسه جـ ٨ ص ٢٠٩

عهد اليه بحصار مدينة رمطة Rametto ، والقسم الأكبر برياسة الحسن الكلبي نفسه وقد عسكر فى بلرمو.

ومهما يكن من شيء فإن وصول المدد الإفريقي إلى صقلية قد تم قبل وصول الروم إليها ويرجع ذلك إلى قرب المسافة بين تونس وصقلية ، وحسن إعداد الجيوش والأساطيل المعزية . أضف إلى ذلك أن المعز لدين الله أصبح بعد إخضاع جميع بلاد المغرب تقريبا ، على يد جوهر الصقلي ، آمنا على نفسه من خطر الحروب الداخلية فى المغرب بين الأقصى والأوسط ، ولم يعد يخشى أموى الأندلس أنفسهم ، ولذلك ألقى بكثير من قواته البرية والبحرية فى المعركة وعلى الرغم مما بذله الفاطميون من جهود فى هذه السبيل ، استطاع الروم أن يستولوا على مسينا التى تبعد عن رمطة بتسعة أميال ، وذلك فى شهر شوال من سنة ٣٥٣ هـ (٩٦٤ م) ، كما استولوا على ترميني Termini وغيرها، وحالوا دون وصول المدد الفاطمي إلى الحسن ابن عمار الذى كان يحاصر رمطة

وكان اهتمام الحملة البيزنطية يتركز حول إنقاذ مدينة رمطة . والقضاء على جيوش الحسن بن عمار التى كانت على حصارها ولذلك اندفعوا إلى هذه المدينة كالسيل المنهمر ، وأدرك الحسن بن عمار ، كما أدرك سائر قواد الفاطميين ، خطر اندفاع الروم إلى رمطة ، فاتجه أحمد بن الحسن الكلبي من بلرمو إلى رمطة ، لإنقاذ ابن عمه الحسن بن عمار ، ولكنه لم يستطع أن يسبق الروم إليها ، واشتغل باسترداد ترميني .

أما الحسن بن عمار فلم يعبأ بكثرة الروم ، وقسم جيشه الصغير أربعة أقسام جعل قسما منها على حصار رمطة نفسها ، ليمنع أهلها من الاتصال بالجيش البيزنطي المهاجم ؛ ووضع قسمين آخرين على رأس الواديين اللذين يوصلان إلى المدينة ، وكان العدو يستطيع التسلل منهما إليها ، واتجه على رأس البقية الباقية من جنده لمقابلة جيوش مانويل الرئيسة وقد تمكنت جيوش الحسن المحاصرة لمدينة رمطة من منع أهالى هذه المدينة من الاتصال بالروم ، وأدرك الحسن ومن معه من الجنود أنهم دون العدو عددا وعددا ، فاستماتوا فى القتال ، وتعاقدوا فيما بينهم على

أن يموتوا كراما وهكذا « تقدم الروم إلى القتال ، وهم مدالون (١) بكثرتهم ، وبما معهم من العدد وغيرها والتحم القتال ، وعظم الأمر على المسلمين ، وألحقهم العدو بخيامهم ، وأيقن الروم بالظفر ؛ فلما رأى المسلمون عظم ما نزل بهم اختاروا الموت ، ورأوا أنه أسلم لهم ، وأخذوا بقول الشاعر

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسي حياة مثل أن أتقدما
فلسنا على الأعقاب(٢) تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما(٣)

ويظهر أن ثبات المسلمين أمام الروم ، واندفاعهم نحوهم على الرغم من قلتهم ، كان مفاجأة تامة لهؤلاء الروم ، الذين كانوا يوقنون أنهم سيحيطون بجيوش ابن عمار ، ويبيدونها فى ساعات قليلة . ومن ثم أخذ الهلع يدب إلى نفوسهم ولما أدرك قائدهم مانويل حرج مركزه ، تقدم صفوف جنده ، وجعل يثير الحماس فى نفوسهم ويحذرهم مغبة الهزيمة أمام فئة قليلة من المسلمين

أما الحسن بن عمار فقد قابل هذا التحدى بمثله ، وأعمل هو ورجاله السيف فى رقاب الروم ، وأحاطوا بقائدهم مانويل ، وعقروا فرسه وقتلوه . وكان ذلك الظفر ضربة قاضية على الروم الذين عز عليهم قتل قائدهم فولوا لا يلوون على شيء ، وحالت الأمطار والعواصف بينهم وبين النجاة ، ووقع سوادهم الأعظم فى الأسر ، » وقتل جماعة من البطارقة ، وانهزم الروم ، وتتبعهم المسلمون بالقتل ، وامتلأت أيديهم من الغنائم والأسرى والسبى » (٤) فكان هذا النصر انتقاما من البيزنطيين

---

(١) أى فخورون

(٢) أى لا نرتد على أعقابنا

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ١٩٩ — ٢٠٠

(٤) ابن خلدون العبر ج ٤ ص ٤٠٩ ويصف ابن الأثير (ج ٨ ص ٢٠٠) هذه الهزيمة بقوله « . انهزم الروم أقبح هزيمة ، وأكثر المسلمون فيهم القتل ، ووصل المنهزمون إلى جرف خندق عظيم كالحفرة ، فسقطوا فيه من خوف السيف ، فقتل بعضهم بعضا ، حتى امتلأت . وكانت الحرب من بكرة (الصباح) إلى العصر . وبات المسلمون يقاتلونهم فى كل ناحية ، وغنموا من السلاح والخيل وصنوف الأموال ما لا يحد ، وكان فى جملة الغنيمة سيف هندى عليه مكتوب هذا سيف هندى وزنه مائة وسبعون مثقالا ، طالما ضرب به بين يدى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فأرسل إلى المعز مع الأسرى والرءوس .

الذين عيثوا بجزيرة اقريطش (١)

وهكذا تلق الحسن بن عمار سيول الروم وحده ، ونال شرف الانتصار عليهم وحده ، وغنم منهم مالم يكن يدور بخلده . حتى كان الأسرى يعدون بالألوف. أما الغنائم فلم تكن تقع تحت حصر . أضف إلى ذلك أن تلك الموقعة قد قررت مصير رمطة ، بل قررت مصير صقلية نفسها ؛ فقد كانت هذه المدينة مركز المقاومة الرئيس فى وجه الحكم الفاطمى فى الجزيرة ، ومن ثم اندفعت فلول الروم نحو الساحل لاجئين إلى أسطولهم، تاركين حماة رمطة يلاقون حتفهم وحدهم، ويجنون ثمار ماقدمته أيديهم من الاتصال بالروم؛ فقد ضيق المسلمون عليهم الحصار، حتى اضطروا إلى إخراج نسائهم وأطفالهم إلى المسلمين ، فلم يشأ ابن عمار أن يغدر بهم وأبقى عليهم.

وعلى الرغم مما وصل إليه أهالى رمطة من بؤس وشقاء ، لم يشاءوا أن يلقوا سلاحهم ، واستمروا يقاومون إلى أن تسلق المسلمون الأسوار، واقتحموا مدينتهم واستولوا عليها عنوة ، وغنموا ما فيها (٢) ، ثم عمل المسلمون على تعميرها وسكنها طائفة منهم . وهكذا سلمت تلك المدينة الحصينة للفاطميين ، بعد حصار دام ثمانية أشهر ، ولو انتصر أهل رمطة وحلفاؤهم الروم ، لتغير تاريخ الفاطميين فى صقلية

وما كاد أحمد بن الحسن الكلبي ، ابن عم الحسن بن عمار ، يعلم بهزيمة الروم فى رمطة ، حتى اندفع نحو مسينا ، ليقطع على فلولهم خط الرجعة ؛ ولكنه علم أنهم هربوا إلى جزيرة ريو Riggio وقصدوا القسطنطينية ، فلحق بهم ، وانتصر عليهم فى موقعة تعرف بموقعة « المجاز » ، التى لا تقل خطرا عن موقعة « رمطة » ؛ فقد « زحف إليهم أحمد بن الحسن فى الماء، وقاتلهم، واشتد القتال بينهم، وألقى جماعة من المسلمين بأنفسهم فى الماء ، وخرقوا كثيرا من المراكب التى للروم فغرقت ، وكثر القتل فى الروم، فانهزموا ، لا يلوى أحد على أحد، وأسر قائدهم،(٣) وهو ثانى اثنين من قواد هذه الحملة ، وأرسل إلى سجن المهدية بإفريقية .

(١) Fournel La Conquête de l'Afrique par les Arabes, pp. 336-7.

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٠٠

(٣) المصدر نفسه .

وكان من أثر انتصار الفاطميين فى هاتين الموقعتين أن أخذت المدن الثائرة فى صقلية تسلم الواحدة تلو الأخرى ولم يقف أثر هاتين الموقعتين عند ذلك الحد ، فقد ساد الخوف من المسلمين فى « قلورية » ، واستولى الفزع على أهلها ، فعقدوا الهدنة مع أحمد بن الحسن الكلبي وأقروا على أنفسهم بدفع جزية للفاطميين فكان هذا نصرا مؤزرا للمعز لدين الله الفاطمى ، ودليلا قاطعا على قوة الخـــلافة الفاطمية ، حتى لقد شعر أباطرة الروم بأنهـا ليست سهلة المنال كالخلافة العباسية التى أخذت طريقها إلى الانهيار .

وكان لهذه الانتصارات المتتالية التى أحرزها أحمد بن الحسن ، والحسن بن عمار أثرها فى نفس عاهل تلك الجزيرة الأكبر ، وهو الحسن بن أحمد الكلبي ؛ فقد سره تدفق الأسرى والغنائم الرومانية ، كما سره قدوم الجيوش الفاطمية المظفرة فى بلرمو ، حاضرة هذه الجزيرة . وقد أجهد الحسن الكلبي نفسه فى الحفاوة بالجند الفاطميين بمصافحتهم ومعانقتهم ، حتى إنه خر صريعا تحت تأثير نشوة الفرح ، فى أواخر سنة ٣٥٤ ﻫ (٩٦٥م) [١]

هكذا مات الحسن الكلبي بعد أن أسس لأبنائه ملكا قوى الدعائم فى صقلية ، ومد نفوذ المنصور والمعز فى صقلية وقلورية ، وساهم مساهمة فعالة فى هزيمة الروم برا وبحرا غير مرة ، وهزم أسطول الأمويين فى عقر داره . إلا أن الدور الذى قام به فى عهد المعز كان أبلغ أثرا

تخوف إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية من ناحية الفاطميين ، فعمل على تحسين العلاقة بينه وبينهم ، لأن ذلك قد يؤدى إلى بقاء ممتلكاته فى قلورية ، ويحول دون القضاء على نفوذ دولته فى إيطاليا وإذا علمنا أن الامبراطور جستنيان قد وضع سياسة الاستقرار فى إيطاليا ، وأن أباطرة الدولة البيزنطية كانوا يعتقدون أنهم الورثة الحقيقيون لهذه البلاد ، أدركنا سبب تشبث هؤلاء الأباطرة بالبقاء فى كالابريا ومحاولتهم طرد المسلمين من صقلية . على أن هؤلاء الأباطرة لما وجدوا أنه لاقبل لهم بطرد جيوش الفاطميين من هذه الجزيرة ، اتجهت سياستهم ، وبخاصة سياسة نقفور فوكاس ، إلى أن يحتفظوا بالبقية الباقية من أملاكهم فى إيطاليا ولا سيما فى كالابريا .

(١) ابن خلدون العبر ج ٤ ص ٢٠٩

على أن هناك خطرا جديدا قد حدا البيزنطيين على محالفة الخليفة المعز لدين الله الفاطمى بعد أن حلت بهم الهزيمة فى رمطة والمجاز، ذلك الخطر هو رغبة الإمبراطور أوتو الأكبر فى توحيد إيطاليا، والقضاء على النفوذ البيزنطى والفاطمى فيها، فقد كاد يقضى على النفوذ البيزنطى هناك بانتصاره على ملك إيطاليا الرومانى فى سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١ م)، ونال بذلك إعجاب البابا، فعينه إمبراطورا مقدسا.

وقد بدأ أوتو يتطلع إلى ممتلكات البيزنطيين وخاصة فى قلورية، وأصبح يهدد الدولة البيزنطية والخلافة الفاطمية معا، فعمل نقفور فوكاس، على الاستعانة بالفاطميين فى دفع الخطر الجرمانى عن ممتلكاته البعيدة فى إيطاليا

وصل نيقولا سفير إمبراطور الدولة البيزنطية إلى إفريقية (سنة ٣٥٧ هـ) فى الوقت الذى كانت جيوش الفاطميين تتأهب لغزو مصر وقد هاله ما رأى من عظمة المعز، وما شاهده فى قصره من مظاهر الأبهة، وعلم أن الروم قد أخطئوا حين أطلقوا عليه «ملك المتبربرين»، وأيقن أن هذا الخليفة الفاطمى سوف يخالف العباسيين فى إمبراطوريتهم، كما يتبين ذلك من هذه العبارة التى وردت على لسان ذلك السفير، الذى بهره ذلك الاستقبال الذى استعد له المعز أحسن استعداد فقال «بعثنى إليك الملك [1] ذلك العام، فرأيت من عظمتك فى عينى وكثرة أصحابك ما كدت أموت منه، ووصلت إلى قصرك، فرأيت عليه نورا عظيما، غطى بصرى؛ ثم دخلت عليك فرأيتك على سريرك، فظننتك خالقا، فلو قلت لى إنك تعرج إلى السماء لتحققت ذلك [2]

وقد أفاد هذا الاتفاق الخليفة المعز، فلم يعد يخشى خطر هجوم الروم على بلاده فى المغرب فى الوقت الذى بعث فيه بجيشه الضخم إلى مصر ولو لم يكن المعز قد اتفق فى ذلك الوقت مع الروم، لما استطاع أن يعبىء كل قواه البرية والبحرية إلى الشرق، ولا أن يبعث بذلك العتاد الحربى مع جوهر. وهكذا استغل المعز هذا الاتفاق، وضاعفت جهوده فى الهجوم على مصر والشام. ثم اتجه إلى تنظيم الحكم فى جزيرة صقلية نفسها

---

(١) هو نقفور فوكاس (٣٥٢—٣٥٩ هـ = ٩٦٣—٩٦٩ م).

(٢) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٣٩

وأما أثر صقلية فى تاريخ العلاقة بين المعز لدين الله ، وبين عبد الرحمن الناصر الأموى ، فنراها فى استعانة المعز بالحسن بن على الكلبى ، للانتقام من الأمويين الذين عبثوا بإحـــدى السفن الصقلية الفاطمية وقد انتصر الحسن بأسطوله الصغير انتصارا باهرا على أسطول الأمويين الضخم فى ميناء المرية الأسبانية فى سنة ٣٤٤ ه ، وبرهن بعمله هـذا على قدرته الحربية ، وإتقانه عنصر المفاجأة والحرب الخاطفة وبهذا نرى أسطول صقلية وولاتها ورجالها يساهمون فى القضاء على خطر الروم والأمويين ، وعلى خطر الثوار من أهـل الجزيرة الذين ناوءوا الحكم الفاطمى

أشهر ولاة المعز بصقلية

تقلد هذه الجزيرة فى عهد المعز أربعة من الولاة ، أولهم الحسن بن أحمد الكلبي الذى تقلد ولاية هذه الجزيرة فى عهد المنصور على ما رأينا فلما ولى المعز الخلافة أقره فى ولايته ولـكنه استدعاه إلى المنصورية ، وأناب عنه فى حكم هذه الجزيرة ابنه أحمد بن الحسن وكان المعز يستعين فى حروبه فى صقلية بكبـار الـكلبيين مثل عمار الـكلبي أخى الحسن ، وابنه الحسن بن عمار بطل موقعة „ رمطة ،،

وقد أحدث موت الحسن بن أحمد الـكلبي فى سنة ٣٥٤ ه (٩٦٥ م) اضطرابا كبيرا فى هذه الجزيرة ، فمن قائل إن المعز عمل على إقصاء هـذا البيت القوى عن الحكم ، حتى لا يستبد أفراده بالأمور دونه(١). والحق أن هذه كانت سياسة المعز ، فإنه لم يشأ أن يبقى الحسن بن أحمد وحده هناك ، بل أشرك معه فى الأعمال الحربية أخاه عمار بن أحمد ، كما أنه لم يشأ أن يترك الحسن مع ابنه أحمد فى هـذه الجزيرة ، حتى لا يستبد بشئونها ولذلك استدعاه إلى إفريقية ، وترك أحمد نائبا عنه فيها وعمل فى الوقت نفسه على ألا يترك فيها أحمد بن الحسن الـكلبي وحده ، بل أشرك معه فى الشئون الحربية خاصة ابن عمه الحسن بن عمار .

والواقع أن المعز لدين الله أبقى أحمد بن الحسن الكلبي واليا على صقلية بعد وفاة أبيه الحسن حتى سنة ٣٥٨ ه ، حيث ولى « يعيش » مولى الحسن الـكلبي مكانه

(١) Fournel La Conquête de l'Afrique, p. 338.

واستدعى أحمد وسائر أفراد الأسرة الكلبية إلى إفريقية فى هذه السنة نفسها . وقد خضع أحمد لأوامر مولاه المعز ، وجمع أهله وعشيرته ومواليه ، وقصد المنصورية . وقد ذكر ابن خلدون(١) أن المعز لدين الله ولى يعيش بعد موت الحسن الكلبي سنة ٣٥٤ هـ ، وذكر ابن الأثير(٢) أن تعيين « يعيش » مولى الحسن كان فى سنة ٣٥٩ هـ

ويظهر أن ما ذكره ابن الأثير أقرب إلى الصواب ، لأن المعز لجأ إلى إخراج الكلبيين من هذه الجزيرة لأسباب منها : أنه لم يعد بعد تحالفه مع الروم فى سنة ٣٥٧ هـ يخشى خطر البيزنطيين ، كما لم يعد بحاجة إلى هذه الأسرة التى تعتمد على عصبيتها فى الجزيرة ، لكنه أبقى أحمد بعد موت أبيه من سنة ٣٥٤ إلى سنة ٣٥٨ هـ . ولا يبعد أن يكون المعز قد لمس فيه ميلا إلى الاستبداد بالأمور ، وخشى أن يستقل بصقلية ، ولا سيما بعد أن خرج جوهر الصقلى إلى مصر ، فعمل على إقصاء الأسرة الكلبية كافة عن صقلية ، حتى لا يكونوا مصدر قلق له

على أن المعز لدين الله قد برر ما عمله هذا بأنه يريد أن يصحب رجال هذه الأسرة معه إلى القاهرة ، لينالوا المناصب العالية فيها ، تقديرا لما أسدوه للفاطميين من خدمات . وفى الحق أن المعز صرح بذلك عقب ثورة صقلية على الوالى الفاطمى الجديد ، وما تهامس به الناس فى المهدية والمنصورية وغيرهما ، ليزيل الأثر السىء الذى تركته تولية « يعيش » مولى الكلبيين (٣) . ولما أدرك المعز استحالة بقاء « يعيش » فى هذه الجزيرة ولى الكلبيين عليها ، وأسند إليهم المناصب العالية فى

---

(١) العبر جـ ٤ ص ٢٩

(٢) الكامل جـ ٨ ص ١١٩

(٣) مما ذكره ابن الأثير (جـ ٨ ص ٢١٩) نرى أن يعيش مولى الحسن بن على بن أبى الحسين الكلبى لما ولى هذه الجزيرة ,, وقع الشر بين موالى كتامة والقبائل ، فقتل من كتامة كثير ، ومن الموالى جماعة ، وازداد الشر بينهم ، وتمكنت العداوة ، وسعى ,, يعيش ،، فى الصلح ، فلم يوافقوه ، وتطاول أهل الشر من كل ناحية ، ونهبوا وأفسدوا ، ، واستطالوا على أهل المراعى ، واستطالوا على أهل القلاع المستأمنة ، فبلغ الخبر إلى المعز ، فعزل يعيش ، واستعمل أبا القاسم بن الحسين بن على بن أبى الحسين نيابة عن أخيه أحمد ، فسار إليها ، فلما وصل فرح به الناس ، وزال الشر من بينهم ، واتفقوا على طاعته ». مما يدل على أن مبعث ثورتهم هو عدم الرضا عن نفى الكلبيين من جزيرة صقلية .

الدولة ، فعين أحمد بن الحسن قائدا عاما على الأسطول الفاطمى ، وأقره على حكم صقلية ، وأناب عنه أخاه أبا القاسم بن الحسن . وأبقى المعز فى الوقت نفسه محمد بن الحسن أحد أمراء الكلبيين فى قصره بالمنصورية والقاهرة ، حيث نعم بمركز ممتاز .

ويقول المؤرخون إن محمد بن الحسن هذا كانت له عند المعز مكانة سامية لا تقل عن مكانة النعمان المغربى ، فقيه الإسماعيلية المشهور . ومهما يكن من شىء فقد أصلح المعز ما أفسده باستدعائه الأسرة الكلبية ، ونفيها عن صقلية ، ولكنه أعادهم إليها بعد أن علمته الحوادث درسا قاسيا ووضع لحكم هذه الجزيرة نظاما سنقف عليه عند الكلام على نظام الحكم فى الولايات الفاطمية

وقد عاد الهدوء والسكينة إلى صقلية بتولية أبى القاسم بن الحسن الكلبى إياها ، فدخلها فى منتصف سنة ٣٥٩ هـ ، وبقى بها حتى مات سنة ٣٧٢ هـ ، وذلك فى عهد العزيز بالله الفاطمى وقد زار ابن حوقل صقلية فى عهد أبى القاسم الذى ولاه المعز على هذه الجزيرة ، وأتاه في الوقت نفسه الخبر بموت أخيه أحمد بن الحسن فى طرابلس . ومن أهم أعمال هذا الوالى فى عهد المعز أنه أخذ يرقب أوتو - إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة - وتم على يد أبى القاسم هذا توحيد صفوف الجيوش الفاطمية والجيوش البيزنطية أمام الخطر الجرمانى .

غير أن هذه السياسة الحكيمة التى لجأ إليها نقفور فوكاس ، من محاولته الوقوف جنبا إلى جنب مع الفاطميين لصد الخطر الجرمانى ، سرعان ما أصابها الضعف على يد الإمبراطور زيمسكس Zimiscès (٣٥٩ - ٣٦٦ هـ = ٩٦٩ - ٩٧٦ م) ، فقد قبل مارفضه نقفور فوكاس ، وتحالف مع أوتو الأول ، حتى يستطيع أن يكيل الضربات للفاطميين فى الشرق والغرب ويظهر أن زيمسكس كان يعتقد استحالة بقاء الصلح بينه وبين الفاطميين ، ولا سيما بعد أن يمموا شطر مصر ، وأغاروا على بلاد الشام التى كان يعدها الروم فى ذلك الحين مجالا حيويا لإمبراطوريتهم ولذلك حارب زيمسكس الفاطميين فى شمال الشام وفى دمشق نفسها ، وتحالف مع أوتو الجرمانى ؛ ومن ثم بدأ أبو القاسم الكلبى يحصن حدود ولايته الشمالية ويهجم على ممتلكات الروم فى قلورية (كالابريا) ولم تتطور الحرب بين الروم والفاطميين إلا فى سنة ٣٧١ هـ فى عهد العزيز بالله

وبذلك نرى أن المعز لدين الله استطاع أن يستغل موقع صقلية الاستراتيجى ، ويصد جميع الحملات التى كان يوجهها الأمويون والبيزنطيون نحو إفريقية ، كما استطاع أن يستغل هذا الموقع ليمد نفوذه فى إيطاليا نفسها وهكذا تم لهذا الخليفة النشيط تنظيم القسم الغربى من دولته ، ثم بدأ يفكر فى المسير نحو الشرق ، ليتخذ من القاهرة قاعدة لدولته الشاسعة الأرجاء ، ويوجه منها ضرباته إلى العباسيين والروم .

ولم ير المعز بدا من قصد مصر ، لأنه تبين له استحالة تحقيق آماله كافة لو بقى فى بلاد المغرب ، لأنه من السهل عليه أن يسير من مصر إلى بغداد وإلى سائر بلاد المشرق ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى رأى المعز ضرورة فتح مصر لتأديب القرامطة على ما سيأتى ، ولهذا عقد العزم ، واتجه نحو بلاد المشرق ، وذلك فى أواخر سنة ٣٦١ هـ .

ويدل اختيار المعز لبلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى لينوب عنه فى حكم بلاد المغرب على بعد نظره ، فقد كان يعلم ماساد بين الصنهاجيين والزناتيين من كراهية ، ورأى أن يضرب هؤلاء بأولئك ، حتى لايستقلوا بالأمر دون الفاطميين أضف إلى ذلك أن المعز لم يسر إلى مصر إلا بعد أن بذر بذور الشقاق بين الصنهاجيين والزناتيين من جهة ، وبين أمراء الصنهاجيين أنفسهم من جهة أخرى ، حيث أمر بلكين ألا يمنح إخوته أو أعمامه شيئا من السلطان ، ووضع له البرنامج الذى يسير عليه فى هذه العبارة القصيرة : « لاتنس ثلاثة أشياء : إياك أن ترفع الجباية عن أهل البادية ، ولا ترفع السيف عن البربر ، ولاتول أحدا من إخوتك وبنى عمك ، فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك » (١) وفى عهده زاد نفوذ الصنهاجيين زيادة

---

(١) وفى ذلك يقول المقريزى (خطط ج ١ ص ٣٥٢ — ٣٥٣) « لما عزم المعز على المسير إلى مصر أجال فكره فيمن يخلفه فى بلاد المغرب ، فوقع اختياره على جعفر بن على الأمير ، فاستدعاه ، وأسر إليه أنه يريد استخلافه بالمغرب ، فقال : تترك معى أحد أولادك أو إخوتك يجلس فى القصر ، وأنا أدبر ، ولا تسألنى عن شىء من الأموال ، لأن ما أجبيه يكون بازاء ما أنفقه من الأموال ، وإذا أردت أمرا فعلته من غير أن أنتظر ورود أمرك فيه ، لبعد ما بين مصر والمغرب ويكون تقليد القضاء والخراج وغيره إلى . فغضب المعز وقال يا جعفر عزلتنى عن ملكى ، وأردت أن تجعل لى فيه شريكا فى أمرى واستبددت بالأعمال والأموال دونى . قم ! أخطأت حظك ، وما أصبت رشدك ، فخرج عنه =

كبيرة ، فكان بداية انتصار القبائل المغربية على الفاطميين (١)

وليس هذا كل ما قام به المعز ، فقد أراد أن يستوثق من الكتاميين ، ليعرف مدى خضوعهم لمن يتولى شئونهم نيابة عنه ، فلم يغادر بلاد المغرب إلا بعد أن تيقن أن المغاربة لا ينضمون حول شخص لا يرضى عنه الخليفة يقول المقريزى(٢): « لما أنفذ المعز جوهرا إلى مصر وبرز يريد المسير إلى مصر بعث خفيفا الصقلي ، صاحب الستر إلى شيوخ كتامة يقول يا إخواننا ! قد رأينا أن ننفذ رجالا من قبلنا إلى بلدان كتامة يقيمون بينهم ، ويأخذون صدقاتهم ومراعيهم ويحفظونها علينا فى بلادهم . فإذا احتجنا إليها أنفذنا خلفها ، فاستعنا بها على ما نحن بسبيله . فقال بعض شيوخهم لخفيف ، وقد بلغهم ذلك قل لمولانا والله لا فعلنا هذا أبدا كيف تؤدى كتامة الجزية ويصير عليها فى الديوان ضريبة ؟ وقد أعزّها الله قديما بالإسلام ، وحديثا معكم بالأمان ، وسيوفنا بطاعتكم فى المشرق والمغرب ؟ فعاد خفيف بذلك إلى المعز فأمر بإحضار جماعة كتامة ، فدخلوا عليه وهو راكب فرسه ، فقال ما هذا الجواب الذى صدر عنكم ؟ فقالوا نعم ! هو جواب جماعتنا ما كنا يا مولاى بالذى يؤدى جزية تبقى علينا فقام فى ركابه

= ثم استدعى يوسف بن زيرى الصنهاجى ، وقال له تأهب لخلافة المغرب ، فأكبر ذلك وقال يامولانا ! أنت وآباؤك الأئمة من ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما صفا لكم المغرب ، فكيف يصفو لى ؟ وأنا صنهاجى بربرى ؟ قتلتنى يامولاى بغير سيف ولا رمح . فما زال به المعز حتى أجاب بشريطة أن يولى المعز القضاء والخراج لمن يراه ويختاره ، ويجعل الخبر لمن يثق به ، ويجعله قائما بين أيدى هؤلاء . فمن استعصى عليهم يأمره هؤلاء به حتى يعمل به ما يجب ، ويكون الأمر لهم ، ويصير كالخادم بين أولئك . فأحب المعز ما قال ، وشكره . فلما انصرف قال أبو طالب بن القائم بأمر الله للمعز يامولانا ! وتثق بهذا القول من يوسف ؟ وأنه يقوم بوفاء ما ذكر ؟ فقال المعز ياعمنا ! كم بين قول يوسف وقول جعفر فاعلم ياعم أن الأمر الذى طلبه جعفر ابتداء هو آخر ما يصير إليه أمر يوسف وإذا تطاولت المدة سينفرد بالأمر ، ولكن هذا أولا أحسن وأجود عند ذوى العقل ، وهو نهاية ما يفعله».

(١) Goutier Les Siècles Obscures, p. 376

(٢) اتعاظ الحنفا ص ٦٢ — ٦٣

وقال بارك الله فيكم ! فهكذا أريد أن تكونوا وإنما أردت أن أجربكم فانظروا كيف أنتم بعدى إذا سرنا عنكم إلى مصر ، هل تقبلون هذا وتفعلونه ، وتدخلون تحته من يرومه ؟ والآن سررتمونى بارك الله فيكم ! »

وبذلك نرى أن المعز وضع أساس سياسة التفرقة بين العناصر فى بلاد المغرب ، حتى لا يستبد بلكين بالأمر ، أو يحاول جذب الناس ، وخاصة الكتاميين ، إليه

كان خروج المعز من المغرب فى شوال سنة ٣٦١ هـ وقد حمل معه أموالا طائلة ، كما حمل جثث آبائه وأجداده مما يبين مدى اهتمامه بمصر ورغبته فى البقاء بها . ويظهر أن هذه كانت عادة الخلفاء الفاطميين إذ كانوا يحملون جثث آبائهم عند خروجهم فى الحملات الحربية وكان لتلك الأموال الضخمة التى حملها معه أثرها فى تسيير دفة الحروب فى مصر والشام. وبذلك أصبحت إفريقية « دار إمارة » بعد أن كانت دار خلافة وأصبحت مصر دار خلافة بعد أن كانت دار إمارة

والحق أن المعز لم يغادر بلاد المغرب إلا بعد أن نظمها تنظيما دقيقا ؛ فترك جزيرة صقلية فى يد الأسرة الكلبية ، وجعل الاتصال بينها وبين قاعدة خلافته بمصر مباشرا ، كما جعل من طرابلس وبرقة ولايتين مستقلتين ، تتصلان بمصر رأسا دون أن يكون لنوابه الصنهاجيين فى إفريقية عليهم شىء من النفوذ حتى لا يستطيع بلكين الاستقلال ببلاد المغرب ولذلك نرى الصنهاجيين يحاولون الاستقلال بجميع بلاد المغرب ، بعد أن وضع العزيز طرابلس وغيرها تحت نفوذهم ، وخالف تلك السياسة الرشيدة التى وضعها المعز . ومهما يكن من شىء فقد ترك المعز لبلكين ابن زيرى بن مناد بلاد تونس والجزائر ومراكش ، وترك له مهمة الصراع مع الثوار من أهل هذه البلاد ، ولا سيما الزناتيين ، ومع أنصار الأمويين فيها ، بل مع الأمويين أنفسهم

الباب الثالث

المعز لدين الله وفتح مصر

تمهيد :

ولى المعز لدين الله الخلافة فى سنة ٣٤١ هـ بعد أن مهد له أبوه المنصور الأمور فى المغرب ، فقضى على ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد ، وأسس حاضرة جديدة أسماها المنصورية نسبة إليه . فلما ولى المعز الخلافة ، جذب إليه جماعة من مشهورى القواد من أمثال جوهر الصقلى ، وزيرى بن مناد الصنهاجى ، وابنه بلكين ، وملأ ولاياته بكثير من المخلصين له وبفضل هؤلاء جميعا استطاع المعز أن يحد من نفوذ الأمراء المستقلين ببلادهم فى المغرب ، وكاد يقضى على الأدارسة وآل ابن أبى العافية ، كما استطاع أن يحد من نفوذ الأمويين فى المغرب .

ولم يقنع المعز بأنه أصبح الحاكم المطلق فى كافة أرجاء شمالى إفريقية ، كما يقول ابن أبى دينار[1] ، بل عمل كل ما فى استطاعته على أن يرث الأمويين فى الأندلس ، ولكن حال دون ذلك قرب هذه البلاد من المغرب الأقصى ، وبعد حاضرتى خلافته ، المهدية والمنصورية ، عن هذه البلاد التى استطاع الأمويون التأثير فيها هذا إلى أن المعز كان فى حاجة ماسة إلى أسطول ضخم يستطيع أن يحقق به غرضين اثنين أولهما القضاء على الأسطول الأموى الكبير ، الذى كانت تزخر به موانى أسبانيا المشرفة على البحر الأبيض ، وثانيهما نقل جيشه البرى على سفن هذا الأسطول . كى يستطيع التغلب على تلك الدولة التى كانت رابضة فى وديان شبه جزيرة إيبريا .

وقد أدرك المعز بثاقب رأيه أن هذه التجربة غير مأمونة العواقب ، وأن عدم نجاحه فيها قد يطيح بعرشه إلى الأبد ، وأنه من الخير له أن يقنع بما حصل عليه

---

(١) المونس فى أخبار إفريقية وتونس ص ١١

فى شمال إفريقية الغربى ، ثم يوجه نشاطه إلى مصر . كما أدرك المعز أن الدعاية لمذهبه ودولته، تستطيع أن تنجح في بلاد المشرق بقدر ما أخفقت فى بلاد المغرب. فقد رأى كيف بدأ المهدى يروج الدعاية له فى أسبانيا على يد ابن حفصون ، وإن كانت هذه المحاولة قد باءت بالخذلان ، حتى لقد عجز القائم والمنصور عن تحقيق هذه السياسة ، وهى صبغ أسبانيا بالمذهب الإسماعيلى؛ وبعبارة أخرى أدرك المعز عجز مدرسة ابن مسرة التى أسسها المهدى فى أسبانيا عن تحقيق آمال الفاطميين العريضة فيها[1]، مما أضعف آماله فى الاعتماد الجدى على أهالى هذه البلاد لتحقيق تلك النبوءة التى كانت تقول « إن المهدى[2] يجدد الإسلام ، ويظهر العدل . ويفتتح الأندلس وروما والقسطنطينية ، ويملك الأرض » ولذلك كان من الخير له ولدعوته ومذهبه ودولته أن توجه نشاطها جميعا نحو المشرق ، الذى درجت فيه الدعوة ، ونشأ فيه المذهب الإسماعيلى .

ويخيل إلينا أن الخلفاء الفاطميين الأوائل أدركوا خطر بقائهم منعزلين فى بلاد المغرب ، كما أدركوا خطر اعتمادهم على المغاربة فى حفظ دولتهم . وقد أدرك هؤلاء الخلفاء ما بذله أبو يزيد مخلد بن كيداد من جهود للقضاء على الدولة الفاطمية ، حتى إننا نرى المنصور يؤسس حاضرة ملكه الجديدة فى الشرق لا فى الغرب ، كما أدرك ابنه المعز أن نهاية الفاطميين ستكون كنهاية الأدارسة إذا لم يتجهوا نحو المشرق .

لهذا كله رأى المعز أنه من الضرورى أن يوالى جهوده السلمية والحربية لتحقيق أمنيته الكبرى ، بل أمنية الفاطميين جميعا ، فى الاتجاه نحو المشرق ، ثم توجيه ضرباته للدولة العباسية ، وتكوين دولة شيعية فاطمية ترأس العالم الإسلامى . هذا هو الحلم الجميل ، والأمنية الكبرى التى كانت تستهوى قلوب الخلفاء الفاطميين فى المغرب . وقد حاول المهدى تحقيقها فعجز ، ثم حاول المعز ذلك فأحرز بعض النجاح باستيلائه على مصر ، ومد نفوذه فى بلاد الشام والحجاز ، وأخفق فى مد نفوذه إلى بغداد ، بسبب نزاعه مع أتباعه القرامطة

---

(١) انظر ,, عبيد الله المهدى ،، المؤلفين ص ٢٥٤ — ٢٥٥

(٢) يقصد بالمهدى الخليفة الفاطمى إطلاقا .

العوامل التى ساعدت المعز على فتح مصر :

كانت حالة المشرق عامة ، وحالة مصر خاصة ، تشجع الفاطميين على الاتجاه شرقا ، ولا غرو ، فقد كان للدعاية الفاطمية الإسماعيلية أثرها فى زعزعة الأفكار السنية بالمشرق ، كما كان لضعف العباسيين فى الداخل والخارج أثره فى تشجيع المعز على فتح بلاد المشرق أضف إلى ذلك ضعف مصر نفسها مع ضخامة ثروتها كل هذا شجع الفاطميين على تحقيق حلمهم فى الاستقرار فى بلاد غنية كمصر . وقد سهل على الفاطميين فتح مصر عوامل كثيرة نذكر منها

(ا) نجاح الدعوة الفاطمية فى مصر والمشرق :

كان للدعاية الإسماعيلية أثر كبير فى قيام الدولة الفاطمية ؛ فقد قامت هذه الدولة فى بلاد المغرب فى الوقت الذى كانت فيه الدعوة الإسماعيلية تنتشر فى مصر واليمن ، وبلاد البحرين ، وفى فارس وخراسان ، بل فى بلاد العراق نفسها وبعبارة أخرى ، وجدت هذه الدعوة مكانا فى قلوب كثير من رعايا العباسيين . وقد استعان الخلفاء الفاطميون الأولون ، وخاصة المهدى والقائم ، على نشر الدعوة لأنفسهم فى المشرق وخاصة فى مصر ، وحاولوا غزو هذه البلاد عن طريق الدعاية والسيف ولما أخفق السيف عولوا على الدعاية لتحقيق آمالهم وأمانيهم والحق أن الفاطميين فى عهد المهدى والقائم كانوا « يدبجون فى صفوف جندهم دعاة عهد إليهم أن يختلطوا بالناس ، ويعلموهم عقائد المذهب الإسماعيلى ؛ فلم يلبث أن صار فى مصر ، قبل فتح هذه البلاد بزمن طويل ، عدد غير قليل يعتقد المذهب الشيعى ويرجو نجاحه[1] .

على أن الأمر لم يقف عند هـــذا الحد ، بل إن الدولة الفاطمية عنيت عناية فائقة بذلك التنظيم الدقيق الذى تميز به دور استتار الأئمة ، منذ نشأة المذهب الإسماعيلى حتى قيام الدولة الفاطمية ، من إقامة دعاة مستقرين فى الأقاليم ذات المواقع الاستراتيجية المذهبية وكانت مصر من أهم هذه المواقع فقد كان فيها ، حين هرب المهدى إلى المغرب فى سنة ٢٩١ هـ أبو على « الداعى المقيم » وكان له -

---

( ) حسن إبراهيم حسن الفاطميون فى مصر ص ٨٩ .

أثر كبير فى مساعدة المهدى على الإفلات من مصر

ويظهر أن أبا على هذا أسس فى مصر مدرسة عرفت بإخلاصها للفاطميين والإشادة بفضلهم ، وقد شجع تلامذة هذه المدرسة الخليفة المهدى على غزو هذه البلاد وبفضل هؤلاء الدعاة أصبح فى مصر عدد غير قليل من الأنصار الذين شجعوا الفاطميين على فتحها وإلى هؤلاء الأنصار يشير أحد شعراء مصر فى عهد عبيد الله المهدى

وقد حشدوا لمصر ودون مصر ... له خرط القتاد وأى خرط
وأقبل جاهلا حتى تخطى ... وجاز بجهله حد التخطى
بكتب جماعة قد كاتبوه ... من اقباط بمصر وغير قبطى
وكل كاتبوه ونافقونا ... وكل فى البلاد له موطى [١]

أضف إلى ذلك أن المصريين كانوا أكثر استعدادا لقبول المذاهب الشيعية ، بسبب ميلهم إلى على بن أبى طالب ، والتفافهم حول واليه محمد بن أبى بكر . ومن العوامل التى أدت إلى انتشار نفوذ الفاطميين فى مصر قبيل الفتح الفاطمى ، ما كان يسلكه الخلفاء الفاطميون مع ولاة مصر ؛ فقد اشتهر عن القائم (٣٢٢ - ٣٣٤ ﻫ) أنه اتصل بمحمد بن طغج الإخشيد غير مرة ، وحاول جذبه إليه وإثارة سخطه على العباسيين . وقد أورد ابن سعيد [٢] ذلك الكتاب القيم الذى بعث به القائم إلى الإخشيد. وعلى الرغم من مماطلة الإخشيد فى الرد على الخليفة الفاطمى ، فإن حسن لقائه للرسول يبين تقديره للخليفة الفاطمى والدولة الفاطمية . وقد برهنت الأيام للاخشيد على صدق ما ذكره القائم الفاطمى من أن العباسيين لا يؤمن جانبهم ؛ فقد أرسل الخليفة الراضى قائده ابن رائق ليستولى على مصر من الإخشيد ، وثارت بسبب ذلك ثائرة هذا الوالى ، فأبطل الخطبة للعباسيين ، وذكر اسم الخليفة الفاطمى القائم محل اسم الخليفة العباسى ، حتى لقد أثر عنه أنه كان يقول « قد تأذيت بالراضى ، وبهذا الصبى ابن رائق . وقد أمرت الخطيب أن يدعو لأبى القاسم صاحب المغرب» فقال له محدثه « وفق الله الإخشيد ! فلقد وضعت الضيعة فى موضعها ولقد

(١) الكندى كتاب الولاة وكتاب القضاة ص ٢٧٢

(٢) المغرب فى حلى المغرب ص ٢٥ - ٢٦

أخبرت أنه فى الحزن على أبيه [١] إلى الساعة ، وما جلس فى مرتبته إلا حزينا كائبا ، ولا جرد سيفا ، وهو من الشرف والملك على ما سمعت. فالحمد لله الذى جعل رجوع هذا الأمر إلى أهله على يدك وبك . فاستبشر الإخشيد وأسفر وجهه »[٢].

على أن إقامة الخطبة للفاطميين لم تتحقق ، لأن نصحاء الإخشيد خوفوه مغبة هذه السياسة ، وبينوا له أن إقامة الخطبة للفاطميين ستمد ابن رائق بسلاح خطر يشهره فى وجهه ، وتزيد من سخط الخليفة الراضى عليه . وليس معنى عدم إقامة الإخشيد الخطبة للقائم الفاطمى يرجع إلى بغضه للفاطميين ، بل إنه كان يخشى على سلطانه ونفوذه منهم ومن العباسيين أنفسهم . وإذن فإن السياسة هى التى حتمت عليه ألا يلبى نداء عاطفته . على أنه لا يبعد أن يكون الإخشيد قد خشى على مركزه السياسى ، كما خاف البويهيون من بعده ، لأنه يستطيع أن يحقق آماله وطموحه فى ظل خليفة ضعيف كالخليفة العباسى ، ويعجز عن تحقيق ذلك فى ظل خليفة نشيط قوى كالخليفة الفاطمى . وكأن الإخشيد كان يريد أن يظل على حبه للفاطميين دون أن يسمح لهم بالتدخل فى شئونه الخاصة

يدل على ذلك ماذهب إليه ابن سعيد من أن الخليفة القائم تسلم ذات يوم من الإخشيد كتابا يعرض فيه عليه أن يزوج ابنته من المنصور بن القائم ، ولى عهده حينذاك ، وأن القائم لما قرأ كتاب الإخشيد على أعوانه وحاشيته ، أشاروا عليه بالقبول . ولا غرابة فى ذلك ، فإن هذا الزواج السياسى سيكون عظيم النفع للفاطميين ، غير أن الزواج لم يتم ، لأن القائم بعث إلى الإخشيد بصداق ابنته ، ومقداره مائة ألف دينار ، فاستقله الإخشيد ، وكأنه كان يريد أن ينافس بابنته قطر الندى ابنة خمارويه بن أحمد بن طولون . ويرى ابن سعيد أن العلاقة قد توترت بين الإخشيد والفاطميين بسبب ذلك .

مما تقدم نستطيع أن نقول ، إن الدعوة الفاطمية راجت فى مصر رواجا كبيرا قبل قيام الدولة الفاطمية وبعد قيامها .ولولا ماساد الدولة الفاطمية من الاضطراب بسبب ثورة أبى يزيد ، التى شغلت الفاطميين طول عهد القائم وشطرا من عهـــد

(١) يقصد بكلمة ,, أبيه ,, عبيد الله المهدى ، أبيه من الناحية الروحية

(٢) ابن سعيد المغرب و حلى المغرب ص ٢٦ ، ٢٧

المنصور ، لظهرت آثار تلك الدعاية فى وقت مبكر ، وتم فتح مصر قبل سنة ٣٥٨هـ بزمن طويل

على أن المعز لدين الله أخذ يغزو هـــذه البلاد عن طريق جيوشه ودعاته ، فأرسل إحدى كتائبه التى احتلت بعض الواحات المصرية فى عهد وصاية كافور ، كما بعث نفرا من الدعاة للتأثير فى عقول أبنائها ولكن الحملة الحربية ، وإن كانت قد باءت بالخذلان ، فإن الحملة الكلامية صادفت شيئا غير قليل من النجاح ، ولاسيما بين الكافورية والإخشيدية وغيرهم ، حتى إن كافورا نفسه قد تأثر بهذه الدعاية الفاطمية.

يقول المقريزى (١) « وقدمت عليه (أى على كافور) دعاة المعز لدين الله من بلاد المغرب يدعونه إلى طاعته ، فلاطفهم وكان أكثر الإخشيدية والكافورية وسائر الأولياء والكتاب قد أخذت عليهم البيعة للمعز » . وفى الحق أن كافورا كان يولى العلويين احترامه وعطفه وتقديره لكنه مع ذلك لم يكن يرضى زوال نفوذه . لأن فى ذلك استقرارا لنفوذ الفاطميين وقد صور لنا أبو المحاسن حقيقة موقف كافور من المعز لدين الله الفاطمى ، وبرهن فى جلاء على أن كافورا رأى من حسن السياسة ألا يدين بالطاعة للفاطميين حتى لا يزول سلطانه ، ويذهب نفوذه أمام سلطانهم ونفوذهم فيقول إن الشيعيين فى مصر أرسلوا إلى المعز كتبا يقولون فيها « إذا زال الحجر الأسود يعنون كافورا » ملك مولانا المعز الدنيا كلها (٢)

ومن هـذا يتضح لنا مدى تأثير الدعاية الفاطميـة فى مصر حكومة وشعبا ، كما يتضح صدق ماقاله المعز لأصحابه قبل أن يرسل جيوشه لفتح هـذه البلاد بقليل « إنى مشغول بكتب ترد علىّ من المشرق والمغرب أجيب عليها بخطى . » (٣) وقد صدق ابن خلكان (٤) فيما ذهب إليه من أن فتح الفاطميين مصر كان متوقعا لدى الخاص والعام ، وأن العساكر وكبار الموظفين كانوا على علم بذلك ، بل إنهم كتبوا

(١) خطط جـ ٢ ص ٢٧ .

(٢) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ٦١ .

(٣) أبو المحاسن (طبعة جونبول) النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٤٤٣ .

(٤) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٤٨

إلى المعز يطلبون إليه أن يرسل جيوشه لفتح هذه البلاد

لم يكن هذا كل مافعله المعز فى المشرق لإعداد العدة لفتح مصر ، بل نراه يتدخل ، على ماسنرى ، فى شئون القرامطة . وذلك أنه بعد موت أبى طاهر القرمطى[١] فى سنة ٣٣٢ هـ ، تولى زعامة القرامطة جماعة من المعتدلين ، الذين يهتمون بشئونهم الخاصة ، لابشئون المذهب الإسماعيلى والدعوة الإسماعيلية . وقد استمر الحكم فى أيديهم حتى ولى المعز الخلافة ، فأقر هذا الوضع مرغما على أن أحداثا حدثت فبدلت من سياسة المعز ؛ فمن هذه الأحداث

أولا حارب القرامطة الإخشيديين فى الشام فى سنة ٣٥٣ هـ ، وانتصروا عليهم . وهنا نسأل : أكان ذلك الغزو بوحى من الفاطميين ؟ أم أن القرامطة إعتبروا تلك البلاد مجالا حيويا لهم ؟ يظهر أن القرامطة لم يعلنوا بعداءهم للفاطميين حتى ذلك الحين ؛ إلا أن هؤلاء شعروا بميل زعماء القرامطة إلى الاستبداد بالأمور فى المشرق دون الفاطميين .

ثانيا انتصر القرامطة فى سنة ٣٥٧ هـ على الحسن بن عبيد الله بن طغج ، صاحب الشام ، فتعهد لهم بدفع إتاوة سنوية كبيرة ، من غيرأن يرجعوا فى ذلك إلى زعيمهم الدينى وهو الخليفة الفاطمى المعز لدين الله ، مما يدل على أن القرامطة أصبحوا يعملون مستقلين عن الفاطميين .

ثالثا حاول الفاطميون منذ ولى كافور مصر سنة ٣٥٥ هـ ، استمالة الموالين إليهم، كما عزموا علىغزو هذه البلاد بعد وفاته سنة ٣٥٧ هـ . فهلدار بخلد القرامطة أن يقوموا بنفس الدور الذى قام به أبوطاهر مع المهدى ، ثم مع القائم، فيتعاونون مع المعز على فتح مصر ، وتوجيه ضرباتهم إلى العباسيين فى العراق ؟ والذى يظهر لنا أن المعز لا بد أن يكون قد أدرك استحالة الاعتماد على البيت القرمطى ، برياسة أحمد بن أبى سعيد الجنابى ، فعمل على التخلص منه ، وتدخل فى شئونهم الداخلية ، وناصر أبناء أبى طاهر واستطاع الفريق الموالى للفاطميين إقصاء الفريق المعادى لهم عن الحكم فى سنة ٣٥٨ هـ ، وتولى شئون القرامطة وقد تم ذلك بفضل تدخل المعز لدين الله . لكن هذا الفريق الموالى لم يستطع الاحتفاظ بالحكم طويلا ، لأن

---

(١) ولى أبو طاهر الأمر سنة ٣٠٥ هـ ، وتوفى سنة ٣٣٢ هـ .

الفريق المعادى للفاطميين أذكى نار الثورة ، واسترد الحكم ، وقتل زعماء بيت أبى طاهر فى هذه السنة نفسها ، وطرد البقية الباقية منهم عن البلاد ، ونفاهم إلى إحدى جزائر الخليج الفارسى . وإذن كان لتدخل المعز فى شئون القرامطة أثر فى وقوع الاضطراب فى صفوفهم . وليس من شك فى أن المعز كان يريد أن يجعل القرامطة فى قبضة يده ، ليستعين بهم فى تنفيذ مآربه فى الشرق . ولو نجح فى سياسته هذه ، وبقى أبناء أبى طاهر على العرش ، لما أحجم هؤلاء عن مساعدته فى فتح مصر والعراق .

وليس من شك أيضا فى أن رغبة المعز كانت فى ذلك الحين تنحصر فى احتلال بلاد المشرق ولذلك نجده يمنِّى أنصاره باحتلال سلمية ، ودخول بلاد الشام يقول النعمان(١) « وأخرج إلينا ، نحن وجماعة من الأولياء ، رسول الإمام المعز لدين الله ﷺ ، طبقا فيه تفاح جليل ، فقال (المعز) هذا تفاح جاءنا من المشرق ، من البلد الذى خرج منه المهدى والقائم ، صلوات الله عليهما ! ومن الضياع التى كانت لهما . ودفع إلى كل واحد منا شيئا منه ، وقال تبركوا به ، فإنا نرجو إن شاء الله أن تجنوه من شجره معنا بأيديكم . وقد أنجز الله لنا وعده وأهلك عدونا بفضله » .

وإنا لا نعلم أكان المعز قد اتصل بأتباعه فى خراسان وفارس والشام ، أو فى بلاد اليمن . ويظهر أنه أدرك عبث الاتصال بأتباعه فى فارس وخراسان لأن هؤلاء لم يكونوا كالقرامطة قد استقروا كدولة إسماعيلية بل كانوا متفرقين ، أو بالحَرَى كانوا لا يزالون يكوّنون أقلية إسماعيلية وسط أكثرية من السنيين ، لذلك لم يستطع المعز أن يعتمد عليهم .

وأما إسماعيلية اليمن فقد دب الضعف إلى صفوفهم ، منذ أوائل القرن الثالث ، ولم يعودوا جماعة تعمل فى وَضَح النهار ، بل أضحوا جماعات سرية قليلة العدد ، تعمل فى الخفاء وتتملق السنيين . وإذن ظهر لهذا الخليفة أن الفريق الذى يجب أن يعتمد عليه فى المشرق هم القرامطة وحدهم ، ولذلك تدخل فى شئونهم الداخلية عسى أن يجذبهم إليه ولكن تدخله كان ضرره أكثر من نفعه .

(١) المجالس والمسايرات جـ ٢ ص ٩٤ — ٩٥ .

وكان من أثر هذا التدخل أن أعلن القرامطة الحرب على مولاهم المعز بدلا من أن يعاونوه بل لقد حاولوا طرده من مصر ، مع أن القرامطة والفاطميين كانوا يهدفون فى الأصل إلى غرض واحد ، هو القضاء على العباسيين

ويجب ألا يعزب عن بالنا تأثير الدعاية إلى الفاطمية فى بغداد نفسها ، وأن هذه الدعاية قد وجدت أذنا مصغية من البويهيين أنفسهم ولا غرو ؛ فإن هؤلاء كانوا يدينون بعقائد المذاهب الشيعية ، ويودون القضاء على خلافة بغداد السنية ، وقيام خلافة شيعية على أنقاضها وكان بنو بويه يعتقدون أن العباسيين اغتصبوا الخلافة من العلويين لذلك لا نعجب إذا رأينا معز الدولة بن بويه (٣٣٤ — ٣٥٦ هـ) يعمل على تحويل الخلافة العباسية إلى العلويين ؛ ولولا خوف البويهيين على نفوذهم السياسى ، لما عدلوا عن تنفيذ هذه السياسة

يدل على صحة هذا القول هذه العبارة التى ذكرها ابن الأثير (١) « وصارت الوزارة لمعز الدولة بن بويه ، يستوزر لنفسه من يريده . وكان من أعظم الأسباب فى ذلك أن الديلم كانوا يتشيعون ويغالون فى التشيع ، ويعتقدون أن العباسيين قد غصبوا الخلافة ، وأخذوها من مستحقيها ؛ فلم يكن عندهم باعث دينى يحثهم على الطاعة . حتى لقد بلغنى أن معز الدولة استشار جماعة من خواص أصحابه فى إخراج الخلافة من العباسيين ، والبيعة للمعز لدين الله العلوى ، أو لغيره من العلويين ، فكلهم أشار عليه بذلك ، ما عدا بعض خواصه ، فإنه قال ليس هذا برأى فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ؛ ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه . ومتى أجلست بعض العلويين خليفة ، كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لفعلوه ؛ فأعرض عن ذلك »

وفى الحق أن هذه العقيدة السياسية ، هى التى أوحت إلى البويهيين أن ينتهجوا خطة العداء مع الفاطميين عند فتحهم مصر ؛ فقد عاونوا القرامطة المعادين للمعز بالمال والرجال والسلاح ، وحارب أمراؤهم فى صفوف أفتكين التركى فى حروبه مع المعز والعزيز ، مما يدل على أن سياسة البويهيين مع الفاطميين كانت تقوم على اعتبارات سياسية أكثر منها عاطفية أو مذهبية . وقد سار البويهيون على هذه السياسة إلى عهد

---

(١) ج ٨ ، ص ١٦٢

المستنصر ، فنرى أبا كاليجار البويهى (٤٣٥ — ٤٤٠هـ) يحاول استمالة الفاطميين ، ليمثل معهم الدور الذى مثله آباؤه البويهيون مع العباسيين ، وينقل الخلافة إلى العلويين الفاطميين ، دون العباسيين السنيين ، ولكن السلاجقة حالوا دون تحقيق هذه السياسة.

ولسنا نشك فى أن رغبة الفاطميين الحقيقية كانت تتجه إلى القضاء على الخلافة العباسية ، وإحلال بغداد محل المنصورية ، وذلك لا يتحقق إلا بفتح مصر والعراق. يدل على ذلك هذا الحديث الطريف الذى دار بين المعز فى مصر ، ورسول الإمبراطور البيزنطى ، الذى خاطبه المعز فى هذه العبارة ، فقال «أتذكر إذ أتيتنى رسولا وأنا بالمهدية ، فقلت لك : لتدخلن علىّ وأنا بمصر مالكا لها! وأنا أقول لك : لتدخلن علىّ بغداد وأنا خليفة !» (١)

(ب) ضعف الدولة العباسية

أخذ الضعف يدب إلى جسم الدولة العباسية منذ العصر العباسى الثانى ، فتدخل الأتراك فى شئون الخلفاء الذين أصبحوا أشبه بألاعيب فى أيديهم وأصبح الخليفة معهم كما قال الشاعر

خليفة فى قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له كما تقول الببغا

ومن ثم كثرت الثورات على العباسيين ، وتلقفتهم سيوف الثوار من كل جانب ؛ فقام صاحب الزنج فى وجه العباسيين فى إقليم البصرة وجنوبى فارس الغربى بثورة عنيفة استمرت خمس عشرة سنة (٢٥٥ — ٢٧٠هـ) ، كما قام القرامطة فى وجههم ، وأضعفوا هيبة الخلافة ، بما ألقوه من الذعر فى قلوب أهالى بلاد الشام وباديتها ، ومن إغاراتهم المتكررة على الحجاج فى أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجرى ، كما أغاروا على بلاد العراق ، حتى كادت بغداد أن تسقط فى يد أبى طاهر الجنابى (٣١٥ — ٣١٦هـ) ؛ واستطاع ابن فضل وابن حوشب ، داعيا الفاطميين ، أن يخرجا اليمن عن حوزة العباسيين حينا من الزمن

---

(١) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٢٣٩ .

أضف إلى ذلك قيام الدويلات المستقلة ، كالدولة الصفارية (٢٥٤ - ٢٩٠ هـ) والدولة السامانية (٢٦١-٢٨٩هـ) ، اللتين انتزعتا خير بلاد العباسيين فى أقصى المشرق، ولاسيما فى خراسان وبلاد ما وراء النهر. ونرى الدولتين الطولونية (٢٥٤-٢٩٢ هـ) والإخشيدية (٣٢٣ - ٣٥٨ هـ) تنتزعان مصر والشام من العباسيين . ناهيك عن الدولة الفاطمية ، التى استولت على جميع شمال إفريقية ، وكادت تتحرك شرقا لانتزاع الخلافة من العباسيين، الذين كان يحز فى نفوسهم استقلال الأمويين بأسبانيا ، واحتلالهم خير بقاع إمبراطوريتهم ولم يقف الأمر عند ذلك الحد ، بل لقد شارك العباسيين فى قلب بلاد العراق دولة الحمدانيين الذين امتد نفوذهم فى أقصى الشمال ، ولا سيما فى نواحى الموصل وحلب ، وكثيرا ما حاولوا الاستيلاء على بغداد نفسها كما استبد بنو بويه بالسلطة فى سنة ٣٣٤ هـ ، وأصبحت أمور الدولة كافة فى أيديهم، حتى غدا تنصيب الخلفاء وعزلهم وقتلهم طوع رغبتهم. أو قل: « إن الدولة والملك قد انتقل من آل العباس إلى آل بويه ، والذى بقى فى أيدى الدولة العباسية إنما هو أمر دينى اعتقادى ، لا ملكى دنيوى »(١). ولا غرو ، فقد موّه البويهيون على السنيين بذكر اسم الخليفة العباسى فى الخطبة ، ونقش اسمه على السكة ، ولم يكن ذلك إلا « لأغراض سياسية غايتها احتفاظ هؤلاء الحكام بمراكزهم أمام الجمهور »(٢) وقد أجاد المعز لدين الله الفاطمى فى وصف حال العباسيين مع البويهيين الديلم ، فبين أنهم كانوا مع الأتراك أكثر نفوذا وأعظم سلطانا منهم مع البويهيين ، الذين تسلطوا على ما بأيديهم ، ولم يبقوا لهم شيئا من النفوذ ، « وملكوهم وأذلوهم، ووطئوا أرضهم ، وتغلبوا على ما بأيديهم ، وصاروا عيلة عندهم»(٣).

وقد وصف جبون حالة العباسيين فى ذلك الحين فى هذه العبـــارة فقال « لم تكن حالة الضعف التى وصلت إليها الخلافة العباسية راجعة إلى السياسة فحسب ، بل تعدتها إلى الدين أيضا. فقد نشأت من المذهب الشيعى على مر الزمن مذاهب متعددة، أهمها المذهب الفاطمى ، والمذهب الدرزى(٤) فى لبنان وكذلك ظهرت

(١) البيرونى الآثار الباقية، ص ١٣٢

(٢) حسن إبرهيم حسن : الفاطميون فى مصر، ص ٩٨.

(٣) النعمان المجالس والمسايرات ج ٢ ص ٤٧٨ - ٤٧٩

(٤) لم يفهم جبون أن المذهب الدرزى هو نفسه المذهب الفاطمى

الاختلافات الدينية فى بغداد ، فقام أنصار ابن حنبل ، وانقضوا على بيوت الأمراء وذوى اليسار ، وكسروا أوانى الخمر ، وحطموا الآلات الموسيقية ، وضربوا المغنين وأهانوا الفتيان والفتيات ، وأساءوا بهم الظنون ولم يكن من سبيل للقضاء على هذه الفئة إلا بقوة حربيـــة . ولكن من ذا الذى يمكنه أن يسد جشع طائفة المرتزقة ، أو يؤيد النظام بالقوة بين أفرادها ؟ هذا إلى ما كان من سل الحرس من الأتراك وأهل إفريقية السيوف كل فى وجه الآخر . وأصبح فى يد أمير الأمراء[1] حبس الخليفة وخلعه وقتله ، فكان هـذا تعديا على سلطة الخليفة الدينية وما لها من حرمة فى النفوس . ولم يكن عند الخليفة من سبيل يأمن به على نفسه الأذى ، إلا هربه إلى معسكر أحد الأمراء فكان إنقاذه تحولا عما كان فيه من مذلة إلى مذلة أخرى ، حتى دفعه اليأس إلى دعوة بنى بويه لمعونته وتخليصه مما هو فيه فإذا وقع تحت رحمتهم صار ألعوبة فى أيديهم[2] »

من هذا نرى ما صلت إليه الدولة العباسية من ضعف ووهن . والواقع أن عوامل هذا الضعف فى الداخل لم تكن أقل خطرا منها فى الخارج ؛ فقد أخذت الدولة البيزنطية تعمل على القضاء على العباسيين وذلك أن الدولة البيزنطية حين شعرت بتفكك العالم الإسلامى ، عملت منذ عهد الخليفة المعتمد (٢٥٦—٢٧٩ ﻫ) على التوغل فى بلاد الدولة العباسية

وقد تفاقم خطر الروم على الحمدانيين والعباسيين حول منتصف القرن الرابع الهجرى ، حين هددوا شمالى العراق وبلاد الشام ، واستولوا على حلب سنة ٣٥١ ﻫ فى عهد نقفور فوكاس ولم يكتفوا بذلك ، بل استولوا على مدينتى المصيصة وطرسوس فى سنة ٣٥٥ ﻫ ، واستولى نقفور فوكاس على أنطاكية وهكذا حقق الروم ما كانوا يصبون إليه . فانتزعوا إقليم كليكيا ، وجزءا من بلاد سورية ، كما أرغم الروم أهالى هذه البلاد على الاعتراف لهم بالتبعية

ولم يقف خطر الروم عند ذلك الحد ، فقد توغلوا فى هذه البلاد فى عهد

(١) أول من لقب بذلك هارون بن غريب الخال فى سنة ٣١٦ ﻫ ، كما قلد الراضى بن رائق إمرة الأمراء (مسكويه كتاب تجارب الأمم ج ١ ص ١٥٠ – ١٥١)

(٢) حسن إبراهيم حسن الفاطميون فى مصر ص ٩٨ – ٩٩

الامبراطور زيمسكس (٣٥٨ - ٣٦٦ هـ = ٩٦٩ - ٩٧٦ م)، واستولوا على الرها، وديار بكر، وميافارقين، ونصيبين، وأعلنوا أنهم يريدون قصد بغداد نفسها. من هذا كله نرى أن الدولة العباسية لم تستطع أن تصد هجمات الروم المتتالية، اضعفها وقلة مواردها، وتنازع البويهيين على السلطة فيها وإن هذه الحالة السيئة كانت تبعث الأمل فى نفس المعز الفاطمى، لأنه وجد من السهل عليه أن يحقق سياسته التى كانت ترمى إلى مد نفوذه إلى المشرق، وفتح سائر البلاد التى كانت تابعة للدولة العباسية المتداعية. ومن ثم فكر فى فتح مصر

(ح) ضعف الدولة الاخشيدية فى مصر

لو أن مصر فى سنة ٣٥٨ هـ كانت من القوة كما كانت فى عهد أحمد بن طولون (٢٥٤ - ٢٧٠ هـ)، أو فى عهد محمد بن طغج الإخشيد (٣٢٣ - ٣٣٤ هـ)، لما استطاع الفاطميون فتحها على يد جوهر الصقلى والواقع أن الضعف قد بدأ، منذ وفاة الإخشيد فى سنة ٣٣٤ هـ، يتطرق إلى الدولة الإخشيدية ؛ فقد استبد كافور بالأمور دون ولدى الإخشيد، أبى القاسم أنوجور (٣٣٤ - ٣٤٩ هـ)، وأبى الحسن على (٣٤٩ - ٣٥٥ هـ) ومع ذلك استطاع كافور أن يقضى على الثورات التى قامت فى ذلك العهد (٣٣٤ - ٣٥٥ هـ)، كما انتصر على الحمدانيين فى الشام.

ولم يكد كافور يستقل بحكم مصر وما يليها من البلاد فى سنة ٣٥٥ هـ، حتى أخذ المعز لدين الله الفاطمى يعد العدة لفتح مصر. وساعده على ذلك ما ساد هذه البلاد من الاضطراب، فانقسم الجند على أنفسهم إلى فريقين: فريق الإخشيدية، الذين يناصرون بيت الإخشيد ؛ وفريق الكافورية، الذين يتشيعون لكافور ؛ فأرسل المعز « عسكره من المغرب إلى الواحات، فجهز (كافور) إليه جيشا أخرجوا العسكر. وقتلوا منهم »(١) كما اجتاحت المجاعة مصر، وطمع القرامطة فى بلاد الشام، فهاجموها مرتين (فى سنتى ٣٥٣ هـ، ٣٥٧ هـ) وقد أدرك كافور قبل موته (جمادى الأولى سنة ٣٥٧ هـ)، ما أصاب البلاد من نكبات ؛ فقد « اشتد الغلاء وفشا الموت فى الناس، حتى عجزوا عن تكفينهم ومواراتهم وأرجف بمسير

---

(١) المقريزى خطط، ج ٢، ص ٢٧.

القرامطة إلى الشام ، وبدت غلمانه تتنكر له (١) ، لعدم دفع رواتبهم ، وطمع أحد أمراء النوبة فى مصر الجنوبية فغزاها ، حتى وصل إلى إخميم ، ولم يجد من يقف فى وجهه ، وعاد إلى بلاده ، محملا بالأسلاب والغنائم .

وقد استمرت هذه الحالة السيئة بعد وفاة كافور ، واضطربت أحوال مصر السياسية ؛ فلم يكن الخليفة العباسى المطيع (٣٣٤ - ٣٦٣ هـ) من القوة بحيث يستطيع أن يولى على مصر من يشاء . « لذلك اجتمع رجال البلاط الإخشيدى لاختيار شخص تتفق ميوله مع مشاربهم ، فوقع الاختيار ، كما يقول المقريزى(٢)، على أبى الفوارس أحمد بن على الإخشيد ، ولم يكن قد تجاوز الحادية عشرة من عمره ، وجعل لحسن بن عبيد الله بن طغج ولى عهده وخليفته »

غير أن الحسن بن عبيد الله لم يبق بمصر طويلا ، وعاد إلى بلاد الشام بعد أن حاول الاستبداد بالأمور ، وقبض على الوزير جعفر بن الفرات(٣) ، وترك مصر تنعى أهلها ، وتنتابها المصائب ؛ فقد ظلت بعد خروجه منها مسرحا للفوضى مدة خمسة شهور ، حيث وضعت إدارتها فى قبضة الوزير ابن الفرات ، فلم يستطع أن يخفف المصائب عنها ، وعجز عن دفع رواتب الجند ، وتفاقمت الثورات ، وتمنى الأهالى الخلاص مما هم فيه » . ومن ثم سنحت الفرصة للخليفة المعز ، لضعف الجنود المصرية ، وانقسامهم على أنفسهم ، وقيامهم فى وجه حكامهم ، وخاصة الوزير ابن الفرات ، وميل كثير منهم إلى المبادىء الشيعية الفاطمية واعتقد الخليفة الفاطمى أن أهالى هذه البلاد لن يقاوموه ، بسبب البؤس الذى أصبحوا فيه هذا إلى أن العباسيين كانوا فى حالة من الضعف والاضطراب ، بحيث لا يستطيعون إنقاذ مصر ، أو إمدادها بالرجال والمال . لهذا لا نعجب إذا نجح جوهر فى فتح مصر نجاحا منقطع النظير ، فلم يفقد كثيرا من رجاله ، أو تعترضه أية عقبات

وقد أدرك المعز سوء هذه الحال ، فعبر عنها خير تعبير ، فى هذه العبارة التى

---

(١) المقريزى خطط ج ٢ ص ٢٧ وقد ظل انخفاض النيل من سنة ٣٥١ إلى سنة ٣٦٠ هـ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٣

(٣) ابن خلكان وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥٥ ، ٥٦

وجهها إلى زعماء المغرب، فقال «والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر؛ ولتدخلن مصر بالأردية من غير حرب، ولتنزلن فى خرابات ابن طولون، وتبنى مدينة تسمى القاهرة، تقهر الدنيا[1]». ولابد أن يكون عيون المعز قد أخبروه بهذه الحالة السيئة التى كانت سائدة فى مصر أضف إلى ذلك أن المعز كان يعنى كثيرا بفتح مصر، ويستطلع أخبارها يدل على ذلك تلك القصة الممتعة التى أوردها المقريزى[2]، ومنها نرى مدى شغف هذا الخليفة الفاطمى باستطلاع أحوال مصر، وما وصلت إليه من فساد اجتماعى «ووجهت أم الأمراء (زوجة المعـــز) من المغرب بصبية ربتها لتباع فى مصر فطلب الوكيل فيها ألف دينار فجاءت امرأة شابة على حمار، فلم تزل حتى اشترتها بستمائة دينار وقيل له يا مغربى! بنت الإخشيد اشترت الجارية تتمتع بها، وهى ست كافور فلما عاد أخبر المعز بذلك، فأمر بإحضار الشيوخ والرجل، لحدثهم بخبر الجارية، ثم قال: يا إخواننا! انهضوا إليهم، فلن يحول بينكم وبينهم شىء، وإذا كان القوم قد بلغ بهم الترف إلى أن صارت امرأة من بنات ملوكهم تخرج وتشترى لنفسها جارية تتمتع بها، فقد ضعفت نفوس رجالهم، وذهبت الغيرة منهم؛ فانهضوا بنا إليهم، فقالوا السمع والطاعة! فقال خذوا حوائجكم، فنحن نقدم الاختيار لمسيركم إن شاء الله».

وفى الحق أن أهل مصر لم يكونوا يبغضون المذاهب الشيعية، بل كانوا يرحبون بالفاطميين، أبناء على وفاطمة، ترحيبا حارا، ويؤثرونهم على العباسيين، كما أن حالتهم الاقتصادية والإدارية كانت تتطلب تغييرا شاملا. ولذلك زعم كثير من المصريين أنهم قد يجدون تحت حكم الفاطميين ما لم يجدوه فى عهد العباسيين

(د) قوة الدولة الفاطمية

أفاد المعز لدين الله من تجارب الماضى فعمل على أن لا يرتكب ما وقع فيه آباؤه من أخطاء حين حاولوا فتح مصر ولذلك نراه يغمر البلاد المصرية بخيرة

(١) المقريزى خطط ج ١ ص ٣٧٨.

(٢) اتعاظ الحنفا ص ٦٤ - ٦٥

دعاته وجواسيسه ، ويستميل إليه أصحاب الجاه والنفوذ ، فيها ولما كان يدرك بعد الشقة بين بلاد المغرب ومصر ، أعد للأمر عدته ، وبدأ فى إعداد حملته منذ ٣٥٦ هـ (٩٦٧ م) ، فأقام الطرق وعبدها بين تونس ومصر ، وحفر الآبار ، وأنشأ النزل على طول الطريق كما أعد الأموال الضخمة للإنفاق على حملته ، وأجزل العطايا والمنح للمغاربة ، ولا سيما الكتاميين الذين كونوا العنصر الرئيس فى هذه الحملة (١) .

ولم تكن الحملة التى سيرها المعز إلى مصر فى سنة ٣٥٦ هـ ، والتى استولت على واحة سيوة المصرية ، ترمى إلى فتح مصر نفسها ، وإنما كانت بمثابة حملة استطلاعية ، لارتياد هذا الطريق ، والوقوف على مدى صلاحيته لمسير حملة جوهر الكبرى التى عول المعز على إرسالها بعد قليل ، أى فى سنة ٣٥٧ هـ

وقد رغب المعز فى أن يبعث فى نفوس أشياعه من البربر الأمل ، ويبين لهم الطرق القويمة التى يجب أن يسلكوها ليحققوا آمالهم كاملة ، وبرهن لهم على أنه يصل ليله بنهاره لتحقيق أمنية تملك عليه نفسه ، هى نشر نفوذه المذهبى والسياسى فى بلاد المشرق . ومن ثم جعل يحثهم على النظام والتكاتف فى نصرة الدين والدولة، حتى ينشر السلام ألويته على ربوع بلاده ، وجعل يبين لهم أنه مشغول بشئون المشرق ، بقدر ما هو مشغول بشئون المغرب

وهكذا أعد المعز أشياعه المغاربة لحملته على مصر ، وأمرهم بالتزام الهدوء بعد خروج جيشه إلى هذه البلاد ، وبشرهم بفتح المشرق يتضح ذلك من هذه الوثيقة التى أمدنا بها المقريزى : « واستدعى (أى المعز) ، وهو بالمنصورية ، فى يوم شات، بارد الريح ، عدة شيوخ من شيوخ كتامة ، وأمر بإدخالهم إليه ، من غير الباب الذى جرى الرسم به . فإذا هو فى مجلس مربع كبير، مفروش باللبود على مطارح ، وحوله كساء ، وعليه جبة ، وحواليه أبواب مفتحة تفضى إلى خزائن كتب ، وبين يديه مرفع ودواة ، وكتب حواليه فقال يا إخواننا ! أصبحت اليوم فى مثل هذا الشتاء والبرد ، فقلت لأم الأمراء ، وإنها الآن بحيث تسمع كلامى أترى إخواننا يظنون أنا فى مثل هذا اليوم نأكل ونشرب ، ونتقلب فى المثقل والديباج والحرير والفنك والسمور والمسك والعنبر والغناء ، كما يفعل أرباب الدنيا ؟ ثم

(١) ابن أبى دينار المونس فى أخبار إفريقية وتونس ص ٦٢

رأيت أن أنفذ إليكم فأحضركم ، لتشاهدوا حالى إذا خلوت دونكم ، واحتجبت عنكم . وإنى لا أفضلكم فى أحوالكم إلا فيما لا بد لى منه من دنياكم ، وبما خصى الله به من إمامتكم وإنى مشغول بكتب ترد علىّ من المشرق والمغرب ، أجيب عنها بخطى وإنى لا أشتغل بشىء من ملاذ الدنيا ، إلا بما صان أرواحكم وعمر بلادكم ، وأذلّ أعداءكم ، وقمع أضدادكم فافعلوا يا شيوخ فى خلوتكم مثل ما أفعله ، ولا تظهروا التكبر والتجبر ، فينزع الله النعمة عنكم وينقلها إلى غيركم وتحننوا على من وراءكم ممن لا يصل إلىّ كتحنّنى عليكم ، ليتصل الجميل ، ويكثر الخير ، وينتشر العدل وأقبلوا بعدها على نسائكم ، والزموا الواحدة التى تكون لكم ، ولا تشرهوا إلى التكثير منهن والرغبة فيهن ، فينتقص عيشكم ، وتعود المضرة عليكم ، وتنهكوا أبدانكم ، وتذهب قوتكم ، ويضعف تمايزكم لحسب الرجل الواحد ، الواحدة . ونحن محتاجون إلى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم واعلموا أنكم إذا لزمتم ما آمركم به ، رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق ، كما قرب أمر المغرب بكم انهضوا رحمكم الله ونصركم ! » (١) وهكذا ختم المعز نصيحته بإعدادهم لإخضاع بلاد المشرق ، كما أخضعوا المغرب من قبل على يد جوهر وزيرى بن مناد بن بلكين

وقد رأى المعز أن لا تسير جيوشه إلى المشرق إلا بعد أن يقضى على جميع الأخطار التى تهدده فى المغرب ، فكانت حملته المغربية الكبرى ، التى سيرها فى سنة ٣٤٧ هـ ، وما تبعها من حملات ، تهدف إلى إقرار الأمور فى بلاد المغرب واستطاع أن يقضى على الحركات التى قام بها أمراء المغاربة الذين ثاروا عليه ، ويحد من نفوذ أنصار الأمويين فى بلاد المغرب ، ويضعف جماعة الأدارسة وعلى الرغم من عجزه عن فتح الأندلس وطرد الأمويين منها استطاع أن يقف فى وجه مطامعهم الاستعمارية فى شمال إفريقية

ومن عوامل نجاح المعز ، أنه أضفى على قائده جوهر هالة من الاحترام والتقدير ، حتى لقد أمر أولاده وإخوته ، وولى عهده ، وكبار رجال دولته بالترجل بين يدى جوهر ، « وأن يمشوا فى خدمته وهو راكب ، وكتب إلى سائر عماله يأمرهم إذا قدم عليهم جوهر ، أن يترجلوا مشاة فى خدمته فلما قدم برقة افتدى صاحبها من

---

(١) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ٦٠ - ٦١

ترجله ومشيه فى ركابه بخمسين ألف دينار ذهبا، فأبى جوهر إلا أن يمشى فى ركابه، ورد المال ، فمشى » . وكان لعمل المعز هذا أثره فى احترام الجند وقوادهم لجوهر الصقلى ، وأدى ذلك إلى انتصاره

٢ — جهود المعز فى فتح مصر

(ا) مسير جوهر الى مصر

سارت حملة جوهر الصقلى من بلاد المغرب إلى مصر فى اليوم الرابع عشر من شهر ربيع الثانى سنة ٣٥٨ ﻫ ، كما سارت بعدها جيوش نابليون سنة ١٧٩٨م، والجيوش الإنجليزية بقيادة فريزر سنة ١٨٠٧م، وجيوش ولسلى سنة ١٨٨٢، وروميل فى الحرب العظمى الثانية . وكانت جيوش الفاطميين منظمة تنظيما دقيقا ، وقد زودها المعز بالأموال الضخمة والرجال والعتاد والمؤن ، حتى لا يتطرق إليها الضعف. ولا غرو فقد أنفق الخليفة الفاطمى على إعداد هذه الجيوش أربعة وعشرين مليون دينار ، عدا ما حمله ألف جمل من الذهب الذى رصد للإنفاق على هذه الحملة .

وتتجلى ضخامة هذه الحملة الفاطمية مما ورد على لسان أحد المصريين ، الذى قال فيها إنها « مثل جمع عرفات كثرة وعدة » [١] حتى إن جند جوهر كانت تربو على مائة ألف وقد وصفها ابن هانئ الأندلسى [٢] شاعر المعز خير وصف فقال

رأيتُ بعينى فوق ما كنت أسمع ... وقد راعنى يومٌ من الحشر أروعُ
غداةَ كأن الأفق سُد بمثله ... فعاد غروب الشمس من حيث تطلع [٣]
فلم أدر إذْ ودَّعت كيف أودع ... ولم أدر إذْ شيعتُ كيف أشيع
ألا إن هذا حشد من لم يذق له ... غرار الكرى جفن ولا بات يهجع
إذا حل فى أرض بناها مدائنا ... وإن سار عن أرض غدت وهى بلقع
تحل بيوت المال حيث محله ... وجم العطايا والرواق المرَّفع

---

(١) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ٧١

(٢) ديوان ابن هانىء ص ١٦ وما يليها

(٣) إشارة إلى كثرة الجند بحيث أظلمت الدنيا بسبب تحركهم نحو الشرق .

وكبرت الفرسان لله إذ بدا وظل السلاح المنتضى يتقعقع
وعبّ عُباب الموكب الفخم حوله ورقَّ كما رق الصباح الملمع
رحلتُ إلى الفسطاط أول رحلة بأيمن فأل بالذى أنت تجمع

لم يكن هذا الجيش بريا وحسب ، بل كان يصحبه بعض القطع الحربية البحرية. وكانت مدينة الإسكندرية هدف جوهر، كما كانت هدف نابليون وفريزر وولسلى ورو ميل . ولكن هناك فرق بين حملة المعز وهذه الحملات الحديثة ؛ فإن جوهرا أتى لينقذ المصريين من ظلم العباسيين وعبث الحكام والولاة ، ويبعد عنهم خطر القرامطة والروم،على ما ذكره فى منشوره ، وليعمل أيضا على تكوين دولة مستقلة فى هذه البلاد . تنافس العباسيين ، وتقف فى وجه مطامع الروم وسواهم

أما هذه الحملات الحديثة على مصر ، فإن القائمين بها لم يكونوا يرمون من ورائها إلا إلى اغتصاب حرية أهلها، وانتزاع وطنهم من أيديهم ،تحت ستار التمويه والادعاءات الكاذبة ، التى برهنت الأيام على بطلانها ، وكانت آثارها لا تزال ماثلة بيننا ، بل لاتزال تقف عقبة كأداء فى طريق تقدمنا

ولم يجد جوهر فى الإسكندرية مقاومة تذكر . وقد أدرك حسن نيات الأهلين نحوه ، فأمر جنده بعدم التعرض لهم بسوء . واستطاع بفضل حنكته وتجاربه، أن يغمر المصريين بعطفه ووده ، ويتألف قلوب جنده بما أجزله لهم من المال ؛ فرضى الفريقان عنه وعن سياسته . والحق أن جوهرا ومولاه المعز كانا يعلمان مدى تعلق المصريين بهم ، يدل على ذلك أن دعاة المعز وجواسيسه بمصر ، حين أرسلوا إليه بأن المصريين على هواه أنفذ إليهم أعلاما وقال « فرقوها على من يبايع من الجند ، وأمرهم إذا قربت العساكر (المعزية) ينشرونها »(١) . فلما قربت العساكر من الإسكندرية فعلوا ذلك

(ب) فتح مصر

أدرك المسئولون فى مصر، وعلى رأسهم الوزير جعفر بن الفرات ، أنه لاطاقة لهم بمقاومة هذه الجيوش الكثيفة ، وأنه يجب أن يسالموا الفاطميين حقيقة

---

(١) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ٦٦

اضطرب أهل الفسطاط قاعدة مصر فى ذلك الحين . وقد حملهم ذلك الاضطراب على الاتفاق مع جوهر ، ولذلك عملوا على اختيار الوزير جعفر بن الفرات وبعض العلويين من ذوى المكانة فى مصر للتفاوض مع جوهر بشأن الصلح . وقد دل اختيارهم أحد كبار العلويين لرياسة وفدهم على الحنكة السياسية ، لأن ذلك كان من العوامل التى أدت إلى إجابة القائد جوهر جميع مطالبهم

ويظهر أن الوفد الذى خرج من الفسطاط لمقابلة جوهر فى « تروجة » القريبة من الإسكندرية (فى ١٨ من رجب سنة ٣٥٨هـ) ، إنما خرج تلبية لرغبة إجماعية من أهل مدينة الفسطاط إذ ذاك ؛ فلم نسمع أن أحدا من الجنود أو سواهم امتنع عليهم ، فكانوا جميعا متفقين فيما بينهم على أن يلتمسوا من القائد الفاطمى أمانا على أنفسهم وأموالهم وبلادهم . وإن فكرة المقاومة من جانب المصريين لجيوش الفاطميين لم تنبت فى أذهان بعض إلا لتموت سريعا ومهما يكن من شىء ، فإن جوهرا كان على اتصال سرى مع ابن الفرات ، وإن أعضاء الوفد حين خرجوا من الجيزة ، « لم يتأخر عن تشييعهم قائد ولا كاتب ولا عالم ، ولا شاهد ولا تاجر»[1] .

وكان معنى ذلك أن جوهرا كاد يفتح مصر دون إراقة شىء من الدماء ، فكان هذا انتصارا مؤزرا له ولذلك أجاب جوهر مطالب المصريين[2] التى تتلخص فيما يلى

أولا اعترف جوهر فى العهد الذى قطعه لوفد مصر بأن يؤمن جميع المصريين جنودا ومدنيين ، مسلمين ومسيحيين . على أنفسهم وأموالهم وبلادهم . وأنهى إليهم أن الوفد الذى ندبوه لمفاوضته قد طلب منه هذا الأمان وأنه أقرهم على جميع مطالبهم ، وتعهد للمصريين بأنه سوف يأخذ على عاتقه نشر العدل والسلام والطمأنينة بين الناس

ثانيا ذكر جوهر بأن مولاه المعز قد ندبه لإنقاذ المصريين مما وصلوا إليه تحت حكم العباسيين ، وأن يدرأ عنهم الأخطار الخارجية من ناحية القرامطة ، الذين غزوا بلاد الشام فى سنتى ٣٥٣ ، ٣٥٧هـ ، ومنعوا الحجاج عن أداء فريضة

(١) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ٦٧

(٢) انظر ملحق رقم ٢

الحج. ولذلك تعهد لهم بأن يصد عنهم الروم، الذين غزوا شمالى بلاد الشام، واستولوا على كثير من مدنه، كما غزوا شمالى بلاد العراق وعبروا نهر دجلة. وأخيرا قال جوهر على لسان المعز إن الفاطميين إنما جاءوا لنجدة العالم الإسلامى عامة، والمصريين خاصة من هذه الأخطار، كما يتبين من هذه العبارة «إنه (أى المعز) صلوات الله عليه! لم يكن إخراجه للعساكر المنصورة، والجيوش المظفرة، إلا لما فيه إعزازكم وحمايتكم، والجهاد عنكم إذ قد تخطفتكم الأيدى، واستطال المستذل، والممعنة نفسه[1]، بالاقتدار على بلدكم فى هذه السنة (يشير بذلك إلى الروم)، والتغلب عليه، وأسر من فيه، والاحتواء على نعمكم وأموالكم حسبما فعله مع غيركم من أهل بلدان المشرق. وتأكد عزمه، واشتد كلبه، فعاجله مولانا وسيدنا أمير المؤمنين، صلوات الله عليه! بإخراج العساكر المنصورة، وبادره بإنفاذ الجيوش المظفرة دونكم، ومجاهدته عنكم وعن كافة المسلمين ببلدان المشرق[2]

ثالثا أخذ جوهر على نفسه فى ذلك العهد تحقيق هذه السياسة الدينية الحكيمة، فاعترف للمصريين بالحرية الدينية، وترك كل فرد منهم يقيم شعائره التى ألفها، وتعهد للمصريين بأن يقوم بإصلاح دينى شامل، فيعمل على تعمير المساجد وإصلاحها ومع ذلك لم يتوان جوهر فى انتهاز الفرصة للإشادة بالأئمة العلويين وتمجيدهم، وأنهم أحق بالخلافة من سواهم. ويخيل إلينا أن جوهرا تذرع بهذا القول لنشر المذهب الإسماعيلى، مذهب الفاطميين، فى هذه البلاد

كما عمل جوهر على محو فكرة الغلو المذهبى، التى رمى بها السنيون جماعة الإسماعيلية ويظهر أن السنيين كانوا يرمون الفاطميين بأنهم يؤدون الفرائض على غير ما ألفه المسلمون السنيون. ومن ثم عمل جوهر على محو تلك العقيدة من الأذهان، فخاطب المصريين بقوله «الإسلام سنة واحدة، وشريعة متبعة، وهى إقامتكم على مذهبكم، وأن تتركوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض فى العلم والاجتماع عليه فى جوامعكم ومساجدكم، وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة، رضى الله عنهم! والتابعين بعدهم، وفقهاء الأمصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم

(١) أى الهاربة المولية يقال، أمعن الرجل: هرب وتباعد

(٢) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ٦٧.

وأن يجرى الأذان والصلاة ، وصيام شهر رمضان وفطره وقيام لياليه ، والزكاة والحج والجهاد على ما أمر الله فى كتابه ، ونصه نبيه صلى الله عليه وسلم فى سنته ، وأجرى أهل الذمة على ما كانوا عليه (١).

رابعا : أخذ جوهر على نفسه فى ذلك العهد أن يقوم بإصلاح شامل فى إدارة البلاد ، بالضرب على أيدى العابثين من قطاع الطرق . وضبط السكة بعدم غشها أو زيفها ، ونشر العدل بين الرعية ، وإعانة المظلوم على الظالم ، « مع الشفقة والإحسان ، وجميل النظر ، وكرم الصحبة ، ولطف العشرة ، وانتقاد الأحوال ، وحياطة أهل البلد فى ليلهم ونهارهم ، وحين تصرفهم فى أوان ابتغاء معاشهم ، حتى لا تجرى أمورهم إلا على ما لمّ شعثهم » (٢)

خامسا : كما لم يترك جوهر الوفد الذى ندبه المصريون للاتفاق معه ، دون أن يقيده بقيود ، يستطيع بها أن يدخل حاضرة البلاد آمنا مطمئنا ؛ فأخذ عليهم العهد والميثاق ، أن يذيعوا نصوص هذا الاتفاق بين الخاص والعام ، وأن يضمنوا عبور جيوش المعز من الجيزة إلى الفسطاط بالخروج إليه ، ويسيروا فى ركابه ، حتى يعبر الجسر ، وينزل الفسطاط والمناخ المبارك ، كما عبر عنه جوهر بذلك فقال لهم « وتحفظون وتحافظون من بعد على الطاعة ، وتثابرون عليها ، وتسارعون إلى فروضها ، ولا تخذلون ولياً لمولانا وسيدنا أمير المؤمنين ، صلوات الله عليه ! وتلزمون ما أمرتم به » (٣) وكان ذلك فى شهر شعبان سنة ٣٥٨ هـ .

من ذلك نستطيع أن نقول ، إن هذا العهد الذى أعطاه جوهر للمصريين ، كان على شىء كبير من الاعتدال والحكمة ؛ فقد خلا من المبالغات التى تجعل مثل هذه المنشورات عديمة الجدوى ، فلم يغال فى تقربه إلى المصريين . وقد بيّن لهم ما كان يحدق بهم من أخطار . ولم يكن مغاليا فى الناحية الدينية ، كما لم يكن مبالغا فى تصوير ما سوف يبذله من جهد ، فى سبيل نشر ألوية العدل والطمأنينة فى البلاد . ولقد حقق كل

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٦٩

(٢) المصدر نفسه ص ٦٨

(٣) المصدر نفسه ص ٧٠

ماعاهدهم عليه ، وساس البلاد أحسن سياسة، الأمر الذى يحملنا على أن نضعه بين كبار أعلام القواد والساسة والحكام

على أن جماعة من الجنود الإخشـــيدية والكافورية قد عز عليهم أن يستولى جوهر على مصر بهذه السهولة ، وأن يزول نفوذهم بين عشية وضحاها ، بدخول الجيوش الشيعية المغربية هذه البلاد . ولما كانت الجندية مصدر رزقهم ونفوذهم وهيبتهم . عولوا على الوقوف فى وجه الفاطميين ، وامتنعوا عن طاعة كل ما جاء فى عهد جوهر . وهذا يدل على أن الذين ناوءوا الحكم الفاطمى لم يكونوا من المصريين الذين حنقوا على الكافورية والإخشيدية ، وأفتوا بقتالهم وقتلهم .

وقد أدرك جوهر خطر هذه الحالة ، فعول على استرداد عهده ، ليكون حرا فيما يعمل إلا أن أعضاء هذا الوفد التمسوا من جوهر أن يعدل عن هذا الرأى ، ولكنه بين لهم أنه قد عول على قتال من يقف فى وجهه ، لأنه إنما جاء إلى مصر ليحول دون استيلاء الروم والقرامطة عليها ، وأن وقوفهم فى وجهه يساعد الروم على تحقيق مآربهم . وفى ذلك يقول جوهر مخاطبا أبا الطاهر ، قاضى مصر السنى « ماتقول ياقاضى فى هذه المسألة ؟ فقال ماهى ؟ قال : ماتقول فيمن أراد العبور إلى مصر ليمضى إلى الجهاد لقتال الروم فمنع ؟ أليس له قتالهم ؟ فقال له القاضى نعم ! فقال وحلال قتالهم ؟ قال : نعم ! » (١)

وأما الجهود التى بذلها أعضاء هذا الوفد فتتلخص فى أن الوزير ابن الفرات وصحبه ، قد التف حولهم الرعية . وقاموا بمظاهرة حماسية يؤيدون فيها هذا النظام الجديد . ولم يشذ أحد من المصريين ، اللهم إلا هذه الفئة من الجند ؛ فقد قال واحد من قوادهم لأحد أعضاء وفد مصر ، وكان علويا من سلالة الحسن : « لو جاءنا جدك بهذا ضربنا وجهه بالسيف » . وعاب ابن الفرات على المنتقضين سلوكهم ، لأنهم هم الذين طلبوا ذلك من الوفد الذى ندبوه لمفاوضة جوهر ، وأنهم بعملهم هذا قد خرجوا على أمر طلبوه بأنفسهم .

وهكذا لم يستطع هؤلاء الزعماء أن يفلوا شوكة الإخشيدية والكافورية ،

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٧١ .

الذين اتفقت كلمتهم على أن السيف وحده هو الذى يفصل بينهم وبين جوهر ومن ثم نصبوا واحدا منهم قائدا ، وتحمسوا لحرب جوهر ، ووقفوا بذلك فى وجه الفاطميين وزعماء المصريين أنفسهم .

أما جوهر فإنه لما وصل إلى الجيزة حول منتصف شهر شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، وجد الإخشيدية والكافورية معسكرين فى جزيرة الروضة ، وعلى شاطىء النيل الشرقى ، من ناحية الفسطاط فاتبع جوهر طريقين ، يدل كلاهما على الحيطة والحذر : الأولى ، أنه بذل جهودا كبيرة فى سبيل الاستيلاء على مخاضة فى منية شلقان شمالى الجيزة ، يستطيع أن يعبر منها إلى الفسطاط . والثانيـــة ، أنه استعان بالسفن على حصار الإخشيدية والكافورية ، والعبور إليهم « فاستقبل المراكب الواردة من تنيس ودمياط وأسفل الأرض فأخذها » (١) وعبر إليهم إلى جهة الفسطاط قائده المشهور جعفر بن فلاح الكتامى ، فأوقع بهم ولذلك اضطر الجنود الذين عسكروا فى جزيرة الروضة إلى التقهقر نحو الفسطاط وخصوصا حين عبر إليهم جوهر ورجاله ، وفر كثير منهم إلى بلاد الشام بعد أن فقدوا زعماءهم .

وقد أيقن جوهر أن الشعب المصرى لم يشترك مع الجنود الثائرين فى قتال الفاطميين ، بل إن المصريين لجئوا إلى زعمائهم ، وإلى العلويين منهم بوجه خاص ، وما زالوا بهم حتى استخلصوا من جوهر أمانا آخر ، يتبين منه مدى تسامح ذلك القائد الفاطمى وعطفه على المصريين . ولا غرو ، فإن جوهرا كان يريد أن يتخذها جسرا يعبر منه الفاطميون إلى بغداد ، حاضرة العباسيين فى ذلك الحين .

لذلك أرسل جوهر مع صاحب الشرطة فى الفسطاط رسولا ، « معه بند عليه اسم المعز لدين الله ، وبين أيديهما الأجراس بأن لا مئونة ولا كلفة ، وأمن الناس . وفرقت البنود ، فنشر كل من عنده بند بنده فى درب حارته » (٢) وبذلك تم استيلاء جوهر على مصر ، دون أن يجد معارضة تذكر

وقد أرسل جوهر الصقلى إلى الشريف أبى جعفر مسلم بن محمد ، عهدا ثانيا

---

(١) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ٧٢ .

(٢) المصدر نفسه .

جاء فيه «وصل كتاب الشريف الجليل ، أطال الله بقاءه ، وأدام عزه وتاييده وعلاه ، وهو المهنأ بما هنأ من الفتح الميمون . فوقفت على ما سأل من إعادة الأمان الأول وقد أعدته على حاله ، وجعلت إلى الشريف ، أيده الله ! أن يؤمن كيف رأى وكيف أحب ، ويزيد على ما كتبته كيف يشاء ، فهو أماني وعن إذني وإذن مولانا وسيدنا أمير المؤمنين ، صلوات الله عليه . وقد كتبت إلى الوزير أيده الله بالاحتياط على دور الهاربين إلى أن يرجعوا إلى الطاعة ، ويدخلوا فيما دخلت فيه الجماعة ، ويعمـــل الشريف ، أيده الله ! على لقائي يوم الثلاثاء لسبع عشر تخلو من شعبان » (١)

عبر جوهر الجسر المقام على النيل بين الجيزة والفسطاط ، في يوم ١٧ من شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، وعسكر بجنوده شمالي مدينة القطائع التي أسسها أحمد بن طولون (٢٥٤ - ٢٧٠ هـ) ، ووضع أساس مدينة القاهرة إثر وصوله وكان لهذا النصر رنة فرح بالغ في بلاد المغرب ، وقد أخذ الفرح من نفس المعز كل مأخذ ، لأنه أصبح إمبراطورا على جميع شمال إفريقية ، وعلى بعض جزائر البحر الأبيض المتوسط كما أتاح له هذا الفتح ، الفرصة لاختبار جيوشه التي عول على الاستعانة بها في فتح بلاد الشام والحجاز ويتجلى ذلك الفرح من قصيدة ابن هانىء الأندلسي ، التي نقتطف منها هذين البيتين

تقول بنو العباس قد فتحت مصر ... فقل لبني العباس قد قضي الأمر
وقد جاوز الإسكندرية جوهر ... تصاحبه البشرى ويقدمه النصر (٢)

٣ - المعز لدين الله وفتح بلاد الشام

(١) عوامل فتح بلاد الشام

لم يكتف جوهر الصقلي بفتح مصر ، بل عمل على مد نفوذ الفاطميين إلى بلاد

(١) المقريزي اتعاظ الحنفا ص ٧٢ .

(٢) ديوان ابن هانىء ص ٨٦ .

الشام . ويرجع فتح هذه البلاد إلى عوامل منها :

أولا : لا يبعد أن يكون الفاطميون قد خشوا انتقام العباسيين بسبب فتحهم أخصب وأغنى بلادهم ، وهى مصر . ولهذا عمل جوهر على أن تكون بلاد الشام خط الدفاع الأول عن مصر ، وبذلك يكون قد سبق محمد على باشا ، الذى كان يرى أن خط الدفاع عن مصر ، يجب أن يكون فى سورية ، لا فى مصر نفسها . ولو أدركنا أن العباسيين والبويهيين كانوا قد تألموا أشد الألم لزوال نفوذهم فى مصر ، حتى ساعدوا القرامطة ، وتآمروا معهم على طرد الفاطميين - لو أدركنا ذلك رأينا بعد نظر جوهر فى الناحيتين الحربية والسياسية . هذا إلى أن الدولة الفاطمية تستطيع بأسطولها الضخم أن تتحكم فى معظم البلاد الإفريقيـة والشآمية ، التى تشرف على البحر الأبيض المتوسط .

ثانيا : ولا يبعد كذلك أن يكون استيلاء الفاطميين على بلاد الشام خطة دبرها هؤلاء للقضاء على القرامطة ، الذين بدءوا يناوئون سادتهم الفاطميين ، فقد أدرك المعز زوال نفوذه عليهم ، وازدياد نفوذ منافسيه من أبناء أبى سعيد الجنابى ، وحز فى نفسه احتلال القرامطة دمشق فى سنة ٣٥٧ هـ ، بعد أن كان القرامطة لا يحاربون إلا بوحى من الفاطميين . فكأن فتح جوهر بلاد الشام لون من التحدى للقرامطة . ولو علمنا أن جوهرا الصقلى كان يشيد بالمعز لدين الله ، ويغض من شأن من يقف فى وجه الحُجاج فى أثناء تأديتهم فريضة الحج ، أدركنا أن ذلك الفتح إنما كان مبعثه رغبة الفاطميين فى أن يحققوا للمصريين خاصة ، وللمسلمين عامة ، ما جهروا به من محاولة القضاء على الثوار الدينيين كالقرامطة .

ثالثا : ويظهر أن المعز أدرك رغبة الروم فى أن يرثوا الدولة العباسية التى دب اليها الوهن ، فقد عبروا الفرات ، واستولوا على بعض مدن الشام كما رأينا ، فعمل المعز على فتح هذه البلاد لتحول دون تقدم الروم جنوبا . وهم (أى الفاطميون) إذ يقومون بذلك إنما يثيرون عاطفة عامة المسلمين ، إذ ليس هنـاك شىء أنبل من إعلان الجهاد على الروم . فكأن المعز وجوهرا أرادا أن يحققا من وراء فتح بلاد الشام غرضين ، أما أولها فهو جذب قلوب المسلمين ، وخاصة المصريين إليه .

ويؤيد هذا القول ، الحديث الذى دار بين جوهر الصقلى وأبى الطاهر قاضى مصر ، يبرر فيه قتاله جند الإخشيديين والكافوريين ، واعتماده فى ذلك التبرير على رغبة الفاطميين فى قتال الروم ، ووقوف هؤلاء الجنود فى طريق تحقيق هذا الغرض ، كما يدل ذلك أيضا ما أورده جوهر فى عهده للمصريين ، من أنه إنما أتى لتخليصهم من الروم

وأما الغرض الثانى فيرجع إلى رغبة الفاطميين فى الوقوف فى وجه الروم ؛ حتى لاتعود بلاد الشرق الأدنى وجميع شمالى إفريقية إلى حوزة الروم ، كما كان ذلك من قبل . ولا نغلو إذا قلنا إن الروم الذين اتحدوا مع الأمويين فى الأندلس ، وأخفقوا فى هجومهم على بلاد المغرب فى عهد المعز (سنة ٣٤٤ هـ) ، رأوا أنهم يستطيعون القضاء عليه بفتح بلاد الشام . واتخاذها جسرا يعبرون منه إلى المغرب . وهذا العمل من جانب المعز يدل على بعد نظره فى السياسة ، لأنه يجعله يحرص على نفوذه فى بلاد المغرب ومصر ، ويحول دون تقدم الروم فى بلاد الشام ؛ وبذلك أمّن المعز حدود مصر من ناحية الشمال وقد سار على هذا النهج الطولونيون والإخشيديون من قبل ، ثم صلاح الدين الأيوبى والظاهر بيبرس ومحمد على باشا فيما بعد ، حين عول كل من هؤلاء على فتح بلاد الشام ، ليؤمن حدود مصر من ناحية الشمال الشرقى

رابعا كانت بلاد الشام تابعة للدولة الإخشيدية . ولما آلت مصر إلى الفاطميين ، كان من الطبيعى أن يحتل هؤلاء البلاد التابعة لها ، وخصوصا أن من يحتل دمشق يستطيع أن يتخذها مركزا يوجه منه حملاته إلى بلاد العراق . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان من الواجب أن يظل نفوذ مصر قويا فى بلاد الحجاز ، كما كان فى أيام الإخشيديين والطولونيين قبلهم

(ب) جعفر بن فلاح وفتح بلاد الشام :

وسواء أكان فتح المعز بلاد الشام تحديا للعباسيين والقرامطة والروم ، أم أنه ميراث آل إليه عن الإخشيديين ، فإن جوهرا الصقلى بعث إليها قائده المشهور

جعفر بن فلاح ، الذى قضى على مقاومة جند الإخشيدية والكافورية ، فى دفاعهم عن الفسطاط فى شهر شعبان سنة ٣٥٨ هـ ولا نستطيع أن نأخذ بما ذكره بعض من أن جوهرا رغب فى إبعاد جعفر بن فلاح عن مصر، بسبب غروره بنفسه . ولكن الواقع أن الحملة التى سار على رأسها جعفر بن فلاح كانت تنفيذا لخطة مرسومة ، تهدف إلى فتح بلاد الشام لتأمين حدود مصر من ناحية الشمال ، كما ذكرنا والوصول إلى بغداد نفسها ، حاضرة الدولة العباسية

وقد أعد الإخشيديون فى بلاد الشام عدتهم لملاقاة جعفر بن فلاح ، فخرج الحسن بن عبيد الله بن طغج صاحب الشام من مدينة دمشق ، وقصد مدينة الرملة، وترك القائد شمولا الإخشيدى نائبا له على دمشق وكان شمول الإخشيدى يحنق على الحسن بن عبيد الله ، حتى إنه اتهم بمكاتبة جوهر الصقلى ، واستدعائه ليسلم إليه هذه المدينة . ومما يدل على نفاق شمول هذا ، تقاعده عن نصرة مولاه الحسن بن عبيد الله ، حين طلب منه القدوم عليه بمن معه من الجيوش لصد الجيوش الفاطمية.

حارب جعفر بن فلاح الإخشيديين فى ثلاث معارك كتب له النصر فيها جميعا وقد دارت المعركة الأولى فى مدينة الرملة فى شهر ذى القعدة من سنة ٣٥٨ هـ ؛ وكان الحسن الإخشيدى على رأس جيوش المقاومة فقد طلب النجدة من عماله على دمشق وطبرية وسواهما ، فلم يسعفه أحد ، وتحمل وحده ضغط جيوش جعفر ابن فلاح ، الذى كان قد استطاع أن يغرر بولاة الشام ، ودعاهم إلى طاعة المعز لدين الله . ومن ثم وقع الحسن أسيرا فى قبضة المغاربة ، وبُعث به إلى الفسطاط حيث سيق إلى بلاد المغرب ، وظل بها حتى مات فى خلافة العزيز بالله الفاطمى سنة ٣٧١ هـ . وكان من أثر ذلك الانتصار أن أصبحت فلسطين عامة تابعة للفاطميين ، كما أثارت هذه الانتصارات مخاوف عمال الإخشيدىّ فى سائر بلاد الشام

وقد تتابعت انتصارات الفاطميين بعد ذلك ، ففتحت طبَرية ، وكان يليها القائد « فاتك » ، غلام ملهم منذ عهد كافور الإخشيدىّ . وأعد جعفر بن فلاح لفتح طبرية عدته ، فبنى قصرا على الجسر الذى يشرف منه على المدينة . وقعد فاتك عن محاربته ، وخافه ملهم الذى تآمر فاتك مع جعفر بن فلاح على قتله ليخلو لهما الجو

ولم يقاوم أهل طبرية جيوش الفاطميين مقاومة تذكر ، ولا سيما بعد ما أحرزه جعفر بن فلاح من نصر مؤزر على الحسن بن عبيد الله بن طغج فى الرملة وبفتح طبرية ، انتهى الدور الثانى من فتح بلاد الشام على يد جعفر بن فلاح .

وتتركز المرحلة الثالثة من مراحل استيلاء الفاطميين على بلاد الشام فى دمشق . وترجع أهميتها إلى اتخاذها قاعدة حربية توجه الجيوش منها وفى هذه المرحلة التق جعفر بقوات القبائل العربية ، التى كان لها نفوذ كبير فى بلاد الشام ، كبنى عُقيل وعلى رأسهم ظالم بن موهوب العُقيلى ، وبنى فزارة ومرة وسواهم ، وكانوا جميعا يخضعون للإخشيديين وقد استطاع جعفر أن يضرب هذه القبائل بعضها ببعض ، فتقرب إلى فزارة ومرة ، وتظاهر معهم على بنى عُقيل

ومن ميزات هذه المرحلة تلك المقاومة الشعبية الرائعة ، التى قام بها أهل دمشق فى وجه الفاطميين . فقد فرّ واليها شمول الإخشيدى ، وقصد جعفر بن فلاح فى طبرية ، وترك دمشق تموج بأهلها . ولما هزم حلفاء الفاطميين من بنى فزارة ومرة قبائل بنى عُقيل ، وقصدوا هم وبعض جيوش جعفر مدينة دمشق ، « ثار عليهم أهل البلد وقاتلوهم ، وقتلوا منهم كثيرا من العرب ، فانهزموا عنها » [١] ، وذلك فى أواخر شهر ذى الحجة من سنة ٣٥٨ هـ . واستطاع الدمشقيون ، ومعهم جنود الإخشيديين ، أن يصمدوا فى وجه جعفر بن فلاح وأنصاره من العرب أياما ، وقتلوا كثيرين من المغاربة ، وهذا مما يدل على أن مهمة جعفر بن فلاح فى بلاد الشام لم تكن كمهمة جوهر فى مصر ، بل كانت أكثر عنفا منها

غير أننا نلاحظ عبث الجنود المغاربة ، واحتكاكهم بأهالى هذه البلاد ، مما أثار سخط الشاميين عليهم يدل على هذا أن زعماء دمشق حين قصدوا جعفرا فى طبرية للاتفاق معه ، أهانهم جنوده ، وسلبوهم ما عليهم ، فعادوا إلى دمشق « وهم غير شاكرين ولا راضين . فبسطوا ألسنتهم بذم المغاربة ، حتى استوحش أهل دمشق [٢] » . وكذلك نرى المغاربة يسلبون سكان البلاد المجاورة لدمشق حين هاجموها أولا مع

---

(١) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ٨١ .

(٢) المصدر نفسه .

قبائل فزارة ومرة ، مما جعل الدمشقيين يتظاهرون فى الدفاع عن أنفسهم ، ويتفانون في صدهم . ولما قصد بعض الأهلين جعفر بن فلاح ، بعد أن أحاط بهم فى دمشق ، برى جنود المغاربة أيضا يسلبونهم ثيابهم ويقتلون بعضهم ، فيذيع الدمشقيون هذه الفظائع من فوق منابرهم

ولكن ما السبب الذى حدا هؤلاء الجند على الوقوع فى هذه الأخطاء ؟ يظهر أن جعفر بن فلاح لم ينهج مع جنده هذه السياسة التى نهجها جوهر الصقلى ، الذى كان يغمرهم بإحسانه ، ويذيع عليهم منشوراته وأوامره التى ترمى إلى حسن معاملة الأهلين ، وعدم التعرض لهم بسوء ، مما جعله موضع تقدير هؤلاء الجند وخوفهم منه . ولا يبعد أن يكون ذلك راجعا إلى أن جعفرا لم يكن معه من المال ما كان مع جوهر ؛ لكن القائد الماهر هو الذى يأمر جنده فيطيعونه ويخشون بأسه ؛ لذلك لا نعفى جعفرا من اللوم ، وتحمل تبعة سلوك جنده الطائش .

ومما أثار سخط الناس على جعفر ماارتكبه من الأخطاء ، فلم يكن هذا القائد فى سلوكه مع الأهالى ، ولا مع القواد المعارضين له ، على شيء من الحكمة ، كما كان جوهر الصقلى ، مما أثار الناس عليه ، وأدى إلى عدم استقرار الأمور فى بلاد الشام . فتراه حين يهجم على طبرية ، ويستسلم له واليها ، يتآمر عليه جعفر سرا ويقتله ، كما تراه يعامل الدمشقيين معاملة تنطوى على كثير من العنف ؛ وطالما طلبوا منه العفو ، وتضرعوا إليه ، فلم يأبه لهم . ويظهر ذلك واضحا جليا فى هذه العبارة التى خاطب بها جعفر أهل دمشق ، فقال لهم « ما أعفو عنكم حتى تخرجوا إلى ومعكم نساؤكم مكشوفات الشعور ، فيتمرغن فى التراب بين يدىّ لطلب العفو » ، فيقولون له « نفعل ما يقول القائد (١) . »

ويظهر أن سلوك جعفر أدى إلى فرار عدد كبير من أعلام دمشق ، وتشنيعهم على الفاطميين والمغاربة ، حتى إن الزعيم العربى ظالم بن موهوب العُقيلى وغيره لجئوا إلى القرامطة ، وأوغروا صدورهم على الفاطميين ، كما لجأ كثير من الإخشيدية والكافورية وزعمائهم إلى الحمدانيين وغيرهم ، وأصبحوا جميعا خطرا يهدد نفوذ جعفر فى بلاد الشام . أضف إلى ذلك أنه أساء معاملة زعماء بلاد الشام ، وخاصة

---

(١) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ٨٢ — ٨٣ .

زعماء دمشق ، فقتل بعضا ، وعلق رءوسهم على أبواب المدينة ، وصلب بعضا ، وشهر ببعض آخر ، مما يدل على قلة خبرته السياسية

ومهما يكن من شيء ، فقد أقيمت الخطبة للخليفة الفاطمى ، المعز لدين الله ، فى دمشق أول جمعة من شهر المحرم سنة ٣٥٩ هـ ، وحذف اسم الخليفة العباسى المطيع (٣٣٤ - ٣٦٣ هـ) ، فكان هذا إيذانا بزوال نفوذ العباسيين من هذه البلاد والذى نلحظه فى فتح الفاطميين مصر والشام ، أن الجنود الإخشيديين وحدهم ، هم الذين تحملوا ضغط الجيوش الفاطمية ، وأن الدولة العباسية تركت هؤلاء الجنود و بعض أهالى الشام ، يلاقون مصيرهم المحتوم، دون أن تمد لهم يد المساعدة ، بخلاف ما كانت عليه الحال فى عهد عبيد الله المهدى ، الذى لم تستطع جيوشه الفاطمية فتح مصر بسبب إرسال الإمدادات من بغداد . ويرجع ذلك إلى ضعف الخلفاء العباسيين مع بنى بويه ، مما أطمع الأعداء فى الدولة العباسية ، فرامها الروم . على ما رأينا ، وانتزع الفاطميون منهم أعز ممتلكاتهم ، دون أن يحركوا لذلك سا كنا

ومما يلفت النظر أيضا أن الفاطميين اتخذوا دمشق قاعدة يوجهون منها ضرباتهم إلى الروم ، عملا بسياستهم التى كشف عنها جوهر الصقلى فى منشوراته التى أذاعها بين المصريين وهذا جعفر بن فلاح يقوم بتنفيذها ، فنراه يعمل على استرداد أنطاكية ، التى كانت قد وقعت فى أيدى الروم منذ سنتين أو ثلاث ، على ما رأينا ولكنه أخطأ فى اختيار الوقت الذى يشن فيه غارته على هذه المدينة ، ولذلك لم يستطع جنده الاستيلاء عليها فى الشتاء ، وانهزموا أمام الروم ، وأرغم جعفر بن فلاح على استدعائهم لمواجهة الخطر الذى كان يتهدده من ناحية القرامطة .

والواقع أن جعفر بن فلاح كان يتهدده فى بلاد الشام خطران خطر الروم الذين انحدروا من جبال طوروس ، واحتلوا مدينة أنطاكية ، فأضحوا شوكة فى ظهر من يحكم بلاد الشام ، وشعر بنفس الخطر الذى يشعر به السوريون اليوم من جراء احتلال تركيا لواء الإسكندرونة . ومن ثم اندفعت جيوش الفاطميين لدرء ذلك الخطر من ناحية الشمال ، حتى تكون جبال طوروس الحد الذى يفصل بينهم وبين الروم ، وهذا ما فعله محمد على باشا فى العصور الحديثة . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى استغل جعفر هجومه نحو الشمال لتخدير أعصاب المسلمين السنيين ،

حتى يقلل من ثوراتهم على الحكم الفاطمى فى بلاد الشام ، ويشغلهم بقتال الروم ويجعلهم يعتقدون أن الفاطميين لا يقلون عن العباسيين تحمسا للإسلام

وأما الخطر الثانى الذى تعرض له جعفر بن فلاح فى بلاد الشام ، فقد أتى من ناحية القرامطة ، الذين كانوا يعدونها منذ سنة ٣٥٣ هـ منطقة نفوذ قرمطى ويعتقدون أن أية قوة لا تستطيع الاستيلاء عليها أضف إلى ذلك سوء العلاقة بين رياسة الإسماعيلية التى تتركز فى شخص الخليفة المعز ، وبين زعماء القرامطة وحكامهم من بيت أحمد بن أبى سعيد الجنابى كل أولئك جعل مركز الفاطميين فى بلاد الشام محفوفا بالمخاطر

على أن هناك خطرا ثالثا حال دون استقرار الحكم الفاطمى فى بلاد الشام ذلك هو كثرة الثورات التى قام بها أهالى هذه البلاد فى وجه المغاربة . فإن جعفر ابن فلاح حكم هذه البلاد أكثر من سنة انتشرت فيها الثورات فهل يرجع ذلك إلى غطرسة جعفر ، وتعسفه فى معاملة الأهلين ؟ أو يرجع إلى ميلهم ، وخاصة أهالى دمشق ، إلى الأمويين ، الذين كانوا قد اتخذوا من بلادهم قاعدة يحكمون منها العالم الإسلامى ؟ وهل كان من أثر ذلك الميل أن أضمر الشاميون الكراهة والبغضاء لهؤلاء الفاطميين العلويين ، فعملوا على الإيقاع بهم ؟ أو أن ذلك يرجع إلى كثرة الدسائس والمؤامرات التى كان يحوكها الأمراء الذين فروا من وجه الفاطميين كظالم بن موهوب العُقيلى وغيره ؟ يظهر أن هذه العوامل مجتمعة هى التى أثارت القلق فى نفوس أهالى هذه البلاد الشامية على الحكم الفاطمى ، ولا سيما فى عهد ولاية جعفر بن فلاح (٣٥٨ - ٣٦٠ هـ) .

٤ — النزاع بين المعز والقرامطه

(ا) علاقة المعز بالقرامطة قبل ثورة الحسن الأعصم :

نريد أن نتبين هنا موقف القرامطة من الفاطميين . الذين تولوا زعامة جميع طوائف الإسماعيلية . وقد ذكرنا من قبل أن عبيد الله المهدى تدخل فى شئون القرامطة منذ أوائل القرن الرابع الهجرى ، حتى لقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأنه قتل

أبا سعيد الجنابى فى سنة ٣٠١ هـ ومن الثابت أن عبيد الله المهدى قام بدور كبير فى عزل سعيد بن أبى سعيد وساهم لحد كبير فى الثورة التى انتهت بعزله ، فعين عبيد الله أبا طاهر الجنابى فى سنة ٣٠٥ هـ على رأس القرامطة ، فكان له أطوع من بنانه وقد استمر هذا الزعيم على إخلاصه للفاطميين المهدى ثم للقائم حتى توفى سنة ٣٣٢ هـ (١)

وبموت أبى طاهر (٣٣٢ هـ) ، وجد الفريق المناهض للفاطميين السبيل ممهدة أمامه ؛ فقد مات هذا الزعيم ولم يترك من الأبناء ، مع كثرتهم ، من يصلح للحكم من بعده فقد كان سابور بن أبى طاهر، أكبر أبنائه العشرة ، لا يزال طفلا، لا يمكن الاعتماد عليه ؛ ومن ثم هب سعيد بن أبى سعيد الذى كان أخوه أبو طاهر وأنصار الفاطميين من القرامطة قد نحّوه عن العرش منذ سنة ٣٠٥ هـ . ولم ير الخليفة القائم إقراره فى الحكم وعين أخاه أحمد بن أبى سعيد فى حكم القرامطة ، وجعل سابور بن أبى طاهر ولى عهده

وبذلك انقسم القرامطة إلى معسكرين: أما الأول فيميل إلى الفاطميين، ويتطلع إلى الحكم فى الوقت نفسه ، وعلى رأس هذا الفريق أبناء أبى طاهر ، ومعهم عدد غير قليل من كبار القرامطة ووجوههم وذوى النفوذ فيهم ، وهم المعروفون بالعقدانية ويرى هذا الفريق أن تنضوى طائفة القرامطة فى سياستها الخارجية والمذهبية تحت لواء الفاطميين ، كما كانوا فى عهد أبى طاهر بن أبى سعيد (٣٠٥ - ٣٣٢ هـ) .

وأما المعسكر الثانى ، فهم الطبقة العليا الحاكمة من القرامطة ، وتتمثل فى أحمد ابن أبى سعيد وإخوته ، ومن انضم إليهم من القرامطة . ويرى هؤلاء الاحتفاظ برياسة ، دولتهم القرمطية الإسماعيلية ، وتوجيهها التوجيه الذى يعود بالنفع على القرامطة أنفسهم، رضى رؤساؤهم الفاطميون بذلك أم لم يرضوا ، وافقت سياستهم سياسة الفاطميين أم خالفتها فقد كان هذا الفريق الحاكم ينظر إلى الأمر من

---

(١) أنظر كتاب ,, عبيد الله المهدى ،، للمؤلفين ص ٢١١ وما بعدها

ناحية المصلحة الخاصة لا من ناحية المصلحة العامة ، التى يشترك فيها القرامطة والفاطميون على سواء.(١)

وقد ظلت تلك الحال منذ مات أبو طاهر فى سنة ٣٣٢ هـ ، حتى سنة ٣٥٨ هـ ، وتم فى خلال تلك الفترة تحقيق وجهة نظر القرامطة الحكوميين ، فتم التقرب بين هؤلاء وبين غير الإسماعيليـــة ، وأصبح القرامطة من جنود الخلفاء العباسيين وأمرائهم ، كابن رائق والبريديين وغيرهم ، كما أصبحوا من أعوان البويهيين ، وتألفوا مع الحمدانيين

ونحن نعتقد أن هذه السياسة غير المذهبية تناقض فى كثير من النواحى سياسة الفاطميين ، الذين كانوا يرغبون رغبة صادقة فى اتخاذ هؤلاء القرامطة معاول لهدم السنيين ، عباسيين كانوا أم حمدانيين ومن ثم وجد فريق أبى طاهر الموالى للفاطميين ، السبيل ممهدة أمامه للطعن فى سياسة الحكومة القرمطية ، ووجد المعز لدين الله من بين القرامطـــة من يستطيع الاعتماد عليهم ، فى ثورتهم على النظم الحكومية القرمطية ، فاستعان بحزب سابور بن أبى طاهر هذا ، فى محاولته القضاء على سلطان القرامطة الحكوميين الذين اندفعوا فى سياستهم إلى طريق غير مأمون العواقب .

وقد شعر سابور بن أبى طاهر ، أن عمه أحمد بن سعيد قد اندفع فى سياسة إقرار شئون القرامطة فى بيته هو ، ضاربا ببيت سابور عرض الحائط ولذلك أسند أحمد هذا إلى ابنه الحسن الأعصم ، قيادة حملة هامة على بلاد عمان ، ثم أسند اليه فى سنة ٣٥٣ هـ حملة أخرى تعرف « بحملة طبرية » وقد انتصر فيها الحسن الأعصم ، بمساعدة الحمدانيين ، على الحسن بن عبيد الله بن طغج الإخشيد ، صاحب الشام وقتئذ ، فرماه سابور بن أبى طاهر وأنصاره باتهامات خطرة كاغتصاب قدر كبير من الغنائم والأسلاب ولا يبعد أن يكون سابور قد اتهم الأعصم أيضا بمالأة السنيين ، كالحمدانيين ويظهر أن الحملات الكلامية التى قام بها سابور وأنصاره من حزب الفاطميين ، كانت من العنف والشدة بحيث حالت دون مسير الحسن

(١) طه أحمد شرف تاريخ الاسماعيلية السياسى ج ١ ورقة ٢٣٦ — ٢٣٧

الأعصم فى الحملة الثانية فى بلاد الشام (سنة ٣٥٧ هـ) ويقول ابن حوقل[١] : «ولما صار أبو على بن المنصور إلى الشام[٢] ، وعاد عنها ، ظنت به خيانة فيما صار إليه من الغنائم وردّ إليها فى الثانية (٣٥٧ هـ) كسرى بن أبى القاسم ، وصخر بن إسحاق ؛ فكان منهم مع الحسن بن عبيد الله (بن طغج الإخشيد) ما كان » . وبهذا حقد أحمد ابن أبى سعيد وابنه الحسن الأعصم ، على سابور بن أبى طاهر وأنصاره

وكان من أثر ذلك أن اشتد ساعد فريق سابور من أنصار الفاطميين ، وطالبوا بالحكم لأنفسهم ، وتمكنوا من عزل أحمد بن أبى سعيد فى سنة ٣٥٨ هـ . ولكن سابورا لم يتمتع بالحكم طويلا ، فقتل ، واستبد بيت أحمد بن أبى سعيد بحكم القرامطة من جديد وبعبارة أخرى « قبض سابور على عمه أبى منصور (أحمد) ، فاعتقله بموافقة إخوته له على هذا ، وذلك فى سنة ثمان وخمسين وثلثمائة . ثم ثار بهم أخوه[٣] ، فأخرجه من الاعتقال ، وقتل سابورا ، ونفى إخوته وأشياعه إلى جزيرة أوال[٤] »

وقد أدى قتل سابور إلى ضعف الفريق الذى يعتمد عليه الفاطميون ، وتغلب الفريق الذى يحقد عليه الفاطميون ، مما أدى إلى قيام النزاع بين الفريقين . ويرى دى غوية[٥] أنّ الحكم بين القرامطة انتقل بعد موت أبى طاهر إلى أيدى جماعة كان من سياستها التأنى والتروى . والعمل على الاتفاقات الدبلوماسية ، والابتعاد عن الغلو المذهبى ، الذى اشتهر به القرامطة فى عهد أبى طاهر . وكان من أثر هذه السياسة أن وقع الاصطدام مع الفاطميين .

وفى الحق أن ربع قرن (٣٣٢ — ٣٥٨ هـ) يكفى فى تكوين جماعة من القرامطة تعمل شيئا فشيئا على تكوين دولة قرمطية ، يكون غرضها الأول أن تعيش فى وسط

(١) المسالك والممالك ج ٢ ص ٣٢ .

(٢) كان ذلك فى سنة ٣٥٣ هـ .

(٣) يظهر أنه يقصد أبا القاسم سعيدا أخا أحمد بن أبى سعيد الذى ولى حكم القرامطة من سنة ٣٠١ إلى سنة ٣٠٥ هـ ، ثم عزله أنصار عبيد الله المهدى . انظر ص ٢١٤ من كتاب عبيد الله المهدى للمؤلفين .

(٤) جزيرة بالخليج الفارسى ، فى مقابل بلاد البحرين . انظر المسالك والممالك ج ٢ ص ٢٢

(٥) Memoires sur les Carmathes, vol. ii. p. 188.

جيرانها فى سلام ووئام وبعبارة أخرى عمل القائمون على شئون القرامطة منذ وفاة أبى طاهر على تكوين دولة تنهج فى سياستها نهج الفاطميين أنفسهم ، فتتصل بالسفيين بوصفها دولة شيعية مسلمة ، تعمل على النهوض بالعالم الإسلامى وبالإسماعيلية ، على أنها دولة إسماعيلية مستقلة . فلم ترق تلك السياسة نظر كثير من القرامطة أنفسهم ، وعلى رأسهم سابور بن أبى طاهر ، الذى أخذ يعمل على الوصول إلى الحكم ، وينادى بوجوب طاعة الإمام الفاطمى ، صاحب الزمان (١)

وقد نسأل عن السبب الحقيقى الذى حدا بالقرامطة إلى فتح بلاد الشام منذ سنة ٣٥٣ هـ ، أكان ذلك تظاهرا منهم بالرغبة فى مساعدة الفاطميين ، شأنهم فى ذلك شأن أبى طاهر من قبل ؟ أم أنهم كانوا يرمون من وراء هذا الفتح إلى مساعدة حلفائهم وأنصارهم الحمدانيين على الإخشيديين ؟ أم أنهم كانوا يعملون لمصلحة أنفسهم دون سواهم ؟ يذهب دى غوية إلى القول بأن القرامطة كانوا يعملون فى ذلك الوقت بوحى من الفاطميين ، لتمزيق شمل الدولة الإخشيدية فى الشام ، ثم الإطباق عليهم من الغرب بمعونة جيوش الفاطميين المغاربة غير أن الهيئة الحاكمة فى القرامطة ، هى التى بادرت إلى الاتفاق مع الحسن بن عبيد الله بن طغج ، والى الشام ، على أن يدفع للقرامطة ثلثمائة ألف دينار كل سنة ، مما أغضب سابور بن أبى طاهر.(٢)

ولا نستطيع أن نوافق دى غوية على كل ما ذكره ؛ إذ لا يبعد أن تكون حملات القرامطة على بلاد الشام بدافع من أنفسهم ، بدليل أنهم استعانوا فى هذه الحروب بالحمدانيين ، وهم من غير الإسماعيلية (٣). ولا يبعد أن يكون القرامطة قد رغبوا فى وضع بلاد الشام فى قبضتهم ، ولذلك فرضوا هذه الضريبة على الإخشيديين ؛ وكان الأولى أن يخضعوا هذه البلاد ، ويفرضوا عليها الضرائب باسم زعمائهم وسادتهم الفاطميين .

وليس هناك ما يمنع من وجود علاقة طيبة بين المعز لدين الله ، وسابور بن أبى طاهر ، وأن يكون المعز قد وعده الملك كفاء تعهده بأن يسير على نهج سياسة

---

(١) طه أحمد شرف تاريخ الإسماعيلية السياسى ج ١ ورقة ٢٣٨ — ٢٣٩

(٢) De Goeje Memoires sur les Carmathes, vol. ii. p. 186.

(٣) طه أحمد شرف تاريخ الاسماعيلية السياسى ج ١ ورقة ٢٣٩

أبيه أبى طاهر ، فى التقرب من الفاطميين والائتمار بأوامرهم ، ولم يعد المعز يعتمد على بيت أحمد بن أبى سعيد الجنابى اعتمادا جديا فى فتح مصر ، والقضاء على الخلافة العباسية وبذلك يكون طلب سابور الملك قائما على وعد من الفاطميين ، ويكون قتله على يد عمه سعيد بن أبى سعيد وأنصاره ثورة على الفاطميين فى الواقع .

وهنا نلاحظ أن ما أضمره القرامطة من عداء صريح للفاطميين لم يظهر إلا بعد مقتل سابور سنة ٣٥٨ هـ ، بل إنهم كانوا لايزالون على ولائهم ، ولو فى الظاهر ، للفاطميين . وكان العداء يزداد بين الفاطميين والقرامطة على مر الزمن ؛ ولذلك فإن زعيم القرامطة أحمد بن أبى سعيد لما مات فى سنة ٣٥٩ هـ ، تولى بعده ابنه الحسن المعروف بالأعصم . وكان أول ما قام به أن أضعف من نفوذ حزب أبى طاهر الموالى للفاطميين ، فنفى كثيرين منهم من بلاد البحرين ، وواصل العمل بمعاهدة أبى طاهر مع العباسيين ، فى عدم التعرض لحاج المسلمين . ويقول ابن خلدون [١] « ثم هلك أبو منصور (أحمد بن أبى سعيد) ، ويقال مسموما على يد شيعة سابور وولى ابنه أبو على الحسن بن أحمد ، ويلقب بالأعصم ، وقيل الأغنم ، فطالت مدته (من سنة ٣٥٩ هـ إلى سنة ٣٦٧ هـ) ، وكثرت وقائعه ، ونفى جمعا كبيرا من ولد أبى طاهر يقال اجتمع منهم بجزيرة أوال نحو من ثلثمائة . وحج الأعصم [٢] هذا بنفسه ، ولم يتعرض للحجاج ، ولا أنكر الخطبة للمطيع » .

(ب) العوامل التى أدت إلى قيام الحرب بين القرامطة والفاطميين فى مصر والشام

يرجع السبب المباشر للحرب بين القرامطة والفاطميين فى سنة ٣٥٩ هـ ، إلى منع الفاطميين الضريبة التى كان يدفعها الحسن بن عبيد الله بن طغج إلى القرامطة منذ سنة ٣٥٧ هـ . والواقع أن تدخل المعز لدين الله فى شئون القرامطة الداخلية كان له أثر كبير فى قيام تلك الحروب . يؤيد هذا ما ذكره ابن خلدون [٣] من

( ) العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٤ ص ٩٠ .

(٢) فى الأصل هذا الأعصم

(٣) العبر جـ ٤ ص ٩٠ .

أنه « لما استولى جوهر على مصر ، وجعفر بن فلاح الكتامى على دمشق ، طالب الحسن (الأعصم) بالضريبة التى كانت له على دمشق ، فمنعوه ونابذوه [١]، وكتب له المعز من المغرب ، وأغلظ عليه ودس لشيعة أبى طاهر وبنيه أن الأمر لولده واطلع الحسن على ذلك فخلع المعز سنة ستين [٢] ، وخطب للمطيع العباسى فى منابره ، ولبس السواد » .

وكذلك ترجع هذه الحروب إلى فرار كثير من زعماء الشام إلى الحسن الأعصم واستنجادهم به ، ومن هؤلاء ظالم بن موهوب العُقيلى العربى ، الذى قام فيما بعد بدور كبير فى تلك الحروب ؟ إلا أننا نسأل : لماذا قصد هؤلاء الزعماء الحسن الأعصم ، واستنجدوا به على الفاطميين ؟ إنهم كانوا يعلمون ، كما كان يعلم جميع المعاصرين فى ذلك الحين ، أن القرامطة والفاطميين يستمدون من معين واحد ، هو المذهب الإسماعيلى ، وإذن لو كان هؤلاء الزعماء يعلمون أن الفاطميين والقرامطة على شىء من الوفاق لما قصدوا الحسن الأعصم ومن هنا نرى العداء المستحكم بين الأعصم القرمطى والمعز الفاطمى ، ذلك العداء الذى أحسه أهل الشام ، فقصد زعماؤهم القرامطة ، ليحتموا بهم من الفاطميين .

ونستطيع أن نقول فى غير إسراف ، إن هـذا العداء كان قائما قبل استيلاء الفاطميين على دمشق سنة ٣٥٩ هـ . والدليل على ذلك ما أشار به جوهر فى ذلك المنشور الذى أذاعه على المصريين ، يعلن فيه سخط الفاطميين على القرامطة لاعتدائهم على الحجاج . هذا إلى تدخل الفاطميين فى شئون القرامطة الداخلية ، فقد أسندت رياسة القرامطة إلى بيت أحمد بن أبى سعيد ، « وكان يعز على ذلك البيت أن يتدخل الخليفة القائم الفاطمى ، فيولى بيت أبى طاهر العهد ، ويبقى الرياسة فى بيت أحمد هذا ، كما عز عليهم أن يروا المعز يثير الخلاف بينهم وبين أبناء أبى طاهر » .

أضف إلى ذلك أن استبداد الأعصم بعرش القرامطة دون الرجوع إلى الفاطميين فيه معنى الثورة على هؤلاء الفاطميين ، وعلى النظام الذى وضعوه

---

(١) أى خالفوه .

(٢) فى الأصل ثنتين .

لأنفسهم منذ عهد عبيد الله المهدى الفاطمى ، فقد كانت سياستهم ترمى إلى تعيين رؤساء القرامطة الموالين لهم . وقد رأينا كيف عزل القرامطة سعيدا بن أبى سعيد ، وولوا مكانه أبا طاهر فى سنة ٣٠٥ هـ ، وعزلوا سعيدا بن أبى سعيد للمرة الثانية بعد موت أبى طاهر فى سنة ٣٣٢ هـ ، وولوا مكانه أحمد بن أبى سعيد ، وقلدوا سابورا ابن أبى طاهر ولاية العهد من بعده كما تقدم . وكان هذا كله مما لا يطمئن إليه البيت القرمطى الحاكم

ثم أليس فى قتل سابور بن أبى طاهر على يد أحمد بن أبى سعيد معنى الثورة على الفاطميين الذين كانوا قد ولوه العهد ؟ وهل أقر الفاطميون تعيين الحسن الأعصم كما كانوا يقرون كل تعيين سابق ؟ لم نقف من المصادر التى بين أيدينا على أن الفاطميين هم الذين عينوا الأعصم ، أو أنهم أقروه على هذا التعيين . بل الذى نعلمه أن المعز لم يكن راضيا عن هذا التعيين ، وأنه كان يثير عداء بيت أبى طاهر على الأعصم من حين إلى حين . وبهذا كله نستطيع أن نقول ، إن السبب الرئيس فى قيام هذه الحروب الدامية بين القرامطة والفاطميين ، وهم جميعا من الإسماعيلية كما نعلم ، يرجع إلى تدخل الفاطميين فى شئون القرامطة (١) .

على أنه لا يبعد أن يكون للعباسيين والبويهيين أثر فى إذكاء تلك الحروب . ولا عجب فى ذلك ، فقد عجزوا عن صد الفاطميين ، والروم من قبلهم ، عن غزو بلادهم . فلا يبعد إذا أن يثيروا حكومة القرامطة على الفاطميين ، وخصوصا أن القرامطة كانوا يعتبرون بلاد الشام مجالا حيويا لهم منذ أوائل القرن الرابع الهجرى وزاد تعلقهم بهذه البلاد بعد انتصارهم على الإخشيديين فى موقعتى طبرية (سنة ٣٥٣ هـ) ودمشق (سنة ٣٥٧ هـ) ولا يبعد أن يعتبر القرامطة سادتهم الفاطميين دخلاء عليهم فى هذه البلاد . وسنرى أن العباسيين والبويهيين بذلوا جهودا جبارة فى إثارة المنافسة بين هؤلاء وأولئك ، مما يؤكد أن الحرب بين القرامطة والفاطميين كانت فى حقيقة الأمر حربا بين السنيين والفاطميين .

وبهذا كله نستطيع أن نقول ، إن مطامع الفاطميين الإسماعيلية فى الشرق اصطدمت بمطامع القرامطة ، وعلى الأخص بمطامع الطبقة الحاكمة منهم . فكان من

---

(١) طه أحمد شرف : تاريخ الاسماعيلية السياسى حتى سقوط بغداد ج ١ ورقة ٢٠٣ .

سياسة الفاطميين أن يبدءوا بفتح مصر ، ثم التثنية بفتح بلاد الشام ، واتخاذها جسرا يعبرون منه لفتح بغداد نفسها ولم يكن القرامطة يعتقدون أن كائنا من كان يستطيع أن يقف فى سبيلهم ، أو أن يصدهم عن تحقيق سياستهم . وأما القرامطة فقد أصبحوا سادة على البلاد الممتدة على شاطىء الخليج الفارسى الغربى ، من عمان إلى مصب نهرى دجلة والفرات ، وعلى الصحراء ، وأصبح من حقهم أن يعترضوا فى سنة ٣٤٦ هـ على معز الدولة بن بويه ، لاجتيازه هذه الصحراء دون الرجوع إليهم وهؤلاء القرامطة قد أصبحوا سادة على بلاد الشام ، وأصبح حكامها من الإخشيديين يدفعون لهم جزية سنوية . وكان يغذى تصادم مطامع الفريقين ، كراهة الهيئة الحاكمة من القرامطة ، وتدخل الخلفاء الفاطميين فى شئونهم ، والتجاء بعض زعماء الشام إليهم ، وإغراؤهم إياهم بحرب سادتهم الفاطميين ، كما كان لتدخل الخلفاء العباسيين بين الفريقين أثر كبير فى هذه السبيل . أضف إلى ذلك عاملا آخر هو الناحية المادية فقد حُـرمَت حكومة القرامطة ضريبة ضخمة كانوا يتمتعون بها فهذه العوامل مجتمعة أذكت نيران الحرب بين طائفتى الإسماعيلية الفاطميين والقرامطة

(حـ) الصراع بين القرامطة والفاطميين الى أن وصل المعز الى مصر

قامت الحرب بين الفريقين ؛ وكانت الشام ومصر ميدانا فسيحا لهذه الحرب . وقام قواد المعز قبل مجيئه إلى مصر بدور هام ؛ فاستطاع جوهر الصقلى أن يصد خطر القرامطة عن هذه البلاد ، ولكنه عجز عن صدهم عن بلاد الشام وقد أحدث مجىء المعز انقلابا هائلا فى مجرى هذه الحروب ، فأحالت انتصارات الأعصم هزائم متتالية

١ — جعفر بن فلاح والحسن الأعصم

وقد أعد الحسن الأعصم لهذه الحروب عُـدتها ، فانتهز فرصة تدخل المعز فى شئون جماعته ، فأثار أبناء أبى طاهر على فريق القرامطة الذى آل إليه الحكم ، كما أثار عوامل الحقد فى نفوس أنصاره ، بسبب تدخل الفاطميين فى شئونهم. ولم يقنع الحسن بذلك ، بل طرد كل من اشتبه فى إخلاصه لسياسته النفعية الانفصالية

فطرد أبناء أبى سعيد وأنصارهم الذين يؤمنون بأحقية الفاطميين ، ويقرونهم على تدخلهم فى شئونهم وخيل إليه بعد ذلك أن المجتمع القرمطى أصبح على عقيدته السياسية الجديدة . على أن إعداده المجتمع القرمطى لصراع عنيف مع الفاطميين لم يكن كل ما اشتملت عليه خطته ، بل كان حتما عليه أن يستمد المعونة من الخارج . ونحن نعلم أن جماعة من زعماء الشام ، وعلى رأسهم ظالم بن موهوب العقيلى كانوا قد لجئوا إليه ، كما نعلم أن العباسيين منذ سنة ٣٢٧ ه كانوا على وفاق مع القرامطة ، وأن الحمدانيين أصبحوا من أصدقائهم وحلفائهم ، وأن الإخشيدية والكافورية كانوا قد فروا إلى الحمدانيين لذلك رأى الحسن الأعصم ضرورة استعانته بهؤلاء جميعا ، وقد نجح نجاحا باهرا فى هذه السبيل

استعان الأعصم فى سنة ٣٦٠ ه بالخليفة المطيع ، واستمد منه ومن البويهيين المال والرجال ، ووعدهم باسترداد بلاد الشام ومصر من الفاطميين ، على أن يحل القرامطة محل الفاطميين فى حكم هذه البلاد وقد لبى العباسيون والبويهيون مطالبه ، فلم يمتنع المطيع كما يقول أبو المحاسن [١] « وسار القرمطى إلى بغداد وسأل الخليفة المطيع بالله العباسى، على لسان عز الدولة بختيار [٢]، أن يمده بمال ورجال، ويوليه الشام ومصر ، ليخرج المعز منها فامتنع الخليفة المطيع بالله عنها . وقال كلهم قرامطة ، وعلى دين واحد فأما المصريون ، يعنى بنى عُبيد ، فأماتوا السنن ، وقتلوا العلماء، وأما هؤلاء ، يعنى القرامطة ، فقتلوا الحاج، وقلعوا الحجر الأسود ».

من هذا نرى أن الشطر الأول مما ذكره أبو المحاسن صحيح فى جملته وأما الشطر الثانى فلا يكاد يصدقه أحد ، لأننا لو صدقناه لكان معناه الرضا من جانب الخليفة المطيع ببقاء الفاطميين فى مصر والشام بدلا من القرامطة ، ولا سيما إذا علمنا أن الحسن الأعصم قد تعهد للخليفة المطيع بأنه سيحكم هذه البلاد باسمه ، فكيف يرفض المطيع تبعية بلاد الشام ومصر ، وعودتهما إليه من جديد ، ويقر على نفسه بقاءها فى أيدى الفاطميين أعدائه ومنافسيه ؟ ولا غرو ، فإن انضمام

---

(١) النجوم الزاهرة : ج ٤ ص ٧٤ .

(٢) هو ابن معز الدولة ، استمر حكمه من سنة ٣٥٦ إلى سنة ٣٦٧ ه .

القرامطة إلى العباسيين قوة لا يستهان بها خصوصا فى ذلك الوقت الذى خرجت فيه بلاد الشام ومصر من أيديهم

ويؤيد هذا ما ذكره ابن القلانسى حيث قال « وبعث القرامطة أبا طريف عدى بن محمد بن الغمر ، صاحبهم إلى عز الدولة بختيار ، يطلبون المساعدة على المغاربة بالمال والرجال فاستقر الرأى أن يعطيهم عز الدولة ألف ألف درهم ، وألف جَوْشن ، وألف سيف ، وألف رمح ، وألف قوس ، وألف جَعبة. وقال: إذا وصل الحسن أبو على الجنانى إلى الكوفة حمل إليه جميع ذلك » (١)

ومهما يكن من شيء ، فإن بغداد رحبت بهذا التحالف الجديد ، وأمدت القرامطة بالمال والسلاح والرجال ، فأمرت أتباعها الحمدانيين ، أصدقاء القرامطة ، أن يتعاونوا مع الحسن الأعصم . وقد رحب الحمدانيون (٢) بهذا التحالف الجديد لصداقتهم القديمة مع القرامطة ، وخوفهم من قرب الفاطميين من بلادهم . ولذلك أمدوا الحسن بالمال والرجال ، وسمحوا لجنودهم بالتطوع فى جيشه ، وشجعوا الذين فروا إليهم من الإخشيدية والكافورية على الانضواء تحت لوائه . كما أخذ الحسن الأعصم من جانبه فى جمع الجيوش من الأعراب ، مستعينا فى ذلك بما أخذه من أموال العباسيين يقول النويرى (٣) « فسار الحسن بن أحمد إلى الكوفة ،

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١

(٢) والذى يلفت النظر حقا وقوف الحمدانيين فى وجه الفاطميين، مع أنهم كانوا يدعون التشيع ، ويتراسلون هم والفاطميون، حتى لقد حذر المعز لدين الله قائده جوهرا من الاعتماد عليهم، ورماهم بالتقلب فى سياستهم . ولذلك لا نستبعد عليهم أن يتصلوا بالفاطميين اليوم ، ثم يحاربوهم غدا

يقول المقريزى (اتعاظ الحنفا ص ٦٣) ,, وكتب المعز إلى جوهر وهو بمصر من المغرب وأما ما ذكرت يا جوهر من أن جماعة من بنى حمدان وصلت إليك كتبهم ، يبذلون الطاعة ، ويعدون بالمسارعة فى السير إليك فاسمع لما أذكره لك : احذر أن تبتدىء أحدا من آل حمدان بمكاتبة ، ترهيبا له ولا ترغيبا . ومن كتب إليك منهم فأجبهم بالحسن الجميل ، ولا تستدعه إليك . ومن ورد إليك منهم فأحسن إليه ، ولا تمكن أحدا منهم من قيادة جيش ، ولا ملك طرف ، فبنو حمدان يتظاهرون بثلاثة أشياء عليها مدار العالم ، وليس لهم فيها نصيب : يتظاهرون بالدين، وليس لهم فيه نصيب، ويتظاهرون بالكرم ، وليس لواحد منهم كرم فى الله ، ويتظاهرون بالشجاعة ، وشجاعتهم للدنيا لا للاخرة . فاحذر كل الحذر من الاستنامة إلى أحد منهم ،، .

(٣) نهاية الأرب (مخطوط) جـ ٢٣ ورقة ٩٠ .

وراسل بختيار الديلمى ، أحد ملوك الدولة البويهية ، فى طلب السلاح والمساعدة . فأنفذ بختيار إليه خزائن سلاح من بغداد ، وكتب له على أبى تغلب (١) بن ناصر الدولة بن حمدان بأربعمائة ألف درهم ، فرحل الحسن من الكوفة ، حتى أتى الرحبة (٢) ، وعليها أبو تغلب بن حمدان ، فحمل إليه المال المسبب له به عليه ، وحمل إليه العلوفة . وأرسل إليه يقول هذا شىء كنت أردت أن أسير أنا فيه بنفسى ، وأنت تقوم مقامى فيه ، وأنا مقيم فى هذا الموضع إلى أن يرد إلى خبرك ، فإن احتجت إلى مسيرى سرت إليك »

وهكذا تألب السنيون والشيعيون البويهيون والحمدانيون على الفاطميين ، وآثر كل منهم المنفعة الشخصية فالعباسيون يخشون على ملكهم ، وقد وجدوا فى حركة الأعصم تفريجا عن كربتهم التى أوقعهم فيها الفاطميون ؛ والبويهيون يخشون على نفوذهم السياسى ، ويخافون أن يحل الفاطميون الأقوياء محل العباسيين الضعفاء ، فيزول ما كان لهم من هيبة ؛ والحمدانيون يخشون قرب الدولة الفاطمية الطموح من بلادهم ، ويعلمون أن فتح الشام سيتلوه فتح العراق ، وأن الفاطميين قد يطوحون بعرشهم. وبهذا نرى الحمدانيين ينتقمون لأنفسهم من جعفر بن فلاح ، الذى هدد أبا تغلب بالمسير إليه ، إذا لم يتفق معه على إقامة الدعوة الإسماعيلية الفاطمية فى بلاد الشام . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، ازدادت قوة الحسن الأعصم بانضمام الحمدانيين وفلول الإخشيدية والكافورية إلى جيوشه وكان من أشد هؤلاء الجند بطشا ، جند العُقيليين ، بزعامة ظالم بن موهوب العقيلى

وكان على الحسن الأعصم أن يحتل دمشق ، ليقضى على نفوذ الفاطميين فى كل بلاد الشام ، كما كان عليه أن يحقق ما وعد به العباسيين من القضاء على دولة الفاطميين فى مصر نفسها. ولهذا تركزت جهوده فى القضاء على قائدى الفاطميين : جعفر بن فلاح فى الشام ، وجوهر الصقلى فى مصر

أما مسرح الحرب التى دارت بين الأعصم وجعفر بن فلاح الكتامى ، فقد كان على «الدكة» الواقعه على نهر يزيد ، على مقربة من دمشق ، حيث حلت الهزيمة بجعفر

(١) هو ابن ناصر الدولة بن حمدان ، تولى من سنة ٣٥٨ إلى سنة ٣٦٩هـ ، وعاصر حوادث عصرنا هذا

(٢) على نهر الفرات شمالا

فى شهر ذى الحجة سنة ٣٦٠ هـ . ويظهر أن هجوم الأعصم كان من ذلك الهجوم المفاجىء . حقيقة استدعى جعفر بن فلاح قبل تلك الموقعة غلامه أبا الفتوح وبعث فى طلب جيوشه التى كانت تهاجم أنطاكية ، لملاقاة الحسن الأعصم . ولكن جعفرا لم يكن يدرى أن هجوم القرامطة سيكون بهذه السرعة ، أو على الأقل لم يكن يعتقد أن جيوش الحسن الأعصم ستكون بهذه القوة . ولذلك استهان بخصمه العنيد ، كما استهان ابن أبى الساج القائد العباسى (فى سنة ٣١٥ هـ) بخصمه أبى طاهر الجنابى عم الأعصم فحلت الهزيمة بجعفر ، كما حلت بابن أبى الساج من قبل (١)

وقد عزا بعض المؤرخين هذه الهزيمة إلى سوء العلاقة بين جوهر الصقلى وجعفر بن فلاح ، وما كان من عجرفية جعفر وترفعه على قائده الأعلى. يتضح ذلك من قول المقريزى(٢): فلما صارت الشام له شمخت نفسه عن مكاتبة جوهر، فأنفذ كتبه من دمشق إلى المعز وهو بالمغرب ، سرا من جوهر ، يذكر فيها طاعته ، ويقع فى جوهر، ويصف ما فتح الله للمعز على يده ؛ فغضب المعز لذلك ، ورد كتبه مختومة ، وكتب إليه قد أخطأك الرأى لنفسك ؛ نحن أنفذناك مع قائدنا جوهر ، فاكتب إليه فما وصل منك على يده قرأناه ، ولا تتجاوزه بعد . فلسنا نفعل لك ذلك على الوجه الذى أردته ، وإن كنت أهله عندنا . ولكننا لا نستفسد جوهرا مع طاعته لنا فزاد غضب جعفر بن فلاح ، وانكشف ذلك لجوهر ؛ فلم يبعث ابن فلاح لجوهر يسأله نجدة ، خوفا ألا ينجده بعسكر . وأقام مكانه لا يكاتب جوهرا بشىء من أمره ، إلى أن قدم عليه الحسن بن أحمد القرمطى » .

وإن دل ذلك على شىء ، فإنما يدل على أن القيادة الفاطمية العليا قد أخفقت وانقسمت على نفسها ؛ ولا نعرف أن شيئا من ذلك قد حدث على أنه إذا صح أن جعفرا لم يطلب المدد من أستاذه جوهر ، فإن ذلك يرجع إلى ما ذكرناه من أن جعفرا كان يستخف بالحسن الأعصم، ويثق بنفسه، ويعتز بقوته ، ويعتقد أنه سوف يحل به الهزيمة ولو صح أيضا أن المعز وبخ قائده جعفرا بسبب تخطيه رئيسه

(١) انظر كتاب ,, عبيد الله المهدى ،، المؤلفين ص ٢٢٦ — ٢٣٠

(٢) خطط ج ١ ص ٣٧٨

المباشر جوهرا ، فإن هـذا لا يمنع جعفرا من الاستعانة بأستاذه ، ليدرأ الخطر المزدوج عن نفسه وعن جوهر ، بل عن الدولة الفاطمية نفسها

وصفوة القول أن جعفرا لم يعبأ بالقرامطة ، واعتقد أنه كفيل بالقضاء عليهم . ولكـنه أخطأ فى تقديره ، فذهب ضحية سوء تدبيره .

وكان القرامطة فى ذلك الدور يحاربون الفاطميين بسلاح الدعاية والسيف معا ، فقد قصدوا الشام ، وهم يحملون الأعلام السود ، وأخذوا يجهرون بأن المطيع العباسى قد ولاهم شئون الشام ومصر ، وكتبوا اسم المطيع على أعلامهم ، ونقشوا عليها عبارة « السادة الراجعين إلى الحق[١] »

وهذا بلا شك ينطوى على خروج القرامطة ، أو على الأقل خروج حكومتهم ، على الفاطميين سادتهم فى المذهب ، كما ينطوى على انضمام هؤلاء القرامطة إلى العباسيين السنيين وتركهم المذهب الإسماعيلى . ولذلك « أقام القرامطة – كما يقول المقريزى [٢] – الدعوة للمطيع العباسى ، فى كل بلد فتحوه ، وسودوا أعلامهم ، ورجعوا عما كانوا يخرقون به ، وأظهروا أنهم كأمراء النواحى الذين من قبل الخليفة العباسى »

وكان انتصار القرامطة سريعا جدا ، أو خاطفا كما يقولون ، فقتلوا جعفر بن فلاح فى شهر ذى الحجة من سنة ٣٦٠ ﻫ ، واستولوا على دمشق ، وأصبح شمالى الشام فى قبضتهم ، أو قل عاد معظم بلاد الشام إلى حوزة العباسيين ، على يد الحسن الأعصم وأنصاره ، ولم يكن بد من الاستيلاء على مدينة الرملة ، ليتم فتح بلاد الشام ، حتى يزول سلطان الفاطميين عنها

وكان سعادة بن حيان ، القائد الفاطمى ، يلى مدينة الرملة . فلما أدرك أنه لا طاقة له بالحسن الأعصم ، ترك الرملة وفر إلى يافا ، ليكون على اتصال بمصر عن طريق البحر . وكان الأعصم يعتمد على الحرب الخاطفة ، ويعمد إلى التمويه لجذب الأهالى السنيين إليه . فجعل يدعى فى كل مكان ، أنه أصبح واليا على هذه البلاد من قبل

---

(١) أبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٤

(٢) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ١٣٣

العباسيين . وبذلك استطاع أن يجمع حوله عرب الشام وغيرهم من الحانقين على الحكم الفاطمى

ومما يدل على جرأة الحسن الأعصم ، أنه لما فر سعادة بن حيان القائد الفاطمى من الرملة وقصد يافا ، ورأى الحسن أن الطريق إلى مصر قد أصبح ممهدا أمامه ، لم يكتف باستيلائه على الشام ، بل عزم على تحقيق ماوعدبه العباسيين من الاستيلاء على مصر نفسها ، ومن ثم ترك بعض رجاله يحاصرون الفاطميين فى يافا وقصد مصر

والواقع أن الفاطميين فى مصر كانوا يخشون هجوم القرامطة على بلاد الشام؛ ولذلك ولى جوهر سعادة بن حيان مدينة الرملة ، ليكون حلقة الاتصال بينه وبين بلاد الشام . ولكن هذه البلاد صفت للقرامطة ، أو بالأحرى للعباسيين ، اللهم إلا مدينة يافا ، التى لجأ إليها الفاطميون بقيادة سعادة بن حيان ، ولم تخضع للقرامطة بعد.

والذى نلاحظه فى فتح بلاد الشام على أيدى القرامطة إبطال الخطبة للفاطميين، وإقامتها للعباسيين . ولم يكن هذا كل ما حدث ، بل إن الحسن الأعصم أمر بلعن الخليفة الفاطمى المعز لدين الله ، على منابر دمشق .

ويقول أوليرى دى ليسى[1]: «كان القرامطة يقولون بتقديس الإمام الفاطمى، ولذلك يبدو غريبا أن يلعن الحسن الأعصم المعز لدين الله من فوق المنابر . ولا يبعد أن يكون ذلك راجعا إلى أن أهل دمشق كانوا من السنيين المغالين فى عدائهم للشيعة والعلويين، أو أن ذلك راجع إلى بعض القرامطة ، الذين أصبحوا لا يهتمون كثيرا بشرف انتمائهم إلى العلويين ، ولا يهتمون فى قليل ولا كثير بالاعتبارات الدينية مهما كان نوعها »

وبهذا نرى أن بلاد الشام ، باستثناء يافا ، كانت فى أوائل سنة ٣٦٠ هـ فى قبضة القرامطة وحلفائهم ، وأن الفاطميين فقدوا قائدا من خيرة قوادهم ، هو جعفر ابن فلاح ، وحوصر سعادة بن حيان فى يافا .

(٢) جوهر الصقلى والحسن الأعصم الى أن وصل المعز الى مصر

ترك الحسن الأعصم قائده أبا المنجا وحليفه ظالما بن موهوب العُقيلى على حصار

(١) A Short Hist. of the Fatimid Khalifate, p. 108.

يافا ، وقد تحمل جند الفاطميين فيها شيئا غير قليل من المصاعب والأهوال ، « حتى أكل أهلها الميتة ، وهلك أكثرهم جوعا[١] » . وأما الحسن نفسه فقد قصد مصر فى أواخر سنة ٣٦٠ وأوائل سنة ٣٦١ هـ ، ليقضى على الحكم الفاطمى الذى لم يكن قد استقر بعد

وهذه خطة حربية جريئة، نلحظ فيها الإقدام والتصميم، والمهارة الحربية والثقة بالنفس التى لا تحد . ولذلك نرى الحسن يهاجم مصر من الناحية الشرقية ، فيستولى على الفرما ، مفتاح الديار المصرية ، ثم يهاجم القلزم[٢] ويستولى عليها ، ويأسر عاملها الإخشيدى عبد العزيز بن يوسف[٣]

وكان من أثر هذا الهجوم المفاجىء على مصر من الشمال والجنوب ، أن اعترف بعض البلاد الأخرى بسلطان الأعصم ، وثارت تنيس على واليها الفاطمى ، ونادت بطاعة القرامطة . ثم أخذ الأعصم يتقدم فى البلاد المصرية ، حتى حط رحاله أمام القاهرة المنصورية [٤] التى بناها جوهر بعد أن فتح مصر فى سنة ٣٥٨ هـ ؛ واستطاع أنصار الأعصم أن يلقوا بمنشوراتهم الثورية فى جامع عمرو بالفسطاط ، يحضون فيها المصريين على إذكاء نار الثورة على جوهر الصقلى . وكان هجوم الأعصم على القلزم فى شهر ذى الحجة سنة ٣٦٠ هـ ، واستيلاؤه على الفرما ثم وصوله إلى عين شمس فى شهر المحرم من سنة ٣٦١ . ثم واصل القرامطة إعداد جيوشهم ، ونشر الدعوة لأنفسهم فى مصر إلى شهر ربيع الأول من سنة ٣٦١ هـ .

والواقع أن جوهرا الصقلى لم يقف مكتوف اليدين أمام القرامطة ، فأرسل اليهم عيونه فى أواخر سنة ٣٦٠ هـ . ولما هاجموا السويس أدرك جوهر خطر موقفه ، لحفر حول مدينة القاهرة خندقا ضخما ، استطاع به أن يبعد خطر الأعصم عن حاضرة ولايته الجديدة

وكانت الحرب سجالا بين الفريقين ، منذ أواخر صفر إلى أن حلت الهزيمة بالقرامطة فى شهر ربيع الأول من السنة نفسها

(١) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ١٣٢

(٢) هى مدينة السويس الآن .

(٣) على ابراهيم حسن جوهر الصقلى ص ٥٧ ، ٥٨

(٤) بهذا كانت تسمى القاهرة قبل أن يصل إليها المعز ، ثم سميت القاهرة المعزية .

يقول المقريزى (١) « وفى مستهل ربيع الأول (سنة ٣٦١ هـ) التحم القتال مع القرامطة، على باب مدينة القاهرة، وكان يوم جمعة، فقتل من الفريقين جماعة وأسر جماعة؛ وأصبحوا يوم السبت متكافئين. ثم غدوا يوم الأحد للقتال، وسار الحسن الأعصم بجميع عساكره، ومشى للقتال على الخندق، والباب مغلق فلما زالت الشمس، فتح جوهر الباب واقتتلوا قتالا شديدا، وقتل خلق كثير؛ ثم ولى الأعصم مهزما، ولم يتبعه القائد جوهـــر، ونهب سواد الأعصم بالجب ووجدت صناديقه وكتبه، وانصرف فى الليل على طريق القلزم » وكان للثورة التى شنها الحسن الأعصم على الفاطميين أثرها، فقد حدثت هذه الثورة فى بلاد الشام ومصر فى سنتى ٣٦٠، ٣٦١ هـ، فى الوقت الذى قامت فيه الثورات فى بلاد المغرب على المعز، مما جعل مركزه محفوفا بالمخاطر (٢)

والحق أن جوهرا استخدم سلاح الدعاية الخطر ضد الأعصم، وأساليب الحرب التى تنطوى على المكر والدهاء؛ فأرسل فريقا اندمجوا فى جند الأعصم وتظاهروا بالسخط عليه وعلى الفاطميين، كما تظاهروا بالرغبة الملحة فى نقل الحكم من الفاطميين إلى القرامطة؛ ولكنهم استطاعوا أن يوقظوا الفتنة، وينشروا الفوضى بين أتباع الأعصم. يدل على ذلك أنه فى الوقت الذى كان يحارب فيه جوهرا على أبواب القاهرة، كان أنصاره من بنى عُقيل وطى ينهبون سواده « وبهذا كان جميع ماجرى على القرمطى بتدبير جوهر، وجوائز أنفذها » هذا إلى أن جوهرا استطاع أن يحبط أعمال الجاسوسية التى مهر فيها القرامطة، فقبض على أربعة من الجنود المصريين كانوا عيونا لهم عليه فى القاهرة، وصلبهم، وأسكن الوزير ابن الفرات مدينة القاهرة، وساق الزعماء إلى معسكره، حتى لا يكونوا « طابورا خامسا » فى أثناء الحرب واستغل جاسوسيته المنظمة التى اندست بين القرامطة وأثارت روح الشغب والعصيان فى صفوفهم (٣)

وأما ما ذهب إليه بعض من أن سبب انتصار جوهر على القرامطة يرجع إلى الإمدادات الضخمة التى أمده بها المعز، فقول بعيد عن التصديق، لأن المدد الذى

---

(١) خطط ج ٢ ص ١٣٨

(٢) Fournel La Conquête de l'Afrique, p. 350

(٣) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ٨٦.

أرسله هذا الخليفة إلى جوهر، بقيادة أبى محمد الحسن بن عمار المغربى ، وصل إلى القاهرة بعد انتصار جوهر على الأعصم بيوم واحد

وكان لهذا النصر نتائج بعيدة المدى ؛ فقد قضى على الروابط التى تربط الأعصم بالأخشيدية والكافورية ؛ فانفضوا من حوله ، ودخل بعضهم فى طاعة الفاطميين ، وقبض على بعض آخر واسترد جوهر مدينه الفرما ، وكان عليها أحـد كبار القرامطة (ويدعى الغمر) . وأما أهل تنيس فى شمال الدلتا ، وكانوا لم يوافقوا على الاستسلام للفاطميين ، ونادوا بشعار العباسيين والقرامطة ، فقد أرغم واليهم ، وكان مواليا للقرامطة ، على الهرب . وأقيمت فيها الدعوة للفاطميين من جديد[١]

وبهذا تخلصت مصر من حملات القرامطة إلى حين وقد بلغ اهتمام جوهر بالقضاء على الحسن الأعصم حده ، حتى إنه خصص جائزة نخمة لمن يأتيه برأسه.[٢] وكان لانتصار جوهر رنة فرح شامل يتجلى فى وصف أحد الشعراء

كأن طراز النصر فوق جبينه يلوح وأرواح الورى بيمينه[٣]

ولم تقف جهود جوهر عند ذلك الحد ، فقد حاول إنقاذ جنده فى يافا ، فسير إليها أسطولا يتألف من خمسة عشر مركبا غير أن أسطول القرامطة انتصر عليه ، ولم ينج من هذه السفن إلا قليل

ولكن ارتداد الحسن الأعصم عن مصر ، لم يكن ينطوى على انتصار حاسم للفاطميين ، فقد كانت بلاد الشام كلها لا تزال فى قبضة يده على أننا لا نستبعد أن يكون ارتداده عن مصر راجعا إلى عامل آخر ، لا يمت إلى هذه المكيدة بصلة ، بل يرجع إلى المعز نفسه الذى كان يكيد الأعصم منذ تقلد هذا القرمطى زعامة القرامطة فى سنة ٣٥٩ هـ ، إلى أن طرده المعز من مصر

(د) النزاع بين المعز والحسن الأعصم

لم يكن المعز راضيا عن تولية الحسن الأعصم أمور القرامطة ، وكان يعمل على

(١) النويرى نهاية الأرب جـ ٢٣ ص ٤٢

(٢) قدر المؤرخون هذه الجائزة بثلثمائة ألف درهم ، وخمسين خلعة ، وخمسين سرجا محلاة على ادوبها ، وثلاث جوائز أخرى

(٣) المقريزى : خطط جـ ٢ ص ١٣٨

التخلص منه ، وقد حز فى نفسه انضمامه إلى العباسيين ووقوفه من الفاطميين ذلك الموقف العدائى ، كما آلمه مقتل جعفر بن فلاح والهجوم على مصر ولذلك أخذ على عاتقه إذكاء الثورة على الحسن فى بلاد البحرين

ولكن عامة القرامطة كانوا يميلون إلى الفاطميين ، فإن المعز لدين الله لم يكد يذيع سخطه على الأعصم وعلى سياسته وحكومته ، وينادى بوجوب خلعه وتنصيب غيره ، ممن يرضى عنه الفاطميون من جديد ، حتى قام أعوان أبى طاهر الجنابى بثورة جامحة ، كادت تودى بعرش الأعصم

ولولا تدخل الخليفة العباسى المطيع لزال نفوذ الحسن الأعصم منذ ٣٦١ ﻫ ، واتحد القرامطة والفاطميون من جديد وأزالوا الدولة العباسية ؛ ولكن السياسة التى انتهجها المعز أخفقت أمام سياسة العباسيين

ويشير ابن خلدون (١) إلى ذلك بقوله « وكتب إليه ، أى إلى الأعصم ، المعز سنة إحدى وستين وثلثمائة . بالنفى والتوبيخ . وعزله عن القرامطة ، وولى بنى أبى طاهر . فخرجوا من (جزيرة) أوال ، وانتهبوا الأحساء فى غيبته ، وكتب إليهم المطيع بالتزام الطاعة ، وأن يصالحوا ابن عمهم ، ويقيموا بجزيرة أوال ، وبعث من أقام بينهم الصلح »

وقال ابن حوقل(٢) ، وكان يميل إلى الفاطميين « ثم إن المطيع استل سخائمهم(٣) ، وسعى فى تألف قلوبهم ، وجمع كلمتهم فى سنة ستين وثلثمائة ، وعلى ما بلغنى سنة إحدى وستين وثلثمائة ، من مشافهه أبى الحسن عدى بن محمد بن الغمر » ، وكان من أمراء القرامطة ، الذين عاشوا فى زمن ابن حوقل .

وكان لهذه الثورة التى أذكى نيرانها المعز بين القرامطة أثر كبير فى ارتداد الأعصم عن مصر فى ربيع الأول سنة ٣٦١ ﻫ لإخماد الثورة التى قام بها أبناء عمه أبى طاهر الجنابى

وقد جهد الحسن الأعصم فى توطيد نفوذ العباسيين بعد أن أقره الخليفه المطيع العباسى

---

(١) العبر ﺟ ٤ ص ٩٠

(١) المسالك والممالك ﺟ ٢ ص ٢٢

(٢) السخائم : جمع سخيمة وهى الضغينة

على العرش ، فأخذ يلعن سادته الفاطميين الإسماعيلية فوق المنابر ، وينفى نسبهم إلى على بن أبى طالب ، ويبرهن أن الفاطميين جمـــاعة من النفعيين ، همهم الملك والسلطان ، وأنهم يرجعون فى الأصل إلى ميمون القداح لا إلى سواه . وهكذا كان الأعصم يقول على منابر دمشق « هؤلاء من ولد القداح ، كذابون مخرقون ، أعداء الإسلام ، ونحن أعلم بهم ، ومن عندنا خرج جدهم القداح ثم أقام القرمطى الدعوة لبنى العباس[١] » .

وفى الحق أن الأعصم كتب على نفسه وعلى جماعته صك الفناء ، بحمله شعار العباسيين ، وإبطاله شعار العلويين الفاطميين ، ثم إعلانه من فوق المنابر بطلان المذهب الإسماعيلى ، الذى أخذ الفاطميون على عاتقهم النهوض به . وذلك بلا ريب ينطوى على هدم القرامطة أنفسهم وغيرهم من طوائف الإسماعيلية

وقد استغل القائد الفاطمى ، جوهر الصقلى ، رحيل الأعصم إلى بلاد البحرين ، فشدد هجومه على القرامطة الذين كانوا على حصار يافا ، وأرغمهم على الارتداد إلى دمشق ، وأعاد إلى الفاطميين معظم بلاد فلسطين ، ولم يبق للقرامطة وأنصارهم فى الشام سوى دمشق وأرباضها وقد أسند الأعصم حكم هذه المدينة إلى أبى المنجا القرمطى ، وإلى ظالم بن موهوب العُقيلى ؛ إلا أنهما سرعان مادب التنافس بينهما ، فساءت العلاقة بين أبى المنجا القرمطى وظالم بن موهوب العقيلى فلما عاد الأعصم من بلاد البحرين ، اشتد فى معاملته ظالم بن موهوب ، وقبض عليه وأهانه ، فكان ذلك أول ما أصاب القرامطة فى الشام من ضعف ووهن (٢)

أخذ الحسن الأعصم ، بعد أن أخمد ثورة أبناء عمه فى البحرين بمساعدة العباسيين فى سنة ٣٦٢ هـ ، يعد العدة للهجوم على مصر ، واسترداد هيبته ونفوذه فى بلاد الشام ، فأفسد على المعز سياسته ، واستطاع فى هذه السنة أن يسترد جميع بلاد الشام ، واحتل بعض جهات الوجه البحرى ، وحاصر مدينة القاهرة . واعتمد فى هذه الحملة الكبيرة على العرب الذين أغراهم بالمال ، مما يدل على أن هؤلاء كانوا يحاربون سعيا وراء

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٤ .

(٢) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ١٢٣ .

المال ، لا تحقيقا لمبدأ دينى أضف إلى ذلك أن كثيرين من العرب كانوا يحنقون على الأعصم، لتنكيله بظالم بن موهوب العرفى .

ويرى بعض أن الأعصم حط رحاله حول مدينة القاهرة ، وحاصرها حصارا شديدا وأن جوهرا لما شعر بخطر مركزه ، طلب إلى مولاه المعز أن يحضر إلى مصر ، لتخليصه مما وقع فيه وكأنه كان يرى أن وجود المعز فى مصر يضاعف همم أنصاره المغاربة ويضع حدا لتعدى الحسن الأعصم على مصر وبهذا يرى أن المعز إنما جاء إلى مصر فى سنة ٣٦٢ هـ لإنقاذ ملكه من خطر القرامطة

وهكذا جعل « جوهر يكتب إلى المعز لدين الله بما جرى على عسكره من القتال والحصار والقتل وأن الحسن بن أحمد (الأعصم) أخذ يقاتلهم على خندق عسكرهم ، وقد أشرف على أخذ مصر ، فقلق من ذلك قلقا شديدا ، وجمع من يقدر عليه ، وسار إلى مصر ، وهو يظن أنها تؤخذ قبل أن يصل إليها » ، (١) أى أن المعز لم يأت ليتسلم زمام الأمور فى بلاده ، وإنما أتى للدفاع عنها

ويخيل إلينا أن الحسن الأعصم لم يكن حين وصل المعز إلى مصر (شعبان سنة ٣٦٢ هـ) على أبواب القاهرة ، بدليل أنه أجاب على رسالة المعز بما يدل على أنه كان بعيدا عن هذه المدينة ، إن لم يكن بعيدا عن مصر نفسها فقد أجاب المعز بقوله « وصل كتابك الذى قل تحصيله ، وكثر تفصيله ، ونحن سائرون إليك فى إثره والسلام »(٢). بل يؤكد ابن الأثير أن الأعصم لم يقصد مصر إلا بعد أن وصل إليه هذا الكتاب من المعز

وفى الحق أن المعز لما رأى إخفاق سياسته فى إحداث اضطراب عام بين القرامطة ، عمل على أن ينهج نهجا آخر ، فرأى أن يتبع مع الأعصم طريقة الترهيب والترغيب . فكتب إليه كتابا يذكرنا بما كان بين القرامطة والفاطميين من وشائج القرابة المذهبية والعلاقات السياسية القديمة

وكان المعز يرمى من وراء هذا الكتاب الطويل الذى بعث به إلى الأعصم حين

(١) النويرى نهاية الأرب جـ ٢٣ ص ٩٦ .

(٢) ابن الأثير الكامل جـ ٢ ص ٢٢٩

وصل إلى مصر ، إلى إلقاء الرعب فى قلب زعيم القرامطة ، وإلقاء بذور الشقاق بينهم ، كما كان المعز يرمى من وراء إرسال هذا الكتاب إلى إدراك ما فى نفس الأعصم وهل كان لانتقاله من المنصورية إلى القاهرة أثر فى نفس هذا الثائر ، أم أنه كان لايزال عند رأيه من غزو مصر والشام وإخراج الفاطميين منهما وفى ذلك يقول أخو محسن « كان (المعز) شديد الخوف من الحسن بن أحمد (الأعصم) ؛ فلما نزل مصر (١) عزم أن يكتب إلى الحسن بن أحمد كتابا يعرفه فيه أن المذهب واحد ، وأنهم منهم استمدوا ، وأنهم ساداتهم فى هذا الأمر ، وبهم وصلوا إلى هذه المرتبة وكان غرض المعز لدين الله من ذلك ، أنه يعلم من جواب القرمطى ما ف نفسه ، وهل خافه لما وافى مصر أم لا »(٢)

إذن كان هناك بين الفاطميين والقرامطة سجال اشتبكت فيه الألسنة والأقلام ، كما أن سياسة المعز كان لها أثر بالغ فى تطور العلاقة بين الأعصم وبين الفاطميين فى مصر ، حتى أصبح من العسير إصلاح ذات البين بين هؤلاء وأولئك . وظهر زعماء القرامطة بمظهر أعداء الفاطميين الألداء ، بعد أن كانوا من أخلص أتباعهم . وقد حدث هذا كله « بعــــد أن كان القرامطة أولا يمخرقون بالمهدى ، ويوهمون أنه صاحب المغرب ، وأن دعوتهم إليه (٣) ويراسلون الإمام المنصور إسماعيل بن محمد بن القائم بن عبيد الله المهدى ، ويخرجون إلى أكابر أصحابهم أنهم من أصحابه ، إلى أن افتضح كذبهم بمحاربة القائد جوهر وقتله كثيرا منهم ، وكسره القبة التى كانت لهم (٤) »

وقد امتلأت بطون الكتب بتلك الرسالة الممتعة (٥) وترجع أهميتها إلى أمور منها

أولا أنها توضح هذه العلاقة القديمة التى كانت تقوم على أساس المودة بين

(١) كان ذلك فى ١٣ رمضان سنة ٣٦٢ ﻫ

(٢) النويرى نهاية الأرب ج ٢٣ ص ٩٦

(٣) كان ذلك أيام أبى طاهر الجنابى (٣٠٥ — ٣٣٢ ﻫ) خاصة

(٤) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ١٣٣

(٥) انظر . ملحق رقم ٣

القرامطة والفاطميين ، وبعبارة أخرى تؤكد النظرية القائلة إن الفاطميين أصل الإسماعيلية ، والقرامطة فرع منهم ، فها هو ذا المعز يلوم الأعصم لخروجه على هذه السياسة التقليدية ، التي سار عليها جده أبو سعيد وعمه أبو طاهر ، تلك السياسة التي كان قوامها التودد إلى الفاطميين والتقرب إليهم ، فيقول له : «فأما أنت أيها الغادر الناكث ، البائن عن هدى آبائه وأجداده ، المنسلخ عن دين أسلافه وأنداده ، والموقد لنار الفتنة ، والخارج عن الجماعة والسنة ، فلم أغفل أمرك ، ولا خفى عنى خبرك . . . «ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا» (١)

«فعرفنا على أى رأى أضَّلت ، وأى طريق سلكت ؟ أما كان لك بجدك أبى سعيد أسوة ؟ وبعمل (عمك) أبى طاهر قدوة ؟ أما نظرت فى كتبهم وأخبارهم ، ولا قرأت وصاياهم وأشعارهم ؟ أكنت غائبا عن ديارهم ، وما كان من آثارهم ؟ ألم تعلم أنهم كانوا عبادا لنا أولى بأس وعزم شديد ، وأمر رشيد ، وفضل حميد ؟ تفيض عليهم موادنا ، وتنشر عليهم بركاتنا ، حتى ظهروا على الأعمال ، ودان لهم كل أمير ووال ؟ ولقبوا بالسادة ، فسادوا ، منحة منا ، وإسما من أسمائنا ، فعلت أسماؤهم ، واستعلت هممهم ، واشتد عزمهم فسارت إليهم وفود الآفاق ، و امتدت نحوهم الأحداق ، وخضعت لهيبتهم الأعناق ، وخيف منهم الفساد والعناد ، وأن يكونوا لبنى العباس أضدادا ، فعبئت الجيوش ، وسار إليهم كل خميس بالرجال المنتخبة ، والعدد المهذبة ، والعساكر الموكبة . فلم يلقهم جيش إلا كروه ، ولا رئيس إلا أسروه ، ولا عسكر إلا كسروه ، وألحاظنا ترمقم ، ونصرنا يلحقهم ، كما قال الله عز وجل «إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا (٢) ، وإن جندنا لهم الغالبون» (٣) وإن حزبنا لهم المنصورون .

«فلم يزل ذلك دأبهم ، وعين الله ترمقهم ، إلى أن اختار لهم ما اختاروه من نقلهم من دار الفناء إلى دار البقاء ، ومن نعيم يزول إلى نعيم لا يزول ، فعاشوا محمودين ، وانتقلوا مفقودين إلى «روح وريحان وجنة نعيم» (٤)

---

(١) سورة مريم آية ٢٨

(٢) سورة غافر آية ٥١

(٣) سورة الصافات آية ١٧٣

(٤) سورة الواقعة آية ٨٨ . فى الأصل وجنات النعيم

وإن ما ذكره المعز لدين الله ، ليصور لنا بجلاء علاقة القرامطة والفاطميين بعضهم ببعض ، منذ قيام الدولة الفاطمية إلى عهده ؛ فقد ذكر كيف أخلص أبو سعيد الجنابي المتوفى سنة ٣٠١ هـ للعرش الفاطمى ، وظل على إخلاصه للمذهب الإسماعيلى، كارها العباسيين وأنصارهم ، وكيف حذا حذوه ابنه أبو طاهر ، فأضحى من جند الفاطميين المخلصين لهم ، حتى كان يدهم الباطشة . ولا غرو ، فقد اعتمد عليه عبيدالله المهدى فى تحقيق سياسته التى رسمها للقضاء على أعدائه العباسيين ، وساعده مساعدة فعالة فى هجومه على مصر (٣٠٧ ، ٣٢١ هـ) (١)

ثانيا وفى هذا الكتاب نرى الخليفة المعز يشيد بالفاطميين، ويرد على الأعصم الذى انضوى تحت لواء العباسيين وسب الفاطميين على المنابر ، ويفخر المعز بالانتماء إلى الرسول عن طريق على وفاطمة ، كما يتبين من هذه العبارة التى جاءت على لسان هذا الخليفة .

« فما من ناطق نطق ، ولا نبى بعث ، ولا وصى ظهر، إلا وقد أشار إلينا ، ولوح بنا ، ودل علينا فى كتابه وخطابه ، ومنار أعلامه ، ومرموز كلامه » (٢)

كذلك نرى المعز يشيد فى هذا الكتاب بنفسه وبالفاطميين، وينحى باللائمة على العباسيين الذين انضم إليهم الأعصم ، ويؤكد فى الوقت نفسه أن الفاطميين سيرثون العباسيين ، ويحولون العالم الإسلامى إلى عالم إسماعيلى بحت . فانظر كيف يخاطب الأعصم يتهدده ويتوعده ، ويغض من شأن العباسيين ، فيقول:

« وانقلبت على الأدبار ، وتحملت عظيم الأوزار ، لتقيم دعوة قد درست ، ودولة قد طمست . إنك لمن الغاوين ، وإنك لفى ضلال مبين . أما علمت أن المطيع آخر ولد العباس . وآخر المترئس فى الناس ؟ أما تراهم كأنهم أعجاز نخل خاوية ؟ فهل ترى لهم من باقية ؟ ختم والله الحساب ووقعت الواقعة ، وقرعت القارعة ، وطلعت الشمس من مغربها ، والآية من موطنها » (٣)

ثالثا وتعد هذه الرسالة وثيقة تاريخية هامة ، تصور لنا مراحل الحرب التى

---

(١) أنظر كتاب ,, عبيد الله المهدى ,, للمؤلفين ص ٢١٨ وما بعدها .

(٢) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ١٣٦

(٣) المصدر نفسه ص ١٤٠ — ١٤١

دارت بين الحسن الأعصم وأنصار المعز لدين الله ، كجعفر بن فلاح ، الذى قتله الأعصم ، وسعادة بن حيان الذى حاصره فى يافا (١) ومن هذه الرسالة ندرك أن المعز أرسلها من مصر ، لا من المغرب على ماذهب إليه بعض ، كما يظهر من هذه العبارة « وكتابنا هذا من فسطاط مصر ، وقد جئناها على قدر مقدور ، ووقت مذكور »(٢). وكذلك تبين لنا هذه الرسالة كيف ارتبط الحسن الأعصم بالعباسيين ، وترك الفاطميين فى عهد الخليفة العباسى المطيع

وتعتبر هذه الرسالة وثيقة هامة فى تاريخ المذهب الإسماعيلى ، فقد ذكر فيها المعز شيئا غير قليل عن نظرية تقديس الأئمة ، ووجود عنصر إلهى فيهم ويدل على صحة هذا القول هذه العبارة

« مامن ناطق نطق ، ولا نبى بعث ، ولاوصى ظهر ، إلا وقد أشار إلينا إنا كلمات الله الأزليات ، وأسماؤه التامات ، وأنواره الشعشعانيات، وأعلامه النيرات ، وبدائعه المنشئآت ، وآياته الباهرات ، وأقداره النافذات ، لايخرج منا أمر، ولايخلو منا عصر وإنا لكما قال الله سبحانه وتعالى « مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولاخمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثرَ إلا هو معهم » (٣) فاستشعروا النظر ، فقد نقر فى الناقور ، وفار التنور ، وأتى النذير بين يدى عذاب شديد فمن شاء فلينظر ومن شاء فليتدبر ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين » (٤)

ومهما يكن من أمر ، فإن هذه الرسالة تعد آية فى الدبلوماسية السياسية ، والدبلوماسية المذهبية ، فقد استطاع المعز بفضلها أن يجذب اليه كثيرين من كبار القرامطة الساخطين على الأعصم ، فثاروا ، وسخطوا على العباسيين وانتهزوا الفرصة للوقوف فى وجه هؤلاء جميعا وكذلك أثبت المعز للسنيين فى هذه الرسالة ارتباط القرامطة بالفاطميين ، ليثبت لهم أن الأعصم على غير عقيدتهم

(١) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ١٤٢

(٢) المصدر نفسه ص ١٣٨

(٣) سورة المجادلة آية ٧

(٤) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ١٣٧ — ١٣٨

أى أنه يدين بالمذهب الإسماعيلى . ولا يبعد أن يكون انفضاض الأعراب من حوله أثرا من آثار هذه الوثيقة الهامة

رابعا وتمتاز رسالة المعز بهذه الشروط التى تدل على التحدى ، وتنطوى على الترهيب والتخويف والواقع أن المعز رمى من وراء هذه الشروط ، أن يظهر الحسن الأعصم أمام رعاياه بمظهر المعتـدى على المذهب الإسماعيـلى وأنصاره ولذلك نرى المعز يخيّر الأعصم بين أمور يستحيل عليه تحقيقها كأن يفـدى نفسه بجعفر بن فلاح ، ويفدى من قتله من جنـد الفاطميين برجال من القرامطة ؛ كما نرى المعز يسخر من الأعصم حين يطلب إليه أن يرد جعفر بن فلاح ورجال الفاطميين الذين قتلوا على يد الأعصم أحياء ، أو يقدم نفسه أسير حرب ليرى فيه رأيه فيقتص منه ، أو يمنّ عليه أو يفتدى نفسه بمال كثير .

وقد أراد المعز بهـذه الرسالة أن يثير القرامطة المعتدلين وغيرهم من أنصـار الفاطميين ، على الحسن وأنصاره ، فيرميهم بأنهم ليسوا إسماعيلية أو سنيين بل هم مذبذبون لا ينتمون إلى هؤلاء ولا إلى أولئك ، ويخوفهم سوء العاقبـة ، كما يتجلى ذلك فى قوله « فلا ملجأ لكم من الله يومئذ ، ولا منجى منه ، وجنود الله فى طلبك قافية ، لايزال ذو أحقاد (كذا فى الأصل) وثوار أمجاد ، ورجال أنجاد . فلا تجد فى السماء مصعدا ، ولا فى الأرض مقعدا ، ولا فى الأرض ولا فى البحر منهجا ، ولا فى الجبال مسلكا ، ولا إلى الهواء سلما ، ولا إلى مخلوق ملتجأ حينئذ يفارقك أصحابك . ويتخلى عنك أحبابك ، ويخذلك أترابك ، فتبقى وحيدا فريدا ، وخائفا طريدا ، وهائما شريدا » (١)

كانت هذه الرسالة بعيدة الأثر فى نفوس القرامطة ؛ فقد اتحد جماعة من أنصار أبى طاهر وأنصار الفاطميين ، على ذلك الرئيس الذى اجترأ على إمام الزمان ، كما انفض أنصاره السنيون من حوله ، وأدى ذلك إلى إضعاف الحماسة بين جنوده .

ولكن هذه الرسالة لم توهن من عزيمة الأعصم ، الذى عول على الهجوم على مصر ، قبل أن تعمل الرسالة عملها بين القرامطة الإسماعيلية فى البحرين

(١) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ١٤٣

وسرعان مابعث إليه بهذا الكتاب القصير ، الذى يتهدده ويتوعده فيه حيث يقول : « وصل خطابك ... ونحن سائرون فى إثره والسلام » . فتح الحسن بلاد الشام من جديد ، ثم قصد مصر ، وحاصر مدينة القاهرة ، بعد أن عسكر بعين شمس ، « وبث السرايا فى البلاد ينهبونها ، فكثرت جموعه »[١] ؛ وانتشرت جنوده فى كثير من نواحى مصر ، وأرسل عماله إلى الصعيد لجباية الأموال وهذا يدل على حرج مركز المعز الذى شاركه الحسن القرمطى فى حكم مصر وإدارتها ، وانتزع جزءا كبيرا من ماليتها ، وكاد ينزع من قلوب أهلها احترامهم للخليفة الفاطمى ودولته .

ولم يكتف الأعصم بهذا ، بل شدد النكير على المعز وجوهر ، واستطاع أن يخترق الخندق الذى حفر للدفاع عن القاهرة . ولم يحل بينه وبين هذه المدينة نفسها سوى السور الذى بناه جوهر . لهذا لا نعجب إذا زاد قلق المعز [٢] ، ودافع عن حاضرة خلافته وهو فى داخل سورها

ولكن المعز كان داهية بعيد النظر واسع الحيلة . فإنه لم يلبث أن اتخذ لهذا الأمر الجليل أهبته ، وعمل على إزالة شبح هذه الهزيمة المخيف ، والقضاء على الزعيم القرمطى ؛ فعمل على جذب العرب الذين كانوا قد انضووا تحت لواء القرامطة ، وعلى رأسهم حسان بن الجراح الطائى ، وتعهد لحسان بأن يدفع إليه مائة ألف دينار ، كفاء تظاهره بالهزيمة أمام جند المعز . وقد تفانى حسان فى الوفاء بوعده وتقهقر أمام جيوش المغاربة ، الذين خرجوا من القاهرة ، وعلى رأسهم عبد الله بن المعز ، الذى ولى الخلافة بعد أبيه المعز ، وتلقب بلقب العزيز بالله

وبذلك وضع حسان بن الجراح الطائى حليفه الأعصم فى مركز حرج ، ولكن هذا الزعيم القرمطى دافع عن نفسه وعن جنوده دفاعا مجيدا ، وانقض العزيز ومن معه من الجنود عليه ، وأحاطوا به من كل جانب ، وأرغموه على التقهقر[٣] . وأسر الفاطميون من القرامطة أكثر من ألف وخمسمائة[٤] ، وعاملوهم معاملة المرتدين عن دينهم ، وهو المذهب الإسماعيلى

---

(١) ابن الأثير الكامل ج ٨ ص ٢٢٩ .

(٢) النويرى نهاية الأرب (مخطوط) ج ٢٣ ص ٩٦

(٣) المصدر نفسه ج ٢٣ ورقة ٦٧

(٤) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٣٠ .

وعلى الرغم من هزيمته وفراره ، وطد الحسن الأعصم العزم على مواصلة القتال ، والاستيلاء على مصر ، وطرد الفاطميين منها . يؤيد ذلك هـذان البيتان اللذان أنشدهما بعد فراره من مصر

زعمت رجال الغرب[١] أنى هبتها ... فدمى إذن ما بينهم مطـــلول [٢]

يا مصر إن لم أرْو ماءك من دم ... يروى ثراك ، فلا سقانى النيـــل

رأى المعز لدين الله ضرورة القضـاء على الحسن الأعصم بعد هـذه الهزيمة التى حلت به ، فأرسل جيوشه المغربية لمطاردته فى الشام ، فلحقوا به فى أذرعات [٣] ولم ير الحسن ورجاله بدا من العودة إلى بلادهم فى البحـرين ، تاركين بلاد الشام لبعض أمراء القرامطة ، وعلى رأسهم أبو المنجا القرمطى

وكان جيش الفاطميين الذى عهد إليه بمطاردة الحسن الأعصم ، بقيادة أبى محمود ابن جعفر بن فلاح ؛ وقد استعان المعز بقبائل طيء على تنفيذ مآربه فى بلاد الشام والقضاء على الأعصم[٤]، وبظالم بن موهوب العقيلى ، الذى فترت العلاقة بينه وبين الأعصم ، فقلده ولاية دمشق . وكان ظالم يحنق على واليها القرمطى (أبى المنجا) ، فقبض عليه وعلى ابنه ومن معهما من القرامطة ، وسلمهم للقائد الفاطمى ، واستخلص دمشق من القرامطـة ، وأصبح ظالم بن موهوب واليـا عليها من قبل الفاطميين ، من شهر رمضان سنة ٣٦٣ هـ

وبهذا انتزع الفاطميون بلاد الشام من القرامطة ، بعد أن صادفوا أشد المتاعب، التى وقفت فى سبيلهم بعد فتح مصر بيد أن ثورة القرامطة ؛ قد حزت فى نفوس الفاطميين ، وكانوا يعتبرونهم إخوانهم فى المذهب الدينى . ولو ظل هؤلاء القرامطة على ولائهم للمذهب الإسماعيلى ، مذهب الفاطميين ، مقتفين فى ذلك أثر أبى طاهر الجنابى ، لأصبحوا جميعا قوة هائلة تستطيع أن تحقق الغرض الأول الذى كان يرمى

(١) رجال الغرب أى الفاطميون ومن معهم من المغاربة

(٢) مطلول أى مسفوك

(٣) على مقربة من عمان فى شرق الأردن

(٤) ابن خلدون العبر ج ٤ ص ٩٠

إليه الإسماعيلية ، وهو القضاء على الخلافة العباسية [١] وعلى الجملة إن نفوذ المعز لدين الله قد زاد بسبب ما أحرزه على القرامطة من نصر وقويت شوكة أنصار الدعوة الإسماعيلية ، فأقيمت الدعوة « فى مصر وديارها والشام والحجاز ، مع إفريقية والمغرب »[٢] باسم المعز لدين الله .

« وفى الحق أن صراع الأعصم مع مولاه المعز ، كان صراعا عنيفا بين معتدلى الإسماعيلية وهم الفاطميون ، وبين متطرفيهم وهم القرامطة . كما أثرت فى هذا الصراع عوامل خارجية ، فاتخذ العباسيون والبويهيون والحمدانيون وبقايا جيوش الدولة الإخشيدية من هذا العداء المذهبي الذى استحكم بين هؤلاء وأولئك ، فرصة لاستخدام قوى ذلك الفريق الإسماعيلى الذى ظهر بعدائه للفاطميين وسيلة لإزالة نفوذ هؤلاء الفاطميين عن مصر ، قبل أن تتوطد أركانه . وقد برهنت بغداد بعملها هذا على أنها مازالت محتفظة ببعض تقاليدها فى السياسة الخارجية .

ولم يكن المعزلدين الله أقل مهارة وحنكة فى السياسة من العباسيين في هذه السبيل. فقد آلى على نفسه أن يفل شوكة الحسن الأعصم ، لا بالسيف وحده ، بل بالسياسة كذلك نعم ! استطاع هذا الخليفة أن يثير الشقاق فى صفوف أنصار الأعصم من العرب، كظالم بن موهوب العُقيلى، وحسان بن الجراح الطائى وغيرهما . كما استطاع أن يثير فى نفوس القرامطة بغض الأعصم ومن ثم قامت الخلافات المذهبية ، وخرج أبناء أبى طاهر وأعوانهم عليه

ولم يكن قرامطة البحرين الذين انضووا تحت لواء الحسن الأعصم فى حروبه مع الخليفة العزيز الفاطمى ، على شىء من الحماسة الحربية ، بسبب تأثير سياسة المعز فيهم. ولا غرو ، فقد كانوا يعتبرون قتال السنيين جهادا فى سبيل الله. أما قتال جيوش المعز ، « صاحب الزمان » و « رأس الإسماعيلية » ، فقد كان كثير منهم يعتقد أنه خروج على المذهب الدينى الذى يدينون بعقائده ، وهو المذهب الإسماعيلى ونعتقد أن هذا الروح كان له أثر بعيد فيما أحرزه المعز من انتصار ، وأنه لم يبق إلى جانب ذلك الزعيم القرمطى الثائر إلا فئة قليلة من النفعيين ، سوف يقضى عليهم العزيز

---

(١) طه شرف تاريخ الاسماعيلية السياسى ج ١ ورقة ٢٦٠

(٢) ابن حماد تاريخ بنى عبيد وسيرتهم ص ٤٦

بانتصاره على الحسن الأعصم فى سنة ٣٦٧ هـ [١] »

(د) أفتكين التركى والمعز لدين الله الفاطمى

على أن تقهقر الحسن الأعصم القرمطى عن مصر فى سنة ٣٦٣ هـ ، لم يكن معناه نهاية الصراع بين القرامطة والفاطميين ، فإنه على الرغم من عودة الحسن إلى بلاده ، واستيلاء الفاطميين على الشام ، وتوليتهم عليها عمالا من قبلهم ، عاد الخطر القرمطى من جديد ، وذلك أن بلاد الشام تعرضت فى أخريات عهد المعز لدين الله لأخطار ثلاثة الأول من ناحية الروم الذين هددوا الفاطميين فى الشام ، والثانى من الثورات التى قامت فى وجه الحكم الفاطمى بسبب تمسك أهالى البلاد بعقائد المذهب السنى ، الذى يختلف عن المذهب الشيعى مذهب الفاطميين وأما الخطر الثالث فيظهر فى حركات أفتكين التركى ، وصراعه مع الفاطميين ، واستعانته بأعدائهم القرامطة

ولا نستطيع أن نفهم الدور الذى قام به المعز مع أفتكين التركى ، من غير أن نصور حالة بلاد الشام بعد أن حلت الهزيمة بالأعصم على أبواب القاهرة سنة ٣٦٣ هـ . والواقع أن هذه الهزيمة كان معناها زوال نفوذ الأعصم من بلاد الشام ، فقد استغل المعز لدين الله ، العداء الذى قام بين الزعيم العربى ظالم بن موهوب العقيلى ، وبين الحسن الأعصم وأبى المنجا نائبه فى الشام ، فعين هذا الخليفة ظالما على دمشق . ولما حلت الهزيمة بالحسن الأعصم فى سنة ٣٦٢ هـ اضطر إلى مغادرة بلاد الشام إلى البحرين على عجل ، حتى لا يترك السبيل ممهدة أمام عيون المعز ودعاته ، فيثور عليه القرامطة فى هذه البلاد ولذلك أصبح مركز نائبه القرمطى فى دمشق محفوفا بالأخطار ولا غرو ، فقد قام ظالم بن موهوب ، خصمه ومنافسه ، على رأس جيش من العرب يساعده الفاطميون ، وقصدوا إلى دمشق . ولهذا لم يستطع أبو المنجا القرمطى أن يتصل بالقرامطة فى البحرين ، ولا بحلفائه العباسيين والبويهيين ، أو بالحمدانيين ولم يلبث أن قبض عليه ، وسجن هو وابنه فى دمشق . وكان ذلك انتصارا جديدا للمعز ، لا يقل عن انتصاره على الحسن الأعصم أمام أسوار القاهرة فقد اعتقد

---

(١) طه شرف تاريخ الاسماعيلية السياسى جـ ١ ورقة ٢٦٠ وما يقابلها.

المعز بعد طرد أبى المنجا، أن بلاد الشام قد خلصت جميعها له، وأن القرامطة لن يعودوا إليها، وأن سلطانه سوف يستقر فى هذه البلاد كما استقر فى مصر، وبذلك يستطيع أن يخطو الخطوة التالية، فيستولى على بغداد نفسها.

لذلك لم يكتف المعز بتولية ظالم بن موهوب على دمشق، بل عمل على إرسال جيش كبير يحفظ الأمن ويقر السلام فى ربوع هذه البلاد، أو قل لينشر نفوذ الفاطميين هنالك، ويبث الرعب فى قلوب من تحدثهم أنفسهم بشق عصا الطاعة فى وجه الفاطميين، وأخيرا ليستطيع الفاطميون أن يثبوا من الشام إلى العراق، أو إلى بلاد الروم أو الحمدانيين.

وقد سن المعز لنفسه سنة إرسال الولاة إلى هذه البلاد، تصحبهم الجيوش لحمايتهم وتهديد الأعداء وإثارة مخاوفهم ومع أن الغرض الذى كان يهدف إليه المعز هو محاولة إقرار الأمن والنظام فى هذه البلاد، على يد ولاة الفاطميين والجيوش الفاطمية، خاب ظنه، وأصبحت الجيوش الفاطمية مثار القلاقل فى هذه البلاد، كما أصبح مركز الولاة محفوفا بالمخاطر

وقد أرسل المعز قائده أبا محمود بن جعفر، على رأس جيش من المغاربة لمعاونة ظالم بن موهوب. وعلى الرغم من إخلاص ظالم لأبى محمود، وسروره لمقدمه، لم يكن مركز الفاطميين فى هذه البلاد مما يحسدون عليه، فإن الرعايا السنيين كانوا يحنقون على جيوش الفاطميين من المغاربة، لميلهم إلى العبث والفساد، كما كانوا يحنقون على الفاطميين أنفسهم، لاختلافهم وإياهم فى المذهب الدينى. أضف إلى ذلك أن هذه البلاد قد دب إليها الضعف منذ النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى. فقد أثار فيها القرامطة الاضطراب فى أواخر القرن الثالث الهجرى، وساعدوا على إسقاط الدولة الطولونية، كما هاجموها، وانتصروا على الإخشيديين فى موقعة طبرية فى سنتى ٣٥٣، ٣٥٧ هـ، ثم انتصروا عليهم فى دمشق.

وكانت هذه البلاد تضطرم بالحروب بين سنتى ٣٥٨، ٣٦٣ هـ، مما كان له أسوأ الأثر من الناحية الاقتصادية، لذلك ضاق الشآميون فى دمشق ذرعا بظالم بن موهوب ومن معه من العرب، وبأبى محمود ومن معه من المغاربة، وبالفاطميين لاختلافهم

وإياهم فى المذهب الدينى كما تقدم . وهبوا فى وجه المغاربة ، فأفلت زمام الأمر من يد ظالم بن موهوب ،وأبى محمود بن جعفر .

ومن الغريب أن ظالما اضطر إلى أن يشهر السيف فى وجه المغاربة لإقرار النظام ، ولكنه لم يستطع إقراره . وفى ذلك يقول ابن القلانسى(١) : « وكان ظالم يأخذ مال السلطان الذى يستخرج من البلد ؛ وقد عرف ظالم أن الرعية تكره المغاربة للفساد وقطع الطريق على أهالى الصدار والوراد فلما شاهد انهزام الناس والمغاربة فى إثرهم ، استدعى رمحه ، وعبر الجسر، ومعه فرقة من أصحابه ، وحمل على أوائل المغاربة ، فردهم عن أحداث البلد »

وكانت مهمة الفاطميين فى بلاد الشام شاقة عسيرة ، فلم تكن حالهم فيها كحالهم فى مصر ، فقد تأججت نيران الثورة بين أهالى دمشق وجند الفاطميين من المغاربة . وكان موقف ظالم بن موهوب فى دمشق أشبه بموقف رجال البوليس في حفظ الأمن ، بيد أنه لم يستطع تهدئة الدمشقيين أو قمع المغاربة ، فحمل السيف ضد حلفائه المغاربة أنفسهم ، فقابلوه بالمثل ، وحلت به الهزيمة ، وأحرق المغاربة دمشق ونهبوها . واستمرت الفتنة نصف سنة أو أكثر (شوال - ربيع الآخر سنة ٣٦٣ هـ). وعلى الرغم من تظاهر ظالم بن موهوب بحبه للعامة ، نحى عن حكم دمشق وولى أبو محمود على شرطتها رجلين من أنصاره المغاربة . وهذا يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن الفاطميين لم يعودوا يحفلون بظالم بن موهوب ، إذ تراءى لهم ضرورة الاعتماد على المغاربة وحدهم فى بلاد الشام

لذلك نرى القائد أبا محمود الكُتامى يسير على هذه السياسة ، فيعزل ظالم بن موهوب عن دمشق فى ربيع الآخر سنة ٣٦٣ هـ ، ويولى مكانه ابن اخته جيش بن الصمصامة ، ويتعاون هذا الوالى المغربى الجديد مع خاله فى العمل على حفظ الأمن واستتباب النظام فى دمشق ، وكادا ينجحان فى هذه السبيل، لولا أن أهل هذه المدينة كانوا يحنقون على المغاربة ، ويتوجسون شرا منهم . ومن ثم عادت الثورة سيرتها الأولى فى وجه هذا الوالى وخاله أبى محمود بعد شهر واحد

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ٥ ، ٦

كان على المعز أن يتدارك الأمر بحكمته وبعد نظره فقد اتصلت بمسامعه أنباء دمشق واضطراب الأمر فيها ، وأدرك استحالة استقرار حكمه ، وتوطيد نفوذه فى هذه البلاد . ولذلك استعان بريان الخادم، واليه على طرابلس ، وعهد إليه باستطلاع حال دمشق ، ومعالجة موقف الفاطميين فيها . وعاد القائد أبو محمود إلى مدينة الرملة ، وتقلد ريان الخادم أعمال دمشق ، واستطاع أن يهدىء من روع الأهلين ، ويحد من ميول المغاربة التى كانت تنطوى على الشر والفساد

وعلى الرغم من هذا كله ، كانت هناك عناصر استمرأت حياة الفوضى ، وأثارت الاضطرابات، وأفسدت على هذا الوالى النشيط سياسته . واستمرت الحال على هذا النحو إلى أن استولى أفتكين التركى على دمشق بعد قليل (١)

وكان أهل دمشق يضمرون للفاطميين الكراهية والبغضاء كما نعلم ؛ لأنهم كانوا لا يزالون على حبهم لبنى أمية السنيين ، وبغضهم للفاطميين الشيعيين فقد ذكر ابن الجوزى (٢) أن القائد أبا محمود لما دخل دمشق فى سنة ٣٦٣ ﻫ ، قبض على أحد الزهاد من أهل الشام ، بمساعدة ظالم بن موهوب وأرسله مكبلا إلى المعز لأنه كان يصرح بعدائه للفاطميين ولا يبعد أن يكون كثير من أهالى هذه البلاد على هذه العقيدة وقد وصف ابن الجوزى المعز فقال إنه كان بطاشا ، أحضر يوما أبا بكر النابلسى الزاهد ، وكان ينزل الأكواخ من أرض دمشق ، فقال له: بلغنا أنك قلت إذا كان مع الرجل المسلم عشرة أسهم ، وجب أن يرمى الروم منها واحدا ، وفينا تسعة . فقال ماقلت هكذا ، فظن أنه رجع عن قوله ، فقال : كيف قلت ؟ قال قلت إذا كان معه عشرة وجب أن يرميكم تسعة ، ويرمى العاشر فيكم أيضا ؛ فإنكم غيرتم الملة ، وقتلتم الصالحين ، وادعيتم نور الإلهية » وبهذا نرى أن الظروف والأحوال كانت فى بلاد الشام على غير مايحب الفاطميون ، كما كانت مواتية لأفتكين، وأن أقدام الفاطميين لم تكن قد استقرت بعد فى هذه البلاد .

أما أفتكين ، فهو من قواد الأتراك ، الذين كانوا فى خدمة البويهيين ، ثم ثاروا

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٣٠ — ٢٣١ .

(٢) ابن القلانسى ذيل تاريخ دمشق ص ٤ (هامش رقم ١)

على بختيار بن معز الدولة، بعد أن انتصر الديلم على الأتراك وقد ثار هؤلاء الأتراك بزعامة أفتكين؛ ولكن بختيار استعان عليهم بابن عمه عضد الدولة بن ركن الدولة، وحلت الهزيمة بالأتراك، فساروا إلى بلاد الشام، واستقروا بها، وساعدهم على ذلك ماساد هذه البلاد من الفوضى والاضطراب

وقد قام أفتكين بدور هام فى تاريخ الشام قرابة ثلاث سنين (٣٦٤ — ٣٦٧ هـ) وذلك فى أواخر عهد المعز وأوائل عهد العزيز وقد وجد ثلاث قوات تتنازع سبيل الاستقرار فى بلاد الشام، هى الروم والفاطميون والثوار الحانقون على الحكم الفاطمى؛ واستطاع بدهائه أن يستغل هؤلاء الثوار الشآميين، وأن ينشر نفوذه فى بلاد الشام، واتخذ مدينة دمشق قاعدة له

وذلك أن ظالم بن موهوب العُقيلى، الذى كان يلى إقليم بعلبك من قبل الفاطميين، استعان بأبى محمود بن جعفر بن فلاح. والى الفاطميين على الرملة، وسارت جيوشهما لصد أفتكين عن بلاد الشام. ولكن ذلك القائد الذكى كان قد تمكن من الاستعانة بالحمدانيين، فأمده أبو المعالى بن حمدان بجند كثير، واستطاع بذلك أن يحرز النصر على ظالم بن موهوب، ويدخل بلاد الشام، فى الوقت الذى كان الصراع بين جيوش الروم والفاطميين على أشده، فى شمال الشام بوجه خاص. وقد سارت جيوش المعز لدين الله. بقيادة ظالم بن موهوب، وأبى محمود بن جعفر، لصد الروم عن إقليم طرابلس؛ وانتهز الثوار الشآميون فى دمشق هذه الفرصة، واستنجدوا بأفتكين على الفاطميين، «فبعثوا إليه من دمشق إلى حمص يستدعونه، ووعدوه بالقيام معه على عساكر المعز، وإخراجهم من دمشق[1]» وبذلك زال نفوذ الفاطميين من دمشق فى شهر شعبان من سنة ٣٦٤ هـ، وخطب فيها للخليفة العباسى الطائع ولم يقف نشاط أفتكين عند ذلك الحد، فقد هاجم ظالم بن موهوب فى بعلبك، فى نفس الوقت الذى كان الروم يهاجمونه فيها، واضطر ظالم إلى التقهقر، وفسح هذا

---

(١) المقريزى خطط: ج ٢ ص ٩ ويقول ابن الأثير (ج ٨ ص ٢٢٧): «خرج أشرافها وشيوخها إليه، وأظهروا له السرور بقدومه، وسألوه أن يقيم عندهم، ويملك بلدهم، ويزيل عنهم سمة المصريين فانهم يكرهونهم لمخالفة الاعتقاد، ولظلم عمالهم، ويكف عنهم شر الأحداث فأجابهم إلى ذلك واستحلفهم على الطاعة والمساعدة، وحلف لهم على الحماية وكف الأذى عنهم منه ومن غيره».

الطريق لأفتكين ، الذى استطاع أن يداهن الروم ، ويدفع لهم قسطا من المال ، وتركت دمشق فى يد هذا القائد التركى ، وأخذ الفاطميون يعملون على استرداد نفوذهم فى هذه البلاد

ومما يدل على دهاء أفتكين ، أنه استعان بالروم للقضاء على زعماء الثورة فى دمشق ، ليصفو له الجو . وبمساعدة الروم خلصت له دمشق ، وتخلص بذكائه من الثوار ومن الروم ثم من الفاطميين ، وأخذ يتقرب إلى العباسيين ؛ فخطب لهم على منابر دمشق ، وطلب النجدة منهم لدرء خطر الفاطميين

وقد أيقن أفتكين أن الفاطميين لن يسكتوا عن هذه الهزائم ؛ فمالأ أهالى دمشق ، وتقرب إليهم ، وهدأ من روعهم بالقضاء على الثوار والمتلصصة ، وكتب إلى الفاطميين يستميلهم . يقول ابن القلانسى[١] . « وكاتب هفتكين المعز مكاتبة على سبيل المداجاة والمغالطة والمداجة والتمويه ، والانقياد له ، والطاعة لأوامره ؛ فأجابه بالإحماد له ، والارتضاء لمذهبه ، والاستدعاء له إلى حضرته ، ليشاهده ويصطفيه لنفسه ، ويعيده إلى ولايته بعد ذلك مكرّما مولىّ مشرفا ؛ فلم يثق إلى ذلك ، ولا سكنت نفسه إليه ، وامتنع من الإجابة إلى ما بعثه عليه »[٢] .

وتصور هذه المراسلات التى تبودلت بين أفتكين والمعز جرأة هذا القائد وتماديه فى التغرير بالفاطميين ؛ فإنه كان يعلم أنه حارب عمالهم على حمص وانتصر عليهم ، وأنه طرد ولاتهم على دمشق ، وتحالف مع أعدائهم السنيين فى هذه البلاد ، بل تحالف عليهم مع الروم ولا بد أنه كان يدرك أن هذه الحيل لا تجوز على المعز ، ولذلك لم يأمن جانبه ، ولم يثق بوعوده

ولا نعرف على وجه التحقيق أ كان المعز مخلصا لأفتكين ، أو كان يريد أن يوليه على الشام بعد لقائه . على أن ذلك لا يمنعنا من القول إن المعز ما كان ينسى الإساءة للمسىء ، ولا الإحسان للمحسن ؛ فهل كان فى نيته أن يتغاضى عن مناوأة أفتكين للحكم الفاطمى فى حمص و بعلبك ودمشق ؟ .

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ١٢

(٢) انظر أيضا ابن الأثير ج ٨ ص ٢٣٧

ومهما يكن من شيء ، فإن المعز لدين الله مات وبلاد الشام كالبركان المضطرم ، يلقى بحممه على الفاطميين ، وأنه لم يستطع أن يقضى على هذه الصعاب قبل وفاته .

ونحن إذ نعترف للمعز بالمقدرة الحربية الفائقة ، نرى أنه استطاع أن يدير هذه الحروب بمهارة فى الغرب والشرق ، حتى إن أتباعه المخلصين له . اعتقدوا أنه سيرث العباسيين فى زعامة العالم الإسلامى كافة .

الباب الرابع

نظم الحكم فى عهد المعز لدين الله

١ - النظام السياسى

تمهيد

أصبح عبيد الله المهدى خليفة منذ تربع على عرش الدولة الفاطمية فى أواخر سنة ٢٩٦ هـ ؛ ولم يحفل بغير هذا اللقب و بلقب الإمام الذى اتخذه وسيلة يتحدى بها العباسيين ، لأنه كان يرى أنه أحق بالخلافة منهم ، لأنه رأس العلويين الذين ينتسبون إلى الرسول ويعتقدون أنهم أحق من سواهم بزعامة المسلمين ومن ثم سار خلفاؤه الفاطميون على نهجه ، فتسموا باسم « الخلفاء » و « الأئمة » ، وتركزت فيهم صفتا «الخلافة» و « الإمامة » ؛ أو قل جمع هؤلاء الخلفاء بين الزعامتين الدينية والزمنية فكان المهدى خليفة وإماما مستودعا ،[١] وتمتع بهاتين الصفتين من بعده الخليفة القائم (٣٢٢ - ٣٣٤ هـ) ، ثم المنصور (٣٣٤ - ٣٤١ هـ) ، ثم المعز لدين الله (٣٤١ - ٣٦٥ هـ)

وكان الخليفة الفاطمى يجمع فى يده جميع السلطات ؛ لكن حكومته كانت حكومة مستنيرة ، تعمل على إصلاح المجتمع الفاطمى والنهوض به ، إذ أن نظام الحكم الفاطمى فى عهد المعز كان يرمى إلى جعل هذا الخليفة فى مركز يستطيع منه الإشراف على جميع نواحى النشاط فى الدولة . وليس معنى ذلك أن الخليفة المعز الفاطمى كان يضطلع بكل شىء ويستبد بجميع الأمور ، بل كان يستعين بأصحاب الدواوين وكبار الموظفين ، كالمحتسب وصاحب بيت المال ، والقاضى وغيرهم . ولم تكن رتبة

(١) الامام المستودع هو الذى تلقى الامامة إليه ، فيتمتع بها حينا ، ثم يردها لمستحقها ، مثل الحسن بن على بن أبى طالب ، الذى يعتبره الاسماعيلية إماما مستودعا لأخيه الحسين وأبنائه ، وموسى الكاظم بالنسبة لأخيه إسماعيل . ومحمد بن الحنفية الذى كان إماما مستودعا لعلى زين العابدين ، وعبيد الله المهدى الذى كان إماما مستودعا للامام القائم ، الخليفة الفاطمى الثانى

الوزارة قد ظهرت فى عهد المعز ، ومع ذلك كان يستعين بجماعة يعملون عمل الوزراء وإن لم يطلق على كل منهم اسم الوزير

وقد أحدث انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر فى عهد المعز تطورا كبيرا فى نظام الحكم ، حيث استعان بالوزير ابن الفرات ، وزير الإخشيديين ، وأبقى نظام الحكم التى كانت فى مصر قبل الفتح الفاطمى ، وأسندت شئون الدولة الجديدة إلى المصريين ، واشترك معهم المغاربة ، الذين مرنوا على إدارة البلاد بعد قليل

وقد نجح المعز فى هذه السياسة نجاحا مزدوجا ، لأنه بعمله هذا استطاع أن يدير دولاب الأعمال الحكومية ، وأن يدرب المغاربة ، وعلى رأسهم الكتاميون ، على الأعمال الإدارية فى البلاد

وكانت المناصب العالية فى الدولة الفاطمية فى عهد المعز ، تتركز فى أيدى الخليفة الذى كان يستعين بمن يثق بهم ، ويكل إليهم أمور دولته . وكان أهم هذه المناصب السياسية ، منصب الخليفة ، ويليه منصب الوزير

(ا) الخلافة :

كانت الخلافة مقصورة على أمراء البيت الفاطمى . ويشترط فيمن يليها أن يكون إماما إسماعيليا ، مستودعا كان أو مستقرا ؛ فلا يليها أئمة علويون من غير سلالة إسماعيل بن جعفر : الجسمانيين والروحانيين ؛ كما لا تنتقل إليه الخلافة إلا بنص من الإمام السابق . والإمام لا يستطيع أن يعهد لأكثر من واحد وبعبارة أخرى لا يقع النص بالخلافة إلا على إمام واحد ؛ وهذا ما يميز ولاية العهد عند الفاطميين عن ولاية العهد عند غيرهم كالأمويين والعباسيين فإن الأمويين كانوا يعهدون بالخلافة لأكثر من واحد وقد أسرف العباسيون فى ذلك ، فعهدوا بالخلافة من بعدهم إلى ثلاثة أشخاص ، مما أدى إلى قيام المنافسة بين أفراد البيت المالك كما أدى إلى ضعف كل من البيتين الأموى والعباسى فى النهاية .

وكان المعز يجلس على عرش الدعوة والدولة معا بمعنى أنه كان يجمع بين السلطتين الروحية والزمنية ، شأنه فى ذلك شأن الرسول ﷺ إذ كان الرئيس الأعلى للمسلمين دينيا وسياسيا ، وشأن الخلفاء الراشدين والأمويين ثم العباسيين . إلا

أن الخليفة الفاطمى كان يمتاز عن الخلفاء السنيين ، بأن الناحية الروحية كانت تتركز فى إحياء عقائد مذهبية ، ترمى إلى سيادة المذهب الإسماعيلى ، على حين كان الخلفاء السنيون يوجهون سياستهم الدينية لتقوية مبادىء الإسلام على أساس كتاب الله وسنة الرسول ، أو على وفق المذاهب السنية التى ظهرت فى العصر العباسى الأول

وإذا لاحظنا أن المذاهب السنية كانت منتشرة فى جميع أنحاء الدول الإسلامية متأصلة فيها ، أدركنا عدم ميل كثير من الناس إلى المذهب الإسماعيلى ، وطعنهم فى عقائد الفاطميين ونسبهم .

وكان المعز لدين الله يستمد نفوذه كخليفة من انتسابه لعلى وفاطمة ؛ وبفضل هذا قامت الدولة الفاطمية ، بعد أن بذل أنصارها جهودا جبارة ، بالسيف تارة والدعاية أخرى . ولا غرو ، فقد كانت الدعوة للأئمة من أبناء إسماعيل على شىء كبير من الدقة والنظام ، منذ منتصف القرن الثالث الهجرى . وقد وجد الدعاة ذوو الطموح فيها كل ما يبتغون ، واستطاعوا أن يضموا إلى صفوفهم عددا كبيرا من هؤلاء الذين يؤمنون بحب على وأبنائه . أضف إلى ذلك أن المعز وغيره من الخلفاء الفاطميين اتخذوا هذا النسب سلاحا يشهرونه فى وجه أبناء عمهم العباسيين ، لاعتقادهم أن أبناء على وفاطمة أحق بالزعامة من أبناء العباس لذلك لم يكن بد من أن يتشبث الفاطميون بهذا النسب إلى الرسول ، ليحوطوا أنفسهم بهالة من التقديس والتقدير .

وقد أدى ذلك إلى تفاقم العداء بين المعز وعبد الرحمن الناصر الأموى الذى ادعى زعامة المسلمين ؛ فنراه يحقد على الناصر ، لأنه تلقب بلقب خليفة وأمير المؤمنين ، وشاركه فى هذا . ولذلك رماه الفاطميون بالفحش وقالوا عنه : الأموى اللعين ابن اللعين ، المتغلب فى الأندلس . وكان حنق المعز على ابن واسول صاحب سجلماسة شديدا ، لأنه تلقب بلقب أمير المؤمنين ، الشاكر بالله ، وعده ثائرا على الدولة الفاطمية ، من الناحية السياسية . لمحاولته الاستقلال ببلاده فى المغرب الأقصى ، كما عده ثائرا على الدعوة الفاطمية من الناحية الروحية ، لتشبهه بالأئمة الفاطميين ، وتلقيبه نفسه بألقابهم . وهكذا كانت حجة المعز عليه « فيما ادعاه من الإمارة بغير عقد إمام ، وما تعدى إليه بعد ذلك من ادعائه الإمامة ، وتسميه بأمير المؤمنين ، وتلقبه

بالشاكر بالله (١) .

لذلك نرى المعز لدين الله يخاطب ابن واسول وهو في أسره بجفاء، لادعائه الإمامة بسجلماسة ، كما يظهر ذلك من هذه العبارة التي خاطب بها ابن واسول : « لو كنت رغبتَ عن نية منك في أن تأتم بنا لنلت فضل ذلك وثوابه ، وأنت وادع في مكانك ، آمن في سلطانك ، بإقامتنا ذلك لك ، وإذ قد أنكرت إمامتنا ، وادعيت الإمامة دوننا ، إلى أن أظفرنا الله بك وأقدرنا عليك » (٢)

ونستطيع أن نقول في غير إسراف : إن الصراع الذي قام بين المعز والعباسيين من ناحية ، وبينه وبين الأمويين وغيرهم من ناحية أخرى ، كان في الواقع صراعا على زعامة المسلمين الروحية والسياسية ، تلك الزعامة التي أراد المعز أن يتمتع بها وحده دون سواه .

وكان من أثر رغبة المعز في الاحتفاظ بهذه الزعامة ، أنه أخذ يحوط نفسه بهالة من التقديس، حتى يتميز بذلك عن الخلفاء الأمويين والعباسيين، ويجذب إليه قلوب الرعايا والأشياع . وكان مبدأ «التعليم» من أهم الأسلحة التي تذرع بها هذا الخليفة ، فجعل ينادي بأن الأئمة مصدر العلم والعرفان ، وأنهم يعلمون ما كان وما يكون وما سيكون ، ويؤول الأحاديث في سبيل إقرار هذا المبدأ ، حتى يحوط مركزه في الخلافة بهالات التقديس . من ذلك قول المعز للنعمان : «أليس قد قال رسول الله ﷺ في القرآن : فيه نبأ من قبلكم ، وخبر من بعدكم ؟ قلت (أي النعمان) : نعم ! قال : فأين تجدون في الكتاب خبر من بعدكم ؟ قلت : من عند جدكم صلع نجده . قال : من عندنا والله تجدونه ، وكلما تطلبون ، ما سلمتم لأمرنا ، وتمسكتم بحبلنا ، ودنتم بإمامتنا »(٣). ولا غرو، فإن الإسماعيلية يعتقدون أن على بن أبي طالب، جد المعز لدين الله كان يقول « سلوني قبل أن تفقدوني ، فوالذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة لا تسألوني عن علم ما كان وما يكون ، وعن علم ما لا تعلمون ، إلا أخبرتكم به ؛ علمنيه النبي الصادق ، عن الروح الأمين ، عن رب العالمين » . ويعتقدون أيضا أن

(١) النعمان المجالس والمسايرات (مخطوط مصور) ج ٢ ص ٣٤٥

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٤٨ – ٣٤٩

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٥٥ – ٥٦

جعفر الصادق كان يقول « إن العلم الذى نزل به عليه السلام لم يرفع ، وأنه يُتوارث ، وهو فينا نتوارثه»[(١)] وكان المعز يقول لأصحابه: «اسألوا عما لا تعلمون، تجدوا عندنا جواب ما تريدون ، إن انصرافكم عنا بلا فائدة منا، خسارة عليكم ونقص بكم » [(٢)]

وليس هذا وحده ، بل إن المعز كان يقرر فى أذهان أتباعه أنه لسمو مكانته هو وغيره من الأئمة الإسماعيلية الخلفاء ، يستطيعون أن يكونوا واسطة بين الله وبين أشياعهم . وفى ذلك يقول: « ما توسل بنا إلى الله عز وجل متوسل إلا كنا له خير وسيلة لديه ، لما توسل بنا فيه ، من أمر دينه أو دنياه ، إذا صحت نيته ، وصدقت طويته والله لو أتانا الجذماء والبرصاء والعميان يتشفعون الله بنا ، وقد أحسنوا ظنهم ، وصدقت فى ذلك نياتهم ، ولم يشبهم فى ذلك شك ، اشفوا [(٣)] » لذلك كان هؤلاء الذين يلقنون هذه التعاليم من خلفائهم ، يجهدون فى طاعتهم وطاعة من يمت إليهم بسبب . وهذا ما جعل جماعة الإسماعيلية متحدين متساندين ، يشد بعضهم أزر بعض وقد بذ المعز لدين الله العباسيين والأمويين من هذه الناحية ، لأن هؤلاء كانوا يحملون الرعايا على طاعتهم طوعا أو كرها

ولكى يثير المعز فى نفوس أتباعه الحماسة والإخلاص فى طاعته، جعل يثير فى نفوسهم الأمل، ويشعرهم أن الله يثيبهم بقدر طاعتهم وإخلاصهم لخليفتهم ومن ثم كان يتمثل بقول جعفر الصادق « إن لدينا من خزائن علم الله وفوائد حكمته ، ما يحمل منه كل امرىء بمقدار طاقته ، ويعطاه بحسب استحقاقه ، ولا يبخس[(٤)] إلا من بخس نفسه . وما ينبغى لنا أن نعطى أحدا من أمانة الله عندنا ما لا يستحقه. والله ما نفعل ذلك لأبنائنا وما نعطى من نرتضيه منهم إلا قدر حقه فيه ، لا نزيده قلامة ظفر » [(٥)] وكان كجده جعفر الصادق ، يؤول قول الله تعالى ، « فاسألوا أهل الذكر إن

---

(١) النعمان المجالس والمسايرات ج ٢ ص ٥٨ — ٥٩ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٧٩

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٤٨

(٤) وردت ينجس فى الأصل

(٥) النعمان المجالس والمسايرات ج ٢ ص ١٢٢

كنتم لا تعلمون » بأن أهل الذكر هم الخليفة الفاطمى « المعز » والأئمة الإسماعيلية . وبهذه الوسائل وغيرها أصبح المعز موضع تقدير أتباعه ورعاياه

لذلك لبست شخصية المعز لدين الله ثوبا قشيبا من التقديس والإجلال ولم يكن الخليفة الفاطمى ، كمنافسه الأموى أو العباسى ، مستبدا بأمور الدولة . أو مسرفا فى العبث والمجون وقد أصبح رعاياه وأنصاره ينظرون إليه على أنه شخص واجب الطاعة ، باعتباره من سلالة الرسول وكان المعز يروى الأحاديث التى تحث هؤلاء الرعايا والأنصار على وجوب طاعته والالتفاف حوله ، وتبين لهم أن الله سينجز على يديه وعده ، وأن أئمة الإسماعيلية من العلويين سيملكون الأرض قاطبة ؛ ومن ثم يصبح هؤلاء الرعايا « جند الله » ، الذين تقوم « دولة الله » على أيديهم

وهذا وحده يفسر تلك الانتصارات الرائعة ، التى أحرزها الفاطميون فى عهد المعز فى المغرب والمشرق ، وفى البر والبحر ، كما يفسر كيف أن الخلفاء الفاطميين كانوا ينظرون إلى « الخلافة » نظرة جدية ، ويعتبرون أنفسهم هداة الناس ، ومعقد رجائهم ، ومحط آمالهم . ومن ثم لم يجلس على عرش تلك الخلافة الفاطمية إلا الأمراء ، الذين يلمون بمبادىء الإسماعيلية ، ويجدون فى نشرها ، ويبذلون جهودهم لجذب الناس إليهم ؛ لذلك كانوا المثل الأعلى للحاكم المسلم

ولكى يقوى المعز مركزه باعتباره خليفة مسلما ، نراه يعنى عناية تامة بإثبات نسبه إلى على وفاطمة ، والإشادة بهما ، حتى تستطيع الدولة الفاطمية أن تعمر طويلا ، ويستطيع هو فى الوقت نفسه أن يتفوق على منافسيه العباسيين . لأن الفاطميين العلويين أقرب إلى الرسول من أبناء عمهم العباسيين ، ومن الأمويين الذين اغتصب آباؤهم الخلافة من على وأبنائه وهذا ما حدا المعز على أن يشيد بانتسابه إلى على وفاطمة فى كل حين

ولم يكن المعز حين نسب نفسه إلى على وفاطمة ، متجنيا على الحق والواقع ، فإنه أصبح من الثابت أن من ينكر نسب الفاطميين إلى على وفاطمة ، متجاوز للحق ، مسرف فى الباطل ؛ لأن إمامة الاستقرار ، أى انتقال الإمامة إلى إمام آخر بنص من الإمام السابق ، لم تنقض بموت على بن أبى طالب .

وقد أوردنا فى كتابنا « عبيد الله المهدى » (١) أن الخليفة الفاطمى القائم (٣٢٢ — ٣٣٤ ﻫ) كان يعتبر الابن التعليمى أو الروحى للخليفة المهدى ، كما أن المهدى نفسه كان الابن الروحى ، لا الجسمانى ، للإمام الإسماعيلى المستور ، وهو الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل وبهذا نستطيع أن نقول إن دفاع المعز عن نسبه، دفاع يقوم على أساس تاريخى صحيح . ولاغرو، فهو ابن المنصور بن القائم بن الحسين كما تقدم .

وقد صرح المعز نفسه بما يؤكد أن المهدى من غير تلك الشجرة التى أنجبت القائم، فيقص على أبى حنيفة النعمان، قاضى قضاته، كيف أن زوجة المهدى (ولم يقل جدته أو امرأة جده) « كانت تقول لولد المهدى ونسائه بعد وفاته والله لقد خرج هذا الأمر (أى الإمامة) من هذا القصر ، يعنى قصر المهدى بالله ﷺ ، فلا يعود إليه أبدا ، وصار إلى ذلك القصر ، يعنى قصر القائم بأمر الله ص ، فلايزال فى ذرية صاحبه ما بقيت الدنيا »

وإن فى هذا التصريح مايدل على أن قصر المهدى غير قصر القائم ، وأن ذرية المهدى غير ذرية القائم . ولو أن القائم كان ابن المهدى حقا ، لما قالت زوجة المهدى « فلا يزال هذا الأمر (أى الإمامة) فى ذرية صاحبه ، أى القائم ، لأن ذرية القائم يجب أن تكون ذرية المهدى إذا كان أبا القائم حقا، وهو ما لم تقصد إليه زوجة المهدى.

ومن هنا نتبين بطلان ما ذهب إليه بعض العلماء السنيين الذين يقولون ، إن المعز لدين الله لما وصل إلى مصر ، عجز عن أن يثبت لبعض الاشراف صحة نسبه إلى علىّ وفاطمة فيذكر ابن خلكان (٢) أن جماعة من أهل مصر طعنوا فى هذا النسب ، حتى إن المعز لما وصل إلى مصر اجتمع به بعض الأشراف ، فسأله أحدهم، وهو ابن طباطبا : «إلى من ينتسب مولانا» ؟ فأجابه المعز بأنه سيعقد مجمعا يضم كافة الأشراف ، ويسرد عليهم نسبه ؛ حتى إذا ما انعقد المجلس فى القصر ، سلّ المعز سيفه إلى النصف ، وقال: هذا نسبي، ثم غمرهم بالذهب الكثير، وقال: هذا حسبي». ومن هنا نشأ القول المأثور «سيف المعز وذهبه» ، إشارة إلى بطلان الشيء ، أو إلى

(١) ص ١٦٩

(٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٠٠

أنه مأخوذ كرها » (١) ونستطيع أن نتبين بطلان هذا الرأى مما يلى

أولا: أن ابن طباطبا، على ما ذكره دى سلان (٢)، كان قد مات فى سنة ٣٤٨ هـ، أى قبل وصول المعز نفسه إلى مصر فى سنة ٣٦٢ هـ بأربع عشرة سنة .

ثانيا: إن سياسة المعز لدين الله فى بلاد المغرب، منذ جلس على العرش فى سنة ٣٤١ هـ إلى أن جاء مصر فى سنة ٣٦٢ هـ، كانت تقوم على التصريح بصحة نسبه إلى على وفاطمة، حتى يستطيع أن يوجه ضرباته إلى منافسيه السنيين، عباسيين كانوا أو أمويين، كما يستطيع أن يجذب إليه الرعايا والأتباع الذين يحوطون دولته بسياج من المنعة والقوة . وكان المعز أشد احتياجا إلى هذه المنعة فى مصر

ثالثا إذا كانت هذه العبارة قد جاءت على لسان المعز، كان ذلك كافيا لإسقاط دولته وإزالة خلافته وإذا علمنا أنه قد جاء مصر ليصد عنها جيوش القرامطة، الذين أعلنوا من منابر الشام أنه ينتسب إلى أبناء القداح، فكيف يصرح مثل هذا التصريح الذى يتخذ منه خصومه سلاحا يشهرونه فى وجهه فى مصر نفسها؟ أضف إلى ذلك أن هذه العبارة تتعارض مع ما ذكره المعز نفسه فى رسالته التى بعث بها إلى الأعصم، وفيها يقول: « ونحن ننتقل فى الأصلاب الزكية، والأرحام الطاهرة المرضية، كل ما ضمنا صلب ورحم وأظهر منا قدرة وعلم، وهلم جرا، إلى آخر الجد الأول، والأب الأفضل، سيد المرسلين، وإمام النبيين، أحمد ومحمد، صلوات الله عليه وعلى آله (٣)». فكيف يصرح المعز بهذا فى رسالته هذه، ثم يعجز عن إثبات نسبه إلى علىّ، ويلجأ إلى سيفه وماله يحتمى بهما، ويقر على نفسه التهم التى رماه بها أعداؤه؟ ولسنا بصدد بحث نسب المعز، فإن فيما ذكرناه فى كتابنا « عبيد الله المهدى » (٤) عن نسب الفاطميين ما يكفى .

ولما كانت الخلافة، وهى السلطة العليا للدولة، تقوم على الدعاية التى يعتمد عليها الفاطميون فى نشر المذهب الإسماعيلى، حرص الفاطميون، ومنهم المعز، على أن

(١) حسن إبراهيم حسن الفاطميون فى مصر ص ٦٩

(٢) Ibn Khallikan's Biographical Dictionary, vol. ii. p. 49.

(٣) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ١٢٥

(٤) ص ١٤٤ — ١٦٩

يختاروا لها أكثر أبنائهم كفاية في هذه السبيل ومن ثم نراهم ينصون على إمامة هؤلاء الأبناء الأكفاء ، ويجعلونهم أولياء عهودهم ، ويشركونهم في الأعمال السياسية والحربية فعل ذلك المهدى مع القائم الذى كان ساعده الأيمن ، والقائم مع المنصور والمعز نفسه ، والمعز مع ابنه عبد الله نزار ، الذى ولى الخلافة من بعده وتلقب بلقب العزيز بالله وكان الخلفاء يُعنون بتثقيف أولياء عهودهم عناية فائقة ، حتى يكونوا أقدر على حكم الرعية

وقد كشف المعز عن الخطة التى رسمها الخلفاء الفاطميون لينهضوا بشئون الرعية ، وكيف كان هؤلاء الخلفاء يسهرون على راحة رعاياهم ، وحمايتهم من أعدائهم ، فيقول . «للناس شغل بدنياهم وما يتلذذون به منها ؛ وشغلنا إقامة أودهم ، وصلاح أحوالهم ، والنظر فيما يعود عليهم ، ويحمى حماهم ، ويدفع عن بيضتهم ، ويحقن دماءهم ، ويحصّن حريمهم وأموالهم ويكفّ أيدى المتطاولين إليهم بذلك نقطع ليلنا ونهارنا وهم عن ذلك بمعزل ، ومنه فى غفلة ، بما هم فيه متشاغلون ؛ فمتى أردنا منهم أمرا لا بد لنا منه ، رفعوا رءوسهم كما ترفع الغنم رءوسها عند زجرة الراعى من مرعاها وتكلم المتكلم منهم بما لا يعنيه ، وأنكر الجاهل بما لا يدريه . والله المستعان على ما قلدناه من أمورهم ، وافترضه علينا من القيام بأسبابهم ، ونرغب إليه فى إصلاحهم وهدايتهم إلى ما فيه حظهم ونجاتهم ، فى دنياهم وأخراهم »(١)

هكذا كانت الخلافة ، وهكذا كان الخلفاء يشقون لصلاح الرعية وهذا يفسر مُدى ازدياد نفوذ المعز وما ناله من نصر وظفر فى فتوحه شرقا وغربا وهكذا كان الخلفاء الفاطميون يعتقدون أن الخلافة منصب تحف به المتاعب ؛ لكن الله قلدهم إياه ، وفرضه عليهم ؛ لأنهم من سلالة الرسول وقد وصف المعز مركز الخلفاء الفاطميين من رعاياهم فى هذه العبارة ، فقال « والله ما ننال من الدنيا إلا دون ما يناله كثير من سائر الناس فيها ؛ وإن أكثرهم ليأكل ويشرب منها فوق ما نأكل ونشرب ، وإنا لنلبس ويلبسون ، ونركب ويركبون وإنا مع ذلك لنتعب لصلاح أحوالهم ، ودفع الضراء عنهم وهم وادعون . وقليل من يعرف لنا ذلك منهم فيشكره ، بل أكثرهم يجهل ذلك ويكفره ولو كان ذلك منا لهم لتركناه ،

---

(١) النعمان المجالس والمسايرات ج ١ ص ١٤٣ — ١٤٤

ولكنه شيء افترضه الله تعالى علينا وألزمناه » (١)

وليس من شك فى أن المعز لدين الله، باعتباره خليفة علويا، كان يجمع فى يده كافة السلطات، فكان المحرك لجميع أعمال الدولة يقلد الولاة على الأقاليم، ويزودهم بنصائحه ولم يعتمد على غيره فى تعيين هؤلاء الولاة، بل كان يختارهم بنفسه ممن يثق بهم، ويعتمد عليهم، ويعمل فى الوقت نفسه على أن تصل إليه أخبارهم من حين إلى حين، حتى لا ينحرفوا عن جادة الصواب. وكذلك كان المعز لدين الله الرئيس الاعلى للجيش، يعين كبار قواده الذين مهروا فى الفنون الحربية، وعرفوا بإخلاصهم وكثيرا ما كان يضع لقواده خطط الهجوم، كما رأينا فى حملات جوهر على بلاد المغرب ومصر، ويشرف بنفسه على القضاء والشرطة، ويعتمد فى ذلك على رجال يقومون بتنفيذ أوامره، من أمثال أبى حنيفة النعمان المغربى قاضى قضاته.

وكثيرا ما كان المعز ينظر فى المظالم بنفسه، وينصف المظلومين فمن عدله ما حكى عنه «أن زوجة الإخشيد الذى كان ملك مصر، لما زالت دولتهم، أودعت عند يهودى بغلطاقا (٢) كله جوهر ثم فيما بعد طالبته فأنكر، فقالت: خذ كم البغلطاق وأعطنى ما فضل، فأبى. فلم تزل به حتى قالت هات الكم وخذ الجميع، فلم يفعل وكان فى البغلطاق بضع عشر درة، فأتت المرأة إلى قصر المعز، فأذن لها، فأخبرته بأمرها، فأحضره وقرره فلم يقر. فبعث إلى داره من خرب حيطانها، فظهرت جرة فيها البغلطاق فلما رآه المعز تحير من حسنه، ووجد اليهودى قـــد أخذ من صدره درتين، فاعترف أنه باعهما بألف وستمائة دينار، فسلمه المعز بكماله للمرأة. فاجتهدت أن يأخذه المعز هدية أو بثمن، فلم يفعل، فقالت: يامولاى! هذا كان يصلح لى وأنا صاحبة مصر، وأما اليوم فلا. فلم يقبله المعز، وأخذته وانصرفت (٣).»

ولم يكتف المعز بذلك، بل اتخذ من جوهر الصقلى مستشارا أو وزيرا يعاونه فى إدارة البلاد. ولم يهمل شئون الدعوة، بل كان يتعهدها فى بلاده، وعلى

---

(١) النعمان المجالس والمسايرات ج ١ ص ١٧٧

(٢) البغلطاق يشبه المضربية (على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ج ١ ص ٥٢).

(٣) أبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٨

الأخص فى المنصورية ثم فى القاهرة ؛ فيعين كبار الدعاة ، ويزود هؤلاء الرؤساء الدينيين ببعض كتب الباطن يلقنونها الأشياع . كما كان على اتصال دائم بدعاته فى المشرق والمغرب ، وبخاصة بلاد اليمن وفارس ، حتى أصبح له بكل بلد كثير من الأتباع والأنصار ؛ كما وجه همته إلى مصر والحجاز والشام تلبية لنداء أنصاره ورغبة فى نشر دعوته . وكان لرواج هذه الدعوة فى المشرق أثره ، حتى قال بعض خواص المعز ذات يوم : «ما يمنع أمير المؤمنين من المشرق ، ولا يحول دونه ، إلا أنه لم ير العزم فى أمره ؛ فأما لو عزم على ذلك لما حال دونه حائل (١)» . ومن ثم نبغ فى عهد المعز عدد غير قليل من كبار رجال الدعوة وأدبائها ، من أمثال جعفر ابن منصور اليمن ، صاحب المؤلفات الرائعة فى المذهب الإسماعيلى ، وأبى حنيفة النعمان المغربى ، الفقيه الإسماعيلى النابه الذكر

وكان المعز وهو بالمنصورية أكثر اتصالا برعاياه . ولا غرو ، فإنه كان يعيش بين أنصاره الذين نشأ بينهم ، واختلط بهم ، واختلف إليهم وقد وصف النعمان كيف كان المعز ومن جاء قبله من الخلفاء الفاطميين يقضون يومهم فى المغرب فقال : «إذا أصبح خرج من منزله وجلس فى مجلسه ، ودخل إليه خاصة أوليائه وخدمه . فلا يزال جالسا إلى أن ينتصف النهار ويحضر وقت الغداء ، وهو يطيل ذلك فى وجوه ما يأمر به ، ويحكمه من أمر المملكة ، والحديث فى مثل هذا من العلم والحكمة . وإذا حضر وقت قيامه دخل فطعم ، وصلى ونام نومة ، ثم قام فصلى العصر ، وخرج إلى مثل ما كان عليه . ولا يزال كذلك إلى الليل ، ثم يدخل ويحضر خاصته ، وينظر فى الكتب والعلوم ، ويؤلف الكتب أكثر ليله . فهذا دأبه ، إلا أن يخرج فى بعض الأيام لما يخرج إليه من اطلاع الناس والتفرج ؛ فيركب فى صدر النهار ، ثم يعود فيجلس فى آخره (٢)»

أما فى القاهرة فلم يكن المعز يأنس إلى المصريين كما كان يأنس إلى المغاربة فى بلاد المغرب . أضف إلى ذلك أن رجال كتامة وغيرهم من المغاربة فى مصر ، كانوا رجال عمل : فمنهم المحارب فى الجيش ، والشرطى ، والمالى ، فلم يجد المعز فى

(١) النعمان المجالس والمسايرات ج ٢ ص ٤٧٩

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٤٠٩ — ٤١٠ .

هؤلاء ولا فى رعاياه من المصريين ما يتيح له الظهور أمامهم، كما كانت الحال فى بلاد المغرب. وهذا يفسر لنا سبب اتخاذ المعز السراديب فى قصوره، حيث يحتجب عن أنظار الناس من حين إلى حين ولا يبعد أن يكون ذلك الاحتجاب بقصد النسك والتعبد

وهكذا كان المعز لدين الله يمثل، وهو فى الخلافة، دور الحاكم المستنير، الذى يبذل جهده فى النهوض ببلاده، ويشرف على صغير الأمور وكبيرها

ويعد المعز لدين الله المؤسس الحقيقى للدولة الفاطمية، كما كان عبد الملك بن مروان فى الدولة الأموية، وأبو جعفر المنصور فى الدولة العباسية، لأنه وضع نظم الحكم التى سار عليها الخلفاء الفاطميون من بعده؛ وحذا حذوهم الأيوبيون والمماليك، كما انتشل هذه الدولة من الأخطار التى تعرضت لها فى عهده

(ب) الوزارة

كانت الوزارة من أهم مناصب الدولة الفاطمية، إلا أن أهميتها الحقيقية لم تظهر تماما فى عهد المعز لدين الله ولا فى عهد من جاء قبله من الخلفاء؛ ويرجع ذلك إلى رغبة هذا الخليفة فى جمع كل السلطة فى يده ولم يشأ الفاطميون فى الدور المغربى (٢٩٦ - ٣٥٨ هـ) أن يعيروا رتبة الوزارة أى شىء من الأهمية. وكأنه عز عليهم أن يشاركهم أحد فى رياسة الدولة. وليس معنى ذلك أن الفاطميين فى الدور المغربى لم يستعينوا بغيرهم ليقوموا بعمل الوزراء، فقد اتخذ هؤلاء الخلفاء ممن يثقون بهم من يقومون بعمل الوزير، وإن لم يتسم كل منهم باسم الوزير

من ذلك ما نراه فى عهد المهدى (٢٩٦ - ٣٢٢ هـ) الذى أمّن عبد الله بن القديم، أحد رجالات بنى الأغلب، واستعان به فى كثير من الأمور، فوكل «إليه النظر فى جميع الدواوين والأعمال». وظل هذا الرجل على تلك الحال حتى اشترك مع الساخطين من أصحاب أبى عبد الله، وذهب ضحية اشتراكه معهم. ومع ذلك لم نعرف أنه تلقب بلقب الوزير وقد استعان المهدى والقائم والمنصور جميعا بأبى جعفر بن محمد بن أحمد البغدادى (١)، فوكلوا إليه «تدبير الملك، والنظر فى كبار الأمور وصغارها».

(١) كان أبو جعفر أحمد البغدادى من نوابغ عصره، فكان شاعرا، كاتبا، ذكيا، لسنا وقد ساءت العلاقة بينه وبين الوزير العباسى، على بن عيسى، وزير المقتدر ولما عزم هذا الوزير

فكان ينظر فى شئون الدواوين جميعها ، ويشرف على الموظفين ، أى أنه كان يعمل عمل الوزراء ، وإن لم يكن قد تسمى باسم « الوزير » ، وذلك على الرغم من أن المهدى امتحنه « حتى عرف عقله وعلمه ، فوجده كاتبا كاملا حسن الفهم والبيان ثابت العقل ، يصلح أن يكون وزيرا (١) » .

أما جوهر الصقلى ، فإن المعز ، على ما قيل ، اتخذه وزيرا له فى سنة ٣٤٧ هـ والواقع أن هذا القائد كان موضع ثقة المعز الذى لقبه بلقب « جوهر الكاتب » فى السنة التى ولى فيها الخلافة ، أى فى سنة ٣٤١ هـ ولا يعزب عن الأذهان أن الكتابة فى ذلك الحين كانت لا تقل خطرا عن الوزارة ؛ فقد كان يعهد إلى جوهر الكاتب بالإشراف على جميع دواوين الدولة ، وعلى الموظفين كافة . ولذلك لما قلده المعز لدين الله الوزارة ، لم تزد اختصاصات وظائفه وهو وزير عما كانت عليه فى عهد تقلده الكتابة . ومهما يكن من شىء ، فقد كانت الكلمة العليا للمعز أولا ، ثم لجوهر الصقلى ثانيا ، حتى إننا نرى المعز يحيل النعمان قاضى قضاته وغيره من كبار موظفيه على جوهر الكاتب ، ثم على جوهر الوزير بعد ذلك .

وليس من شك فى أن وزارة جوهر فى عهد المعز لدين الله كانت وزارة تنفيذ ، لا وزارة تفويض . بمعنى أن مهمته كانت مقصورة على تنفيذ أوامر الخليفة ، والائتمار بجميع أوامره ، وعدم الاستبداد بأمر من أمور الدولة دونه . فلم يكن جوهر في مركزه يتمتع بما يتمتع به وزير التفويض ، الذى يفوض إليه الخليفة النظر فى جميع شئون دولته ، والتصرف فيها دون الرجوع إليه فى شىء . ووزراء التفويض فى وزاراتهم أشبه بالملوك المستبدين فى دولهم . ويعتبر البرامكة فى عهد الرشيد ، وبنو سهل فى عهد المأمون ، من وزراء التفويض وكذلك يعتبر وزراء

= على قتله ، فر إلى بلاد المغرب ، ووصل الى سجلماسة ، ومدح عبيد الله المهدى بغرر القصائد ، ونال إعجابه . وأخذ العهد عليه ، وأمره بالهرب إلى الأندلس . ثم العودة إلى إفريقية إذا ما قامت الدولة الفاطمية فيها . وقد لبى البغدادى أوامر المهدى وعاد إلى إفريقيه ، حين رفع أبو عبد الله الشيعى علم الفاطميين فى رقادة ، ولم يستطع أن يسند المهدى إليه النظر فى الأمور كبيرها وصغيرها ، أو أن يترك له الأعمال فى الدواوين ، لأن ابن القديم كان يقوم بها عند وصول البغدادى إليها

(١) اليمانى سيرة جعفر الحاجب ص ١٣٢

بيت بدر الجمالى ، ومن خلفهم فى الوزارة فى الدولة الفاطمية وبعبارة أخرى ، فإن الوزراء العظام كانوا منذ تقلد بدر الجمالى الوزارة إلى أن تقلدها أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبى ، وزراء تفويض لا وزراء تنفيذ

ويظهر أن المعز لدين الله ، على الرغم من استبداده بكافة شئون دولته ، رأى أن يقلد العباسيين الذين اهتموا بمنصب الوزارة منذ قيام دولتهم ؛ فاتخذ السفاح أبا سلمة الخلال وزيرا وكذلك حاول المنصور أن يتخذ من خالد بن برمك وزيرا وكأن المعز لدين الله قلد العباسيين فى الاستعانة بوزير لم تعد اختصاصاته اختصاصات وزير التنفيذ فى العصر العباسى الأول ومعنى ذلك أن رتبة الوزير قد ظهرت فى الدولة الفاطمية فى الدور المغربى

أما عن الوزارة فى مصر فى عهد المعز لدين الله ، فإن جوهرا الصقلى لما فتح هذه البلاد ، لم يقلد الوزارة واحدا من المغاربة ، بل أقر الوزير جعفر بن الفرات ، الذى كان قد تقلد الوزارة فى عهد الإخشيديين ، فى منصبه وقد ذكر المقريزى(١) أن جوهرا أرسل الكتب « إلى أبى الفضل جعفر بن الفرات الوزير ، وجماعة من وجوه الدولة ، وخاطب ابن الفرات فى كتابه بالوزير بعد مراجعة وكان قد توقف فى مخاطبته بالوزير ، وقال ما كان وزير خليفة »

وعلى الرغم من اعتراف جوهر بأن ابن الفرات لم يكن وزير خليفة ، وإنما كان وزيرا للأمراء الإخشيديين ، نظر إليه باعتباره سنيا مغاليا ، وأن مولاه المعز علوى ومع ذلك شعر جوهر بالحاجة إلى خدمات هذا الوزير ، حتى يستطيع تدريب المغاربة على الأعمال الحكومية وحتى لا يحدث عزله اضطرابا فى إدارة هذه الدولة الناشئة

وقد نسأل عن السبب الذى حدا جوهرا الصقلى على إبقاء الوزير ابن الفرات فى وزارته دون أن يعزله ، أو يقلد الوزارة أحدا من المغاربة أو العلويين المصريين مكانه على الأقل يظهر أن جوهرا أدرك أنه فى حاجة إلى الاستقرار من الناحية الحربية والإدارية والمذهبية أما من الناحية الحربية فإن المنشور الذى أذاعه على المصريين وعلى الكافورية والإخشيدية ، قد ساعد كثيرا على استقرار نفوذ الفاطميين

---

(١) اتعاظ الحنفا ص ٧٠

فى مصر وأما من الناحية المذهبية ، فقد رأى جوهر أن يشعر المصريين ، وكان أكثرهم من أهل السنة ، أن الفاطميين قد وطدوا العزم على أن لا يتعرضوا لهم ولمذاهبهم السنية بسوء

كما رأى جوهر أنه لو أقدم على عزل الوزير من منصبه ، وكذلك على عزل سائر الموظفين السنيين ، وإحلال المغاربة وغيرهم من أنصار الفاطميين محلهم ، فإن ذلك يحدث اضطرابا عاما فى إدارة الأعمال الحكومية ، كما تقدم أضف إلى ذلك أنه قد لا يكون هناك من بين المغاربة من يستطيعون أن يتحملوا أعباء الأعمال الإدارية فى مصر . وإذا علمنا أن مصر كانت من قبل منظمة فى إدارتها، وأن العرب حين فتحوها على يد عمرو بن العاص ، لم يستطيعوا عزل القبط من وظائفهم ، بل أبقوهم فيها ، مع اختلافهم وإياهم فى العقيدة الدينية ، وأن تلك الإدارة ظلت بعد ذلك على ما كانت عليه ، وبخاصة فى عهد الطولونيين والإخشيديين ـ إذا علمنا ذلك ، أدركنا لماذا آثر جوهر أن يبقى النظام الإدارى فى مصر على ما كان عليه .

وقد رأى جوهر الصقلى أن يشق لنفسه طريقا وسطا بين الإدارة السنية والإدارة الشيعية فبينما تظاهر بالإبقاء على الموظفين المصريين فى وظائفهم ، إذا به يشرك مع كل موظف مصرى موظفا آخر مغربيا ، ليدرب هؤلاء المغاربة على أعمال الدولة ؛ حتى إذا ما مرن أنصار الفاطميين على الإدارة ، أقرهم فى وظائفهم وكأن جوهرا كان يعمل على خلق جيل جديد من الموظفين ، يستطيع الفاطميون أن يعتمدوا عليه فى تلك المرحلة الدقيقة من مراحل حياتهم السياسة. وإن هذه السياسة التى سلكها جوهر فى إدارة البلاد المصرية كانت لونا من ألوان السياسة التى سار عليها الفاطميون ؛ فإن بقاء موظف مغربى مع موظف مصرى يبعث دائما طائفة الموظفين على التقرب إلى الفاطميين ، باعتقاد مذهبهم وإظهار التودد إليهم، وعدم معارضتهم فى شىء وهذا منتهى ما تصبو إليه نفس الحاكم لذلك لا نغلو إذا قلنا ، إن هذه الطريقة قد صادفت كثيرا من النجاح فى جذب كثير من الموظفين السنيين وغيرهم إلى المذهب الإسماعيلى ، مذهب الفاطميين .

وقد أدت سياسة جوهر الصقلى هذه إلى إضعاف سلطة الوزير ابن الفرات إلى حد بعيد ؛ فقد أشرك معه خادما يسير فى ركابه أنىّ سار ، ويتبعه فى غدواته

وروحاته ، ويتجسس عليه ، حتى لا يكون خطرا على هذه الدولة الناشئة . يقول المقريزى (١) ووكل جوهر « بابن الفرات خادما يبيت معه فى داره ، ويركب معه حيث سار » . « وهذه العبارة التى أدلى بها المقريزى لا تترك مجالا للشك فى أن سلطة الوزير ابن الفرات قد زالت أو كادت ، وأنه إنما سمح له بالبقاء فى مركزه لإرضاء شعور السنيين لاغير » (٢)

وبهذا نرى أن رتبة الوزير قد استمرت فى مصر فى عهد المعز ، وأن ابن الفرات ، بعد أن كان وزيرا للأمراء أصبح وزيرا للخلفاء الحقيقيين ، كما ذهب اليه جوهر إلا أنه كان وزير تنفيذ لا وزير تفويض ، لخلافة شيعية يدين أنصارها بعقائد المذهب الإسماعيلى التى تختلف مع عقائد المذاهب السنية التى يدين بها هذا الوزير لذلك لم يستطع ابن الفرات أن يحتفظ بذلك النفوذ الذى كان يتمتع به فى عهد الإخشيديين .

وقد حز فى نفس ابن الفرات أن يرى نفسه مسلوب السلطة حتى إنه لم يبق له من الوزارة إلا اسمها لذلك انتهز فرصة قدوم المعز لدين الله إلى مصر ، وعرض عليه استقالته من الوزارة يقول ياقوت (٣) إن المعز لدين الله حاول أن يثنيه عن عزمه فرفض . واعتذر عن عودته إليها ثانية ، فلم ير المعز بدا من قبولها وبما يدل على أن الفاطميين لم يرغبوا فى بقاء ابن الفرات فى الوزارة إلا للاستفادة من خبرته وخدماته ، أن الخليفة المعز بعد أن قبل استقالته ، أظهر له « رغبته فى ضرورة بقائه فى البلاد المصرية بعد اعتزاله ، ليستأنس برأيه فى مهام الأمور ، فأجابه إلى ذلك » (٤) وهذه السياسة التى جرى عليها المعز تتفق تماما مع السياسة التى جرى عليها جوهر مع الموظفين المصريين قبل وصول المعز إلى مصر بأربع سنين .

---

(١) اتعاظ الحنفا ص ٨٥ .

(٢) حسن إبراهيم حسن الفاطميون فى مصر ص ١٨

(٣) إرشاد الاريب ج ٣ ص ٤١١

(٤) حسن ابراهيم حسن الفاطميون فى مصر ص ١٨٠

ويظهر أن ابن الفرات كان يشعر بشيء من الغضاضة ، لاغتصاب السلطة من يده ، ويأنف بعض الأنفة من الحكم الفاطمي . وإلا فبم نفسر تقاعده عن لقاء المعز لدين الله عند قدومه إلى مصر ، ورفضه بادىء الأمر مقابلته في الإسكندرية مع غيره من السنيين والشيعيين المصريين ، غير مكترث بما قد يجره هذا الامتناع عليه وعلى السنيين جميعا في مصر من اضطهاد الفاطميين ؟ الواقع أن تدخل كبار السنيين من المصريين ، « ونصحهم للوزير بالعدول عن هذا العمل ، قد حال دون الوقوع فيما كانوا يخشونه من أعمال العنف والقوة فقد أتوا إليه في الليلة السابقة ليوم وصول المعز إلى القاهرة ، واتهموه بتعريض أرواح السنيين للخطر وتهيئة الأسباب التي تحمل الفاطميين على الانتقام والتشفي فلم يكن بد إذا من أن يذعن الوزير لهم حتى إذا مابزغ صبح اليوم التالي ، دخل فيمن دخلوا على الخليفة المعز وقد حاول الخليفة أن يتلمس وسيلة للإيقاع به ، واتخاذ الشدة والعنف معه ؛ فسأله قائلا أحج الشيخ ؟ قال نعم ! فقال الخليفة وزرتَ قبر الشيخين (أبي بكر وعمر) » ؟ وكان الوزير ذكي الفؤاد حاضر البديهة ، فأجابه على الفور « شغلني عنهما رسول الله ﷺ ، كما شغلني أمير المؤمنين عن السلام على ولي العهد ، السلام عليك ياولي عهد المسلمين ورحمة الله وبركاته ! » (١)

لم يكن بد من أن يلغي المعز وزارة ابن الفرات ، إلا أنه لم يقبل استقالة هذا الوزير ليحل محله وزيرا آخر فنراه في المحرم من سنة ٣٦٣ هـ ، يسند إدارة شئون الدولة الحربية والمدنية إلى يعقوب بن كلس اليهودي الأصل ، وعسلوج بن الحسن المغربي وكان في إسناد المعز هذه الأعمال إلى هذين الرجلين القضاء التام على ما كان لابن الفرات من سلطة ونفوذ

وقد بقي هذا الوزير طول أيام المعز في مصر (٣٦٢ - ٣٦٥ هـ) بعيدا عن الوزارة ، ولكنه ظل في الوقت نفسه على اتصال بيعقوب بن كلس ، الذي حل محله في أعمال الوزارة في عهد المعز ، ثم تقلد الوزارة نفسها في عهد العزيز . وترجع هذه العلاقة الطيبة التي قامت بين هذين الرجلين المتنافسين ، إلى زواج أبي العباس الفضل ابن الوزير جعفر بن الفرات من ابنة يعقوب بن كلس ، مما ساعد على تقوية أواصر

---

(١) حسن ابراهيم حسن الفاطميون في مصر ص ١٨٤ — ١٨٥

الود والصداقة بين هذين الرجلين فى عهدالمعز ثم فى عهد العزيز، حتى إن ابن الفرات كان يغدو ويروح إلى ابن كلس الذى أولاه ثقته وكثيرا ما كان يعول عليه في محاسبة العمال ويجالسه، ويدعوه إلى تناول الطعام معه (١).

وهكذا مرت حياة ابن الفرات فى عهد المعز لدين الله فى دورين دور كان يتمتع فيه باسم الوزارة، وذلك قبل حضور المعز لدين الله إلى مصر، ودور ضعف فيه نفوذه، فأصبح كعامة السنيين الذين أقصوا عن وظائفهم، ولكنه كان مع ذلك يتمتع برضاء ابن كلس وكبار موظفى الدولة الفاطمية

على أن حياة ابن الفرات الإدارية، لم تنته بموت المعز، فقد تقلد الوزارة فى عهد العزيز مرتين، وشغل وظيفة صاحب الخراج، ومات فى سنة ٣٩١هـ (١٠٠١م)، بعد أن قام بدور هام فى تاريخ الوزارة فى عهد الإخشيديين والفاطميين.

٢ — النظام الادارى

(ا) ولاية الأقاليم

١ — فى بلاد المغرب:

تكلمنا فى شىء من الإسهاب على الحكومة المركزية، التى كانت تتركز السلطة فيها فى يد الخليفة باعتباره الرئيس الأعلى للدولة، ثم فى يد الوزير، الذى كان يستمد سلطته من الخليفة والآن نأخذ فى الكلام على نظام الإدارة فى الأقاليم الفاطمية

وضع الفاطميون لحكم ولاياتهم نظاما يقوم على الاعتماد على أنصارهم الموالين لهم. وكان اهتمام المعز لدين الله بحكم هذه الولايات أكثر من اهتمامه بالحكم المركزى، لأنه أدرك أن رفاهية دولته وعظمتها إنما تقوم على استتباب الأمن والنظام فى الأقاليم ومن مظاهر الحكم فى هذه الولايات فى عهد المعز، أنه استعان بأبناء أنصار الدعوة الأوائل، وأخذهم بالشدة إذا أهملوا أو أساءوا وشجع

---

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٤١

المحسن منهم بترقيته والإدرار له وبهذا استطاع المعز أن يشعر الولاة بالخوف منه ، ويملأ نفوسهم بالرجاء فيه .

أما تقرب المعز إلى أبناء الأنصار ، فنراه فى تعيين جماعة من الشبان فى المناصب التى كان يشغلها آباؤهم الذين كان لهم فضل فى حكم بعض الولايات فى عهد المهدى والقائم والمنصور ، ليحيى فيهم إخلاص هؤلاء الآباء لدعوته ودولته ، ويستغل ذلك الإخلاص فى استتباب الأمن فى بلاده . وقد زودهم المعز بنصائحه ، فقال لهم « إنا أردنا أن تصل عوارف آبائنا (ص) من أسلافكم فيكم ، ونحيى ذكرهم بكم ، ونلم شعثكم ، ونرفع من حالكم . فكونوا حيث نريده منكم ، ونقدره من الخير فيكم ؛ فأعينونا على ما أردناه من الخير بكم ، بصالح أعمالكم ، وحسن نياتكم وطوياتكم فإنا نقدر على تغيير حالكم وسد فقركم ، وأن نغنيكم ؛ ولا نقدر على صلاح ما تفسدونه من أنفسكم ، إذ أنتم لم تقبلوا على أمرنا إياكم . ووعظنا لكم فما السعيد كل السعيد إلا من قبل عنا ، وامتثل أمرنا وأطاعنا ولا الشقى إلا من خالفنا ، وارتكب نهينا . وما نريد بكل ما نفعله فيكم مما تحبونه أو تكرهونه ، وتعرفونه أو تنكرونه إلا صلاحكم ، والخير لكم فى دنياكم وأخراكم إن أحسنّا إلى من نحسن إليه منكم ورفعنا من نرفعه ، وأنعمنا على من ننعم عليه ؛ فما نريد منه بذلك إلا أن يعرف فضلنا فيشكره ، ويعمل من صالح العمل ما يستدعيه ، ويمترى [1] منا المزيد عليه ، ويصل إلى رضوان الله ، ويرضى بنا عنه . وإن عاقبنا من نعاقبه ، فما نعاقبه إلا تأديبا له ، وليرجع عما أنكرناه عليه ونقمناه من أمره ، إلى ما يرضى الله تعالى عنه ، ويرضينا منه ، فيسعد بذلك فى الدنيا والآخرة وإن قتلنا منكم من نقتله ممن يجب القتل عليه ، ولا يسعنا أن نبقيه ، فما ذلك منا فيه إلا تطهيرا له ، وتمحيصا لذنوبه وكل ما تجرى به أمورنا فيكم ، فهو صلاح لعامتكم »[2]

من هذا نرى أن المعز كان يعمل على إشعار عماله وموظفيه ، بالقوة واللين فى وقت واحد ، ويدخل فى روعهم أنه يرقب أعمالهم ، ويجعلهم يؤمنون بأنهم والخليفة إنما يعيشون لإسعاد العامة وحمايتهم . وأهم من ذلك أنه أراد أن يجعل العامل

---

(١) يمترى يستدر .

(٢) النعمان المجالس والمسايرات ج ٢ ص ٤٣٥ — ٤٣٧

يشعر بتبعيته وخضوعه للدولة ، سواء أكان ذلك فى حالة الرضا عنه أو السخط عليه .

وليست هذه دكتاتورية ممقوتة ، وإنما هى القوة فى الحق ؛ إذ كانت رغبته تتركز فى الإبقاء على العامل الصالح ، ونبذ العامل الذى لا يزجره النصح ولا يردعه ترهيب أو تخويف » . يدل على ذلك ما قاله بعض عمال المعز فى حضرته ، ورده عليهم « نحن يا أمير المؤمنين عبيدك وصنائعك ، والمعترفون بفضلك ؛ فما أصبناه بتقويمك وتأديبك ، وما أخطأنا فيه ، فنحن نرجو فيه رأفتك ورحمتك » . فقال لهم « يعصمكم الله من الخطأ بتأديبنا وتقويمنا ، إذ لا نرى لأحد منكم زلة إلا نبهناه ، ولا غفلة إلا أيقظناه ، ولا تخلفا إلا حركناه ، ولا تقصيرا إلا وعظناه . فليس يهلك مع هذا إلا الشقى الذى غلبت عليه شقوته ، والله يفيدكم بولايتنا وجميل رأينا فيكم (١) » .

ومما هو جدير بالملاحظة أن المعز لم يكن يعنى بمبدأ الوراثة فى اختيار عماله ، بل كانت الكفاية هى المؤهل الوحيد لولاية الأقاليم . أضف إلى ذلك أنه لم يكن يترك انتخاب عماله لغيره ، بل كان يضطلع بذلك الأمر دون غيره . وإذا كان المعز قد عنى بأبناء أنصار الدعوة من كتامة وسواهم ، فإن ذلك يدل على إلمام هذا الخليفة بحال من يرشحهم من العمال قبل تعيينهم كما يدل فى الوقت نفسه على أنه كان يستعين بجاسوسية منظمة ، تمده بصور صادقة عن رعاياه هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، كان المعز يعزل عامله إذا أخفق ، وكان عماله يديرون ولاياتهم بدافع الخوف منه ، مما يدل على مراقبة المعز التامة لحكومته المركزية وولاياته فى الشرق والغرب .

انظره وقد قلد جماعة من رجال دولته الولايات المختلفة ، ولم يكن قد سبق لهم الإشراف عليها ، ومع ذلك كان يعلق نجاحهم على ميلهم إلى إرضائه ، وخوفهم من غضبه ، كما يتبين ذلك من هذه العبارة التى جاءت على لسان المعز : « ما نظرنا إلى احد نظر خير إلا تبين ذلك فيه فما دام يعلم فضل النعمة عليه ، ويعترف بفضلنا عنده ، ويتحرى رضانا ، ويحذر سخطنا ، لا يزال على خير ؛ وبقدر ما يعتقد من ذلك ويتحراه يرتقى فى الدرجات » (٢) .

(١) النعمان المجالس والمسايرات ج ٢ ص ٥٨٦ — ٥٨٧

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٧٣ .

على أن المعز كثيرا ما كان يعنى بمبدأ الوراثة عند تعيين عماله إذا توسم الكفاية فى أبناء الولاة . ومهما يكن من شىء ، فقد وضع المعز لحكام الولايات دستورا حافلا بالمبادئ التى تكفل حسن إدارة الولايات المختلفة ومن أهم هذه المبادئ إشعار العامل أنه وليد نعمة الفاطميين ، وربيب أفضالهم ، ومنها الوعد والوعيد يعد العامل بالترقية إن أحسن ، وبالعقاب ، بل القتل إن أساء ووقع فيما نهاه الفاطميون عن الوقوع فيه ومنها إشعار العامل أن الدولة تناصره مادام على حق ، وتخذله إذا حاد عن الطريق القويم وليس هذا وحده ، بل كان المعز يطلب إلى العمال أن يطلعوه على أعمالهم ، ليزودهم بنصحه وإرشاده كما كان يحتم عليهم أن يقيموا العدل بين الرعية ، فيوحى إليهم أن يجعلوا الحق نبراسا ، والعدل منارا ، وأوامر الخليفة ونواهيه نصب أعينهم فى كل حين(١)

وعلى الرغم من هذه العناية الفائقة ، والرقابة المستمرة على العمال ، وجد المعز فى النهاية عمالا يسرفون فى ظلم الناس ، وانتحل لنفسه المعاذير فى فساد هؤلاء العمال ، الذى عزاه إلى وجود جماعة تمالئ العامل وتنتصر له ، وأخرى تسىء إلى سمعته عند الخليفة ، الذى لم يجد من سبيل للوقوف على حقيقة الحال فى هذه الولايات ، إلا بإمهالهم وقتا يستطيع فيه أن يقف على مدى تقدم الولايات ، أو تأخرها فى عهدهم ، ثم يرى فيهم بعد ذلك رأيه ، فيقرهم أو يعزلهم

ويقوم النظام الأساسى الذى سار عليه الفاطميون فى بلاد المغرب ، على تقسيم هذه البلاد أقساما رئيسة ، يختار لإدارة كل منها شخص يثقون به ، ويجعلون مركزه مدينة كبيرة متوسطة ، بحيث يستطيع العامل الإشراف منها على سائر جهات الولاية . وقد قسم الفاطميون بلاد المغرب قسمين رئيسين : يشمل أولهما إفريقية ، (وهى بلاد تونس الحالية) ، ويشمل الثانى سائر بلاد المغرب الخاضعة للفاطميين ، وينقسم إلى عدة ولايات ولما ولى المعز لدين الله ، لم يحدث شيئا من التعديل فى تقسيم الولايات الفاطمية فى بلاد المغرب .

وكان أهم الولايات فى عهد المعز من الشرق إلى الغرب ولاية برقة ، وكان عليها ، كما رأينا ، غلام المعز « أفلح » ، الذى أبى أن يترجل لجوهر الصقلى عند رحيله إلى

(١) النعمان المجالس والمسايرات ج ٢ ص ١٧٩ — ١٨٣

مصر . وكانت هذه الولاية عامل اتصال بين مصر والمغرب ، كما كان المعز يستخدم واليها فى حروبه ، بدليل ما فعله فى استرداد جزيرة « إقريطش » . ويلى ولاية برقة ولاية طرابلس ومن أشهر ولاتها « عبد الله بن مخلف الكتامى » وكثيرا ما كانت هذه الولاية معقل الثوار فى عهد المهدى والقائم . وكان اهتمام المعز بهاتين الولايتين عظيما ، حتى إن والى كل منهما كان يتصل به فى مصر رأسا ، من غير الرجوع إلى نائبه فى بلاد المغرب ، على ماسنرى .

ويلى هاتين الولايتين ولاية المغربين الأقصى والأوسط ، ومقرها مدينة « تاهرت » فى المغرب الأوسط وقد تقلد ولايتها في عهد المعز زيرى بن مناد الصنهاجي وكان والى تاهرت يشرف على غيره من الولاة والحكام فى ولايته ، فيعين الولاة على إقليمى فاس وسجلماسة وسواهما ، ويقضى فى الوقت نفسه على الثورات هنا وهناك .

وكانت صقلية تعتبر ولاية ممتازة بين ولايات الفاطميين ، واشتهر بيت الحسن الكلبي بحكمها والنهوض بها ، كما كانت أساطيلها خير معين للدفاع عن بلاد الفاطميين الأصيلة وكانت هذه الولاية تكوّن خط الدفاع الأول عن البلاد الفاطمية

وتنقسم كل ولاية من هـــذه الولايات إلى مدن أو أقسام رئيسة ، وكل من هذه المدن أو الأقسام ينقسم إلى قرى أو كفور وما إلى ذلك وكانت رياسة هذه الأقســام الصغيرة ، من القرية حتى المدينة ، تخضع الوالى فى مقر ولايتـه . ويظهر أن الخليفة كان يعين الولاة بنفسه . وإلى جانب الوالى عامل الخراج ، والقاضى ، وصاحب الشرطة وغيرهم من كبار الموظفين . فكانت كل ولاية أشبه بالخلافة نفسها ، من حيث تمتع الوالى بكل مايتمتع به الخليفة من نفوذ فى إدارة شئون دولته على أن الخليفة المعز كثيرا ما كان يعين عمال المدن فى الولايات المختلفة ، ويتصل بهم ، ويشرف على أعمالهم ، عن طريق عمـال البريد وغيرهم ، ممن كانوا يطلعونه على كل مايجرى فى هذه المدن ولذلك كثيرا ما كان يثور بعض الولاة فى مقر ولاياتهم على الحكم الفاطمى ، على حين يظل عمال المدن على ولائهم للخليفة الفاطمى . من ذلك أن والى تاهرت ، يعلى الزناتى ، لما ثار على المعز لدين الله ، ظل كثير من المدن التابعة لولايته على ولائها للخليفة

وقد أحدث انتقال المعز من إفريقية إلى مصر فى أواخر سنة ٣٦١ هـ شيئا غير قليل من الاضطراب فى حكم بلاد المغرب ، فأصبحت هذه البلاد « دار إمارة » بعد أن كانت «دار خلافة» ، وانتقلت الرياسة العليا من الخليفة إلى شخص يقوم مقامه ، يشبه « نائب الملك » اليوم . وحل أبو الفتوح يوسف بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى فى إفريقية محل المعز لدين الله ، وأصبح يتلقى أوامره من الخليفة الفاطمى فى مصر ، وجمع حوله القبائل . واستقل البيت الصنهاجى على مر الزمن عن الأسرة الفاطمية الشيعية (١) ، وغدت إفريقية ولاية من الولايات الفاطمية ، بعد أن كانت قاعدة الخلافة .

غير أن المعز لدين الله لم يترك لنائبه فى إفريقية السلطة المطلقة ، فمنحه الرياسة على بعض الولايات ، ونزع منه الرياسة على الولايات الأخرى من ذلك أنه لم يترك له شيئا من النفوذ على صقلية ، بل تركها لواليها أبى القاسم بن الحسن بن على الكلبى . وكان أبو القاسم يتصل به فى القاهرة رأسا كما انتزع المعز من بلكين ، الرياسة على إقليم طرابلس ، الذى أصبح كصقلية سواء بسواء . وجعل برقة تابعة لمصر ؛ ولم يكتف بذلك ، بل سلب من نائبه حكم أجدابية وسرت . ومعنى ذلك أن صقلية وبرقة وطرابلس وبعض المدن أصبحت على اتصال بالخليفة نفسه لا بنائبه ، مما كان يحز فى نفوس هؤلاء النواب ، كما حز فى نفوسهم تعيين المعز « زيادة الله بن القديم » على جباية الأموال ، « وعبد الجبار الخراسانى » و « حسين بن خلف » على الخراج . وعلى الرغم من أنه أمرهم جميعا بالانقياد ليوسف بلكين بن زيرى بن مناد ، كان نفوذهم يعلو نفوذ نائب المعز (٢)

وكان من أثر تقليد بلكين بن زيرى بن مناد بلاد المغرب نيابة عن الخليفة ، أن أصبح يعين من يشاء ويعزل من يشاء فى ولايته ، كما أصبح عمال الأقاليم مسئولين أمامه مباشرة . وقد عمل بلكين على ضبط البلاد ، وقبض عليها بيد من حديد ، وعين على أعمالها المختلفة رجالا موالين له ؛ فجعل على إفريقية (تونس)

---

(١) A. Sanhoury Le Califat, pp. 280—281.

(٢) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٢٣

عبد الله بن محمد الكاتب ، الذى اتخذ المنصورية والمهدية قاعدتين لولايته ، واتخذ المنصورية مقرا رئيسا لحكمه. كما كان ينتقل فى كل سنة إلى المهدية، ويستخلف غيره على المنصورية . وأما يوسف بلكين بن زيرى بن مناد ، فكان كثير التنقل ، دائب القتال مع زناتة وغيرهم من أنصار الأمويين فى أقصى المغرب ، حتى كاد أن يتخذ من مدن المغرب الأقصى مقرا له . وقد أطلق المعز على يوسف بلكين اسم « سيف الدولة » و « أبى الفتوح » تشجيعا له (١)

وليس معنى ذلك أن المكاتبات الرسمية كانت تفد إلى المنصوريه أو المهدية ، بل « كانت السجلات ترد عليه من مصر ، فتصله على البريد فى فاس وغيرها . ثم يرجع بها إلى عامل إفريقية (عبد الله الكاتب) ، فتقرأ بعد مدة من تاريخها (٢) » .

وقد عمل بلكين بن زيرى بن مناد « نائب الخليفة » ، على أن تكون ولايته من القوة بحيث تستطيع أن تصد الأمويين والروم وغيرهم ؛ ولذلك قوّى أسطوله حتى أصبحت بلاده أمنع من العقاب ، كما عمل فى الوقت نفسه على توطيد سلطانه فى هذه البلاد ، فحارب من عصاه ، وقبض على بعض إخوته الذين كان يتوجس منهم خيفة ، وحبسهم ، حتى هربوا من السجن إلى مصر فى عهد العزيز، الذى تدخل بينهم وبين أخيهم ، وأصلح بينهم ، فعفا عنهم (٣)

غير أن إقرار المعز « ابن القديم » على جباية المال حز فى نفس أبى الفتوح يوسف بن زيرى. ولذلك نراه يشارك فى هذه الحرب التى شنها نائبه عبد الله الكاتب على زيادة الله بن القديم ، وبذلك رجحت كفتهما ، وقبض على زيادة الله بن القديم، واستبد الكاتب بجباية المال وحده ثم قبض يوسف على أنصار ابن القديم فى سنة ٣٦٤ هـ ، وبعث إلى القيروان برءوس سبعة آلاف منهم

ومع ذلك نرى أن يوسف بلكين إنما كان ينفذ السياسة التى رسمها له المعز لدين الله ، حين قال له عند خروجه إلى مصر « إن نسيتَ ماوصيناك به ، فلا تنس ثلاثة أشياء : إياك أن ترفع الجباية عن أهل البادية ، ولا ترفع السيف عن البربر ، ولا

---

(١) Fournel La Coquête de l'Afrique, p. 350.

(٢) ابن عذارى البيان المغرب فى أخبار المغرب (ليدن سنة ١٨٤٨) جـ ١ ص ٢٤٦

(٣) المصدر نفسه

تولِّ أحدا من إخوتك وبنى عمك ، فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك [١]

وكان الفاطميون يعدون صقلية إقليما ممتازا ، يختار له الخليفة أشخاصا ممتازين وقد انتهت رياسة هذه الجزيرة فى عهد المعز ، كما تقدم ، إلى أسرة الحسن الكلبي التى بلغت من القوة فى عهده وعهد خلفائه درجة جعلت بعض الرحالة المعاصرين يلقبونهم بالملوك .

والواقع أن الخليفة المنصور هو الذى عين الحسن الكلبي ؛ ولما ولى المعز خشى على صقلية من استبداده ، فأشرك معه أخاه عمارا كى ينافسه فى الزعامة إذا حدثته نفسه بالاستقلال ثم استعان بالحسن وابنيهما فى حروبه مع الروم والأمويين ولشدة خوفه من الحسن الكلبي ، عين ابنه أحمد نائبا عنه فى الجزيرة ، وأبقى الحسن بجانبه فى حاضرة الخلافة . كل هذا يدل على خوف المعز من والى صقلية ، كما يدل على تقديره له فى الوقت نفسه . وعلى الرغم من هذا كله ، كان الحسن وابنه أحمد يجمعان الجزية والخراج ، ويستوليان على أسلاب الحرب ، ويبعثان بها إلى المعز الذى لم يشك يوما واحدا فى إخلاص هذا البيت لعرشه

وقد رغب المعز فى أن يشعر هذه الأسرة بنفوذه وسلطانه ، فأقر أحمد بن الحسن على ما كان بيد أبيه (٣٥٤ — ٣٥٨ هـ) . ولكن المعز بدأ يشعره بتدخله الفعلى فى شئون هذه الجزيرة ، وجعل يرسم له الخطوط الرئيسة التى يسير على هديها ؛ فأمره بأن يبذل قصارى جهده ، فى تحصين أسوار بعض المدن وبخاصة مدينة بالرم وبأن يقوم بتعداد السكان فى المدن الأخرى ، وأن يبقى فى كل منها عددا من الرعايا الذين يثق بهم ، للدفاع عنها ، وليكونوا أداة اتصال بينه وبينهم . كما أمره بالحيطة والحذر من هجوم البيزنطيين المفاجئ ، وألزمه وجوب المحافظة على عدد معين من المسلمين فى المدن المختلفة ، حتى لا يضعف نفوذ الإسلام فى هذه الجزيرة .

كما تدخل المعز فى نظام الشرطة فى هذه الجزيرة ، فوضع لرجالها طريقة خاصة لدفع أرزاقهم ، كما وضع نظاما آخر للجباية ، فجعلها فى بعض المقاطعات عينا وفى البعض الآخر نقدا ومما يدل على دقة نظام الحكم فى صقلية ، أن المعز أمر

---

(١) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ٦٥

أحمد بن الحسن الكلبي أن يعين فى كل من أقاليمها موظفا كبيرا يشرف على جباية الأموال ، وتوزيعها على مستحقيها بالقسطاس المستقيم ، ويرسل ما بقى منها إلى دار الخلافة فى إفريقية أو فى مصر وكان يحتم على الخطباء أن يذكروا اسم الخليفة الفاطمى على المنابر

وإن دل هذا على شيء ، فإنما يدل على دقة النظام الإدارى فى صقلية ، كما يدل على رغبة المعز فى الإشراف على نواحى النشاط فيها

ومما يدل على تدخل المعز فى شئون صقلية الداخلية ، أنه أمر الأمير أحمد بن الحسن الكلبي فى سنة ٣٥٧ ﻫ بهدم مدينتى طبرمين ورمطة ، مع أن الفاطميين أصلحوهما قبل ذلك بقليل. فلما تباطأ هذا الوالى فى تنفيذ أوامره ، أرسل المعز أخاه أبا القاسم بن الحسن الكلبي، وعمه جعفر بن علي، للإشراف على إتمام هدم هاتين المدينتين. وكأن المعز قد عز عليه أن يبطىء واليه فى تنفيذ أوامره، أو أنه رغب فى إقصائه وإقصاء المقربين إليه عن حكم صقلية . ولذلك أرسل فى سنة ٣٥٨ ﻫ كتابا يأمر فيه أحمد بن الحسن بأن يغادر هذه الجزيرة مع سائر أسرته . ولا يبعد أن يكون ذلك راجعا إلى خوف المعز من استبداد الأسرة الكلبية بهذه الجزيرة .

ولكى يشعر المعز موظفيه عامة ، وأسرة الكلبيين خاصة بأنه لا يعبأ بمبدأ الوراثة عند تعيين الولاة ، عزل أحمد عن صقلية ، وولى مكانه أحد مماليك أبيه . ولكن هذه التجربة لم تنجح كما كان يؤمل ، فاندلعت الثورات فى كافة أرجاء الجزيرة ، واضطر المعز إلى أن يعيد أسرة الكلبيين إلى الحكم ، فعين على صقلية أبا القاسم على بن الحسن الكلبي نائبا عن أخيه أحمد ، ولكنه استقل بحكمها بعد موت أخيه . وهكذا دعت الظروف القاسية المعز لدين الله أن يعترف بمبدأ الوراثة فى حكم صقلية

ومع ذلك ظل المعز الحاكم المطلق يصدر أوامره من المنصورية ، ثم من القاهرة ، فيقوم على تنفيذها أبو القاسم على بن الحسن الكلبي . ولما انتقل المعز إلى مصر لم يشأ أن يترك لبلكين بن زيرى بن مناد شيئا من النفوذ على هذه الجزيرة ، حتى لا يضع بين يديه قوة برية وبحرية عظيمة ، قد يستغلها فى وجه الخلافة الفاطمية نفسها . وقد دل بعمله هذا على بعد نظره السياسى والحربى معا

٢ — فى مصر والشام

(ا) فى مصر:

وضع جوهر الصقلى نظام الحكم بعد أن فتح هذه البلاد فى سنة ٣٥٨ هـ. وكانت مصر قبل الفتح الفاطمى مقسمة إلى ولايات منظمة تنظيما دقيقا، فلم يشأ جوهر أن يحدث فى نظم الحكم تغييرا كبيرا. وكل ما حدث أن ولايته حلت محل ولاية أخرى، وأنه حل محل أمراء الإخشيديين فى حكم هذه البلاد، وحل المغاربة محل المصريين، أو شاركوهم فى وظائفهم.

وكان لمبدأ اشتراك المغاربة فى الحكم أثره فى نظام حكم مصر، فأسندت المناصب إلى بعض المغاربة والمصريين، وجعل جوهر فى كل ولاية من الولايات التابعة لمصر، دواوين يشرف عليها موظفون، ينوبون عن أصحاب الدواوين فى مصر. وإلى جانب الوالى نرى صاحب الخراج، وصاحب الشرطة، وقاضى القضاة، والمحتسب، وصاحب المظالم، وغيرهم. وبهذا استطاع الفاطميون فى عهد المعز الإلمام بالأمور كافة فى الولايات المصرية.

ونستطيع أن نقول، إن جوهرا والمعز هما اللذان وضعا أساس نظام الحكم الفاطمى فى مصر، فكانت تنقسم إلى أربع ولايات كبيرة أو أربعة أقاليم الولاية الأولى، أو الإقليم الأول، هى ولاية قوص، ويقصد به الصعيد. ويلى هذا الإقليم حاكم كبير، لا بد أنه كان من المغاربة، أو على الأقل لابد أنه كان على رأسها وال مغربى، يعاونه موظف آخر من غير المغاربة. أما الإقليم الثانى، فكان أقل اتساعا من إقليم قوص، ويقصد به «الشرقية»، ويشمل الأراضى الواقعة شرقى فرع دمياط تقريبا. ومن أشهر مدنه قليوب وبلبيس. أما الإقليم الثالث، فهو «الغربية»، وينتظم جميع البلاد الواقعة بين فرعى رشيد ودمياط، من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب. ومن أشهر مدنه منوف وأبيار والمحلة الكبرى. أما الإقليم الرابع، فهو إقليم الإسكندرية، ويضاف إليه البحيرة، ومن أشهر مدنه دمنهور والإسكندرية [١]

---

(١) المقريزى خطط ج ٢ ص ٢٤٣

ومما هو جدير بالملاحظة ، أن كلا من هذه الأقاليم الأربعة كان مستقلا عن الآخر ، ولكنه كان يتصل اتصالا مباشرا بالقائد جوهر ، ثم بالمعز بعد ذلك ، وأن الحكومة المركزية فى القاهرة منحت كلا من ولاة هذه الأقاليم الأربعة الحرية فى تعيين العمال على المدن والنواحى والقرى فى ولايته ، كما منحت الحكومة المصرية فى القاهرة كل ولاية الحق فى أن تقوم بالأعمال التى تهمها ، وأن تعنى بمرافق إقليمها دون الرجوع إليها ؛ وعلى كل ولاية أن تعمل على شق الترع وصيانتها ، وإقامة الجسور المحلية . أما الجسور العامة فكانت الحكومة المركزية تعهد بالإشراف عليها إلى أحد كبار المهندسين ، يعاونه طائفة كبيرة من الخبراء بشئون الجسور . وعلى الحكومة المحلية أن تحافظ على الأمن ، وتضرب على أيدى العابثين .

ويجب ألا ننسى أنه كان على القاهرة وال يشبه المحافظ اليوم ، كما كان على الفسطاط وال آخر . وفى الحق أن هذين الواليين كانا تابعين للحكومة المركزية فى القاهرة ، لا لولاة الأقاليم ، وكان كل منهما يتمتع بمكانة سامية عند الخليفة ، ويسير فى موكبه . إلا أن رتبة والى القاهرة كانت أعلى من رتبة والى الفسطاط ، على الرغم من أنهما يتساويان فى الراتب .

وليس من شك فى أن جوهرا والمعز من بعده أقرا هذا التقسيم الإدارى فى مصر ، فكانت الولاية مقسمة إلى ما يسمى « الكور » ؛ والكورة تشبه المديرية اليوم ، وتشتمل على مدن وقرى . ويشرف عليها رئيس الكورة ، ويعد بمثابة المدير أو المحافظ اليوم ، وله نائب ، يعتبر بمثابة وكيل المديرية أو المأمور ويرأس القرية رئيس أشبه بالعمدة .

ولهذا يجب ألا نخلط بين الولايات والكور . فإن مصر كانت مقسمة إلى أكثر من عشرين كورة فى عهد المعز ، ولكنها كانت تنقسم إلى أربع ولايات فقط . ومن أشهر الكور فى ذلك العهد ، وفى عهد الفاطميين عامة الدقهلية . وجزيرة قويسنا ، والشرقية ، والغربية ، والمنوفيتان ، والبحيرة ، وحوف رمسيس ، والجيزة ، والفيومية ، والبهنساسية ، والأشمونين ، والأسيوطية ، والبوصيرية وغيرها(١) . وكان

(١) انظر المقريزى : خطط ج ١ ص ١١٨ ، أبوصالح الأرمنى : كنائس وأديرة مصرص
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٩٥ ، ٢٩٧

حاكم الكورة يقيم فى مقرها . فكورة الجيزة كان مقر حاكمها مدينة الجيزة ، والبهناسية ، مدنية البهنسا ، والفيومية ، مدنية الفيوم ، والأسيوطية ، مدينة أسيوط ، وهكذا

ومن الأمور الجديرة بالبحث موقف الفاطميين فى عهد المعز من إقليم النوبة ؛ الذى كان ، ولا يزال ، جزءا من مصر وكانت الحكومات القوية فى مصر تعمل دائما على توثيق العلاقة بين النوبة ومصر ؛ غير أن هذه البلاد كانت ـ لسوء الحظ ـ تستقل عن مصر إذا شعرت بضعف حكامها وكانت النوبة حين غزا جوهر مصر مستقلة تمام الاستقلال ، وعلى رأسها ملك مسيحى يسمى «جورج» ، وكانت المسيحية فى ذلك العهد منتشرة فيها انتشارا كبيرا ، على عكس ما هى عليه اليوم ومن ثم أرسل جوهر الصقلى إلى ملك النوبة الرسل يطلبون إليه الدخول فى الإسلام ، أو دفع الجزية . وقد قوبل الرسل فى هذه البلاد بالترحيب ، ولبت النوبة المطلب الثانى ، ورضى ملكها بدفع الجزية إلى الفاطميين ، واعتذر عن قبول المطلب الأول ، وهو الدخول فى الإسلام (١) . وكانت علاقة النوبة بحاكم قوص خاصة فى عهد جوهر ، على شىء كبير من الصفاء ، لذلك لم يقم ملك النوبة بثورة ، أو أحدث اضطرابا فى ذلك الحين

ويقول سير توماس أرنولد (٢) ، إن العرب القاطنين على ضفاف النيل الأزرق قد زاد عددهم ، كما زادت ثروتهم زيادة كبيرة فى القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) حتى إنهم استطاعوا أن يلتمسوا الإذن ببناء مسجد فى سوبة ، حاضرة المملكة المسيحية ، وهى على اثنى عشر ميلا تقريبا من مدينة الخرطوم الحديثة

(ب) فى بلاد الشام

أما بلاد الشام ، فقد اعتبر المعز لدين الله هذه البلاد من ملحقات مصر ، شأنه فى ذلك شأن البطالمة من قبل ، ومن ثم أصبحت تابعة فى إدارتها للبلاد المصرية . يدل

---

(١) Lane Poole Hist. of Egypt in the Middle Ages, p. 105.

(٢) الدعوة إلى الاسلام ترجمة حسن إبراهيم حسن ، وعبد المجيد عابدين ، وإسماعيل النحراوى (القاهرة ٩٤٧) ص ٩٨ .

على ذلك أن جعفر بن فلاح ، الذى تقلد بلاد الشام ، لما حاول أن يكون اتصاله بالمعز مباشرة دون جعفر الصقلى ، « غضب المعز ، ووردت كتبه مختومة ، وكتب إليه : قد أخطأك الرأى لنفسك نحن أنفذناك مع قائدنا جوهر ، فاكتب إليه فما وصل منك على يده قرأناه ، ولا تتجاوزه بعد »[١]

وبهذا وضع المعز أساس نظام الحكم فى بلاد الشام ، وجعل لحكومة مصر الحق فى الإشراف على هذه البلاد . وكانت فى عهد ولاية جوهر منقسمة قسمين أساسيين أولها فى الجنوب وقاعدته الرملة ، وثانيهما فى الشمال وقاعدته دمشق . إلا أن القسم الشمالى كان أكثر أهمية من القسم الجنوبى ، فكان لوالى دمشق الإشراف على والى الرملة . وقد رأينا كيف اتخذ الحسن بن عبد الله بن طغج مدينة الرملة مركزا لمقاومة الفاطميين . فلما حلت به الهزيمة ، وقبض عليه ، وسيق إلى بلاد المغرب ، حلت دمشق محل الرملة ، فأصبحت مركزا لمقاومة الفاطميين وكان جعفر بن فلاح واليا على بلاد الشام كافة من سنة ٣٥٨ إلى سنة ٣٥٩ هـ ، واتخذ دمشق قاعدة لولايته على أن حكومة بلاد الشام كانت حتى ذلك العهد حكومة حربية أكثر منها سياسية ، ولذلك لم يكن الأمن مستتبا فى هذه البلاد

وقد ظلت بلاد الشام من سنة ٣٥٩ إلى سنة ٣٦٠ هـ خاضعة للقرامطة . الذين لم يجدوا من الفاطميين مقاومة تذكر إلا فى المراكز الأساسية ، مثل دمشق والرملة ويافا ، التى حاولوا الاحتفاظ بها وقد أحدث المعز تغييرا كبيرا فى طريقة الحكم فى هذه البلاد ، فجعل على دمشق واليا يكاد يكون مدنيا ، يعمل على استتباب الأمن فى البلاد وكان يساعده جيش احتلال تحت إشراف قائد فاطمى . إلا أن عبث جنود المغاربة جعل حكم الفاطميين مزعزعا وأول من تمتع بولاية دمشق بعد وصول المعز إلى مصر « ظالم بن موهوب العقيلى » وكان الجيش الفاطمى بقيادة أبى محمود الكتامى وبقيت الرملة قاعدة القسم الجنوبى ، وعلى رأسها وال فاطمى ، يساعده جيش احتلال أيضا

وكان للثورات المتتالية فى حاضرة القسم الشمالى ، وهى دمشق ، أثرها فى نظم

---

(١) المقريزى خطط جـ ١ ص ٣٧٨

الحكم بعد ولاية جعفر بن فلاح ؛ فقد اضطر ظالم بن موهوب العقيلي العربي — على ما رأينا — إلى ترك دمشق للقائد أبي محمود ، الذي ولى على شرطتها رجلين من رجاله ، وولى على دمشق ابن اخته حبيش وبهذا أصبحت العناصر التي تحكم دمشق عناصر مغربية . فهذا وال مغربي ، وقائد جيش الاحتلال مغربي ، وعلى الشرطة مغربيان . إلا أن هذا الوضع الجديد لم يضع حدا للاضطرابات في هذه البلاد ؛ فاضطر المعز إلى إجراء تغيير جديد في نظام الحكم ، ونقل القائد أبا محمود بن جعفر بن فلاح إلى الرملة ، وعين على دمشق واليا آخر ، هو ريان الخادم ، والى طرابلس ، فظل بها حتى انتزعها منه أفتكين التركي كما تقدم .

والواقع أن المعز لدين الله جعل قواعد الشام الرئيسة في مدن ثلاث في الرملة ، وعليها القائد أبو محمود المغربي ، ودمشق وعليها ريان الخادم ، وحمص وعليها ظالم بن موهوب العقيلي وقد ظلت الحال في بلاد الشام على هذا النحو من الفوضى والاضطراب ، حتى أغار أفتكين عليها في أواخر سنة ٣٦٤ هـ ومات المعز ، وكان قد عزم على إقرار نظام الحكم في هذه البلاد .

والحق أن المعز لما انتقل إلى مصر ، وتحولت هذه البلاد إلى دار خلافة بعد أن كانت دار إمارة ، تطور نظام الحكم في الأقاليم فقد رأيناه يتدخل في طريقة حكم بلاد الشام ، كما رأيناه قبل أن يغادر المغرب ينتزع من أبي الفتوح بلكين بن زيري بن مناد ولايات طرابلس وبرقة وصقلية ومعنى ذلك أن هذه البلاد قد أصبحت خاضعة لمصر مباشرة في عهد المعز ، حتى لقد استعان هذا الخليفة بوالى طرابلس ، ريان الخادم ، لإقرار النظام في بلاد الشام وهكذا امتدت ملحقات مصر في عهد المعز حتى شمال بعلبك وحمص من ناحية الشرق ، وأصبحت برقة وطرابلس تكوّن ملحقات مصر من ناحية الغرب

وكان النظام مستتبا في الولايات المصرية الخالصة وفيها إقليم النوبة ، وكانت هذه البلاد تمد الخزانة الفاطمية في عهد المعز ، بالأموال بطريقة منتظمة . وعلى الرغم من الاختلاف المذهبي بين الحاكم والمحكوم ، ظلت الولايات المصرية من أهم مصادر ثروة الفاطميين وأما بلاد الشام فإن النظام لم يستقر فيها ، بل ظلت طوال

عهد المعز عالة على الخزانة الفاطمية إلا أن برقة وطرابلس وصقلية كانت تبعث بخراجها كل سنة إلى المعز لدين الله .

(ح) فى الحجاز

وأما علاقة مصر ببلاد الحجاز ، فلا نعرف أن جوهرا أو المعز أرسل إليها جيشا ، كما أرسل إلى بلاد الشام مثلا . ويظهر أنه كان للدعاية الفاطمية أثرها ، فقد كان المعز وهو بالمغرب ، يعطف على جماعة من كبار الحسنيين العلويين ، وقد وفق إلى فض النزاع الذى قام بينهم ، فقدروا له هذا الصنيع . فلما دخل جوهر مصر فى سنة ٣٥٨ هـ ، « استطاع بعض هؤلاء الحسنيين أن يستولى على مكة المكرمة ، وخطب للمعز لدين الله ، وأرسل إلى جوهر يبشره بهذا الفتح ، فأرسل هذا بدوره إلى المعز فى بلاد المغرب » [١].

وقد نسأل هل كانت هذه البلاد تدفع الخراج للمعز لدين الله ؟ وهل كان ولاة الحجاز يعينون من قبل المعز ؟ وهل أشرك الفاطميون المغاربة فى الحكم مع أهالى هذه البلاد الأخرى ؟ هذا ما لا نعرفه على وجه التحقيق . أما الذى لا شك فيه ، فهو أنه كان يخطب للمعز أحيانا على منابر مكة وحدها ، وأحيانا أخرى على منابر المدينة ومكة معا . ولما مات «كان أهل مكة والمدينة قد خطبوا للمعز . . . فى الموسم . فتركوا الخطبة للعزيز ، فبعث جيوشه إلى الحجاز ، فحاصروا مكة والمدينة ، وضيقوا عليهم حتى رجعوا إلى دعوتهم وخطب للعزيز بمكة والمدينة » [٢] . وقد استطاع العزيز أن يعين ولاة من قبله على كل من هاتين المدينتين المقدستين .

والواقع أن إقامة الخطبة للمعز فى بلاد الحجاز كانت نوعا من أنواع الصراع الذى قام بين العباسيين والفاطميين لزعامة العالم الإسلامى ، وأن الفاطميين كانوا يعملون على أن يكون نفوذهم الأدبى عظيما فى هذه البلاد ، حتى إن الخليفة المهدى الفاطمى سب القرامطة حين عبثوا بالحجر الأسود ، وانتهكوا حرمة مكة ، وأخذ

---

(١) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ٦٥ ، ٦٦ .

(٢) ابن خلدون العبر ج ٤ ص ٥١ .

الفاطميون فى مصر يرسلون الكسوة إلى الكعبة ، ويضفون على هذه البلاد شيئا غير قليل من الإجلال ، حتى أضاعوا نفوذ العباسيين فيها

(ب) الشرطة

والشرطة ، كما نعلم ، هم الجنود الذين يستخدمهم الخلفاء والولاة فى حاضرة الدولة وأقاليمها ، لحفظ النظام ، والعمل على استتباب الأمن ، والقبض على الجناة الذين يفرون من وجه العدالة ، والقبض على المفسدين ويتحصر عمل الشرطة فى التوفر على سلامة الجمهور وطمأنينته . وقد استحدثت هذه الوظيفة فى عهد عمر بن الخطاب، وأطلق الخلفاء الراشدون والأمويون والعباسيون ، وكذلك الفاطميون، على رئيسها اسم « صاحب الشرطة » ، وغدا اختياره مقصورا على كبار الناس ، وذوى العصبية والجاه .

وكانت الشرطة تابعة للقضاء فى بادىء الأمر ، لأنها تقوم على الأحكام القضائية ، كما كان صاحب الشرطة ، الذى أصبح يشبه المحافظ اليوم إلى حد كبير ، يتولى إقامة الحدود غير أن الشرطة انفصلت عن القضاء فى العصر الأموى ، وأصبح لصاحبها النظر فى الجرائم

وقد وصف ابن خلدون(١) الشرطة فى العصر العباسى، وفى بلاد الأندلس. ومن هذا الوصف نتبين سمو هذه الوظيفة وقدر صاحبها وهاك عبارة ابن خلدون « كان أصل وضعها فى الدولة العباسية لمن يقيم أحكام الجرائم فى حال استبدائها أولا ، ثم الحدود بعد استيفائها فإن التهم التى تعرض فى الجرائم لا نظر للشرع إلا فى استيفاء حدودها ، وللسياسة النظر فى استيفاء موجباتها بإقرار يكرهه عليه الحاكم ، إذا احتفت به القرائن لما توجبه المصلحة العامة فى ذلك فكان الذى يقوم بهذا الاستبداء ، وباستيفاء الحدود بعده إذا تنزه عنه القاضى ، يسمى صاحب الشرطة ؛ وربما جعلوا إليه النظر فى الحدود والدماء بإطلاق ، وأفردوها من نظر القاضى ، ونزهوا هذه المرتبة ، وقلدوها كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليهم ولم تكن عامة التنفيذ فى طبقات الناس ، إنما كان حكمهم على الدهماء وأهل الريب ، والضرب

(١) مقدمة ص ٢١٨ — ٢١٩

على أيدى الرعاع والفجرة ثم عظمت نباهتها فى دولة بنى أمية بالأندلس، ونوعت إلى شرطة كبرى وشرطة صغرى وجعل حكم الكبرى على الخاصة والدهماء، وجعل له الحكم على أهل المراتب السلطانية والضرب على أيديهم فى الظلامات، وعلى أيدى أقاربهم ومن إليهم من أهل الجاه. وجعل صاحب الصغرى مخصوصا بالعامة، ونصب لصاحب الكبرى كرسى بباب دار السلطان، ورجال يتبوءون المقاعد بين يديه، فلا يبرحون عنها إلا فى تصريفه وكانت ولايتها للأكابر من رجالات الدولة ترشيحا للوزارة والحجابة».

ولما قامت الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب، عنى الفاطميون بهذه الناحية. وحين دخل جوهر الصقلى مصر، وجد الشرطة فيها منظمة؛ فقد كان هناك شرطتان شرطة فى الفسطاط، ويطلق عليها أحيانا الشرطة السفلى. وشرطة ثانية فى العسكر والقطائع، وتسمى الشرطة العليا وترجع تلك التسمية إلى أن العسكر والقطائع شمالىّ الفسطاط ويكاد صاحب الشرطة فى كل منهما يكون مستقلا، فينوب صاحب الشرطة السفلى عن أمير مصر إذا غاب عن الفسطاط، حتى لقد سميت الشرطة السفلى بخلافة الفسطاط. كما كان كل من صاحب الشرطة السفلى وصاحب الشرطة العليا، يصلى بالناس أحيانا، ويتولى أعطيات الجند، ويقوم بأعمال كثيرة تدل كلها على سمو مركزه وعلو قدره

ولم يستطع جوهر أن يغير فى نظام الشرطتين كثيرا فأبقى الشرطة السفلى بالفسطاط، ونقل الشرطة العليا إلى القاهرة وقد أسند الشرطة السفلى بالفسطاط إلى عروبة بن إبرهيم وشبل المعرضى، وهما شيعيان، وأسند الشرطة العليا بالقاهرة إلى رجل شيعى آخر، يدعى «جبرا» وكان تقليده على أثر وفاة صاحب الشرطة العليا السنى، فى اليوم الذى دخل فيه جوهر الفسطاط

وكان جوهر الصقلى يشرف على هاتين الشرطتين، بحيث يخضع لنفوذه جميع موظفيهما. ولما أدرك المعز لدين الله كثرة مشاغل جوهر، رأى أن يخفف عنه هذا العبء، فمنح يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن شيئا غير قليل من النفوذ، وأصبح لهما حق الإشراف على الشرطتين وغيرهما من مصالح الدولة الفاطمية، مما

يجعلنا نعتقد أنه « لا بد وأن يكون إسناد الأعمال الإدارية إلى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن قد أثر فى نفوذ جوهر »(١)

ومما هو جدير بالملاحظة أن الشرطة والقضاء كثيرا ما كانا يسندان لشخص واحد، مما أثار النزاع بين صاحب الشرطة والقاضى، لأن القاضى كان يعتبر صاحب الشرطة دخيلا عليه، وما كان يفض النزاع بين القاضى الأصلى وصاحب الشرطة، إلا بتدخل الوزير أو الخليفة كما حدث فى عهد العزيز

كذلك كثيرا ما كانت الحسبة والشرطة تسندان لشخص واحد، مما يدل على خطورة مركز صاحب الشرطة فى الدولة الفاطمية.

وكان ينوب عن صاحب الشرطة فى الأقاليم موظفون يعملون على حفظ الأمن واستتباب النظام فيها، ويساعدون القاضى وعامل المدينة، ويحفظون للدولة الفاطمية هيبتها فى الولايات المختلفة.

٣ ـ النظام المالى

كانت الإدارة المالية فى عهد المعز لدين الله فى بلاد المغرب فى أيدى الإسماعيليين، وكانت الدولة الفاطمية تعتمد على الخراج اعتمادا كبيرا، لأنه عماد ثروتها، كما كانت تعتمد على « خمس الإمام »، الذى يدفعه الأشياع من الإسماعيلية، بمعنى أن هؤلاء الأشياع كانوا يدفعون خمس دخلهم لإمامهم من الخلفاء الفاطميين (٢)

ولم تسرف هذه الدولة فى جمع الضرائب. فكثيرا ما نرى المعز يعاقب بعض الولاة لاشتطاطهم فى جمع المال، إذ كان يرى أن سعادة الدولة، تقوم على رضا الرعايا، وأن الدولة التى تعمل على ابتزاز أموال الرعية وإفقارها يكون مآلها الإفلاس.

كما كان المعز لدين الله يعتمد فى إمداد خزائنه بالأموال على ما يفرضه من ضرائب « جمارك » على السلع الأجنبية الواردة إلى موانيه المختلفة، لذلك كان

(١) حسن ابراهيم حسن الفاطميون فى مصر ص ١٨٢ (هامش ٣)

(٢) انظر الباب الخامس من هذا الكتاب.

يشجع التجارة الخارجية ، حتى بلغ من تساهله مع التجار الأجانب أن أصبحت السفن تغدو وتروح فى مياه الفاطميين الإقليمية ، دون أن يجدوا عنتا من هذه الدولة الشيعية. وقد نرى سفنا تجارية أسبانية ، وأخرى بيزنطية فى موانى الفاطميين، ولذلك نرى السلع تغمر البلاد الفاطمية فى المغرب

وكان المعز لدين الله وهو فى المغرب ، يعتمد على ما يرد إليه من رجال الدعوة فى الأقاليم الإسلامية ، وخاصة فى اليمن والبحرين وعمان وفارس وخراسان ؛ فقد كان المستجيبون يدفعون لدعاته الأموال إذا أخذوا عليهم العهد ، مما يدل على تمسكهم بالمذهب الإسماعيلى . كما كانوا يدفعون - كما رأينا - خمس دخلهم ليرسلوه إلى إمامهم الخليفة الفاطمى . وقد أفاضت كتب الإسماعيلية فى ذكر تلك الأموال التى كان المستجيبون يغمرون بها الخزائن الفاطمية . من ذلك ما أورده النعمان غير مرة عن « قدوم رسل بعض دعاة نواحى المشرق (إلى المعز بالمنصورية) بأموال كثيرة ، قدموا بها من أعمال المؤمنين (أى الإسماعيلية) ، وطرائف وتحف » (١)

وقد امتلأت خزائن الفاطميين وفاضت بالأموال بعد أن فتح المعز لدين الله كل شمالى إفريقية ، فأصبحت بلاد الجزائر ومراكش تدفع إلى ولاته الخراج ، فيرسله هؤلاء إليه فى المنصورية. وبفضل ذلك المال الكثير ، استطاع هذا الخليفة أن يجهز حملة جوهر الصقلى الكبرى إلى مصر، وأن يغمره بالأموال والتحف، ويمهد له السبيل إلى النصر وبفضل هذه الأموال استطاع جوهر أن يفتح مصر وبلاد الشام

وقد وجد الفاطميون فى مصر نظاما ماليا دقيقا ، فهناك الدواوين الخاصة بالخراج ، وهناك الضرائب المتنوعة قد نظمت منذ الفتح العربى تنظيما دقيقا ، وزادها إتقانا الدولتان الطولونية والإخشيدية ، حتى إن جوهرا أو المعز لم يدخل عليها شيئا من التحسين ، وإنما نظم الفاطميون الحالة المالية بما يتفق مع ميولهم المذهبية فقط

وقد أصبحت إدارة الدواوين وجباية الخراج فى يد جوهر الصقلى . وكان يهم نائب الخليفة الفاطمى فى مصر أن يعمل على استقرار حالة البلاد المالية والاقتصادية ، ولذلك عنى عناية كبيرة بتوفير الطعام للمصريين فلم يكتف بإحضار الغلال من بلاد المغرب لتخفيف حدة المجاعة التى كانت تهدد حياة المصريين منذ حين ، بل فتح

(١) النعمان المجالس والمسايرات ج ٢ ص ٦٦٢ .

المخازن العامة للحبوب ، وعهد برقابتها إلى المحتسب واستطاع بفضل ذلك النظام المالى الدقيق أن يحول دون احتكار الحبوب وأن يوفرها للناس وخصوصا الفقراء منهم(١)

والحق أن جوهرا لما دخل مصر أقر على إدارة جباية الخراج على بن يحى ابن العرمرم ؛ ولم يعزله من منصبه ، جريا على السياسة التى سار عليها الفاطميون فى إبقاء الموظفين المصريين من السنيين وغيرهم وإن كان جوهر قد عين موظفين شيعيين ، للحد من نفوذهم ، وتدريب الشيعيين على الأعمال الحكومية لذلك قلد جوهر بعد قليل رجاء بن صولاب ، الذى لا يبعد أن يكون مغربيا شيعيا ، ليشارك ابن العرمرم فى إدارة الخراج وهكذا ، لم يدع جوهر عملا من الأعمال إلا جعل فيه مغربيا شريكا لمن فيه(٢).

ولم يكتف الفاطميون بذلك بل جعل المعز لدين الله الإشراف على شئون البلاد المالية فى يد يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن، اللذين قلدهما «الخراج ، وجميع وجوه الأموال والحسبة ، والسواحل، والأعشار(٣)، والجوالى(٤) والأحباس(٥)، والمواريث ، والشرطتين ، وجميع ما ينضاف إلى ذلك فى مصر وسائر الأعمال وكتب لهما سجلا قرىء يوم الجمعة على منبر جامع ابن طولون . وقبضت أيدى سائر العمال والمتضمنين ، وجلسا فى غد هذا اليوم (من المحرم سنة ٣٦٣) فى دار الإمارة فى جامع ابن طولون للنداء على الضياع وسائر وجوه الأموال. وحضر الناس للقبالات(٦)،

( ) على ابراهيم حسن تاريخ جوهر الصقلى ص ٧٥ .

(٢) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ٨٧

(٣) أول من وضع الأعشار فى الاسلام عمر بن الخطاب ، الذى فرض على التجار من غير المسلمين أن يدفعوا عشر ما معهم ، لأنهم كانوا يفرضون مثل ذلك على تجار المسلمين . أما أهل الذمة فقد فرض عليهم نصف العشر (من مجموع تجارتهم) . وفرض على المسلمين ربع العشر (من تجارتهم)

(٤) الجوالى اختيار الأحسن من كل شىء من الممتلكات أو الشاء ، الجزيل منها والصغير ، وربما كانت هى وظيفة العامل فى الزكاة (حسن إبراهيم حسن الفاطميون فى مصر ص ١٨٣) .

(٥) الأحباس الأوقاف .

(٦) القبالة ما يلتزمه المرء من عمل ودين .

وطالبوا بالبقايا من الأموال ، واستقصيا فى الطلب ونظرا فى المظالم (١) » .

كما جعلت جباية الخراج قسمين وضع أحدهما فى يد على بن محمد بن طباطبا وعبدالله بن عطاءالله ، ووضع الثانى منهما فى يد الحسن بن عبدالله والحسين بن أحمد الروذبارى ، كما كان محمد بن الحسين بن مهـــذب صاحب بيت المال . وكل هؤلاء الموظفين كانوا تحت إشراف يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن .

« وقد أبطل نظام جباية الضرائب القديم وأنشىء نظام جديد فى تقدير الأملاك وتعيين ما يخص كلا منها من الضرائب ، وجمعت كل دوائره فى مركز واحد . وفُحصت مصادر الضرائب على اختلافها وتشددت الحكومة الجديدة فى تحصيل ما تأخر منها كما اهتمت بالنظر فى كل ما تقـــدم إليها من الالتماسات والشكاوى وسلكت الحكومة فى تنفيذ نظام الضرائب الجديد سبيل الحزم ، وحمت دافعى الضرائب من دفع الأموال كرها وعسفا فكانت نتيجة هذه السياسة الرشيدة أن زادت موارد الدولة زيادة كبيرة (٢) » .

وبفضل ما أدخله جوهر على هذا النظام المالى من إصلاح ، بلغ خراج مصر فى سنة ٣٥٨ هـ ٣,٤٠٠,٠٠٠ دينار (٣) . وإذا علمنا أن انخفاض النيل ، وما صحبه من القحط والوباء والمجاعات ، قد أثرت مجتمعة فى كيان مصر الاقتصادى منذ أيام كافور ، أدركنا مدى ما بذله جوهر من جهود فى النهوض بشئون البلاد الاقتصادية

ولسنا ننكر أن المعز فى مصر ، قد اشتد نوعا فى سبيل الحصول على المال ، لأن سياسته كانت ترمى إلى مواصلة الفتح فى بلاد الشام ، وطرد القرامطة منها ، ثم المسير إلى العراق ، حتى لقد غلا بعض المؤرخين فى تقدير الخراج بمصر ، فذكر أرقاما تكاد تكون خيالية . من ذلك قول ابن ميسر (٤) : « واشتد الاستخراج لكثرة ما أنفقه المعز على مصر لأنه قدم إلى مصر وهو يظن أن الأموال مجتمعة

(١) ابن ميسر تاريخ مصر ج ٢ ص ٤٥

(٢) حسن إبراهيم حسن الفاطميون فى مصر ص ١٨٤

(٣) المقريزى خطط ج ١ ص ٩٩ .

(٤) تاريخ مصر ج ٢ ص ٤٥ — ٤٦

فوجدها قد فرقتها مؤن مصر وكثرة عساكرها وكان الذى أنفقه المعز على مصر ما لا يعرفه إلا هو وخزانه وحدثنى بعض كتاب بيت ماله (١) قال: حملنا إلى مصر أكياسا فارغة ، أنفق ما كان فيها فى أربعة أعدال على جملين ، فكان يستخرج فى اليوم نيف وخمسون(٢) ألف دينار(٣) معزّية ، لأنه كان استخراجا بغير بُسْرأة ولا خرْج ولا حوالة واستخرج فى يوم مائة وعشرون ألف دينار معزية وحصل فى يوم واحد من تنيس ودمياط والأشمونين أكثر من مائتى ألف وعشرين ألف دينار وهذا لم يسمع بمثله قط فى بلد .

وعلى الرغم من أن ابن ميسر يعزو كثرة الاستخراج إلى رغبة الفاطميين فى تعويض مافقدوه من مال بسبب الفتح ، وما أنفقوه من إصلاحات على البلاد ومرافقها ، يبدو أن متوسط ما يستخرج فى اليوم الواحد ٥٢,٠٠٠ دينار بعيد التصديق ، لأن الخراج يصل طبقا لهذا التقدير إلى مايقرب من عشرين مليون من الدنانير فى السنة ، وهو ما لم نسمع به فى عهد الفاطميين . وقد رأينا المقريزى يعقد فصلا عن خراج مصر ، ويقارن هذا الخراج فى صدر الدولة الفاطمية وفى أواخر عهدها ، فذكر أن الخراج لم يزد فى سنة ٣٥٨ هـ على ٣,٤٠٠,٠٠٠ دينار(٤) وأن خراجها فى وزارة اليازورى فى عهد الخليفة المستنصر لم يزد على ٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار ، وأنه بلغ فى عهد الأفضل شاهنشاه (٥١٥هـ) ٥,٠٠٠,٠٠٠ دينار ، وفى عهد الأيوبيين زاد فى سنة ٥٨٥هـ على ٤,٦٥٣,٠٠٠ دينار ، ولكنه هبط فى سنة ٦٤٠ هـ إلى ١,٠٠٠,٠٠٠ دينار (٥)

ومن هذه الموازنة فى العهود المختلفة ، نستطيع أن ندرك إلى أى حد أسرف المؤرخون فى تقدير خراج مصر فى عهد المعز لدين الله ; إلا أن ما ذكره ابن ميسر

---

(١) لا يعقل أن يتحدث ابن ميسر مع معاصرى المعز ، فان هذا الخليفة توفى سنة ٣٦٥ هـ وتوفى ابن ميسر سنة ٦٧٧ هـ

(٢) فى الأصل وخمسين ألف دينار

(٣) وردت فى الأصل دينارا .

(٤) ذكر ابن حوقل (المسالك والممالك ص ١٠٧) أن الخراج بلغ فى هذه السنة ٣,٢٠٠,٠٠٠ دينار

(٥) المقريزى خطط ج ١ ص ٩٩ — ١٠٠

يدل ، مع غلوه ، على مدى تقدم الحالة المالية فى مصر فى عهد هذا الخليفة

ومما هو جدير بالملاحظة، أن الفاطميين فى عهد المعز وضعوا نظاما ماليا جديدا ، يتفق وسياستهم المذهبية ، فعملوا على التقليل من قيمة النقد الذى كان يتداول فى مصر، وعملوا فى الوقت نفسه على رفع قيمة النقود التى تحمل أسماء الخلفاء الفاطميين . من ذلك أن يعقوب بن كلس ، وعسلوج بن الحسن لم يقبلا إلا الدنانير المعزية . وكان الدينار المعزى أكبر من الدنانير التى تحمل أسماء العباسيين وكانت متداولة فى مصر . وقد أوضح ذلك ابن ميسر (١) فقال : إنهما « امتنعا أن يأخذا إلا دينارا معزيا ، فاتضع (٢) الدينار الراضى ، وانحط إلى ثلثى دينار (٣) ، ونقص من صرفه أكثر من ربع دينار ، فخسر الناس كثيرا من أموالهم فى الدينار الأبيض والدينار الراضى وكان صرف المعزى خمسة عشر درهما ونصف »

على أن هذه الإجراءات قد أضرت بدافعى الضرائب من المصريين ، فلو أن شخصا كان مطالبا بأن يدفع للفاطميين خراجا مقداره ستمائة دينار، لوجب عليه أن يدفع على أساس النقود التى كان يتعامل بها من قبل مايساوى تسعمائة دينار ($\frac{600}{1} \times \frac{3}{2} = 900$) ، لأن قيمة الدينار الذى كان يتعامل به المصريون قبل الفتح الفاطمى قد انحطت إلى ثلثى قيمتها وليس من شك فى أن هذا التخفيض كان يتحمله الشعب وحده

وليس من شك أيضا فى أن الفاطميين تركوا للمصريين أراضيهم يتمتعون بها ، فلم يستولوا عليها منهم وقد رأينا جوهرا الصقلى يقول فى أمانه الذى أعطاه المصريين: « ولكم علىّ أمان الله التام العام الدائم المتصل ، الشامل الكامل ، المتجدد المتأكد على الأيام وكرور الأعوام . فى أنفسكم وأموالكم ، وأهليكم ونعمكم ، وضياعكم ورباعكم ، وقليلكم وكثيركم ، وعلى أنه لا يعترض عليكم ، ولا يتجنى عليكم متجن ، ولا يتعقب عليكم متعقب (٤) »

---

(١) تاريخ مصر جـ ٢ ص ٤٥

(٢) اتضع أى هوى ونقص

(٣) فى الأصل ثلثين .

(٤) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ٦٩

وقد اتبع الفاطميون منذ عهد المعز نظام الالتزام فى جباية الأموال ، فنرى على ابن عمر بن العداس يضمن كورة بوصير (١) على طريقة الالتزام ، كما نرى يعقوب ابن كلس وعسلوج بن الحسن يتشددان فى الاستيلاء على « البواقى » ، التى يتأخر الملتزمون فى دفعها (٢) وكانت الأحباس وبعض المنافع العامة تستغل بطريقة الالتزام (٣) . وعلى الرغم من تعسف بعض الملتزمين عرف الفاطميون بالعدل والعطف على الرعية .

وقد عنى المعز وخلفاؤه من بعده بديوان الخراج الذى اعتمد عليه الفاطميون فى تنظيم ماليتهم وكان المعز يهتم دائما بإيجاد التوازن بين الدخل والمنصرف حتى لا تصاب خزانة الدولة بالإفلاس

وليس هذا وحده ، فإن الحكومة الفاطمية قد لجأت إلى احتكار بعض المعادن مثل « الشب » و « النطرون » وبعض مواد الصباغة (مثل ثمار أشجار السنط) ولأهمية هذا النوع من الاستغلال ، أنشأ الفاطميون ديوانا أطلقوا عليه اسم « ديوان المستغلات » (٤)

وكذلك اهتم الفاطميون بسك النقود ، الذى عده جوهر والمعز مصدر ثراء دائم للدولة . وكانت عناية المعز بالدينار الذى يحمل اسمه فائقة حقا ، حتى إنه نقص قيم الدنانير الأخرى التى لا تحمل اسمه ، كما رأينا ، ولاهتمامه بدار الضرب أسند إدارتها إلى قاضى القضاة (٥) . وكان للفاطميين دور لضرب النقود فى مدن مصر المختلفة

وقد أدخل الفاطميون نظاما جديدا لتنظيم التركات ، فأنشئوا ديوانا أطلق عليه « ديوان المواريث » ، كان من أهم مصادر ثروة الدولة كما استحدث الفاطميون فى عهد الحاكم (٣٨٦ - ٤١١ هـ) ديوانا للإشراف على الأموال المصادرة ، أطلق

---

(١) المقريزى خطط ج ٢ ص ٢١

(٢) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ٩٨

(٣) المقريزى خطط ج ١ ص ١١٠

(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ٦

(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٤٥

عليه اسم « الديوان المفرد (١) » وكذلك اهتموا بالأوقاف فأنشئوا « ديوان الأحباس » وهو أشبه بوزارة الأوقاف عندنا اليوم

٤ — النظام الحربى

الجيش هو العمود الفقرى للدولة ، والأسطول من أهم مقوماتها ، خصوصا إذا كانت أراضى الدولة تطلّ على البحار وقد اهتمت الدولة الفاطمية منذ نشأتها فى بلاد المغرب على هذين العنصرين ؛ فاعتمدت على جيش قوى يحميها ، ويساعد على امتداد نفوذها شرقا وغربا وقد أنشأ الفاطميون إلى جانب الجيش أسطولا استطاع أن يجعل البلاد الإفريقية غربى البحر الأبيض المتوسط خاضعة لنفوذ الفاطميين الذين استولوا على تونس والجزائر ومراكش ، وحاولوا فتح مصر مرات ، حتى تم لهم فتحها بعد قيام دولتهم بنحو ستين سنة واستطاعوا ، فى الوقت نفسه ، أن يستولوا من الروم على بعض جزر البحر الأبيض ، وذلك بفضل جيوشهم البرية وأساطيلهم البحرية الحربية والتجارية

(١) الجيش :

وكان المعز لدين الله ومن سبقه من الخلفاء الفاطميين يعتمدون فى تكوين جيوشهم على الكتاميين الذين انضووا تحت لواء أبى عبد الله الشيعى ، وكان لهم أثر كبير فى قيام الدولة الفاطمية . إلا أن المعز لدين الله وضع نصب عينيه مبدأ الاستجابة والإخلاص للدعوة والدولة معا . فمن آنس منهم إخلاصا وتفانيا ، ضمهم إلى جيوشه ، وأسند إليهم المناصب ، ولو كانوا من غير الكتاميين .

ولم يكتف الفاطميون بإفريقية ، بل عملوا على مد نفوذهم إلى المغربين الأوسط والأقصى ، فانضم إليهم كثير من القبائل ، كالصنهاجيين والمصامدة وغيرهم ، وإننا لنرى كثيرا من كبار رجال الجيش الفاطمى فى عهد المعز لدين الله ، من غير الكتاميين فهذا جوهر الصقلى لا يمت إلى الكتاميين بصلة ، وذاك زيرى بن مناد وابنه يوسف صهاجيان والمهم أن الجيش الفاطمى كان يعتمد فى تكوينه على

---

(١) المقريزى خطط ج ٢ ص ٢٨٧

الـكتاميين أولا ، وعلى غيرهم من القبائل المغربية المتفانية فى طاعة الفاطميين ثانيا وعلى من عرف بإخلاصه للمذهب الإسماعيلى ثالثا

وكانت جيوش المعز ، وهو بالمغرب ، تتـكون من عنصرين الأول ، وهو الجيش الدائم الذى يكون على أهبة الاستعداد للعمل وتلبية مطالب الدولة الحربية فى كل حين . وبهذا الجيش الدائم صد المعز عادية الأعداء عن بلاده واستطاع أن يمد نفوذه شرقا وغربا . وإلى جانب هـذا الجيش الدائم فرق أخرى من المطوعة الذين يتطوعون فى الجيش ولا يعدون من فرقه الأساسية . وكان اعتماد المعز على هؤلاء كبيرا ، على للرغم من ولوعه بتنمية جيشه الدائم ، ليحبب رعاياه فى الجندية وكان هؤلاء المتطوعة ، ولا سيما الـكتاميين منهم ، يتسابقون إلى تلبية نداء المعز، الذى كان يدر عليهم الأموال ، ويضم إلى جيشه الدائم عددا كبيرا منهم .

وكثيرا ما كان المعز يعتمد على المتطوعة لسد ما عسى أن يكون هناك من نقص فى جيشه الدائم ، إذا تهدد دولته خطر من الأخطار. وكان هؤلاء المتطوعة يسارعون إلى تلبية ندائه ، ويحققون مايعقده عليهم من آمال. يتضح ذلك مما ذكره النعمان عن إرسال المعز إلى سجلماسة ، جيشا يتألف من المتطوعة كافة ، للقضاء على نفوذ صاحبها الشاكر لله ، المعروف بابن واسول . فإنه كان يعلم بعد الشقة ووعورة الطريق بين المنصورية وسجلماسـة ، كما كان يعلم أن جيشـه الدائم فى حاجة إلى أن يتغذى بدم جديد، من المتطوعين المتفانين فى طاعته لذلك ، أمر أن يندب لذلك من سارع إليه من شباب كتامة طائعا ، فلم تمض أيام حتى أتاه منهم من العدد فوق ما أراده ، مسـارعين إلى ذلك ، فرحين به ، فأوسع لهم العطـاء ، وأجزل لهم الحباء [1] فلما أرادوا الخروج حضر الشيوخ فذكر (المعز) مسارعة من سارع منهم إلى الخروج فى ذلك الجيش ، وأنه كان فيما تقدم يتهول ذكـر سلوك ماندبهم إليـه دون تعاطى الخروج إليـه . إنى لو ندبت من عسيت أن أندبه منكم ، لوجدت فيه ما أريده .ثم أذن لمن سارع منهم إلى الخروج ، فدخلوا عليه فوجا فوجا ، وغص القصر بهم فأثنى عليهم خيرا ، وقال لهم قولا طويلا ، منه... بارك الله

---

(١) الحباء العطاء

فيكم ، وأحسن صحابتكم ، والخلافة عليكم ، فقد صدقتم ظنى فيكم ، وأملى عندكم . وأنتم من معدن البركة ، وعنصر الخير ، بكم بدأ الله إظهار أمرنا ، وبكم يتمه ويصلحه بحوله وقوته   وقد علمت مسارعتكم إلى ماندبتم إليه   وإجابتكم لما أردتم له وأرجو أن تبلغوا من ذلك بحسب الأمل فيكم ، ويرفع الله عز وجل بذلك درجاتكم ، ويعلى به ذكركم   أنتم البنون والإخوة والأقربون   ما يعدلكم عندى أحد ، ولا يبلغ مبلغكم من قلبى بشر ، وما ذلك إلا لما لى فى قلوبكم ؛ ما نصر الله وليا من أوليائه قبلنا ، بمثل نصرتكم لنا ؛ على ذلك مضى أولكم ، وعليه أنتم ، على محبتنا ونصرتنا وموالاتنا   فأنتم حزب الله وأنصاره ، وجنده وأحباؤه » (١)

وكان المعز يثير حماسة جنوده بالمال أولا ، والمناصب ثانيا ، وتخويفهم من الله ومنه ثالثا : أما المال فكان يدر عليهم الكثير منه ، حتى لم يعد المرء يستطيع أن يقارن الخلفاء العباسيين والأمويين وغيرهم من الملوك والسلاطين المعاصرين بالمعز لدين الله . فقد كان يهب المحاربين من الأعطيات والمال ، وينفق على ذويهم فى أثناء غيبتهم فى الحملات ، ويتعهد بالإنفاق الدائم من يموت عائلهم فى الجهاد ، وعلى غير هؤلاء المحاربين بالمؤن والسلاح ، إلى غير ذلك مما نراه مفصلا فى هذه الوثيقة القيمة ، التى وازن فيها أحد المشارقة بين إنفاق المعز على جيوشه وإنفاق غيره ، حيث يقول مخاطبا الخليفة

« أين يبلغ ياأمير المؤمنين عطاء غيرك من عطائك ؟ إن الذى يعطيه أعداؤك جندهم ، نزر عند عطائك لأوليائك ، إذا حصل لهم ؛ إن أعداءك إنما يعطون الرؤساء من أجنادهم العطاء بعد العطاء لهم ولأتباعهم ، ومن قدموه عليه من أجنادهم ولعبيدهم ، وسائر أسبابهم ؛ فيقطع العرفاء (٢) من ذلك كثيرا منه لأنفسهم ، ويفرقون باقية على من قدموا عليه ، وربما عاملوهم (٣) فيه ، ولا يبلغ مايصل إليهم بعض ما يصل إلى أقل عبيد مولانا ﷺ ومولانا يسبغ على أوليائه وعبيده الصلات

(١) النعمان   المجالس والمسايرات ج ٢ ص ٢٦ - ٢٨ .

(٢) العريف   هو الضابط المقدم على عدد قليل من الجند (من ٣ - ١٠)

(٣) أى شاركوهم

والأرزاق والكسا والعلوفة والجراية على نسائهم وأبنائهم ، يقبضون ذلك بأيديهم ، وإن خرجوا فى بعث حملهم ووصلهم . ومن استشهد منهم أو مات ، أبقى ما كان يجرى عليه لمخلفيه ، ويفرق عليهم السلاح والرواحل والمضارب ، وجميع أدوات السفر إذا سافروا ، مع إقطاعهم القطائع والضياع ، واستعمالهم على الأعمـــال ، وتعاهدهم بالهبات الجزلة ، والعطايا السنية ، وبلغتهم (١) عند أوبتهم من البعوث بالكساء والصلات والمراكب والحملانات » (٢)

وهذا يفسر سبب مغالاة جيوش الفاطميين فى طاعة رؤسائهم ، وما أحرزوه من نجاح فى كثير من الحملات التى اشتركوا فيها . فقد استطاعت هذه الجيوش فى عهد المعز ، أن تنشر راية الفاطميين فى جميع شمالى إفريقيـة ، وجزء كبير من آسيا وإن سياسة المعز مع جنوده ، لتتفق مع السياسة التى تسير عليها الدول الكبرى فى الحروب الحديثة فهى تنفق على جنودها عن سعة ، وتوفر لهم أسباب الراحة ورغد العيش

وأما إسناد المعز المناصب إلى جنده ، وتخويفهم من الله ، فقد رأينا فى هذه الوثيقة أنه كان يعمل على إقطاع جنوده «القطائع والضياع» ، وعلى «استعمالهم على الأعمال» . ونرى ذلك واضحا جليـا فى الحملات التى وجهها إلى سجلماسة وغيرها ، فمنّى جنـده المناصب إذا ما أخلصوا له وحسنت نياتهم فى الحروب ، فيقول لهم « إن الله قد امتحن عباده بالجهاد فى سبيله معنا فنحن نندبهم إليه لنعلم المجاهدين منهم والصابرين ، وليرفع الله (ع . ج) به درجاتهم ، ويجزل مثوباتهم ، وينقل حالاتهم . فكم منكم اليوم من ينفذ فى هذا الجيش تابعا يعود متبوعا ، ومرءوسا يصير رئيسا . إنما ترفعكم عندنا وعند ربكم نياتكم وأعمالكم ، وبها تتوسلون إلينـا وإلى بارئكم »

ومن الإصلاحات التى أدخلها المعز لدين الله على نظام الجندية ، ما كان يوليه قواده من احترام وتقدير . فكان إذا أرسل قائدا من قواده ، قـرّبه بنفسه ، وأبان

---

(١) البلغة الكفاية

(٢) الحملان بالضم ما يحمل عليه من الدواب فى الهبة خاصة . راجع كتاب المجالس والمسايرات لأبى حنيفة النعمان المغربى جـ ٢ ص ٢٩٥ — ٢٩٦

لجنده أنه نائبه ، وأن طاعتهم لقائدهم هى طاعة له ؛ وقد سن بعمله هذا دستورا من دساتير الجندية ، له قيمته من الناحية العملية . وكان يقول لجنده إذا ودعهم : «لا يصلح الناس إلا برئيس وقد قدمت عليكم من علمتموه وأقمته فيكم مقام نفسى وجعلته معكم كأذنى وعينى ، وكل امرىء منكم على نفسه بصيرة[1]»

وقد رأينا المعز يعامل جوهرا الصقلى معاملة ممتازة حين عزم على إرساله إلى مصر ؛ فكثيرا ماعاده فى مرضه ، وجعل أفراد البيت المالك يمرون أمامه تقديرا له [2] وخلع عليه الخلع السنية ، وأمر فى الوقت نفسه والى برقة أن يترجل له حين يمر بولايته ، وأن يقبل يديه [3] ولم يشفع لهذا الوالى ما عرضه على جوهر من أن يقدم إليه خمسين ألف دينار ، كفاء إعفائه من الترجل له ، وتقبيل يديه [4]

وقد تشبه المعز فى ذلك بأبى بكر الصديق حين خرج ماشيا يودع أسامة بن زيد فى حملته على بنى غسان ؛ فقد سار ماشيا ، وأسامة راكبا ، وأخذ بخطام بعير أسامة ، حتى أصبح القواد والجنود الذين ساروا بقيادته طوع بنانه أضف إلى ذلك أن جعفر بن فلاح لما فتح بلاد الشام ، وأرسل كتبه إلى المعز متخطيا فى ذلك جوهرا ، أعاد إليه الخليفة هذه الكتب وأمره بأن يتصل أولا برئيسه المباشر وهو جوهر الصقلى

وهكذا اعتمد المعز لدين الله وهو فى المغرب على أهالى هـــذه البلاد واعتقد الجند أنهم حماة لوطنهم ولخليفتهم العلوى وبهذا يتميز نظام الجندية فى المغرب عنه فى مصر فى عهد المعز فإن جيوش المعز فى مصر لم تكن من أهالى البلاد فبينما نجد فى جيش المعز فى بلاد المغرب طوائف من الكتاميين والصنهاجيين والمصامدة وغيرهم من أهالى المغرب ، يتعذر علينا أن نجد جنديا واحدا من المصريين فى عهد هذا الخليفة. ولا ندرى إذا كان عدم اعتماد المعز على أهالى البلاد الأصليين فى مصر مبعثه الخوف من انتقاض المصريين عليه ، أو اختلافهم وإياه فى

---

(١) النعمان المجالس والمسايرات ج ٢ ص ٣

Lene Poole A Hist. of Egypt in the Middle Ages, p. 102 (٢)

(٣) شرح لمة من أخبار المعز لدين الله (مخطوط) ورقة ٦ ، ٩

(٤) المقريزى خطط ج ١ ص ٣٧٨ .

المذهب الدينى ، فإن المصريين سنيون غالبا ، والمعز وأنصاره شيعيون ، أو أن قصر عهد المعز فى مصر لم يتح له الفرصة لإحداث مثل ذلك الانقلاب الخطير وهو جعل الجيش الفاطمى مصريا لحما ودما. والذى لا شك فيه أن المعز اعتمد على أبناء جنوب الوادى ، حتى إنه كان من بين جيوشه فرقة تعرف بالسودانية

وقد اعتمد المعز منذ فتح مصر فى سنة ٣٥٨ ﻫ على جيش يزيد عدده على مائة ألف رجل من المغاربة ونستطيع أن نقول ، إن جيوش المعز لم تهدأ ولم تستقر منذ وطئت أقدامهم البلاد المصرية ، فقد قاموا بإخضاع الإخشيدية والكافورية وفتحوا بلاد الشام ، ثم وقفوا فى وجه الثوار من القرامطة الإسماعيلية ، فى بلاد الشام تارة ، وفى مصر تارة أخرى ، ثم فى وجه السنيين فى مصر تارة ، وفى بلاد الشام أخرى كما حاربوا غير مرة مع الروم فى الشام وكان لهذا النشاط المتصل أثره فى أن جوهرا والمعز من بعده أصبحا لا يهتمان كثيرا بالتنظيم الداخلى للجيش ، بل وجها كل نشاطهما إلى الحرب ، وإمداد الجيوش بالعدد والعدة .

ومع ذلك يجب أن ننوه بدقة ذلك النظام الحربى الذى أدخله جوهر والمعز فى مصر ، فإن جعفر بن فلاح القائد الفاطمى فى بلاد الشام ، كان يعتمد فى إمداد جيوشه على جوهر ، كما اتخذ جوهر من القاهرة مركزا يدافع منه عن مصر ، ويغير على غيرها من البلاد وكذلك اتخذ الفاطميون من مدينة الرملة مستودعا لجندهم وعتادهم الحربى

ومما نلاحظه عن جيوش المعز فى الشرق ، أن اندماج الجند مع الأهالى يكاد يكون معدوما فى مصر والشام . وكان ذلك راجعا كما ذكرنا ، إلى الاختلاف المذهبى بين هؤلاء الرعايا السنيين والمغاربة الشيعيين . كما كان راجعا أيضا إلى رغبة المعز فى إبقاء جيشه وحدة لا تفكك فيها ومن ثم كثر الاحتكاك بين المصريين والمغاربة من ناحية ، وبين الشاميين ، وخاصة فى دمشق ، والمغاربة من ناحية أخرى

ومما يمتاز به الجيش الفاطمى فى مصر ، وخصوصا فى أيامه الأولى ، اعتماد جوهر والمعز على عنصر المشاة مع أن الكتاميين الذين كانوا يكونون العنصر الرئيس فى الجيش الفاطمى قد اشتهروا بالفروسية ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى بعد الشقة ووعورة الطريق ، وطبيعة الأراضى التى تفصل بين إفريقية (تونس) ومصر ،

وعدم صلاحيتها لسير الخيول فى الرمال والصحارى وهذا يفسر لنا هزائم المغاربة فى حروبهم مع القرامطة الذين كانوا يعتمدون على الفرسان

وكان المعز فى بلاد المغرب ثم فى مصر يعتمد على ديوان الجند للنهوض بالجيش ، بل إنه كان يجعل ديوان الخراج أو بيت المال ، تحت طاعة الجيش ورهن إشارته ، حتى إن المعز أمر جوهرا « أن يأخذ من بيوت الأموال ما يزيد زيادة على ما أعطاه » (١) وذكر المقريزى أن المعز لدين الله أطلق يد جوهر « فى بيوت أمواله ، فأخذ منها ما يزيد زيادة على ما حمله معه » (٢)

وأما عن نظام تكوين الجيش الفاطمى فى عهد المعز ومن جاء بعده من الخلفاء ، فانه كان يتكون من فريقين الأمراء ، وطوائف الجند ، « ولكل من هاتين الطبقتين مرتبة لا تتجاوزها إلى غيرها . فالأمراء كان يخلع على بعضهم بأطواق الذهب فى أعناقهم ، والبعض يركب فى المراكب بالقضب الفضية التى يخرجها لهم الخليفة من خزانة التجمل » (٣)

وأما طوائف الجند فقد اشتهر منها فى عهد المعز لدين الله ، وخصوصا فى مصر ، « الكتاميون » ، الذين قامت الدولة الفاطمية ، وامتدت فتوحاتها على أكتافهم كما اشتهر « الصهاجيون » ، نسبة إلى قبيلة صنهاجة ، وكانت لهم الزعامة فى المغرب الأوسط خاصة ، وهم الذين ساهموا مساهمة فعالة فى فتوح المعز فى بلاد المغرب الأقصى وقد قدر هذا الخليفة جهودهم ونفوذهم فأناب زعيمهم أبا الفتوح (يوسف بلكين) بن زيرى بن مناد على بلاد المغرب بعد رحيله إلى مصر ومنهم « المصامدة » ، وهم من قبائل المغرب الذين ساهموا مع جوهر فى فتح مصر .

ومن أشهر فرق الجيش فى عهد المعز ، الفرق السودانية . وكان المعز يعتز بهم ، حتى إنه كان يشركهم فى ركوبه فى احتفال عيد رأس السنة الهجرية . وكان يختار منهم ثلثمائة من الشبان الأقوياء ، ويعطى لكل منهم درقة (٤) وحراب محلاة بالفضة .

(١) لمعة من أخبار المعز لدين الله (مخطوط بجامعة فؤاد الأول) ورقة ٣ (ب)

(٢) المقريزى خطط ج ٢ ص ٣٧٨ .

(٣) حسن إبراهيم حسن وعلى إبرهيم حسن النظم الاسلامية ص ٢٤٠ — ٢٤١ .

(٤) مجن بيضى الشكل غالبا ، يتراوح طوله بين قدمين وقدم ونصف ، ويصنع من جلود

ويسمى هؤلاء « أرباب السلاح الصغير[١] وبجانب « السودانية » جماعة « الصقالبة » ، وكانوا من الأرقاء الذين يشترون بالمال من بلاد الخزر وبعض بلادآسيا الصغرى والبلقان. وكان لهؤلاء شأن فى الجيش فى عهد المعز وبعده. وقد رأينا من مناقشتهم المعز فضلهم على الدولة الفاطمية وهناك طائفة « الأتراك » التى كان لها شأن بعد عهد المعز مباشرة حتى لقد استعان بهم الوزير يعقوب بن كلس على « الكتاميين » وغيرهم من الطوائف المغربية . وقد اصطنع جوهر والمعز جماعة من جند الإخشيدية أطلق عليها اسم « الإخشيدية » . وكان هؤلاء الإخشيدية والأتراك من أكبر أعوان الوزير ابن كلس فى عهد العزيز[٢] . ولكل طائفة من هذه الطوائف قائد خاص بها

هذه هى أهم فرق الجيش فى عهد الخليفة المعز لدين الله . وقد تطورت على مر الأيام ، فأصبح يطلق على الكتاميين والمصامدة والصنهاجيين وغيرهم من الفرق المغربية اسم « المغاربة » ثم دخلت فى الجيش فرق جديدة لم يكن لها شأن كبير فى عهد المعز ، مثل قبائل الأكراد ، « والفرنجية » ، « والحجرية »[٣] الكبار و« الحجرية الصغار » والأتراك المصطفين ، والديلم[٤]

وقد حدث تطور آخر فى تسمية الفرق فى جيش الفاطميين فى العصور المتأخرة ، فأصبحت تنسب إلى بعض الخلفاء مثل الآمرية ، والحافظية ، والظافرية ، والعاضدية نسبة إلى الخليفة الآمر (٥٢٤ هـ) والحافظ (٥٤٤ هـ) والظافر (٥٤٩ هـ) والعاضد (٥٦٧ هـ) كما تنسب أحيانا إلى الوزراء ، مثل الجيوشية ، والأفضلية ، نسبة إلى أمير الجيوش بدر الجمالى (٤٨٧ هـ) وابنه الأفضل شاهنشاه (٥١٥ هـ).

وقد نبغ فى عهد المعز لدين الله كثير من القواد أشهرهم

جوهر الصقلى ، وكان ساعد المعز الأيمن ؛ اعتمد عليه فى إخضاع جميع بلاد

أفراس البحر وغيرها من الحيوانات ذات الجلود السميكة ، وأحيانا من جلد التمساح . (الفاطميون فى مصر) ص ٤٧

(١) أبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٩ .

(٢) Lane Poole Hist. of Egypt in the Middle Ages, p. 110

(٣) هم جماعة من الشباب يقيمون فى حجر منفردة ، وهم فرقة من الحرس الخاص فى قصور الخلفاء .

(٤) أبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٩٠

المغرب وفى محاولة طرد الأمويين من إفريقية ، كما اعتمد عليه فى إدارة البلاد المغربية الشاسعة ، فاتخذه وزيرا له . ولم يكتف بذلك ، بل جعله قائداً أعلى لحملته الكبرى على مصر والشام . وتم على يديه فتح هذه البلاد . وبفضل جوهر تخلص المعز من القرامطة كما تخلص العزيزمن أفتكين بفضله أيضا ولما مات جوهر فى سنة ٣٨١ هـ أطلق الخليفة العزيز على ابنه الحسين ، القائد ابن القائد ،

ومن أشهر قواد المعزلدين الله زيرى بن مناد الصهاجى وابنه بلكين ، الذى عرف بعد ذلك باسم يوسف ، ولقب بأبى الفتوح . وإليه تنسب الدولة الصهاجية وكان أبوه زيرى من كبار قواد القائم والمنصور من بعده وكان المعز يعتمد عليه فى إخضاع بلاد المغرب الأقصى ، وتأديب قبائل زناتة وقد شارك هذا القائد مشاركة فعالة فى حملة جوهر الكبرى على بلاد المغرب سنة ٣٤٧ هـ . ولما استحكم النزاع بين زناتة وزيرى بن مناد ، قتله الزناتيون . وكان من أثر ذلك أن تفاقم العداء بين الصهاجيين ، أنصار زيرى ، والزناتيين . وقد صادف ذلك هوى فى نفس المعز ، الذى رأى فى اختلاف هاتين القبيلتين مصلحة له ولدولته لأن ذلك يقيه شر اتحادهم عليه، واستقلالهم فى النهاية

وأما يوسف بن زيرى بن مناد ، فكان من قواد المنصور والمعز ، واشترك مع أبيه فى حملات جوهر الصقلى على بلاد المغرب (سنة ٣٤٧ هـ) ، وفى صراعه مع الزناتيين وحلفائهم الأمويين وقد أنس المعز إليه ، فأنابه عنه فى بلاد المغرب ، فوقف فى وجه الزناتيين ، وقضى على أنصار الأمويين وظل يغزو بلاد المغرب الأقصى ، ويلقى الرعب فى المدن الخاضعة للأمويين ، مثل سبتة وطنجة ، حتى مات فى ٣٧٣ هـ فى خلافة العزيز

ولا يقل جعفر بن فلاح شهرة فى قيادة الجيوش عن هؤلاء ، فقد شارك فى فتح مصر مع جوهر . واستطاع أن يخضع جميع بلاد الشام تقريبا فى عدة شهور ولولا التوتر المذهبى فى هذه البلاد ، وزيادة نفوذ العرب ، كالعقيليين وسواهم فيها ، لبذت شهرته شهرة أستاذه جوهر ، إلا أنه كان يعتز بنفسه ويثق بها ثقة بلغت حد الغرور مما أدى إلى قتله على يد الحسن الأعصم سنة ٣٦٠ هـ ، على ما تقدم .

ولا ننسى أن فرق الجيش كانت تتخذ الألوية المختلفة الألوان ، فكانت خضراء تارة وبيضاء أخرى ، غير أن أعلام الأمان كانت بيضاء كما هى اليوم وكان أمير الجيش يحمل لواءه (أى لواء الجيش) ، ويعتبر ذلك شرفا دونه أى شرف وكثيرا ما استخدمت الرايات للتخاطب بين وحدات الجيش وكانت الموسيقى تصحب جيوش المعز سواء فى المغرب أو فى مصر ، حتى إننا رأينا طبول جوهر تدق ، وأعلامه تخفق فى الهواء عند دخوله مصر

ومن أشهر أسلحة الجيش فى عهد المعز الرماح ، والحراب والدروع والأطبار[١] ، والخناجر ، والبلط ، والغفارات على الرءوس ، والمنجنيقات [٢] والدبابات [٣] ، والكبش [٤] . كما كانت جيوش المعز تعتمد على استخدام النار المعروفة بالنار الإغريقية ، حتى سمى مستخدموها فى الجيش باسم النفطية

(ب) البحرية

وكان للبحرية الفاطمية فى عهد المعز لدين الله شأن يذكر فى بلاد المغرب ومصر. وقد اتخذ الفاطميون المهدية مرفأ رئيسا ، ومن « سوسة » وغيرها من موانى شمالى إفريقية أماكن تأوى إليها سفنهم . ولا ننسى أن الفاطميين ، وخاصة المعز ، قد أفادوا من موقع جزيرة صقلية لما فيها من موان وأحواض للسفن

ولا نغلو إذا قلنا إن المعز استطاع بفضل أسطوله القوى أن يجعل غربى البحر الأبيض بحيرة فاطمية ؛ ولا غرو فقد هجم أسطوله على أساطيل عبد الرحمن الناصر الأموى فى عقر دارها فى الأندلس ، وانتصر على الروم ، حلفاء الأمويين

---

(١) جمع طبر ، وهو الفأس

(٢) آلات تستخدم لرمى الحجارة أو المواد الملتهبة ، التى يلقى بها على العدو . وتستخدم فى الدفاع والهجوم معا

(٣) أما الدبابات فهى آلات من الخشب السميك ومن جلود الحيوانات التى لا تؤثر فيها النيران ، وتتخذ للهجوم ، فيدخل الجنود فيها ويدفعون بها إلى جدران الحصون لنقبها وهم بداخلها

(٤) والكبش حجرة صغيرة ، بداخلها الجند ، وبها قطعة قوية تشبه رأس الكبش وتتخذ لتهديم الحصون والأسوار

فى ذلك الحين ، حتى أرغمهم على طلب الهدنة . وكثيرا ماهجم أسطول المعز على إقليم قلورية (كالابريا) جنوبى إيطاليا ويبنغى ألا ننسى ذلك الدور الهائل الذى قام به هذا الأسطول فى سبيل مساعدة مسلمى جزيرة إقريطش .

وقد ذكر النعمان المغربى ، قاضى المعز ، أن المهدية كانت غاصة بالسفن ، حتى إن هذا الخليفة الفاطمى عمل على اتخاذ قاعدة ثانية تخفف الضغط عن هذا الثغر . وقد وجد القاعدة المنشودة فى سوسة [1]، فيذكر أنه ظهر بدار الصناعة بمدينة سوسة « سبعة مراجل [2] ، أزلية الصنع ، متقنة ، ينفذ بعضها إلى بعض ، كانت مدفونة تحت الأرض إلا أنها تحتاج إلى بعض إصلاح ، وإلى صهريج يجرى عنه الماء إليها ، وأنها (أى المراجل) متى امتلأت ماء ، استغنى بها أهل المدينة عما هو خارج منها ، وكانت ذخيرة للمراكب ، ولغير ذلك مما يحتاج إليه » .

ويقول النعمان [3] : « فرفعت ذلك إلى الإمام المعز لدين الله ﷺ ، فسرّ به ، وأمر بإصلاحها وإصلاح هذا الصهريج ، وأن يبنى مسجد هناك » . وكان قبل ذلك قد ذكر له تضايق دارى الصناعة بالمهدية بالمراكب وكثرتها ، وما زاد منها ، وأن الدارين قد غصتا بها . فذكر عمارة دار الصناعة بسوسة ، والإنشاء بها ؛ وكان وجود هذه المراجل من مقدمة الخير فيها »

وهكذا أصبح للمعز لدين الله فى إفريقية ميناءان هامان ، يعتمد على دور الصناعة فيهما فى إخراج السفن ، وعلى أحواضها فى إيوائها وكان المعز يعمل على أن يجعل حاضرته المنصورية ميناء ثالثا من موانيه الرئيسة . يدل على ذلك قوله : « لئن امتد المقام ههنا (أى فى المنصورية) ، لنجرين البحر بحول الله وقوته إلينا فى خليج حتى تكون مراكبنا تحط وتقلع بحضرتنا [4] » وبهذا نرى أن المعز كان يهتم

---

(١) مدينة ساحلية ، بينها وبين القيروان ستة وثلاثون ميلا . يحيط بها البحر من ثلاث جهات : من الشمال والجنوب والشرق . وسورها صخرى ، منيع ، يضرب فيه البحر ، وبها منار يعرف بمنار ,, خلف الفتى ،، ، وتقع فى مكان مرتفع .

(٢) جمع مرجل وهو القدر الكبيرة .

(٣) المجالس ج ٢ ص ٥٩٠ — ٥٩٢ .

(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ٥٩٢ .

بتكوين أساطيل قوية ، وأنه اتخذ من المهدية وسوسة مراكز أساسية لأسطوله الإفريقى. أما أسطوله الأوربى فكانت سفنه رابضة فى موانى صقلية ، تحت إشراف الأسرة الكلبية

وإلى هذا الأسطول الفاطمى يرجع الفضل فى فتح مصر فى أقرب وقت . فقد كان واسطة الاتصال بين جيوش جوهر الغازية ، وبين المعز فى المغرب وفى حراسة هذا الأسطول كانت الإمدادات تصل إلى جوهر فى سهولة ويسر وقد اتخذ المعز من بعض المدن المصرية دورا لصناعة السفن ، فأنشأ فى المقس دار صناعة ضخمة ، وصفها المسبحى المؤرخ المصرى المتوفى سنة ٤٢٠ هـ بقوله « إنه لم ير مثلها فيما تقدم كبرا ووثاقة وحسنا » (١) وقال ابن أبى طى : « لم ير مثلها فى البحر على ميناء »(٢). ويظهر أن المعز لم يهمل دار صناعة الفسطاط التى كانت تسمى « دار صناعة مصر » ، كما عنى بإقامة دور صناعة السفن فى موانى مصر الهامة كالإسكندرية ودمياط (٣)

ولم يكن بناء السفن فى مصر راجعا إلى خوف المعز من غارات الروم والقرامطة على مصر والشام حسْبُ ، بل كان ذلك راجعا أيضا إلى رغبته فى بسط نفوذه على البلاد التى قد يتخذها الأعداء طريقا يغيرون منه على مصر كما كان راجعا أيضا إلى ما كان يهدف إليه المعز من اتخاذ مصر والشام قنطرة يعبر منها إلى بغداد ، حاضرة العباسيين فى ذلك الحين . أضف إلى ذلك أنه حرص على أن تكون لأسطوله السيادة والتفوق على سائر أساطيل البحر الأبيض . ولا غرو فقد دخلت فى حوزة المعز ، بعد أن تم له فتح مصر والشام ، البلاد الواقعة على البحر الأبيض ، من أنطاكية إلى سبتة ، ووقعت فى يده موانى المغرب الأقصى المطلة على المحيط الأطلسى أيضا

ومن ثم ملأ المعز كثيرا من موانى الشام الهامة مثل صور ، وعكا ، وعسقلان ، بالسفن الكثيرة المختلفة الأنواع وأهمها الشلنديات (٤) والشوانى الحربية (٥)

---

(١) حسن إبراهيم حسن وعلى إبراهيم حسن النظم الاسلامية ص ٢٥١

(٢) المقريزى خطط جـ ٢ ص ١٩٥

(٣) كانت دمياط القديمة شمال دمياط الحالية بكثير ، وتكاد تقابل مصيف رأس البر

(٤) مفردها شلندى من المراكب المسطحة ، وتختص بحمل العتاد والرجال

(٥) مفردها شونة أو شينى ، وهى سفن كبيرة ، بها الأبراج الكبيرة وتشبه البوارج الحربية اليوم ، وبها آلات الهجوم والدفاع

والمسطحات(١) والطرادات(٢) والعشاريات(٣) والحراقات(٤) . وقد رأينا موقف أسطول المعز من صور وسواها فى حروبه مع الروم ، كما رأينا كيف اتخذ جوهر من عكا وعسقلان مستودعات للإمدادات التى كانت تتدفق على جيوش الفاطميين فى بلاد الشام ، حتى لقد اتخذ منها قواد المعز وجيوشه أماكن يفرون منها من وجه أعدائهم ، ولا سيما القرامطة .

ولأهمية السواحل الشآمية فى نظر المعز كان يعين عليها قوادا وولاة ، ليكون الاتصال محكما بين مصر وبلاد الشام . وقد قدرت سفن الأسطول المصرى التى بنيت فى دور الصناعة المصرية ، بأكثر من ستمائة قطعة ، مختلفة الأشكال والأحجام ، على حين بلغ عدد السفن فى أواخر عهد الدولة الفاطمية مائة قطعة فقط

وهكذا استغل المعز لدين الله موقع مصر والشام الاستراتيجى ، فكون أسطوله الشرقى الضخم . ولو قدر له البقاء طويلا ، لكان هذا الأسطول أكثر ضخامة وأبعد أثرا . وقد وصف المقريزى(٥) عناية المعز بالأسطول فى هذه العبارة ، فقال : « لما سار الروم إلى البلاد الشآمية بعد سنة خمسين وثلثمائة ، أشتد أمرهم بأخذهم البلاد ، وقويت العناية بالأسطول فى مصر منذ قدم المعز لدين الله . وأنشأ المراكب الحربية ، واقتدى به بنوه . وكان لهم اهتمام بأمور الجهاد ، واعتناء بالأسطول ، وواصلوا إنشاء المراكب بمدينة مصر وإسكندرية ودمياط ، من الشوانى الحربية والشلنديات والمسطحات ، وتسييرها إلى بلاد الساحل ، مثل صور وعكا وعسقلان ، وكانت فى أيام المعز لدين الله تزيد على ستمائة قطعة »

وكان للأسطول أمير يدعى « قائد القواد » وقد سمى بذلك ، لأنه كان تحت

---

(١) هى نوع من السفن

(٢) واحدها طراد ، وهى من السفن الصغيرة القوية السريعة ، تحمل الواحدة منها نحو مائة فرس

(٣) من القوارب النهرية ، التى استخدمها الفاطميون فى غزواتهم البحرية ، واحدها عشيرى

(٤) تلى الشوانى فى الفخامة ، وتحمل المنجنيقات وغيرها من معدات الهجوم ، وتشبه « الذهبية » عندنا اليوم

(٥) خطط ج ٢ ص ١٩٣

إمرته عشرة قواد . كما كان يطلق عليه «أمير الجيش» ، و«المستوفى»(١) وقد بلغ من عناية المعز ومن جاء بعده من الخلفاء بالأسطول ، أن الخليفة كان ينفق عليه فى غزواته بنفسه، ويساعده وزيره أو من يقوم مقامه . ولم يكن بحارة الأسطول من رتبة واحدة ، فهناك جماعة تتقاضى راتبا قدره ديناران ، وأخرى تتقاضى ثمانية دنانير ، وثالثة عشرة دنانير، ورابعة خمسة عشر دينارا ، وخامسة عشرين دينارا ، وسادسة خمسة وعشرين دينارا أما أمير الأسطول ، أو « مقدمه » فكان من كبار الأمراء والأعيان(٢).

كما كان الخليفة يُقطع رجال الأسطول إقطاعات عرفت باسم «أبواب الغزاة». وكان قائد الأسطول يشرف عليه ، ويتناوب القواد العشرة الإشراف العملى ، فيأتمر الجميع بأمر القائد الذى تؤول الرياسة إليه .

ولكى يشجع الخليفة رجال الأسطول أو الغزاة ، كما كانوا يسمونهم، كان يترك لهم من الغنائم المال والثياب والمتاع ، ولا يستبقى سوى الأسرى والسلاح . وكانت الفسطاط من أهم مراكز الأسطول ، وكان الخليفة يشاهد بنفسه حفلة النفقة على الأسطول عند خروجه ، ويبارك رجاله، ويدعو لهم بالتوفيق، كما كان يحضر حفلة استقباله عند عودته . وقد بلغ اهتمام الخلفاء الفاطميين بالأسطول ، أنهم اتخذوا لهم «منظرة» (٣) بالمقس ، يحتفلون فيها بتوديع الأسطول واستقباله . ويتضح ذلك من هذا الوصف الشائق الذى أورده المقريزى(٤) حيث يقول : « ويتولى النفقة فى غزاة الأسطول الخليفة بنفسه ، بحضور الوزير . فإذا أراد النفقة فيما تعين من عدة

---

(١) المقريزى : خطط جـ ١ ص ١٩٣ .

(٢) يقول المقريزى (خطط جـ ١ ص ١٩٣) لا بد أن يقدم على الأسطول كبير من أعيان أمراء الدولة وأقواهم » .

(٣) كانت أشهر مناظر الفاطميين فى القاهرة ومصر والروضة والقرافة ، وكثيرا ما كانت تستعمل أماكن لنزهة الخلفاء . وأشهر المناظر هى: الأزهر، اللؤلؤة ، الدكة ، المقس ، باب الفتوح ، دار الملك ، منازل العز الهودج ، بركة الحبش ، قبة الهواء ، الأندلس (أنظر حسن إبراهيم حسن الفاطميون فى مصر ص ٢٧١ ، هامش ١)

(٤) المقريزى (خطط جـ ٢ ص ١٩٣)

المراكب السائرة فيتقدم إلى النقباء بإحضار الرجال ، وفيهم من كان يتعيش بمصر والقاهرة ، وفيهم من هو خارج عنهما ، فيجتمعون وكانت لهم المشاهرة والجرايات فى مدة أيام سفرهم ، وهم معروفون عند عشرين عريفا ، يقال لهم النقباء ، واحدهم نقيب » .

وكان رجال الأسطول يشغلون مكانة سامية بين موظفى ديوان الجيش ولا غرو ؛ فإن صاحب ديوان الجيش ، وهو المستوفى ، كان أمير الأسطول . وبذلك وضع المعز لدين الله أساس نظام البحرية فى مصر ، ونهج نهجه من جاء بعده من الخلفاء ؛ إلا أنهم لم يصلوا بالجيش والأسطول إلى ما وصل إليه المعز .

وليس أدل على اهتمام المعز بالأسطول ، من اعتماده على « ديوان الجهاد » ، أو « ديوان العمائر » ، كما كانوا يسمونه ، فى تنظيم شئون الأساطيل ، ووقف الأموال الفخمة للإنفاق على الأسطول ورجاله ؛ وكثيرا ما كان المعز يمد هذا الديوان بالأموال الكثيرة من بيت المال .

وكذلك عنى المعز بالأسطول التجارى، لينقل السلع المصرية إلى البلدان الأخرى، ويعود محملا بالسلع من هذه البلدان . وقد أصبح للفاطميين أسطولان تجاريان ، أحدهما فى البحر الأبيض ، والآخر فى البحر الأحمر ؛ فكانت الإسكندرية ودمياط فى مصر ، وعسقلان وعكاء وصور وصيدا فى الشام ، من أهم الموانى الفاطمية فى البحر الأبيض ، كما كانت عيذاب أهم موانى البحر الأحمر ، وكانت مزودة بأسطول حربى يقوم على حماية الأسطول التجارى ، والقضاء على اللصوصية فى هذا البحر

وقد عنى الخليفة المعز « بديوان الإقطاع » ، الذى كان تابعا « لديوان الجيش » ، وكان عمل صاحبه مقصورا على النظر فى الإقطاعات التى أقطعها رجال الجيش ، وبخاصة من الممتلكات الكثيرة ، التى كانت تابعة للإخشيديين من قبل .

وبهذا نستطيع أن نقول ، إن المعز لدين الله نهض بالجيش والبحرية نهضة مباركة ، كان لها أثر بعيد فيما قام به الفاطميون من فتوح ، وما نالوه من انتصار وظفر

٥ – النظام القضائى

(ا) القضاء

كان للفاطميين تشريع خاص يقوم على عقائد المذهب الإسماعيلى وقد عنوا منذ قيام دولتهم بالتشريع الذى يقوم على أساس المذهب الإسماعيلى ، وأسندوا القضاء إلى رجال ألموا بعقائد هذا المذهب . وعلى رأس هؤلاء القضاة موظف كبير أطلق عليه اسم قاضى القضاة ، ويشبه وزير العدل اليوم ، وكان ينيب عنه فى الأقاليم قضاة يصدرون الأحكام على وفق عقائد المذهب الإسماعيلى ولسنا نشك فى أن قاضى القضاة كان شيعيا إسماعيليا ، وأنه كان يعين فى الأقاليم قضاة يدينون بعقائد هذا المذهب . وبفضل هذه الطريقة ساد الفقه الإسماعيلى فى شمالى إفريقية ، منذ أيام المهدى .

وكان أبو حنيفة النعمان المغربى بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون الإسماعيلى ، خير من يمثل رياسة القضاة عند الفاطميين فى الدور المغربى ؛ فقد اتخذه المهدى قاضيا له ، ثم عينه المنصور قاضيا لقضاته ومنحه شيئا غير قليل من النفوذ وكتب له عهدا « بالقضاء بمدن المنصورية والمهدية والقيروان ، وسائر مدن إفريقية[1] » . وقد قدر الخليفة المنصور وابنه المعز النعمان حق قدره ، وأشادا بميله إلى إقامة الحق « على الشريف والمشروف » ، والعدل « بين القوى والضعيف » .

وكانت مهمة قاضى القضاة أن يخطب فى كثير من الأحيان فى المساجد الجامعة ، بالقيروان والمنصورية والمهدية ، وأن يعين من ينوب عنه فى الأمصار ، ويعزل من يستحق العزل ، وينقل من يرى خطر بقائه فى ناحية ما ، إلى غير ذلك ؛ كما كان عليه أن يضع لقضاته فى الأقاليم الخطة التى يسيرون عليها فى القضاء بين الناس ، والأسس التى يستطيعون بفضلها أن يحتفظوا بهيبتهم أمام المتقاضين ، وأخذ الحق للمظلومين .

ويحدثنا أبو حنيفة النعمان[2] قاضى قضاة الفاطميين فى المغرب ، عما أسداه من النصح للقضاة فى عهد المعز ، فيقول « ولقد قلت لبعض من أوصيته من القضاة الخارجين إلى بعض الأعمال إن أحق ما نظرتم فيه وعملتم له ، الوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة فيما قلدتموه ، وامتثال ما عهد أمير المؤمنين (عليه الصلاة والسلام)

---

(١) النعمان : المجالس والمسايرات ج ٢ ص ٢٠٣

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١٣ – ١٥

إليكم فيه ، لما يجب لله وله عليكم فى ذلك . ولا أقل من أن تنظروا فيما تدوم لكم به النعمة وأن تقتدوا فى ذلك بما تشاهدونه من عوام الناس ، مثل ضراب(١) وصائغ وخياط وقصار(٢) ، وأمثالهم من الصناع ؛ فقد ترون أن أحدهم يُسلم إليه العمل يساوى المال العظيم ، يعمل بالأجر التافه اليسير ، ولا يشهد به عليه ، ولا يتوثق فيه منه . وقد يكون فقيرا أو غير ورع ولا أمين ، ولا ناظر فى علم ولا دين ، فيفى بأمانته ، ويصرف ما دفع إلى من استعمله فيه ، ويقبض تافها من الأجر عليه ، ولا يدعوه إلى ذلك إلا أنه يعلم أنه إن احتبس مما دفع إليه وأنكره ، تناذره (٣) الناس ، فلم يستعملوه ، فيرى أن ما يأخذه من الأجر شيئا بعد شىء أجدى عليه ، وأنفع له ؛ وأنتم تصيبون من فضل الله ما إن استدمتموه بحفظ ما استحفظتم ، دام لكم ، مع حسن الأحدوثة فيكم ، ورجاء الزيادة لكم ، وما ترجون من ثواب ربكم . فمن سمع من أولياء الله مثل ما قدمت ذكره ، فلينزله على ما نزلته(٤) ، ولا يذهب به إلى حيث ذهب من نطق الكتاب بذمه (٥) ، وبيّن الله عليه فساد ما توهمه وذهب إليه . والله يهدى من تمسك بحبل أوليائه (٦) ، إلى طاعته وطاعتهم ، والعمل بما يرضيه ويرضيهم ، قولا وعملا ، ونية وموافقة للصواب » .

وكان المعز لدين الله يحرص على أن يكون قاضى قضاته مثلا أعلى فى الخلق الكريم ؛ فكان يحثه هو وغيره من القضاة على التمسك بالعدل بين الرعية ، أغنيائهم وفقرائهم . وما كان يسمع وشاية الوشاة فى النعمان ، لما ظهر له من عدله ، ولكنه كان يعيب على القاضى اللين ، والتحيز لبعض المتخاصمين دون بعض ، ويخيف القضاة من مغبة هذا التحيز ، ويحثهم على اتباع كتاب الله وسنة رسوله ، حتى ينتشر بذلك العدل بين الرعية .

انظر إلى الخليفة المعز يخاطب قاضى قضاته النعمان ، فيقول : « يا نعمان ! زعم لى فلان الرجل . وأسماه ، أن بعض الأولياء يستثقلون أمرك ، ويقولون

(١) الضراب : النجاد .
(٢) القصارة : الصناعة . فالقصار هو الصانع .
(٣) تناذره الناس : حذر بعضهم بعضا معاملته .
(٤) أى يقدره ويعمل به ليكون مثالا
(٥) ذم الله من لم يطع ربه ورسوله وأولى الأمر
(٦) يقصد بالأولياء أنصار الدولة أشياعها

فلان أرفق بنا (لبعض القضاة) . قال المعز : قلت له : الذى يستثقل من أمر النعمان ، هو الذى منعنى أن أتولى القضاء بين الناس . إن القضاء ميزان عدل الله فى أرضه ، وقسطه بين عباده . فمن عدل به عن جهته ، أو أحاله عن سبيله ، فقد باء بغضب من الله ولعنة أوليائه ، فأمر القضاء عظيم ، ومحمله ثقيل والله ما نقم الناس على أمير المؤمنين عليٍّ (بن أبى طالب) صلع ، إلا أنه تقلده لهم ، لحملهم على منهاج الحق فيه ؛ فلذلك قلدناه ، وتعافينا منه . إنما أراد من أراد من نعمان ، إذا أتاه فى خصومة مع ضعيف ، أن يوسع له إلى جانبه فى مجلسه ، ويقوم خصمه بعيدا منه . فهذا أدنى ما عسى أنه كان يراد منه ، وفيه خزى لمن فعله ، لأنا قد عهدنا إليه وإلى غيره ، ممن قلدناه القضاء والحكومة ، أن يساوى بين القوى والضعيف ، ويعدل بين الشريف والمشروف ، فى قوله وفعله . ولفظه ولحظه ، وتقريبه وإبعاده ومجلسه ، كما جاء الأمر عن آبائنا صلع لمن تقلد القضاء به ، فمن ابتغى خلاف هذا منه، لم يرضه إلا أن يحكم أيضا بما أحبه له ، وفى هذا دون غيره غاية الخزى لمن فعله . وحُسِب خصْم من فُعل به هذا ؛ نظرا إلى ظاهر جور من فعله عليه ، وردعا له عن حجته ، ووهنا فى قوته ، فمثل هذا ينقمه من نقم عليه ، من اتباع أمرنا ، وامتثال عهدنا . وحسب من خالفه نقصا عند الله وعندنا ؛ ومن قام به مثوبة من الله وحظوة لدينا (١) .

وقد ضرب المعز لدين الله فى هذه النصيحة المثل الأعلى للقاضى النزيه ، وبين أن قاضى قضاته النعمان كان المثل الأعلى لذلك ، وأن الفاطميين فى قضائهم وأحكامهم لم يحيدوا عن كتاب الله وسنة رسوله. ولذلك لا نعجب إذا تطور النظام القضائى فى بلاد المغرب تطورا ملحوظا ، إذ كان المعز يشرف على القضاء بنفسه ؛ ليسمو به إلى المكانة التى لا يستطيع معها أن يتدخل فيه ذوو الأغراض ، من أصحاب الجاه والسلطان .

وكان قاضى قضاة المعز يقوم بالفتيا إلى جانب نظره القضايا فى حاضرة الدولة ، وإشرافه على القضاة فى الأقاليم . فكان يرد إليه كثير من الأسئلة والمسائل ، فيجيب

---

(١) النعمان : المجالس والمسايرات جـ ٣ ص ٣١٠ .

عليها ، ويشرح غوامضها شرحا يتفق مع أصول المذهب الإسماعيلي ، وما جاء في الكتاب والسنة . ولم يكن قاضي القضاة النعمان مستبدا بالأمور وحده ، بل كان يشرف عليه الخليفة المعز ، ويصحح له فتاويه ، وينقحها أو يعلق عليها وهذا يدل على علو كعب المعز في العلوم الدينية ، والأصول الفقهية ولا غرو ; فقد كان هذا الخليفة عالما حاذقا ، حتى إنه يعد بحق من كبار المشترعين من المسلمين في عهده .

وقبل أن نتناول الكلام على القضاء في مصر ، نذكر مثلا للفقه الفاطمي الإسماعيلي :

يختلف القضاء عند الإسماعيلية عنه عند السنيين . يدل على ذلك مارواه القاضي النعمان المغربي عن معاملة المعز للأرقاء ، الذين تحولوا إلى هذا المذهب ، وغيرهم من الذين تمسكوا بعقائدهم الأولى .

فقد كان بعض قضاة الفاطميين يورثون أبناء العبد الرقيق دون سيده ، ويقبلون شهادته على غيره ، وشهادة العبيد بعضهم على بعض ، على حين رأى بعض آخر من القضاة ، وعلى رأسهم النعمان ، عدم توريث الأرقاء عملا بقول الرسول « العبد وما ملكت يداه لسيده » ; كما رأوا عدم قبول شهادة هؤلاء الأرقاء . على أن المعز لدين الله قد أول هذا الحديث تأويلا يتفق مع مصلحة المذهب الإسماعيلي ، ولذلك اعتبر العبد الرقيق الذي تملكه الدولة ، والذي دخل في الدعوة الإسماعيلية ، كالحر سواء بسواء يرث أبناؤه وذووه تركته ، وتقبل شهادته . وأما الأرقاء الذين لم يدخلوا في الدعوة الإسماعيلية ، ولم ينتحلوا مذهب الفاطميين ، فهؤلاء لاتقبل شهادتهم ، ولا يورثون ، كما قضت بذلك الشريعة الإسلامية . وهذا مما يدل على أن المعز آثر جانب مصلحة دولته التي كانت ترمي إلى جذب الناس إلى صفوفها ، لا فرق في ذلك بين الأحرار والأرقاء ، لأن الناس كافة كانوا في نظر القائمين بالدعوة الإسماعيلية سواء .

وإليك ما أفتى به المعز لدين الله في هذا الصدد « من كان من سائر عبيدنا ممن شملته دعوتنا ، أجريت أموره مجرى أمور الأحرار المالكي أمورهم ، في مواريثهم وشهاداتهم وأفعالهم ، وجميع ما يتصرف من أموالهم . ومن لم يشملهم ذلك جرى أمره مجرى أمور العبيد ، الذين لا يجوز لهم من أمورهم إلا ما أطلقه لهم مواليهم »(١).

(١) النعمان : المجالس والمسايرات ج ٢ ص ٢١٠ .

وقد تطور نظام القضاء فى مصر بعد انتقال المعز إليها ؛ ومع ذلك ظل القضاء على ما كان عليه تقريبا ، فى عهد الإخشيديين ؛ فكان القضاء عند دخول جوهر فى يد القاضى أبى الطاهر الذهلى (١) ، الذى أسند إليه الخليفة العباسى قضاء الشرقية فى صفر سنة ٣٣٤ ﻫ ، ثم ولى قضاء مصر سنة ٣٤٨ ﻫ ، وأضيف إليه قضاء دمشق ، فاستخلف عليها غيره ، وتقلد هذا الرجل رياسة القضاء زمنا طويلا . وكان مالكيا « ثقة ثبتا مسندا فى الحديث ، أديبا كاملا جليلا وكان من بيت جليل ؛ كان أبوه من شيوخ القضاة بالعراق » (٢) وعلى الرغم من إسناد القضاء إلى أبى الطاهر كان « فى أحكامه كالمحجور عليه ، لكثرة جلوس كافور للمظالم فى كل سبب » .

ومما يمتاز به أبو الطاهر ، أنه كان سهلا فى أحكامه ، لأنه طرد من دمشق بسبب تشدده ؛ فكان يكتفى أحيانا بشاهد واحد ويمين ، مع أن العادة قد جرت بوجوب شاهدين ، لا شاهد واحد . وقد بقى على قضاء مصر حتى دخل إليها جوهر ، فكان ممن ندب للقائه ولما كانت سياسة جوهر ترمى إلى التقرب إلى الشخصيات البارزة فى مصر ، واستغلال نفوذهم ، « رفع جوهر - كما يقول الكندى - من قدر القاضى ، وخلع عليه » (٣)

لم يستطع جوهر أن يعزل هـذا القاضى السنى عن القضاء ، فأبقاه فى منصبه ، وتودد إليه ؛ ولكنه عمل فى الوقت نفسه على الحد من نفوذه ، وإشعاره بضرورة التمشى مع السياسة الفاطمية ، التى يخضع لسلطانها فى أحكامه . ولذلك أدخل جوهر فى القضاء بعض أحكام شيعية إسماعيلية ، وحتم على القاضى السنى أن يصدر أحكامه وفق عقائد المذهب الإسماعيلى ، مذهب الفاطميين وكان بقاء أبى الطاهر فى منصبه متوقفا على تنفيذ ذلك النظام الجديد وهكذا « ألزمه أن يحكم فى المواريث بقول أهل البيت (٤) ، وفى الطلاق ، وفى الهلال (٥) .

---

(١) هو محمد بن أحمد بن عبد الله بن نصر بن عبـد الله بن صالح بن أسامة الذهلى ، كان أصله من البصرة ولد فى سنة ٢٨٠ ، وتدرج فى مناصب القضاء بمصر

(٢) الكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاة ص ٥٨٢ .

(٣) المصدر نفسه ص ٥١٤ .

(٤) فى تفضيل المرأة على الرجل أو مساواتها به على الأقل

(٥) حيث كان القاضى يتلمس رؤية هلال رجب وشعبان ورمضان من فوق سطح الجامع ؛ فأبطل =

ومعنى ذلك أن أبا الطاهر لم يكن مستقلا فى أحكامه. وعلى الرغم من أن كافورا الإخشيدى كان قد حدّ من نفوذه ، لم يكن أبو الطاهر يشعر بتلك المهانة التى لقيها من جراء تدخل الحكومة الشيعية فى أحكامه

وكان من أثر ذلك أن أبطل جوهر فى سنة ٣٥٨ هـ الصوم بعد اليوم التاسع والعشرين من شهر رمضان ، وصلى العيد قبل رؤية الهلال ؛ فاعترض أهل الفسطاط على ما فعل ، وصاموا اليوم الثلاثين من رمضان ، تمشيا مع عقائد مذاهبهم السنية ، وجعلوا العيد بعد رؤية الهلال متبعين فى ذلك القاضى السنى أبا الطاهر ، الذى كان يتلمس الهلال من فوق الجامع العتيق بالفسطاط وقد أنكر عليه جوهر ما فعل ، وتهدده ، وشاركه فى القضاء ، حتى إنه كان يجلس معه كل يوم سبت .

وعلى الرغم من تدخل جوهر فى شئون القاضى أبى الطاهر ، كما تقدم ، بقى قضاء مصر فى يده ، ولما قدم الخليفة المعز إلى مصر أشرك معه قضاة من المغاربة ، مما أضعف نفوذه إلى حد بعيد ولكن بم نفسر تدخل المعز فى شئون القاضى أبى الطاهر ؟ يظهر أنه كان يعمل على تغيير نظام القضاء فى مصر ، وإسناده إلى قضاة من المغاربة ، ولكنه رأى صعوبة تحقيق هذه السياسة ، فأقر القاضى أبا الطاهر فى منصبه ، كما أقر الوزير ابن الفرات ، « لاعتبارات سياسية لاغير »

وأول هذه الاعتبارات أن المصريين لم يكن ينتظر منهم أن يسارعوا إلى اعتقاد المذهب الإسماعيلى ؛ لذلك كان بقاء أبى الطاهر برغم احتفاظه بمذهبه السنى ، من الأمور السياسية التى لا مندوحة عنها ، ولا سيما أن جوهرا أخذ على نفسه العهود والمواثيق ، بأن يطلق للمصريين الحرية التامة فى الدخول فى مذهبهم، فكان عزل هذا القاضى الذى ظل فى منصب القضاء منذ ربيع الأول سنة ٣٤٨ هـ ، وإحلال قاض من الشيعة محله ، مما يثير شعور الجمهور[١] » .

« وإن سلوك أبى الطاهر عند وصول المعز ، ليدل على مقدار ما كان يضمره

= جوهر ذلك ، وصار الهلال بالعدد ، بحيث يكون الشهر إما ثلاثين يوما أو تسعة وعشرين ، مخالفا قول الرسول : « صوموا لرؤيته ، وأفطروا لرؤيته ، فإن غم عليكم ، فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوما » .

(الكندى) : كتاب الولاة وكتاب القضاة ص ٥٨٤ .

(١) حسن إبراهيم حسن الفاطميون فى مصر ص ١٨٩

المتعصبون من السنيين ، من عداء المتشيعين فى شخص هذا الحاكم الشيعى ؛ فقد نزل جميع المستقبلين عن مطاياهم ، وقبلوا الأرض بين يديه ، ما عدا أبا الطاهر . يدلك على ذلك ما أورده لنا المقريزى فى مخطوطه المقفى الكبير ، حيث يقول

« لما ورد المعز مصر ، استقبله الناس على طبقاتهم مشاة . فلما رأوه ، قبلوا الأرض بين يديه كلهم ، سوى القاضى أبى الطاهر ، فإنه كان راكبا . ولما قرب ترجل وسلم عليه ، ولم يقبل الأرض . فالتفت المعز إلى خواص حجابه ، وقال : من هذا الذى خالف الناس كلهم ؟ فقيل قاضى مصر ، وهو من أهل العلم والدين ثم لامه أحد الحجاب سرا فيما فعل ، فرفع صوته وقال جهرا بحيث يسمع المعز : وما هذا؟ أهو الشمس التى قال رسول الله ﷺ : « من علامات الساعة طلوع الشمس من مغربها » ؟ وقال الله تعالى : (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ؛ لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون) ؛ فأرضاه بذلك ، واستحسن قوله ، فرجع وهو قاض ، وعلت منزلته »

وليس (هناك) ما يمنعنا من أن نظن أن هذا القاضى إنما بقى فى منصبه طبقا لهذه السياسة التى جرى عليها الفاطميون ، لا لأن الخليفة قد اقتنع بخطابه ، الذى نتبين من ثناياه ما أضمره هذا الفقيه من كراهة لأهل الشيعة ؛ فإن سلطة أبى الطاهر مالبثت أن اضمحلت ، وألزم فى أواخر عهده فى القضاء أن يصدر أحكامه وفق أصول المذهب الشيعى [1] » .

وقد قضت سياسة الفاطميين أن أشرك المعز مع القاضى أبى الطاهر ، قاضيا مغربيا يدعى عبدالله بن محمد بن أبى ثوبان ، وجعل سجله «قاضى مصر والإسكندرية» ، وجعل له النظر فى المظالم فى مصر ، والنظر فى قضايا المغاربة ، والقضايا المشتركة بين المغاربة والمصريين ، وأخذ « شهود مصر يشهدون عنده ، ويشهدون على أحكامه ، ولم يُر هذا بمصر قبل هذا [2] » . وقد استمرت الحال على ذلك من شوال سنة ٣٦٢ هـ إلى أواخر سنة ٣٦٣ .

وكذلك نصب من المغاربة قاض آخر (هو على بن النعمان) ، وكان قد صحب المعز إلى

---

(١) حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ١٨٩ — ١٩٠ .

(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر ج ٢ ص ٤٤ .

مصر أيضا ، وشارك القاضي أبا الطاهر فى سلطته وهذا التنصيب يدل على ماظهر فى سياسة الفاطميين من تغير جديد ، بعد أن تم لهم فتح مصر، إذ أصبح القضاء يقلد لاثنين من الموظفين أحدهما سنى والآخر شيعى . وليس معنى ذلك زوال سلطة القاضي السنى تدريجا حسب، بل إن ذلك إيذان بانتهاء تقلد السنيين منصب القضاء(١).

والواقع أن المعز لدين الله أشرك مع أبى الطاهر ابن أبى ثوبان ؛ فلما مات هذا أشرك معه على بن النعمان . يقول ابن ميسر (٢) : « فلما مات ابن أبى ثوبان ، خاطب المعز على بن النعمان بالقضاء ، وأنزله فى النظر فى الأحكام ، وأبو الطاهر على حاله ينظر » . وقد دل إشراك المعز على بن النعمان مع أبى الطاهر على نية هذا الخليفة فى تحويل القضاء فى مصر إلى بيت النعمان ، العريق فى القضاء .

حقيقة لم يشترك أبوه النعمان فى قضاء مصر ، كما كان فى المغرب ، إلا أنه كثيرا ماعهد إليه بالنظر فى القضايا الهامة ، حتى إنه مات وهو لايزال ينظر فى إحدى هذه القضايا(٣) وكان معنى تولية المعز على بن النعمان القضاء ، تدريب هذا القاضى على القضاء بين المصريين والمغاربة ، وإعداده لرياسة هذا المنصب . يقول الكندى(٤): « وقدم (على بن النعمان) مع المعز من المغرب ، فأمر بالنظر فى الحكم ، وكان يحكم هو وأبو الطاهر ، والشهود عليهما جميعا وعندهما ، والاجتماع عند أبى الطاهر »

وبهذا نستطيع أن نتبين خطر تقليد على بن النعمان القضاء ، لأنه كان يشترك مع أبى الطاهر ، لافى المنصب وحده ، بل فى الجلوس وإصدار الأحكام

ومما يدل على رغبة الفاطميين فى تحويل القضاء إلى الشيعيين ، وفى بيت النعمان بوجه خاص . أنه لما ولى العزيز بالله الخلافة سنة ٣٦٥هـ ، عهد إلى على بن النعمان فى الإشراف على دار الضرب ، والجامعين بمصر والقاهرة ، أى جامعى عمرو والأزهر ، وهذا التقليد ينطوى على الحد من نفوذ القاضى السنى ، والغض من شأنه ، كما ينطوى على رغبة الفاطميين فى ترويج قواعد المذهب الإسماعيلى ، من طريق القضاء .

---

(١) حسن إبراهيم حسن الفاطميون فى مصر ص ١٩١

(٢) جـ ٢ ص ٤٧

(٣) الكندى كتاب الولاة وكتاب القضاة ص ٥٩٦ .

(٤) المصدر نفسه ص ٥٨٩

وقد شعر السنيون بهذا الخطر ، وحز فى نفوسهم أن يروا القاضى على بن النعمان الشيعى المغربى ، يشارك أبا الطاهر السنى فى مجلسه بجامع عمرو ، ومن ثم انتصر لأبى الطاهر من كان معه من الشهود السنيين ـ وكانوا كثيرين ـ كما انتصر له الفقهاء السنيون وكثير من التجار ولم يستطع الفاطميون أن يتحملوا هذه الإهانة التى تحمل الثورة على النظام الفاطمى ، الذى يرمى إلى أن تكون السيادة للمذهب الإسماعيلى فى مصر ولذلك قبض رجال الشرطة على جميع المتظاهرين ، وألقوا بهم فى غيابات السجون ولم يطلق سراحهم إلا بعد أن تدخل على بن النعمان (١).

ويظهر أن تدخل المعز والعزيز فى شئون القضاء ، وازدياد نفوذ على بن النعمان ، قد آلم القاضى أبا الطاهر وحز فى نفسه ، فأصيب بالفالج . ولما كان العزيز يرغب فى نقل القضاء إلى الشيعيين ، قبل استقالته فى صفر سنة ٣٦٦هـ ، حين اعتذر له هذا القاضى بالمرض ، ولم يستجب إلى رجائه فى تقليد ابنه القضاء . وإنما فعل العزيز ذلك ، لأنه أدرك مدى التفاف السنيين حول أبى الطاهر ، وتألم لما كان من مظاهرة الشهود والفقهاء والتجار له فى جامع عمرو . وسرعان ما تحول نفوذ هذا القاضى السنى إلى رجل من الإسماعيلية ، هو على بن النعمان (٢ صفر سنة ٣٦٦ هـ) ، الذى ركب « إلى الجامع الأزهر فى جمع كثير وعليه خلعة ، مقلدا سيفا ، وبين يديه خلع فى مناديل ، عدتها سبعة عشر وقرىء سجله بالجامع ، وهو قائم على قدميه فكلما مر ذكر المعز أو أحد من أهله أومأ بالسجود ، ثم توجه إلى الجامع العتيق بمصر ، فوجد الخطيب عبد السميع ينتظره بالجامع ؛ وقد كاد الوقت أن يخرج ، فصلى الجمعة ، وقرأ أخوه محمد عهده ، وفيه أنه ولى القضاء على مصر وأعمالها ، والخطابة ، والإمامة ، والقيام فى الذهب والفضة (دار الضرب) والمواريث والمكاييل (٢) » .

ومهما يكن من شىء ، فقد أصبحت رياسة القضاء فى يد الإسماعيلية الشيعيين ، وعين القضاة ومعظمهم من الإسماعيلية وحتم عليهم أن يحكموا « بمذهب الإسماعيلية ، لا بمذهب الشافعى أو غيره من الأئمة السنيين ولم يكتف

---

(١) الكندى تاريخ الولاة وتاريخ القضاة ص ٥٨٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ٥٨٩ .

هذا القاضى الإسماعيلى بذلك ، بل استخلف أخاه محمدا على قضاء « تنيس ودمياط والفرما وغيرها ، فخرج إليها ، وقرر فيها نوابا ثم عاد » . ومما يدل على زيادة نفوذ على بن النعمان من الناحية القضائية ، أنه أول من لقب « قاضى القضاة » بمصر ، لأن سجله الذى قلده العزيز فيه منصب القضاء ، كان يحتم عليه « أن تكون جميع الأعمال داخلة فى ولايته[١] » .

« وظل القضاء فى يد الشيعيين من الإسماعيلية ، وبقى أولاد النعمان يتقلدون هذا المنصب ... وفى سنة ٣٩٣ هـ تقلد الحسين بن على بن النعمان القضاء فى مصر وما يتبعها من الأعمال ، وأسندت مقاليد الدعوة أول مرة لقاضى القضاة ، فغدا يطلق على ابن النعمان لقب قاضى القضاة وداعى الدعاة[٢] » .

وقبل أن نترك هذا الموضوع يجدر بنا أن نشير إلى بعض الأحكام الشرعية التى تبين رغبة المعز فى جعل القضاء الإسماعيلى هو السائد [٣]

« ذكر لنا ابن حجر العسقلانى قضية رجل ادعى ملكية حمام كان لجده ، وكان ينبغى أن ينتقل إلى أمه حسب قانون الشيعة وكان القاضى أبو الطاهر قد حكم فى هذه القضية ، بأنه لم يكن لهذا الشخص حق فى ادعاء الملكية ، لأن جده قد وقف هذا الحمام على الأعمال الخيرية ولقد أثارت هذه القضية شعور القاضيين السنى والشيعى ، وهذا الأخير قد حكم للمدعى ، وأبطل بذلك ما حكم به أبو الطاهر .

ويظهر أن هذه المسألة قد أحدثت اهتماما خاصا ، لأنها أفضت إلى الخلاف فى وجهة نظر كل من القاضيين اللذين حكم كل منهما حسب قانون المذهب الذى يدين بعقائده ويحدثنا ابن حجر نقلا عن ابن زولاق (المتوفى سنة ٣٨٧ هـ) ، أن المدعى شكا إلى الخليفة المعز . فأمر قاضيه الشيعى بأن ينظر هذه القضية ثانية[٤]

ولقد ذكر ابن زولاق أن هذه الحوادث هاجت شعور التمرد فى نفوس الشهود الذين كانوا يعملون مع ابن أبى ثوبان ، حتى إن الخليفة المعز أمر أخيرا بإبطال الحكم الذى أصدره ابن أبى ثوبان .

(١) الكندى تاريخ الولاة وتاريخ القضاة ص ٥٩٠

(٢) حسن إبراهيم حسن الفاطميون فى مصر ص ١٩٣

(٣) المصدر نفسه ص ١٩٣ — ١٩٤

(٤) الكندى تاريخ الولاة وتاريخ القضاة ص ٥٨٨

وكان من أثر هذه الحوادث أن امتنع الشهود من حضور مجالس الحكم ، التى كانت تعقد برياسة ابن أبى ثوبان ، فبدل بهم هذا شهودا آخرين ؛ ولعلهم كانوا من الشيعيين . على أن هؤلاء اضطروا إلى الاستقالة . وكان غضب أبى الطاهر والشهود سببا فى علة ابن أبى ثوبان التى أودت بحياته (١)

ونستطيع مما أدلى به ابن حجر أن نقول ، إن العلاقات بين أبى الطاهر وابن أبى ثوبان لم تكن تنطوى على شىء من الود والصداقة . وهذا من أثر الخلاف المذهبى الذى أدى بهذين الرجلين إلى الحالة التى وصفناها ، فقد أصدر القاضى الشيعى أحكامه طبقا لعقائد مذهب الشيعة ، الذى يختلف عن مذهب القاضى السنى .

ويجيز قانون الشيعة للبنت أن ترث كل ما يترك أبواها ، إذا لم يكن لها أخ أو أخت ، وهذا يخالف قانون مذهب السنة ، الذى يقضى بألا ترث البنت أكثر من نصف الثروة. ولقد تمسك القاضى الشيعى بتطبيق قانون الشيعة على أحكامه ، وغدا فى استطاعته نقض ما يصدره أبو الطاهر من أحكام » .

ومن هذا نرى أن المعز لم يتراجع فى هذه القضية إلا لأن تمسكه فيها بالحكم الإسماعيلى الفاطمى ، قد يؤدى إلى ثورة شعبية ، قد تطيح بعرشه الذى لم يكن قد استقر فى هذه البلاد تماما هذا إلى أن السنيين لم يكونوا قد ألفوا بعد ، مثل تلك الأحكام ، التى تبيح للمرأة ما تبيحه لها عقائد المذهب الإسماعيلى

(ب) الحسبة :

ومن نظم الحكم الحسبة ولسنا نعرف إلا القليل عن هذا النظام فى بلاد المغرب ، والذى لا شك فيه أن الحسبة كانت منظمة تمام التنظيم فى مصر ، فى الوقت الذى غزت فيه جيوش الفاطميين هذه البلاد . وقد عز على جوهر أن يظل المحتسب السنى فى منصبه ، لأن بقاءه يكون عقبة فى سبيل نشر مبادىء المذهب الإسماعيلى لذلك عزله فى أوائل سنة ٣٥٩ هـ ، وعين مكانه محتسبا من المغاربة الذين يدينون بعقائد هذا المذهب .

ويظهر أن المحتسب الجديد كان شديدا على أهل الفسطاط السنيين خاصة .

---

(١) الكندى : تاريخ الولاة وتاريخ القضاة ص ٥٨٨ .

وأن تعيينه وخلع المحتسب السنى لم يرق أعين كثير من الأهلين ؛ لذلك ثار الصيارفة فى سنة ٣٦٢ هـ ، لأن المحتسب الجديد أنب جماعة منهم . وقد بلغ من سخطهم أنهم نادوا نداءات أثارت مخاوف جوهر وحنقه ، بدليل ما ذكره المقريزى[1]: « عزر سليمان بن عشرة ، المحتسب ، جماعة من الصيارفة ، فشغب طائفة منهم وصاحوا : معاوية خال على بن أبى طالب ! فهم جوهر بإحراق رحبة الصيارفة ، لولا خوفه على الجامع » . وكان السنيون يصيحون بتلك العبارات العدائية تنديدا بشدة وطأة الحكم الفاطمى عليهم ، بل لقد نادوا فى سنة ٣٦٣ هـ بعبارات أشد من تلك ، ليعبروا عن مدى سخطهم على الفاطميين ، فكانوا يقولون : « معاوية خال المؤمنين وخال على بن أبى طالب » وقد حمل ذلك جوهرا الصقلى على أن يذيع من منبر جامع عمرو على الناس هذه العبارة يأمرهم فيها بالعدول عن إثارة غضب الفاطميين عليهم ، مهددا إياهم بإنزال العقاب بهم : « أيها الناس ! أقلوا القول ، ودعوا الفضول فلا ينطق أحد بهذا إلا حلت به الموجعة[2] » .

وقد أدخل شىء غير قليل من الإصلاح على نظام الحسبة فى العهد الفاطمى ، فتعددت أعمال المحتسب ، وتنوعت أساليب إشرافه . وحظى هذا النظام بقسط موفور من عناية الدولة ، وتشددوا فى اختيار من يتقلد هذا المنصب ، فاشترطوا فيه أن يكون « من وجوه المسلمين ، وأعيان المعدلين » ، لأن وظيفته وظيفة دينية . وقد تمتع المحتسب فى عهد المعز ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين بشىء غير قليل من النفوذ ، حتى أصبح من سلطته تعيين نواب عنه فى أقاليم الدولة ، أى فى حاضرتها وولاياتها المختلفة ، شأنه فى ذلك شأن قاضى القضاة . واتخذ المحتسب المسجدين الجامعين فى القاهرة والفسطاط مقرا له ؛ فكان يجلس يوما فى الجامع الأزهر ، ويوما فى جامع عمرو ، ليكون إشرافه دقيقا شاملا على كل من الرعايا السنيين والإسماعيليين على سواء .

ومن الأعمال التى تدخل فى نطاق سلطة المحتسب ونوابه الطواف « على أرباب الحرف والمعايش » ، والمحافظة على الصحة العامة ، بالإشراف على المأكولات المعروضة للبيع ، كالحلوى واللحوم ، وما إليها ، والإشراف على الطرق ، لمنع إقامة المبانى فيها ، أو استغلالها للتجارة والمحافظة على الآداب العامة ، « فيأمرون

(١) اتعاظ الحنفا ص ٨٧ .

(٢) المصدر نفسه .

السقائين بتغطية الروايا (القرب) بالأكسية ... وأن يلبسوا السراويلات القصيره الضابطة لعوراتهم ، وهى زرق » . وكان المحتسب وأعوانه يشرفون على الموازين والمكاييل ، لمنع انتشار الغش بين الناس ، وأصبح من سلطته الإشراف على دار العيار ، التى تصنع فيها تلك المكاييل والموازين .

وكان المحتسب ، أو نائبه ، يحضر فى تلك الدار ، لينظر فى المعايير المختلفة عند صنعها . فإن كانت تتفق مع النماذج الصحيحة التى أقرتها الحكومة أقرها وإلا أعادها . ولم تكن الصنج والمكاييل والموازين تباع فى غير هذه الدار . وكذلك كان المحتسب يستدعى إلى دار العيار ، التجار ، لاختبار صنجهم ومكاييلهم وموازينهم ، فيأمر بتغيير ما أصبح منها غير صالح للاستعمال ، وبإنزال العقاب بمن يحاول الغش (١)

وقد تمتع المحتسب فى العصر الفاطمى بما يتمتع به النائب العام من سلطة ونفوذ ، حتى إنه كان « لا يحال بينه وبين مصلحة إذا رآها ، والولاة تشد معه إذا احتاج إلى ذلك » . وكان فوق هذا يأمر أصحاب السفن والحمالين ألا يحملوا على سفنهم أو دوابهم أكثر من طاقتها ، وينذر معلمى الكتاتيب أن لا يضربوا الصبيان ضربا مبرحا قد يؤدى إلى الموت ، كما يحذر مدربى السباحة من التغرير بالناس ، حتى لا يتعرضوا للغرق ، وكذلك كان من حق المحتسب أن يوقع على سَيِّئِى الأخلاق العقاب الذى يراه متفقا مع جرمهم ، رادعا لهم ولغيرهم .

كل هذا يدل على ما كان لنظام الحسبة من أهمية وخطر ، كما يدل على أن الدولة الفاطمية كانت فى عهد المعز تسهر على توفير الراحة للناس ، سنيين كانوا أو شيعيين ومما نلاحظه على منصب المحتسب فى عهد المعز لدين الله ، أنه ، على الرغم من عزل المحتسب السنى ، رأى جوهر الصقلى أن وظيفته هذه يجب أن يتحكم فيها مقدار الصلة بين المحتسب والجمهور ولما كان السواد الأعظم من رعايا الفاطميين بمصر من أهل السنة ، لم يجد جوهر بدا من أن يعين فيها محتسبا سنيا ، فتقلد سليمان بن عشرة السنى الحسبة بعد موت المحتسب الشيعى

وكان راتب المحتسب لا يتفق مع أهمية العمل الذى يضطلع به وقد قدر

(١) المقريزى خطط ج ١ ص ٤٦٤ .

المقريزى هذا الراتب بثلاثين دينارا فى الشهر، لأن المحتسب ورجاله كانوا يعاونون القضاة ، ويساعدونهم مساعدة فعالة على استتباب الأمن والنظـــام ، ويقومون بما يقوم به البوليس السرى اليوم ، من تتبع الجناة والقبض عليهم وإنزال العقاب بهم .

(ح) المظالم [1]

لم يكن النظر فى المظالم فى عهد الفاطميين أقل شأنا منه فى عهد العباسيين . ولا غرو ، فقد نال هذا النظام فى عهد الفاطميين فى المغرب ومصر حظا موفورا ، فكان الخليفة المنصور يجلس للمظالم كما كان المهدى والقائم من قبل، وحذا المعز لدين الله حذو هؤلاء الخلفاء ، فأولى المظالم شيئا كثيرا من عنايته ، حتى إنه كان إذا خرج فى نزهة للترويح عن نفسه ، أحاط به المتظلمون ، فلا يجد غضاضة من النظر فى ظلاماتهم [2]

وتعتبر محكمة المظالم بمثابة محكمة الاستئناف أو مجلس الدولة ؛ فكانت تختص بالنظر فى القضايا التى يرى أصحابها أن القضاة قد عجزوا عن تنفيذ أحكامهم ، أو لم ينصفوهم من علية القوم ، كالأمراء والوزراء والحكام وغيرهم .

ولذلك كان الغرض الأول من إنشاء محكمة المظالم الحد من تعدى ذوى الجاه ؛ وهذا ما يفسر لنا إسناد رياسة هذه المحكمة إلى رجل جليل القدر مهيب معروف بالتقوى والورع

ويشيد الفاطميون بعلى بن أبى طالب ، لأنه أول من نظر فى المظالم من الخلفاء الراشدين . وكانت محكمة المظالم فى عهد الفاطميين تعقد برياسة الخليفة نفسه ، وأحيانا برياسة الوالى أو نائبه أو غيره ، ممن يأنس إليه الخليفة الفاطمى. وقد خالف الفاطميون جدهم على بن أبى طالب ، فعينوا يوما يجلس فيه صاحب المظالم ،حتى لا تتعطل أعماله . أما على بن أبى طالب فكان ينظر فى شكاوى المتظلمين حين تأتيه ، لا يتقيد بوقت من الأوقات ، وإنما كان همه إنصاف المظلومين

---

(١) المظالم من هيئات القضاء العليا ، تشبه عندنا محاكم الاستئناف . ومن ثم كان نفوذ صاحب المظالم أعلى من نفوذ القاضى : حسن ابراهيم حسن ، على ابراهيم حسن (النظم الاسلامية) ص ٣٥٢ .

(٢) النعمان المجالس والمسايرات ج ١ ص ٣١٢ ، ج ٢ ص ١٧ - ١٨ .

ومن المعلوم أن انعقاد مجلس النظر فى المظالم يتوقف إلى حد كبير على نوع العمل الذى يضطلع به صاحب المظالم، فإذا كان موظفا خصص يوما لانعقاد مجلسه، وإذا كان عمله مقصورا على النظر فى المظالم، عقد مجلسه طول أيام الأسبوع. وكانت المظالم فى عهد المعز من النوع الأول غالبا، إذ كان جوهر الصقلى يعقد مجلس النظر فى المظالم فى أيام السبت فقط، حتى يستطيع التفرغ للنظر فى مهام أعماله الكثيرة ولأهمية المظالم فى نظر جوهر، كان من الضرورى أن يحضره الوزير والقاضى وكبار الفقهاء الشيعيين خاصة. وكان يصدر الأحكام بنفسه، وهذا لا يترك مجالا للشك فى أنه كان متعمقا فى مبادىء الفقه الإسماعيلى، ولا سيما إذا علمنا أن أحكامه كانت تصدر فى حضرة كبار علماء هذا المذهب.

وعلى الرغم من أن جوهرا، كان يعقد مجلس النظر فى المظالم حيث تعرض عليه القضايا التى يتبعها الأفراد، كان صاحب المظالم يختص بما يأتى [1]

أولا: النظر فى القضايا التى ترفع من الأفراد والجماعات على الولاة. إذا حادوا عن طريق العدل والإنصاف، أو على عمال الخراج إذا حابوا جماعة وظلموا أخرى، أو اشتطوا فى فرض الضرائب وجمعها. ومثل هؤلاء كتاب الدواوين، إذا حاولوا التدليس والغش فى أموال الناس بالنقص أو الزيادة

ثانيا النظر فى المظالم التى يرفعها الجنود المرتزقة إذا نقصت أرزاقهم، أو تأخر ديوان الجند عن دفع رواتبهم إليهم.

ثالثا النظر فى إقامة العبادات، وتنفيذ الحدود الدينية، كالحج وصلاة الجمع والجهاد فى سبيل الله.

رابعا وأهم من ذلك أن هذه المجالس كانت تنظر فى تنفيذ ما عجز القاضى أو المحتسب عن تنفيذه من الأحكام

وأما انعقاد مجلس المظالم فقد رأينا جوهرا يجلس فيه فى كل سبت، وحوله الوزير

(١) الماوردى الأحكام السلطانية ص ٧٣، ٨١، حسن ابراهيم حسن، على ابراهيم حسن النظم الاسلامية: ص ٣٥٣ - ٣٥٤

والفقهاء وغيرهم (١) ثم جعل يعقده فى كل يوم أحد ؛ ولما كثرت مشاغله جعل رياسة المظالم لشخص آخر ، هو « أبو عيسى مرشد(٢)» .

والواقع أن محكمة المظالم كانت تنعقد برياسة جوهر أو نائبه أبى عيسى مرشد ، وأصبح من مميزات هذا المجلس أن يحاط صاحب المظالم بخمس جماعات ، لا ينتظم مجلسه بغير حضورهم ، وهؤلاء هم :

أولا الحماة والأعوان ، والغرض من وجود هؤلاء التغلب على من يلجأ من المتقاضين إلى العنف ، أو يحاول الفرار من وجه العدالة ؛ ويشبه هؤلاء رجال الشرطة الذين يعهد إليهم فى حراسة قاعات جلسات الحكم والإشراف عليها . ويقوم هؤلاء الحماة والأعوان بأجل الخدمات للعدالة والقضاء .

ثانيا الحكام ، ويهتمون بالإحاطة بما يصدر من الأحكام ، لرد الحقوق إلى أصحابها ؛ وينبغى أن يكونوا على علم تام ومعرفة كبيرة بما يجرى بين المتخاصمين ، « فيلمون بشتات الأمور الخاصة بالمتقاضين » وبهذا نرى أن القضاة الذين يجلسون إلى جانب صاحب المظالم يستفيدون فائدة قصوى من حضور هؤلاء الحكام ، لأنهم ينيرون للقضاة السبيل ، ليكونوا على بينة تامة بحال المتخاصمين ، فتكون أحكامهم صحيحة عادلة .

ثالثا الكتاب ، وهم ككتاب الجلسات اليوم ، ويقومون بتدوين أقوال المتخاصمين ، وحيثيات القضايا ، إلى غير ذلك

رابعا : الفقهاء ، وترجع أهمية حضورهم فى الجلسات إلى أن صاحب المظالم كان يرجع إليهم كثيرا فى كل ما يشكل عليه من أحكام ، وفى معرفة غوامض المذهب الإسماعيلى خاصة ، والمذاهب الأخرى عامة ، مما يدل على عدم استبداد صاحب المظالم أو خروجه على الشريعة

خامسا الشهود ، ولهؤلاء أهمية خاصة ، لأنهم يثبتون مايعرفونه عن الخصوم ، مما ينير الطريق أمام صاحب المظالم أضف إلى ذلك أنهم يشهدون ويقررون منافاة

( ) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٧٦

(٢) المصدر نفسه .

أحكام صاحب المظالم للشريعة والحق والعدل أوعدم منافاتها. وإذن فوجود هؤلاء يكسب أحكام صاحب المظالم قوة [١]

من هذا نرى دقة نظام القضاء وعناية الفاطميين به . ولا غرو فقد كانوا يعتقدون أن بقاءهم فى هذه البلاد يتوقف إلى حد كبير على نشر العدالة بين الرعايا ، سنيين كانوا أو شيعيين . مسلمين أو ذميين . وقد رأينا كيف انتصر المعز لإحدى سيدات البيت الإخشيدى [٢] ، وها هو ذا يعزل بعض الولاة لاستبداده بالناس

يقول النعمان[٣] : رفع إلى المعزلدين الله أن « بعض أهل الأطراف أتوا يشكون إليه عاملا كان عليهم ، ورفعت له رقعة ، وقد كانوا رفعوا قبل ذلك أخرى ، فقال عجبا لهؤلاء ! يرون أنا فى غفلة عنهم وعن غيرهم وما شغلنا إذا اشتغل ملوك الدنيا بلذاتهم ، إلا النظر فى أمور من قلدنا الله عز وجل أمره ، واسترعانا إياه وأنتم ترون ما نحن فيه فى كل يوم ، وإنما يلتذ بالدنيا من يرى أنها حظه من الآخرة . ولولا ما نعلمه لنا عند الله عز وجل ، ما نظرنا إلى الدنيا بعين ، لما نحن فيها من مزاولتها وأهلها ثم نظر إلىّ (إلى النعمان) فقال لى : قل لهؤلاء القوم : حسْبكم أن تعلموا أن خبركم انتهى ، فأمسكوا عن الشكوى ، وكان قد بعث فى عزل ذلك العامل ، فوافى بعد ذلك بأيام قليلة ، واستعمل غيره مكانه» .

ومما يدل على اهتمام المعز لدين الله بالقضاء عامة والمظالم خاصة ، أنه كان يجلس فى مصر للمظالم بنفسه أحيانا ، أو ينيب عنه غيره للنظر فيها ، حتى لقد عهد فى سنة ٣٦٣ هـ إلى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن بأن يجلسا للظالم فى جامع ابن طولون [٤] ، وأن ابن أبى ثوبان الذى سبقت الإشارة إليه ، جلس للمظالم الخاصة بالمغاربة فى سنة ٣٦٢ هـ ، ثم أخذ يجلس أيضا لمظالم المصريين ، ثم نرى المعز يرد النظر فى المظالم إلى الحسين بن عمار [٥] .

---

(١) حسن ابراهيم حسن وعلى إبراهيم حسن النظم الاسلامية ص ٣٥٣

(٢) أنظر ص من ١٤٣ هذا الكتاب .

(٣) المجالس والمسايرات ج ٢ ص ١٧ — ١٨

(٤) ابن ميسر تاريخ مصر ج ٢ ص ٤٥

(٥) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٩٥

الباب الخامس

الفن والثقافة وأهم مظاهر الحياة الاجتماعية

فى عهد المعز لدين الله

يمتاز عهد المعز لدين الله بتقدم كبير فى الفن والثقافة ؛ فقد كان هذا الخليفة كلفا بالعمارة التى خلدت اسمه فى كل من المغرب ومصر كما نهضت العلوم فى عهده ، وبخاصة العلوم الفقهية والمذهبية منها بنوع خاص ؛ فأنشأ المساجد للتدريس وإقامة الصلاة ، وجعل من قصوره منتديات علمية يقصدها الطلاب والمستجيبون وإليه يرجع الفضل فى تأسيس مدينة القاهرة ، التى لا تزال من أمهات مدن الشرق ، والجامع الأزهر الذى يعد أقدم جامعات العالم ، وقد وضع المعز أساس الفن والثقافة اللتين ازدهرتا فى عهده وفى عهد خلفائه من بعده

١ — الفن فى عهد المعز :

(ا) فى بلاد المغرب

عنى الفاطميون بالعمارة عناية بالغة ، فأسس المهدى مدينة المهدية التى اتخذها حاضرة لدولته ، كما أنشئت مدينة المحمدية فى عهده . وقد عول على بناء مدينة جديدة تحل محل المهدية ، تسمى « القائمية » نسبة إليه ، إلا أن ثورة أبى يزيد مخلد ابن كيداد حالت دون ذلك . ولما قضى المنصور على هذه الثورة أسس مدينة المنصورية . وقد اهتم هؤلاء الخلفاء ببناء القصور فى مدينتى المهدية والمنصورية وضواحيهما ولم يكن المعز أقل كلفا بالعمارة ممن جاء قبله من الخلفاء الفاطميين ، فبنى كثيرا من القصور ، وأنشأ البساتين ، وأجرى مياه العيون فى حاضرة ملكه .

ومن القصور التى بناها المعز وهو بالمنصورية ، قصره المعروف « بقصر البحر » . وقد ارتاد موضعه ، وقاس أبعاده ، ووضع تصميمه بنفسه ولم يكن إطلاق اسم

قصر البحر على هذا القصر، لأنه يطل على البحر، بل لأن المعز بناه فى أرض فسيحة، وأنشأ فى وسطه بركة أو بحيرة كبيرة، أسماها بحرا لاتساع سطحها. كما أقام قصرا آخر فى وسط البحيرة. وبذلك تكون قصر البحر من قصرين.

وقد عبر المعز عن ذلك بقوله: «أريد أن أبتنى قصرا، واحتفر فى وسطه بحرا (أى بحيرة) أجرى فيها ماء، ويكون وسط الماء قصر آخر (١)». وقد أقام المعز الجسور لتصل القصر الداخلى بالقصر الخارجى. ويشبه قصر البحر الذى بناه المعز قصور قدماء المصريين، فقد ذكر التاريخ أن أمنحتب الثالث، أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة، بنى بطيبة (الأقصر)، قصرا، وأنشأ فى وسطه بحيرة كان يتنزه فيها هو وزوجته.

وقد أنشأ المعز البساتين الغناء فى المنصورية وضواحيها ومن هذه البساتين ذلك البستان الذى أقامه فى جهة تعرف «بوادى القصارين» على مقربة من المنصورية. وكان من قبل مكانا موحشا، ينقل الناس منه الأتربة لصنع الطوب وعمل السماد إلا أن المعز رأى أن يجمل المنصورية وضواحيها، «فاغترسه، وأدار عليه حائطا، وأجرى فيه النهر، حتى أينع بأصناف الشجر والرياحين والخضر والنوار، وصار من أحسن بستان رآه الناس(٢)».

وكذلك حفر المعز لدين الله قناة كانت آية فى الروعة والدقة. وكانت تأخذ ماءها من العيون الواقعة فى خارج مدينة المنصورية فى مكان يعرف «بعين أيوب»، وتبعد عنها بأكثر من ثلاثة وسبعين ألف ذراع. ويتخلل الطريق الذى تنساب فيه هذه القناة مرتفعات ومنخفضات وصخور، ثم تنساب فى الأرض حتى تصل إلى قلب حاضرة الفاطميين.

وكان الخليفة القائم قد حاول استغلال مياه «عين أيوب» فى توصيل الماء إلى مدينة القيروان، ولكن ثورة أبى يزيد حالت دون إتمام هذا المشروع ولما ولى المنصور الخلافة، فكر فى إنجازه، لكنه عدل عن ذلك بعد أن رأى أنه يكلف خزانة الدولة جهودا وأموالا كثيرة.

---

(١) النعمان: المجالس والمسايرات ج ٢ ص ١٦٢.

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٨١ — ٣٨٢.

فلما ولى المعز لدين الله الخلافة ، كان الأمن مستتبا فى ربوع بلاده ، والرخاء شاملا ؛ لذلك أمر فى سنة ٣٤٨ هـ « أن يجرى قناة تبنى بالجص والجير ، تأخذ فى أسناد جبال ، وتمر على أودية واطئة ، يحتاج فيها إلى آزاج [١] ، يجرى الماء من فوقها . واستهال [٢] ذلك بعض من حضر ؛ فقال المعز ع م : قد هول مثل هذا التهويل على القائم ع م ، وقيل له : والله لو جعلتَ فى ساقية من زجاج ما جرت . وقيل للمنصور ع م : يحتاج أن ينفق فوق مائة ألف دينار ، ثم الله أعلم هل يصح جريها أم لا وكان ذلك سبب تركها ؛ ولا والله لا أتركها ولو أنفقت فيها أضعاف ما قيل : والله لو علمت أن الزجاجين يستطيعون أن ينشئوا لنا بيوتا من الزجاج لأمرت بعملها ، ولأجريتها فيها ، ليعلم من يهول ذلك أنه لا يهولنى ولا أستعظمه [٣] » .

ولقد درس المعز هذا المشروع دراسة وافية قبل أن يقدم عليه يؤيد ذلك قوله : « والله لقد صرت إلى ناحية تونس ، وما نظرت إلا إلى ذلك الماء ، وكيف ينتهى جريه إلى المنصورية . فلقد رأيته ممكنا ، وإنى لأرجو إذا أعان الله على هذه القناة وأوصلها ، أن يجريه بعونه وتأييده وتوفيقه [٤] » .

ومما يدل على رغبة المعز فى تجميل حاضرته المنصورية ، أنه استطاع أن ينقل إليها عمودين حجريين كبيرين ، كانا بمدينة سوســـة . ويظهر أنهما من بقايا آثار القرطاجيين أو الروم . وكانا من الضخامة بحيث « كان النظر إليهما عبرة » ، وأنه لم يمكن أحدا من « ملوك إفريقية فى الجاهلية والإسلام تحريكهما من مكانهما » . ولكن المعز لما رغب فى نقلهما إلى حاضرته ، أرسل عبيده ومماليكه ، وما أشرك معهم أحدا غيرهم ، فأتوا بهما فى أوشك مدة وأيسر مؤونة [٥] »

من هذا نرى أن المعز لدين الله لم يتوان وهو بالمغرب عن النهوض بالفن ،

---

(١) الأزج : بيت يبنى طولا ، جمعه آزاج وآزج .

(٢) استهال : استعظم الأمر

(٣) النعمان المجالس والمسايرات ج ٢ ص ١٧٢ — ١٧٣ .

(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٧٥ .

(٥) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٧٦ — ١٧٧

حتى كانت حاضرته غاصة بالميادين والبساتين ، كما كانت قصوره مضرب المثل فى الروعة والفخامة وإن ما أنشىء فى عهده فى مصر كان استمرارا لحركته العمرانية التى بدأها فى بلاد المغرب

(ب) فى مصر :

كان أهم ما يعنى به المسلمون إذا فتحوا بلدا من البلاد ، أن يؤسسوا لهم فيها مدينة يتخذونها حاضرة لهم ، ومسجدا يقيمون فيه شعائرهم الدينية . وقد سار على ذلك ولاة مصر الإسلامية ، فأسس عمرو بن العاص مدينة الفسطاط ، وبنى بها مسجده العتيق ، وأسس صالح بن على العباسى مدينة العسكر حيث بنى فيها جامع العسكر فيما بعد ، وكذلك أسس أحمد بن طولون مدينة القطائع ، وبنى بها الجامع الذى لا يزال يعرف باسمه إلى اليوم

وقد قام المعز لدين الله فى مصر بأعمال عمرانية كثيرة ، تدل على ازدهار الفن فى عصره . وعلى الرغم من أن جوهرا هو الذى قام بتأسيس مدينة القاهرة وبناء قصر الخليفة ، فان ذلك كان بوحى من هذا الخليفة فهو الذى أمره بتأسيس القاهرة لتكون حاضرة لخلافته ، كما أمره ببناء قصر يتخذه مقرا له إذا جاء إلى مصر ، ومساجد يقيم فيها الفاطميون شعائرهم الدينية .

١ — تأسيس مدينة القاهرة :

ولم يشأ جوهر أن يتخذ حاضرة ولايته فى مدينة الفسطاط ، أو فى مدينة العسكر ، كما فعل أبو جعفر المنصور ، الذى لم يتخذ دمشق حاضرة لدولته ، لأنها كانت حافلة بذكريات الأمويين ، أو هاشمية السفاح ، لقربها من الكوفة مقر الشيعة ومركز دعوتهم . كذلك لم يتخذ جوهر الفسطاط أو العسكر حاضرة لولايته ، لأنهما كانتا غاصتين بالسنيين الذين يختلفون مع الفاطميين فى المذهب الدينى .

وقد تنبأ المعز بأن جوهرا سوف يفتح مصر ، ويؤسس بها مدينة يتخذها حاضرة له ، فقال وهو يودعه أمام جمع من شيوخ كتامة « والله لو خرج جوهر هذا

وحده افتتح مصر ، ولتدخلن إلى مصر بالأردية من غير حرب ، ولتنزلن فى خرابات ابن طولون ، وتبنى كذا مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا »(١).

وضع جوهر الصقلى أساس مدينة القاهرة إثر دخوله الفسطاط ، فى ١٨ من شعبان سنة ٣٥٨ هـ (يوليو سنة ٩٦٩ م) ، كما وضع فى الوقت نفسه أساس قصر الخليفة المعز ومقر حكمه ، وأحاط مدينته الجديدة بسور من اللبن .

ويعزو المقريزى سبب بناء القاهرة بهذه السرعة وإحاطتها بسور ضخم ، إلى خوف الفاطميين من هجوم القرامطة ، مع أن الاصطدام الفعلى الذى قام بين الفاطميين وبين هذه الجماعة الإسماعيلية الثائرة لم يبدأ إلا بعد أن احتل جعفر بن فلاح بلاد الشام فى سنة ٣٥٩ هـ . وكان جوهر يدرك ذلك الفتور القائم بين المعز وبيت أحمد ابن أبى سعيد وابنه الحسن الأعصم ، الذين كانت لهم السيادة على القرامطة فى البحرين ، فاتخذ الحيطة لنفسه حتى لا يؤخذ على غرة هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، كان جوهر يعلم أن مصر كانت من أهم بلاد الدولة العباسية ، وأن العباسيين لن يفتروا عن محاولة استردادها ، وأنهم سوف يقفون منه موقفهم من جيوش المهدى من قبل . وهكذا رأى جوهر أن يعمل على درء ما عسى أن يقوم به العباسيون من محاولة لاسترداد مصر على أن هناك أمرا آخر ضاعف مخاوف جوهر الصقلى من ناحية الروم ، الذين أخذوا ـ على ما ذكرنا ـ يستردون نشاطهم ، ويكيلون الضربات للعباسيين ، ويحتلون بعض مدن العراق الشمالية ومدن الشام . ولا بد أن جوهرا كان يعلم ، أن الروم كانوا يعملون على استرداد ولاياتهم المفقودة ، ومن بينها الشام ومصر

كذلك اتخذ جوهر من القاهرة ملجأ يأوى إليه المغاربة ، أنصار الفاطميين ، ويحول بذلك بين ما قد يقع بين هؤلاء وأولئك من خلاف. أضف إلى ذلك أن مركز جوهر فى مصر لم يكن قد توطد بعد ، لأنه كان يخشى ثورة المصريين عليه. وإن بناء مدينة القاهرة يتيح الفرصة للمغاربة لإقامة شعائرهم الدينية فى أمن ودعة، من غير أن يتعرض لهم السنيون بسوء . وصفوة القول أن جوهرا اتخذ من مدينة القاهرة حاضرة

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٧٥

لولايته ، ومعقلا يصد عنه خطر المهاجمين ، ومركزا لنشر عقائد المذهب الإسماعيلى، مذهب الفاطميين .

وقد بنى جوهر الجامع الأزهر ليكون مدرسة لتعليم عقائد المذهب الإسماعيلى ، وأقام قصر مولاه المعز ، ليتخذه مقرا للحكم ، ومركزا لنشر الدعوة الإسماعيلية . وهكذا أدار جوهر «السور اللبن على مناخه (معسكره) الذى نزل فيه بعساكره ، وأنشأ من داخل السور جامعا وقصرا ، وأعدها معقلا يتحصن به ، وتنزله عساكره . واحتفر الخندق من الجهة الشآمية (الشمالية) ليمنع اقتحام عساكر القرامطة (وسواهم) إلى القاهرة وما وراءها من المدينة »[1] أى الفسطاط والعسكر والقطائع .

يقول حسن إبراهيم حسن[2] فى وصف مدينة القاهرة التى أنشأها جوهر : « وكانت هذه المدينة الجديدة محاطة بسور من آجر كبير الحجم ، شاهد المقريزى بقاياه فى سنة ٨٠٢ هـ (١٤٠٠ م) وإلى الشرق منه يقع قصر الخليفة ؛ ويعرف جزء منه الآن بخان الخليلى ، وآخر بمسجد الحسين ، وهذا (بين القصرين) أطلق على الميدان فيما بعد، بعد أن بنى العزيز بالله قصرا أصغر من القصر الذى بناه جوهر لمولاه المعز على جانبه الغربى ، عند مبدأ هذه الحديقة الغناء التى أنشأها كافور، واستحوذ عليها الفاطميون فيما بعد .

« وقد اختط طريق عام يخترق وسط القاهرة من باب زويلة جنوبا ، ويتصل بمدينة الفسطاط مارا فيما بين القصرين ، حتى باب الفتوح ؛ وكان يوصل إلى الفضاء الواقع فى الشمال . وإلى الجنوب الشرقى من قصر الخليفة ، يقع الجامع الأزهر الذى شرع جوهر فى بنائه (فى ٢٤ جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ) ، بعد أن وضع أساس القاعدة الجديدة . وقد تم بناء السور المحيط بالقاهرة سنة ٣٥٩ هـ . وإلى الجنوب منه ، تقع مدينة الفسطاط التى ظلت مركز الحركة التجارية ، وموطن الأهلين حتى نهاية عهد الفاطميين . وإلى الغرب تقع المقس ، وكانت تمتد إلى النيل ، وظلت ميناء القاهرة ، إلى أن تحول مجرى النيل فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد، فمهد ذلك لتأسيس بولاق

(١) المقريزى : خطط جـ ١ ص ٣٦١

(٢) الفاطميون فى مصر ، ص ١١١ — ١١٢

وكانت القاهرة وقت إنشائها تمتد من منارة جامع الحاكم إلى باب زويلة ؛ وكانت حدودها الشرقية هى بنفسها حدود القاهرة الحالية . وأما من الجهة الغربية فلم تتجاوز شارع الخليج » .

وقد ذكر على مبارك باشا أن طول كل جانب من جوانب مدينة القاهرة التى أسسها جوهر كان يبلغ ألفى ومائتى متر ومساحة هذا المكان ٣٤٠ فدانا ، كان القصر يشغل منها مساحة مقدارها سبعون فدانا . وكانت حديقة كافور تشغل منها خمسة وثلاثين فدانا ، وخمسة وثلاثين فدانا للمكان المخصص لاستعراض الجند ، والباقى وقدره مائتا فدان لسكنى العساكر . وقد زاد السور الذى أقامه أمير الجيوش بدر الجمالى وزير المستنصر الفاطمى فى مساحة المدينة ستين فدانا . وقد بنى هذا السور من الحجر الكبير الحجم ، وكان به ثلاثة أبواب لا تزال باقية إلى اليوم ، وهى باب زويلة ، وباب الفتوح ، وباب النصر » .

وقد سمى المعز لدين الله هذه المدينة « القاهرة » ، وكانت تسمى قبل ذلك « المنصورية » ، نسبة إلى الخليفة المنصور أبى المعز . وإذا صح أن القاهرة كانت تسمى المنصورية قبل حضور المعز إلى مصر ، فإن ذلك قد يرجع إلى أن جوهرا لم يشأ أن يقلل من شأن « المنصورية » حاضرة الفاطميين فى المغرب ، أو أنه أراد أن يبين أن حاضرته لا تفترق عن حاضرة المعز فى شىء .

ولكن لماذا لم يطلق جوهر على هذه المدينة « المعزية » كما أطلق المهدى على حاضرة خلافته اسم « المهدية » وكما أطلق المنصور اسم « المنصورية » على المدينة التى بناها ونقل إليها حاضرة خلافته ؟ فمن المعقول إذن أن يطلق جوهر على هذه الحاضرة الجديدة اسم المعزية ، نسبة إلى الخليفة الجالس على العرش وهو المعز ، لا إلى أبيه المنصور

ويظهر أن جوهرا أسماها « القاهرة » ، تحقيقا لرغبة المعز ، حين شيعه لفتح مصر وقال له «إنك ستبنى مدينة تقهر الدنيا ، تسمى القاهرة [١]» . ولا يبعد كذلك أن يكون جوهر قد أراد من وراء تلك التسمية أن يبين لمولاه المعز أنه

(١) المقريزى خطط ج ١ ص ٣٧٧ ، اتعاظ الحنفا ص ٧٣

سيحقق نبوءته ، بفتح بلاد الشام والحجاز والعراق إن أمكن ، ويتخذ حاضرة ولايته فى هذه المدينة التى ستقهر الدنيا ، أى البلاد التى كانت تابعة للعباسيين والروم .

أما إرجاع تلك التسمية «القاهرة» إلى ظاهرة فلكية ، وأن أساس مدينة القاهرة قد وضع وقت طلوع كوكب المريخ أو « القاهر » ، فيبدو بعيد التصديق . يقول أبو المحاسن[1]: « إن جوهرا لما قصد إقامة السور وبناء القاهرة ، جمع المنجمين ، وأمرهم أن يختاروا طالعا لحفر الأساس ، وطالعا لرمى حجارته ، وجعلوا بدائر السور قوائم من خشب . وبين القائمة والقائمة حبل فيه أجراس ، وأفهموا البنائين ساعة تحريك الأجراس أن يرموا ما فى أيديهم من اللبن والحجارة ووقف المنجمون لتحرير هذه الساعة وأخذ الطالع . فاتفق وقوف غراب على خشبة من تلك الخشب ، فتحركت الأجراس ، وظن الموكلون بالبناء أن المنجمين حركوها ، فألقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة فى الأساس فصاح المنجمون لا لا ، القاهر فى الطالع ! ومضى ذلك ، وفاتهم ماقصدوه وكان غرض جوهر أن يختاروا للبناء طالعا لايخرج البلد عن نسلهم أبدا ، فوقع أن المريخ كان فى الطالع ، وهو يسمى عند المنجمين القاهر ، فحكموا لذلك أن القاهرة لا تزال تحت حكم الأتراك ، وأنهم لابد أن يملكوا هذه البلد . فلما قدم المعز إليها ، وأخبر بهذه القصة ، وكان له خبرة بالنجامة ، وافقهم على ذلك ، وأن الترك تكون لهم الغلبة على هذا البلد ، فغير اسمها وسماها القاهرة »

والواقع أن هذا القول أقرب إلى الخرافة منه إلى الحقيقة ، ولكنه يشير فى الوقت نفسه إلى حقيقة مقررة ، هى ولوع الفاطميين بالنجوم ، حتى إنهم ينسبون قيام الدولة الفاطمية إلى تنبؤات فلكية ، كما يرجعون فتح مصر إلى هذه التنبؤات . على أن المقريزى الذى ذكر هذه الحكاية أيضا ، قد ذكر نفس هذه الحكاية عند كلامه على بناء مدينة الإسكندرية في عهد الإسكندر . وكان القرامطة ، وهم إسماعيلية ، جد مغرمين بالفلك أو النجامة ، كما كانوا يطلقون عليها وليس من شك فى أن المعز لدين الله كان « مغرى بالنجوم » وقد ظهرت آثار حب الفاطميين للفلك فى عهد الحاكم الذى أقام الرصد الحاكمى ، حتى قالوا إنه تنبأ بموته ، وقالوا مثل ذلك فى المعز لدين الله.

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٤١ — ٤٢

وقد ذكر أبو المحاسن (١) سببا آخر فى تسمية القاهرة بهذا الاسم ، وهو أنه كان بقصورها قبة تسمى « القاهرة » ، فسميت المدينة باسمها ويقول بعض إنها سميت بذلك ، « لأنها تقهر من شذ عنها وحاول الخروج على أميرها (٢) » .

ومدينة القاهرة رابعة حواضر مصر الإسلامية ، وهى على التوالى الفسطاط ، والعسكر ، والقطائع ، ثم القاهرة . وكان مؤسسو هذه المدن يرمون من وراء بنائها فى هذه المواضع إلى الانتفاع بماء النيل وحافة الصحراء الشرقية المعروفة بجبل المقطم لأغراض الدفاع . ويؤيد ذلك أن جوهرا لم يركز دفاعه عن مدينة القاهرة إلا فى الجهة الشمالية ، حيث أقام خندقا ضخما ، واعتمد على النيل باعتباره مركزا الدفاع عن الناحية الغربية ، وعلى جبل المقطم من الناحية الشرقية

على أن المعز لما جاء إلى مصر لم يعجبه موقع القاهرة ، وكان يرى أن تكون فى سفح جبل المقطم ، أو على شاطئ النيل . وقد عبر عن ذلك بقوله لجوهر « لما فاتك عمارة القاهرة بالساحل ، كان ينبغى عمارتها بهذا الجبل (٣) » على أننا نرى أن جوهرا الصقلى قد أصاب فى اختيار موقع القاهرة ، لأن الجند يستطيعون أن يصدوا الحملات التى تأتى عن طريق النيل ، بخروجهم من أبواب السور الغربى ، كباب سعادة ، وباب الفرج ، وباب القنطرة ، وغيرها . وبذلك يقفون فى وجه العدو إذا حاول الاستيلاء على الفسطاط وكان موقف جوهر أقوى من الناحية الاستراتيجية من موقف الروم حين هاجمهم عمرو بن العاص فى قرية أم دنين الواقعة على النيل أضف إلى ذلك أن جوهرا اتخذ ترعة الخليج مكانا للدفاع عن حاضرة ولايته ، كما فعل أباطرة الدولة الرومانية الشرقية ، الذين اعتمدوا فى الدفاع عن مدينة القسطنطينية من الناحية البرية الشمالية على قناة « القرن الذهبى » وإذا علمنا أن عمرو بن العاص لم يستطع أن يتجه إلى حصن بابليون ، إلا بعد أن قضى على معاقل الروم فى موقعة الجبل الأحمر شرقى العباسية ، أدركنا بعد نظر جوهر بتحصين

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٤٢

(٢) الدكتور على ابراهيم حسن جوهر الصقلى ص ٩١

(٣) المقريزى خطط ج ١ ص ٣٦٢

مدينة القاهرة من الناحية الشمالية ، لأن ذلك ينطوى على الدفاع عن القاهرة بل عن الفسطاط والعسكر أيضا

وتحد مدينة القاهرة المعزية ، شرقا بباب البرقية والباب المحروق (الدراسة الآن) ، وغربا بباب سعادة وباب الفرج وباب الخوخة ؛ ولم تتجاوز خليج أمير المؤمنين (شارع الخليج الآن) ؛ وتحد من الشمال بباب النصر وحارة الريحانية ، ومن الجنوب بباب زويلة القديم . وتقع الفسطاط والعسكر وخرائب القطائع فى جنوبها ، والمقس [١] غربيها ، وكانت ميناء القاهرة .

وكانت مدينة القاهرة حين بناها جوهر صغيرة ، ولكنها لم تلبث أن أصبحت من أمهات المدن فى الشرق ؛ فأصلح بدر الجمالى سورها ، وزاد فيها كثيرا . وحاول صلاح الدين الأيوبى أن يكون من القاهرة المعزية ومن الفسطاط والعسكر والقطائع مدينة واحدة ، فأحاطها جميعا بسور واحد ، لا تزال بقاياه إلى اليوم . على أن مدينة القاهرة أخذت تنمو على مر الزمن ، فامتدت فى قلب الصحراء ، وشملت العباسية ، وحدائق القبة ، وعين شمس ، وما وراءها . ولو قارنا مدينة القاهرة المعزية بمدينة القاهرة الحالية وجدنا البون شاسعا والفرق عظيما بين المدينتين

وليس من شك فى أن سكان القاهرة المعزية فى عهد المعز لدين الله كانوا من الشيعة وحدهم ، بحيث لم يكن مباحا لغير الشيعة أن يستقروا فيها وكان لهذا أثره فى تخطيط المدينة ، فقسمت إلى حارات وأقسام ، سميت بأسماء فرق الجيش الفاطمى وطوائفهم ، فأصبح لزويلة خطة وحارة تعرف باسمهم ؛ فكانت حارة زويلة من أكبر الحارات ، وتقع فى جهة الخرنفش اليوم . ولجنود برقة حارة وخطة تعرف بحارة « البرقية » فى جهة الدراسة اليوم وللفرق الرومية حارتان إحداهما فى الجنوب ، وتعرف اليوم بحارة الروم ، وكانت تسمى حارة الروم السفلى ، وتقع بقسم الدرب الأحمر الآن ، والحارة الثانية فى الشمال ، وكانت تعرف بحارة الروم العليا أو حارة الروم الجوانية ، وتقع بشارع الجمالية . وللكتاميين حارة فى الجنوب الشرقى من الأزهر تعرف بحارة كتامة وهكذا [٢]

---

(١) مكان الأزبكية إلى ميدان المحطة الآن ، وكانت تقع على النيل .

(٢) أبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٣٤ وما يليها .

قصر المعز

بنى جوهر الصقلى فى داخل مدينة القاهرة قصرا كان يسمى القصر المعزى، ليكون مقرا لهذا الخليفة. ويقال إن المعز هو الذى أمر جوهرا ببنائه، «وألقى إليه ترتيبه، فوضعه على الترتيب الذى رسمه له [(١)]». وهذا يدل على أن المعز كان يرغب فى اتخاذ مصر حاضرة لخلافته، وأنه اتخذ لهذا الأمر عدته قبل فتح هذه البلاد وكثيرا ما كان هذا القصر يسمى «القصر الشرقى الكبير»، تمييزا له عن «القصر الغربى» الصغير الذى بناه الخليفة العزيز فيما بعد.

وقد وضع جوهر أساس هذا القصر فى اليوم الذى وضع فيه أساس مدينة القاهرة المعزية، أى فى يوم الأربعاء ١٨ من شعبان سنة ٣٥٨ هـ؛ وانتهى من بنائه، وركب أبوابه فى يوم الخميس ١٣ من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ، وأدار عليه سورا متينا فى سنة ٣٦٠ هـ ولما جاء المعز فى سنة ٣٦٢ هـ، كان جوهر قد استكمل بناء هذا القصر وكان الغرض من بنائه أن يكون مقرا للخلفاء الفاطميين، فكان الخليفة يقيم فيه، ويجلس فيه للحكم، فى مجلس عرف باسم «مجلس الملك». وكان هذا القصر يشتمل على كثير من دواوين الحكومة ودور السلاح[(٢)]. وقد أعد بالمياه درءا للحريق، كما كثرت فيه الأنفاق السرية، «ولا يركب أحد فى القصر إلا الخليفة، ولا ينصرف ليلا ونهارا إلا كذلك (أى راكبا) وله فى الليل شدادات من النساء يخدمن البغلات والحمير الإناث، للجواز فى السراديب القصيرة الأقباء، والطلوع على الزلاقات إلى أعالى المناظر والأماكن، وفى كل محلة من محلات القصر فسقية مملوءة بالماء خيفة من حدوث حريق فى الليل [(٣)]».

وكان القصر المعزى من الفخامة، بحيث اعتقد بعض أنه فاق قصر لابيرانت، أو قصر التيه، الذى اتخذه أمنحتب الثالث (١٨٠١ ق. م)، أحد ملوك الأسرة

---

(١) المقريزى خطط ج ١ ص ٣٨٤

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٨٦

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٨٧.

الثانية عشرةَ مقرا لحكمه بالفيوم ، والذى بلغ عدد حجراته ثلاثة آلاف. على أن شهرة هذا القصر قد تضاءلت أمام شهرة قصر المعز ، الذى بلغ عدد حجراته ، على ما ذكره ميچون(١)، أربعة آلاف.

نعم ! كان هـذا أشبه بمستعمرة كبيرة ، حتى إن صلاح الدين الأيوبى لما قضى على الدولة الفاطمية فى أواخر القرن السادس الهجرى . واستولى على ذلك القصر ، وجد فيه أكثر من اثنتى عشرة ألف امرأة . وقد استمر القصر الكبير دارا لخلفاء الدولة الفاطمية ، منذ أقام فيـه المعز لدين الله فى اليوم السابع من شهر رمضان سنة ٣٦٢ ﻫ ، إلى أن زالت هذه الدولة فى سنة ٥٦٧ ﻫ

ومما يمتاز به هذا القصر كثرة أبوابه ، فمنها باب الذهب ، وكانت تعلوه منظرة يشرف منها الخليفة فى بعض الأوقات ، وباب العيد ، وأمامه رحبة متسعة يقف فيها الجنود فى يومى العيدين ، وتعرف برحبة باب العيد . وباب الديلم وموضعه الآن مسجد الحسين ،ويصل إلى باب الزعفران ، وهى مقبرة الخلفاء وسائر أفراد الأسرة المالكة، وموضعه الآن خان الخليلى وقد دفن المعز لدين الله فى هذه المقبرة جثث المهدى والقائم والمنصور ، وكان قد أحضرها معه من بلاد المغرب فى توابيت . وظلت هذه المقبرة مدفنا للخلفاء وأولادهم ونسائهم ، حتى أنشأ فيها ركن الدين جهاركس الخليلى ، أحد أمراء المماليك خانه المعروف باسمه ، فأخرج منها عظام الفاطميين وألقاها على تلال البرقية(٢)، بين باب الديلم وباب تربة الزعفران ، التى كان يصل منها الخليفة إلى الجامع الأزهر فى ليالى الوقود(٣). وكان يجلس بمنظرة هذا الجامع لمشاهدة الناس. ويقابل باب الديلم الجامع الأزهر فى الجنوب الشرقى من القصر وكان الخليفة يصلى فيه صلاة الجمعـة . وبجوار رحبة باب العيد ، دار الضيافة ، وكانت تسمى دار سعيد السعداء ، ويقابلها دار الوزارة . وكان هناك طريق يوصل بين باب تربة الزعفران وباب الزهومة (٤). وتقع خزائن القصر بين هذا الباب والجامع الأزهر.

(١) Migeon: L'Art Musulman, Tome i. p. 42.

(٢) المقريزى خطط ج ١ ص ٤٠٧ .

(٣) وهى الليالى التى تسبق أول شهرى رجب وشعبان ومنتصف كل منهما .

(٤) سمى بباب الزهومة ، لأنه يؤدى إلى مطابخ القصر ، ومحله الآن شارع الصاغة

ومن هذه الخزائن خزائن الكتب والشراب والأسلحة والكسى والفرش ، وكانت فى الجهة الشرقية من القاهرة المعزية . وقد تأنق المعز فى تأثيث هذا القصر بفاخر الرياش وكل ما يحتاج إليه الخلفاء والأمراء(١)

ويقع قبالة القصر الشرقى الكبير الذى بناه المعز ، القصر الذى بناه العزيز ؛ وكان أصغر منه ، لذلك يعرف بالقصر الصغير كما تقدم. وقد بنى فى موضعه المارستان الكبير المنصورى ، ولايزال بعضه إلى اليوم يعرف بسوق النحاسين. وبجواره إلى الشمال الميدان والبستان الكافورى ، ودار الضيافة القديمة ، ورحبة الإقبال . وكان بين هذين القصرين فضاء يسع عشرة آلاف فارس ، أطلق عليه فيما بعد « بين القصرين »

بناء الجامع الأزهر

شرع جوهر الصقلى فى بناء الجامع الأزهر ـ على ما ذهب إليه المقريزى(٢) ـ حول منتصف سنة ٣٥٩هـ ، وانتهى من بنائه فى رمضان سنة ٣٦١هـ ، أى بعد دخوله مصر بنحو سنتين . وقد كتب على إحدى قبابه(٣): « بسم الله الرحمن ، مما أمر ببنائه عبدالله ووليه أبو تميم معد الإمام المعز لدين الله ، أمير المؤمنين ، صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الأكرمين ! على يد عبده جوهر الكاتب الصقلى ، وذلك فى سنة ستين وثلثمائة(٤)» .

هذا والجامع الأزهر رابع المساجد الجامعة فى حواضر مصر ، فقد بنى عمرو بن العاص بمدينة الفسطاط الجامع المعروف بجامع عمرو فى سنة ٢١ هـ ، وكان يطلق عليه : المسجد الجامع ، وتاج الجوامع ، والجامع العتيق . ثم أسس العباسيون مسجدا ثانيا ، أنشأه والى مصر صالح بن على العباسى ، عرف بجامع العسكر . وقد ظل قائما حتى فتح جوهر مصر ، ولكن أزاله بدر الجمالى الذى هدم مدينة العسكر

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٧٤
أنظر أيضا كتاب جوهر الصقلى للدكتور على ابراهيم حسن ، ص ٩٤ ــ ٩٥
(٢) خطط جـ ٢ ص ٢٧٢ .
(٣) هى القبة التى فى وسط الرواق الأول ، فوق موضع المحراب والمنبر فى الايوان القديم .
(٤) خطط جـ ٢ ص ٢٧٢

لتجميل مدينة القاهرة وبنى أحمد بن طولون فى مدينة القطائع الجامع الذى لا يزال يعرف باسمه ، ولا يزال يؤمه السياح والزوار وقد أثر عنه أنه قال حين عزم على بنائه «أريد أن أبنى بناء إن احترقت مصر بقى ، وإن غرقت بقى فقيل له يبنى بالجير والرماد والآجر الأحمر القوى على النار إلى السقف ، ولا يجعل فيه أساطين رخام ، فإنه لا صبر له على النار(١)» . ولهذا بقى هذا المسجد إلى اليوم على الرغم من تخريب مدينة القطائع ، وسقوط الدولة الطولونية على يد محمد بن سليمان الكاتب قائد العباسيين فى سنة ٢٩٢ هـ .

وقد ظلت هذه المساجد الثلاثة الجامعة عامرة ، حتى جاء جوهر مصر ، فرأى أن يستقل بالصلاة فى حاضرة ولايته الجديدة . وكان السبب الذى حدا جوهرا على بناء الجامع الأزهر أنه كان يخشى ثورة السنيين على العبارات الشيعية فى الأذان والخطبة . أضف إلى ذلك أنه لم يكن بد من أن يلقن المغاربة تعاليم المذهب الإسماعيلى

ولا يعرف على وجه التحقيق سبب تسمية الجامع الأزهر بهذا الاسم ؛ وهل يرجع ذلك إلى انتساب العلويين ، وبخاصة الفاطميين منهم ، إلى فاطمة الزهراء بنت الرسول عليه الصلاة والسلام ، تيمنا بها وانتسابا إليها ، وإشادة بذكرها يظهر أن ذلك السبب أقرب إلى الصواب ، لأنه يدل على مبلغ تفانى الفاطميين فى إظهار انتسابهم إلى الرسول وتعلقهم بعلى وفاطمة .

ويرى بعض أن الأزهر سمى بهذا الاسم تنبؤا بما سوف يكون له من ازدهار العلوم والمعارف . والواقع أنه على الرغم من أن العلوم ازدهرت فى الأزهر فعلا ، نرى أنه سمى بذلك الاسم تيمنا باسم فاطمة الزهراء .

وسواء أكان هذا أم ذاك ، فإن الأزهر قد فاقت شهرته جميع المساجد الجامعة فى مصر ، ولاسيما بعد أن تحول إلى جامعة فى عهد العزيز بالله بن المعز ، وأصبح نبراسا للجامعات الإسلامية ، كما أصبح مركزا لنشر عقائد المذهب الإسماعيلى

ولم تكن مساحة الأزهر فى زمن جوهر كبيرة ، فقد تعاقبت عليه الزيادات « وتحول هذا المسجد على مر الأيام من مسجد صغير إلى مركز عظيم لنشر الثقافة ،

---

(١) المقريزى خطط ج ٢ ص ٢٦٧

وغدا يشغل مساحة قدرها ١٢٠٠٠ متر مربع . و بلغ عدد أعمدته ثلثمائة وخمسة وستين عمودا [(١)] ، كان فى المقصورة الكبيرة التى بناها جوهر وحدها ستة وسبعون عمودا ، من أجود أنواع الرخام الأبيض . وكان المعز يصل إلى هذه المقصورة عن طريق خاص [(٢)]

ومن منشآت جوهر فى الجامع الأزهر المحراب القديم الذى أمامه فى المقصورة القديمة ؛ غير أنه قد أقيمت محاريب أخرى حتى بلغ عددها تسعة محاريب . كما أنشأ منبرا ظل فى الأزهر إلى أن نقل بعد ذلك إلى جامع الحاكم شمالى القاهرة وأقام جوهر للجامع الأزهر منارة واحدة ، ثم بلغت على مر الزمن خمس منارات

وهكذا ارتقى الفن والعمارة فى مصر على يد جوهر الصقلى ومولاه المعز لدين الله .

٢ — الثقافة فى عهد المعز

وفى عهد المعز لدين الله ، تقدمت الثقافة تقدما باهرا ، وبخاصة الثقافة التى تتصل بالدعوة الإسماعيلية كالفقه والتفسير وما إليها . ونبغ فى عهده دعاة أفذاذ ، وشعراء وأدباء ، وشارك المعز نفسه فى هذه النهضة بنصيب كبير .

(ا) الثقافة العلمية :

ولا غرو فقد ازدهرت العلوم الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ورفع البويهيون والحمدانيون لواءها فى الشرق ، كما ساهم الأمويون بالأندلس فى هذه النهضة ، ولاسيما فى عهد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) . ولم يكن الفاطميون أقل شأنا فى هذه السبيل فقد كان المعز يعتقد أن النهضة العلمية يجب أن تقوم على أيدى بيت الرسول . كما كان الإسماعيلية ، وكثير من السنيين ، يعتقدون أن الإمام الإسماعيلى مصدر العلم والعرفان . وكان لمبدأ « التعليم » (من الإمام) أثره فى هذه النهضة الثقافية فى عهد الفاطميين .

وقد اشتهر المنصور أبو المعز بسعة الاطلاع ، ولم تشغله مهام الخلافة وأعباء

---

(١) حسن ابراهيم حسن الفاطميون فى مصر ص ١٢٧

(٢) النعمان : المجالس والمسايرات ج ٢ ص ١٢٥

الحكم عن البحث والتأليف (١) ؛ بل إنه كثيرا ما كان يحتم على ابنه المعز أن يتوفر على الدرس ، ويؤلف الكتب ويقرض الشعر وليس هذا وحده ، فقد حرص على حث العلماء على الاستزادة من العلم ، حتى لقد أثر عنه أنه كان يأمر قاضيه أبا حنيفة النعمان ، وغيره ، بالنظر فى القرآن وتأليف الكتب فى علومه (القرآن) . من ذلك ماقاله لقاضيه يوما : «يا نعمان ! استخرج من كتاب الله مارفضته العامة وأنكرته (٢)» .
وكان لهذه البيئة العلمية التى شب فيها المعز وترعرع ، أثرها فى تنمية مداركه وسعة اطلاعه وتضلعه فى العلوم الدينية . حتى إنه كان يحاضر العلماء من النحاة والفقهاء وغيرهم ، ويناقشهم مناقشة تدل على مقدرته العلمية ، كما كان أبوه المنصور من قبل

وكانت مكتبة المعز في المنصورية ثم فى القاهرة زاخرة بالكتب . وقد بلغ من شغفه بهذه المكتبة أنه كان يعرف مواضع ما فيها من الكتب وما تحويه من المعلومات . وقد قيل إن المعز أمر خازن كتبه أن يحضر له كتابا ، فلم يحضره على الفور ، فقام المعز وبحث عن هذا الكتاب ، ثم قرأه كما قرأ غيره من الكتب ؛ واستهواه الاطلاع ، حتى صرف معظم هذه الليلة فى القراءة ، وهو واقف على قدميه ولا غرو ، فقد كان يقول « والله ماتلذذت بشيء تلذذى بالعلم والحكمة (٣) » .

وكان المعز منذ ولاه المنصور عهده ، يعقد المجالس العلمية ، فيحضرها كبار رجال دولته ومشايخها وعلماؤها وأدباؤها ، فيظهر مقدرته الفائقة ، وإلمامه بالفلسفة وعلوم التأويل والحديث والفقه وما إليها . يدل على ذلك قول النعمان الفقيه المغربى: إن المعز « قد نظر فى كل فن ، وبرع فى كل علم ؛ وإن تكلم فى كل فن منها أربى على المتكلمين ، وكان فيها نسيجَ وحده فى العالمين . أما علم الباطن ووجوهه ، فهو بحره الذى لاتخاض لجته ، ولا يُدرك آخره . أما القول فى التوحيد ، وتثبيت الدين ، والرد على أهل افتراق البدع والملحدين ، فهو واحده وعلمه ومناره وعمدته . وأما الفقه والحلال والحرام ، ومسائل الفتيا والأحكام ، فذلك مجاله وميدانه وصنعته وديوانه . وأما الطب والهندسة ، وعلم النجوم والفلسفة ، فأهل النفاذ فى كل فن من

(١) النعمان : المجالس والمسايرات جـ ١ ص ١٦٦ — ١٦٧
(٢) المصدر نفسه جـ ١ ص ١٧٢—١٧٣ .
(٣) المصدر نفسه جـ ١ ص ٩١ .

ذلك عيال فى يديه ، وكل كلهم فى ذلك عليه ، يخترع فى كل يوم لهم الصنائع ، ويبدع لهم فيه البدائع من دقائق معانيه ، وما تحار أذهانهم فيه(١).

وكان المعز مشغوفا بكتب الباطن خاصة ، حتى كان يجد فى ذلك لذة وفخرا يصغر أمامهما جاه الخلافة انظره وهو يقول « إنى لأجد من اللذة والراحة والمسرة فى النظر فى الحكمة ، مالو وجده أهل الدنيا لاطرحوها لها . ولولا ما أوجب الله سبحانه علىّ من أمور الدنيا لأهلها ، وإقامة ظاهرها ومصالحهم فيها ، لرفضتها بالتلذذ بالحكمة والنظر فيها(٢) » .

وكان المعز يستحث همم المغاربة للتزود من العلم ، ويلوم من يتقاعد منهم عن ذلك ، فلم يكن كأولئك الأمراء الذين يرون أن الخير كل الخير فى أن يحكموا شعبا جاهلا ، لأنه يكون أكثر خضوعا واستسلاما . وكثيرا ما كان يصرح لجلسائه بأنه مما يحز فى نفسه أن يرى انهماك الناس فى اللهو والعبث دون أن يشغفوا بالبحث والاطلاع ، وتغذية عقولهم بالعلوم والمعارف . وأعجب من ذلك أن المعز كان إذا أرق ، أو أحس الملل من مشاغل الحياة ، أكبّ على الكتب يرتشف منها العلوم والفنون (٣) ومن أكبر الأدلة على حب المعز للعلم ، ورغبته المتعطشة إلى الإلمام بدقائقه ، أنه كان يجيد عدة لغات تساعده على معرفة عادات الشعوب وطبائعها ، فكان يجيد غير اللغة العربية ، اللغات البربرية والسودانية واللاتينية والأسبانية والصقلبيه(٤).

وكان المعز يعمل على تشجيع العلماء ويقربهم إليه ، ويدر الأموال عليهم ؛ كما كان يشرف على تأليف المؤلفين ويتناولها بالتعديل والتغيير ، فيحذف منها مايريد ، ويضيف إليها ما يعن له من الآراء ، وينقد المؤلفين نقد العالم الضليع وقد طلب بعض الأمراء والقضاة والمستجيبين إلى أبى حنيفة النعمان المغربى ، قاضى قضاة المعز ، أن يضع كتابا فى أخبار الأئمة العلويين وأحاديثهم ، فوضع الكتاب وأسماه « الدينار » ، ثم قدمه إلى المعز لدين الله . ومع علو قدر النعمان فى التأليف

---

(١) النعمان المجالس والمسايرات ج ١ ص ١٩٩

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٩٣

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٨٦.

(٤) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ٦٥

أمده المعز بكثير من الآراء التى تدل على قدرته فى النقد ، فكتب إلى النعمان يقول « ... وقفت على الكتاب وتصفحته ، فرأيت ما أعجبنى فيه ، من صحة الرواية وجودة الاختصار ، ولكن فيه كلمات تعتاص[1] على كثير من أوليائنا معرفتها فاشرحها بما يقرب من أفهامهم ، فيستوى فى معرفته والإحاطة بعلم ألفاظه الشريف والمشروف ، فإنه يجيء طريفا قريب المأخذ ، وسمه كتاب « الاختصار ، لصحيح الآثار ، عن الأئمة الأطهار ؛ فإن ذلك أشبه به من كتاب الدينار[2] » .

بهذا نرى المعز يساهم مساهمة فعالة فى ترويج مبادىء الشيعة ، وتحبيب الناس فى الأئمة العلويين ، كما نراه يعمل فى الوقت نفسه على نشر العلوم ، حتى لقد كان النعمان ، وهو أكثر رجال عهده اطلاعا ، يقف من المعز موقف التلميذ من الأستاذ وسنرى أن المعز لدين الله يحث هذا المشترع الإسماعيلى على تأليف كتابه القيم « دعائم الإسلام فى ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام » ، كما سنرى أنه هو الذى « أصّل أصوله ، وفرّع فروعه ، وأخبره بصحيح الروايات عن الطاهرين من آبائه عن رسول الله ﷺ[3] » .

وبذلك سن المعز لعلماء عصره هذه السنة ، حتى إن كثيرا منهم كان يقدم له كتبه ليفحصها وينقدها ، وكان شأنه مع الداعى الكبير جعفر بن منصور اليمن ، شأنه مع أبى حنيفة النعمان . وإنك لترى فى مؤلفات النعمان ، وجعفر بن منصور اليمن ، المثل الحى عن سمو الأدب الإسماعيلى فى عهد المعز لدين الله ، كما يتضح ذلك من الملاحق التى ذيلنا بها هذا الكتاب

ولم يقف ترويج العلوم والآداب فى عهد المعز عند ذلك الحد ؛ فقد فتح أبواب قصره للعلماء والطلاب ومشايخ إفريقية ، وأباح لهم جميعا الاطلاع على الكتب المختلفة ، ودراستها وانتساخها والتعلم منها ، والتفقه فيها . كما أباح للناس كافة سماع محاضرات كبار العلماء الذين كان يثق بهم ، وكان يشجع رعاياه على سماع المحاضرات

---

(١) اعتاص : صعب فهمه

(٢) النعمان : المجالس والمسايرات ج ٢ ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .

(٣) Fayzée : Cadi-An-Numan (J.R.A.S. 1934), p. 22.

التى تلقى على الناس فى قصره بالمنصورية من كتاب « دعائم الإسلام » للقاضى النعمان المغربى (١)

ومن أشهر العلوم التى اشتغل بها العلماء فى عهد المعز التفسير ، والحديث ، والمناظرة والفقه والتأويل ، والكلام ، والعقائد ، والوعظ . وصفوة القول أن المعز يعد من أفذاذ عصره فى العلم والتصنيف ، فهو الذى دعا إلى هذه الحركة العلمية المباركة ، حتى لقد نسب إليه تآليف كثير من الكتب ، مثل كتاب « الروضة » الذى يتناول الكلام على بعض النواحى الفقهية ، و « الرسالة المسيحية(٢) » ورسالته الممتعة التى بعث بها إلى الحسن الأعصم ، وما كتبه فى « المناجاة » التى يشير إليها كتاب « عقيدة الإسماعيلية » الذى نشره ستانسلاس جويار(٣) .

وكذلك نهض الشعر فى عهد المعز نهضة مباركة ، بفضل ما كان يدره على الشعراء من هبات ؛ فكانت قصوره كعبة العلماء والشعراء والمفكرين ومما يمتاز به الشعر فى عهده ، ميل الشعراء إلى الغلو المذهبى ويتضح ذلك من شعر ابن هانىء الأندلسى

ومن أشهر شعراء عهد المعز لدين الله : ابن هانىء الأندلسى ، والأمير تميم بن المعز:

١ — ابن هانىء الأندلسى(٤) :

ويلقب أحيانا بأبى القاسم ، وأحيانا بأبى الحسن ، ويسمى محمد بن هانىء ، وكان من قبيلة الأزد . ولد فى إشبيلية فى بلاد الأندلس ، وقضى صباه بها . وكان أبوه هانىء من قرية من قرى المهدية فى شمال إفريقية . وقد تجلت مواهبه فى الشعر والفلسفة وانتقل إلى الأندلس ؛ فولد له محمد ، الذى اتصل فيما بعد بصاحب إشبيلية ، وحظى

( ) النعمان : المجالس والمسايرات جـ ٢ ص ١٢٣ — ١٢٤

(٢) عجب نامه ص ٣٢٢

(٣) Ivanow : A Guide to Ismaili Literature, p. 36.

(٤) اعتمدنا فيما ذكرناه عن ابن هانىء على كتاب ,, الفاطميون فى مصر ،، للدكتور حسن ابراهيم حسن ص ١٥٣ وما يليها

عنده ، وانهمك فى الملاذ ، واتهم بمذاهب الفلاسفة الغلاة ولما اشتهر عنه ذلك ، نقم عليه أهل هذه المدينة ، وأخذوا يسيئون الظن بالملك بسببه حتى اتهمه الناس باعتناق مذهب ابن هانىء ، فأشار عليه الملك بالبعد عن هذه المدينة ، ريثما ينسى الناس ما كان من أخباره . فرحل عنها وله من العمر سبع وعشرون سنة (فى سنة ٣٤٧ هـ أو ٣٥٣ هـ = ٩٥٨م أو ٩٦٤م) ؛ فلقى جوهرا القائد ومدحه ، ثم ارتحل إلى جعفر ويحيى ابنى أحمد بن حمدان الأندلسى أمير المسيلة وإقليم الزاب ومن أنصار العلم والعلماء ؛ فبالغا فى إكرامه والإحسان إليه ، فنمى خبره إلى المعز فطلبه منهما ، فلما وفد عليه بالغ فى الإنعام عليه(١).

ولقد ناط المعز بابن هانىء الآمال الكبار ، وقدّر أنه يحاكى الشعراء العباسيين ويبذهم . يؤيد هذا القول ، أنه لما بلغت المعز وفاة ابن هانئ وهو بمصر ، أسف أسفا شديدا وقال « هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق ، فلم يقدر لنا ذلك(٢) » .

ولاشك فى أن المعز قد أصاب فيما قاله ؛ لأننا إذا تصفحنا ديوان ابن هانى الذى يقع فى مائتين وست وأربعين صفحة ، ألفينا أن أكثره قد نظم فى مدح المعز وأسرته . وليس لدينا دليل تاريخى على أن ابن هانئ انتحل مبادئ المذهب الإسماعيلى فى صباه . غير أنه لابد أن تكون نفسه قد أشربت روح العطف على هذه العقائد يدلك على ذلك ما كان من إظهار هذه العقائد عند وصوله إلى بلاد المغرب .

ويظهر أن ابن هانئ أصبح شيعيا متحمسا لهذا المذهب ، استدرارا لكرم الفاطميين ،

---

(١) لما توجه المعز إلى مصر ، شيعه ابن هانىء ، وعاد إلى المغرب لأخذ عياله واللحاق بمولاه وقد أعد ابن هانىء العدة للرحيل ، وسار يريد مصر . فلما بلغ برقة أضافه شخص من أهلها ، فأقام عنده أياما فى مجالس الأنس والطرب . ويقول ابن خلكان : إنهم عربدوا عليه فقتلوه . وفى رواية أخرى ، أنه خرج سكران ، فنام فى الطريق ، فوجد ميتا فى الصباح ؛ فلم يقف الناس على سبب وفاته . وكان ذلك فى شهر رجب من سنة ٣٦٢ هـ ، وعمره ست وثلاثون سنة ، وقيل ثنتان وأربعون .

ياقوت إرشاد الأديب جـ ٧ ص ١٢٦ — ١٢٧ ، ابن خلكان جـ ٢ ص ٥ ، المقرى نفح الطيب جـ ٢ ص ١٠

(٢) ابن خلكان جـ ٢ ص ٥

لاحبا فى عقائدهم واستمساكا بها ، حتى لقد ذهب به هذا التحمس إلى أن ينسب لحسامه من صفات التشجيع ما نسبه إلى نفسه . وقد تكلم عن ذلك فى هذين البيتين :

لى صارمٌ وهو شيعى كحامله يكاد يسبق كراتى إلى البطل
إذا المعز معز الدين سلطه لم يرتقب بالمنايا مدة الأجل (١)

وربما كان أمر انتحال ابن هانىء المذهب الشيعى راجعا إلى ما لقيه من عطف المعز وكرمه ، كما يتبين من إحدى قصائده فى مدح المعز ، حيث يذكر لنا كيف أخذ يتلمس السبيل إليه طمعا فى صلاته وعطاياه ، فيقول :

وطفقت أسأل عن أغرّ (٢) محجل (٣) فإذا الأنام جبلة (٤) دهماء (٥)
حتى دُفعت إلى المعز خليفةً فعلمت أن المطلب الخلفاء
جود كأن اليم (٦) فيه نفاثة (٧) وكأنما الدنيا عليه غُثاء (٨)

ويقول ابن هانىء فى قصيدة أخرى رائعة ، قيل إنها أول ما أنشد بالقيروان فى مدح المعز :

قد كان رشح حديده أجلا وما صاغتْ مضاربه الرقاقَ قُيون (٩)
وكأنما يَلقى الضريبة دونه بأسُ المعز أو اسمه المخزون
هذا معد والخلائق كلها هذا المعز متوّجا والدين
هذا ضمير النشأة الأولى التى بدأ الإله وغيبها المكنون
وصواهلٌ، لا الهَضْب يوم مغارها هَضْب ، ولا البيد الحزون حزون

( ) ديوان ابن هانىء ص ١٨٢

(٢) الأغر : السيد فى قومه

(٣) التحجيل بياض فى قوائم الفرس ، وقيل فى ثلاث منهن فى رجل ويدين .

(٤) الجبلة : بمعنى الطبيعة والخليقة والغريزة .

(٥) من الدهمة وهى السواد .

(٦) اليم = البحر

(٧) النفاثة = البصقة .

(٨) الغثاء = الزبد. ديوان ابن هانىء ص ٧

(٩) القيون = الحدادون

عـرفت بساعة سَبقها لا أنها ... عَلقت بها يوم الرهان عيون
وأجَلُّ عـــلم البرق فيها أنها ... مرت بجانحتيه وهى ظنـون
فى الغيث شبه من نداك كأنما ... مسحت على الأنواء منك يمين
أما الغنى فهو الذى أوليتنـا ... فكأنَّ جودك بالخلود رهين
وأذنْ له يُغرقْ أمية معلنـا ... ما كل مأذون له مأذون
النـور أنت وكل نور ظلمة ... والفوق أنت وكل فوق دون
فارزق عبادك منك فضل شفاعة ... واقرب بهم زلفى فأنت مكين (١)

وعلى هذا النحو نظم ابن هانىء مدائحه فى المعز ، معليا مآثره ، مشيدا بأحقية الفاطميين بالخلافة . وقد غلا فى ذلك فنسب إلى مولاه بعض صفات النبوة والألوهية ، وبذلك مهد السبيل لمن جاء بعده من الشعراء يدل على ذلك هذه القصيدة الطويلة التى أنشدها فى حضرة المعز ، ننقل منها هذه الأبيات :

هو عـلة الدنيا ومن خُلقت له ... ولعـلة ما كانت الأشيـــاء
ولك الجوارى المنشآت مواخر (٢) ... تجرى بأمرك والرياح رُخاء (٣)
فمنت لك الأبصار وانقادت لك الأ ... قـدار واستحييت لك الأنواء
لا تســـألنّ عن الزمان فإنه ... فى راحتيـــك يدور حيث تشاء (٤)

ولم يفتر ابن هانىء عن مواصـلة مدحه للمعز ولكننا رأيناه يغرق فيه فيجعله فى منزلة عيسى ومحمد ، بل وينسب إليه بعض صفات الألوهية ، كما يتضح ذلك فى قصيدة أخرى يقول فيها

ندعوه منتقما عزيزا قادرا ... غفار موبقة الذنوب صفوحا
أقسمتُ لولا أن دُعيتَ خليفـةً ... لدعيتَ من بعد المسيح مسيحا
شهدتْ بمفخرك السموات العُلا ... وتنزّل القرآن فيـــك مَديحا (٥)

( ) ديوان ابن هانى ص ٢١١ — ٢١٦

(٢) مقتبسة من القرآن الكريم من قوله تعالى « ومن آياته الجوار فى البحر كالأعـــلام » سورة الشورى آية ٣٢ .

(٣) سورة الصافات آية ٣٦ .

(٤) ديوان ابن هانىء ص ٧ - ١١

(٥) المصدر نفسه ص ٣٤ — ٢٦ .

ولم يفت ابن هانىء أن يعلى من شأن الانتصار الذى حازته جيوش المعز على جند البيزنطيين فى سورية حيث يقول

يوم عريض فى الفخار طويل ما تنقضى غُرر له وحجول
لو أبصرتك الروم يومئذ درت أن الإله بما تشاء كفيل
يا ليت شعرى عن مقاولهم إذا سمعت بذلك عنك كيف تقول
ودوا ودادا أن ذلك لم يكن صدقا ، وكلٌّ ثاكل مثكول
قل للدمستق مورد الجمع الذى ما أصدرته له قنا (١) ونصول
سل رهط منويل وأنت غورته فى أى معركة ثوى منويل (٢)
منع الجنودَ من القفول رواجعا تبًّا له بالمُنْدِيات قفول؟
من يهتدى دون المعز خليفة إن الهداية دونه تضليل (٣)

ومما قاله فى عيد النحر يمدح المعز ويذكر هذا العيد :

هذا ابن وحى الله تأخذ هديها عنه الملائك بكرة وأصيلا
ذَعرت مواكبُه الجبال فأعلنت هضباتها التكبير والتهليلا
وعلمتَ من مكنون سر الله ما لم يؤتَ فى الملكوت ميكائيلا
لو كان آتى الخلق ما أوتيته لم يخلق التشبيه والتمثيلا (٤)

ولقد بلغ تمجيد ابن هانىء للمعز أقصى حد يمكن أن نتصوره ، حيث ينسب إليه القدرة على المعجزات فيقول

فقد شهدتُ له بالمعجزات كما شهدت لله بالتوحيد والأزل (٥)

ويقول فى قصيدة أخرى :

ما شئتَ لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار
وكأنما أنت النبى محمد وكأنما أنصارك الأنصار

(١) القنا الرمح
(٢) أنظر ص٥٥ — ٥٨ من هذا الكتاب .
(٣) ديوان ابن هانى ص ١٤٧ — ١٥٣
(٤) المصدر نفسه ص ١٥٣ — ١٦٠
(٥) المصدر نفسه ص ١٤٦

هذا الذى تُجدى شفاعته غداً حقاً وتخمد أن تراه النار[١]

ويغلب على ظننا أن ابن هانىء تأثر فى عقائده بآراء الفلاسفة اليونان ، وأن كرم المعز أوحى إليه أن يشيد بذكر مآثر الفاطميين ، وأن يأخذ بنصيبه فيما قاموا به فى سبيل نشر دعوتهم ، كما يتجلى ذلك فى هذين البيتين من قصيدة قد تكون آخر ما نظمه هذا الشاعر ، وقد بعث بها إلى المعز وهو فى طريقه إلى مصر فيقول

وروح هُدى فى جسم نور يُمده شعاع من الأعلى الذى لم يُجسم
فأقسم لو لم يأخذ الناس وصفه عن الله لم يعقل ولم يُتوهم[٢]

٢ – تميم بن المعز (٣٧٤ ﻫ)

نشأ تميم فى المنصورية حيث ولد حول سنة ٣٣٧ ﻫ ، وأدرك عظمة الدولة الفاطمية فى المغرب ثم فى مصر وقد عهد أبوه بالأمر من بعده لأخيه العزيز ، فتوفر تميم على دراسة الأدب والشعر ، ينهل من مناهلها الصافية . ويمتاز شعره بالرقة والعذوبة مع الميل إلى الحزن والجنوح إلى الغزل والعبث أحيانا ، وبالإشادة بمآثر الفاطميين ، والغض من شأن خصومهم السنيين .

انظره وقد جمع فى شعره الرقة والعذوبة والألم والإسراف فى الحزن حيث يقول :

يادهر ما أقساك من متلون فى حالتيك وما أقلك منصفا
أتروح للنِّكس[٣] الجهول ممهدا وعلى اللبيب الحر سيفا مرهفا
فاذا صفوتَ كدرت ، شيمة باخل وإذا وفيتَ نقضتَ أسبابَ الوفا
لا أرتضيك وإن صفوتَ لأننى أدرى بأنك لا تدوم على الصفا
زمنٌ إذا أعطى استرد عطاءه وإذا استقر بدا له متحرفا
ما قام خيرك يا زمان بشره أولى بنا ما قل منك وما كفى

ويدلك على إمعانه فى الحزن قوله

أما والذى لا يملك الأمر غيره ومن هو بالسر المكتم أعلم

---

(١) ديوان ابن هانىء ص ٩٦ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٨٨

(٣) النكس الرجل الضعيف الذى لا خير فيه ، الذى يقصر عن النجدة والكرم ، وجمعه أنكاس

لئن كان كتمان المصائب مؤلما   لإعلانها عندى أشد وآلم
وبى كل ما يبكى العيون أقله   وإن كنت منه دائما أتبسم

ومن شعره الذى يمتاز بالمعانى الطريفة والألفاظ الحلوة قوله :

دم العشاق مطلول   ودَيْن الحب ممطول
وسيف اللحظ مسلول   ومُبدى الحب معذول
وإن لم يصغ للائم

* * *

وأحورُ ساحر الطرف   يفوق جوامعَ الوصف
مليح الدَّل والظرف   جنت ألحاظه حتفى
فمن يعدى على الظالم؟

يعنفنى على حبى   ويهجرنى بلا ذنب
كأنى لست بالصب   لقهوة ريقه العذب
أما فى الحب من راحم ؟

وله فى الغزل

وما بلد الإنسان إلا الذى به   له سكن يشتاقه وحبيب
إلى الله أشكو وشك بيْن وفرقة   لها بين أحشاء المحب ندوب
تُرى عندهم علم وإن شطت النوى   بأن لهم قلبى علىَّ رقيب ؟ (١)

وله فى الغزل أيضا

لا تظلموا الناس ولا تطلبوا   بثأرى اليوم أذَى مسلم
ويا لقومى دونكم شادنا   معتدل القامة والمبسم
وإن أبى إلا جحودا له   واكتتمَ الأمر فلم يعلم
قولوا له يكشف عن وجهه   فإنّ فيه نقطةً من دمى (٢)

وكان تميم يفخر بانتسابه إلى فاطمة بنت الرسول ، ويغض من شأن العباسيين ،

(١) الثعالبى يتيمة الدهر جـ ١ ص ٢٥٤

(٢) المصدر نفسه

فيرد على ابن المعتز العباسي الذى كان يشيد بالعباسيين ، ويذم العلويين فى قصيدته التى يقول فيها

هاشمىٌّ إذا نسبت ومخصو ... ص ببيت من هاشم ، غير عار
أخــزن الغيظ فى قلوب الأعادى ... وأحلُّ الجبَّار دار الصغار

فيرد عليه تميم فى قصيدة من نفس الروى والقافية يقول فيها

يا بنى هاشم ولسنا سواء ... فى صغار من العلا وكبار
إن نكن ننتمى لجد فإنا ... قد سبقناكمُ لكل فخار
ليس عَبَّاسكم كمثل على ... هل تقاس النجوم بالأقمار ؟

والواقع أن العلويين كانوا يفخرون بانتمائهم إلى على وفاطمة ، ويعبرون عما كانوا يشعرون به من حزن وألم لما كان يحيق بهم من محن وخطوب ، فنرى أبا منصور نزار بن المعز يقول فى رثاء ولده :

نحن بنو المصطفى ذوو محن ... يجرَّعها فى الحياة كاظمنا
عجيبة فى الأنام محنتنا ... أوَّلنا مبتلىً وآخرنا
يفرح هذا الورى بعيدهم ... طرا وأفراحنا مآتمنا

(ب) الثقافة المذهبية .

١ — ثقافة الدعوة الإسماعيلية فى المغرب .

لم يقف نشاط المعز على نشر الثقافة العامة وحدها ، بل تجاوزه إلى نشر مبادىء المذهب الإسماعيلى ، فوضع نظاما دقيقا لتمثيل هذه المبادىء فى عقول الإسماعيلية ، أو المؤمنين كما كان يطلق عليهم .

ولم يدخر المعز وسعا فى نشر عقائد المذهب الإسماعيلى بين أشياعه بل كان قاضى قضاته النعمان ينتهز فرصة اجتماع هؤلاء بعد صلاة الجمعة وصلاة العيدين فى مسجد المنصورية الجامع ، فيقرأ عليهم محاضرة أو « منشورا » فى عقائد هذا المذهب ،

---

(١) الثعالبى يتيمة الدهر جـ ١ ص ٢٥٤

كما كان هذا القاضى يلقى على الإسماعيلية فى القصر منشورا « من الحكمة والوصايا والموعظة والعلم الحقيق »[١]

وبذلك وضع المعز لدين الله أساس مجالس الحكمة التى كان لها فى مصر شأن يذكر. وقد خصص هذا الخليفة يوم الجمعة لتدريس منشوراته، كما خصص ابنه العزيز ومن جاء بعده من الخلفاء فى مصر يومى الاثنين والخميس لإلقاء مجالس الدعوة أو مجالس الحكمة على المؤمنين والمؤمنات. أضف إلى ذلك أن المعز جعل من قصره ومن مسجد المنصورية مدارس لنشر عقائد المذهب الإسماعيلى، وحذا خلفاؤه حذوه، فجعلوا من الأزهر ومن قصورهم فى المكان المعروف باسم المحول فى القصر الشرقى الكبير فى القاهرة أماكن لبث العقائد الإسماعيلية

والواقع أن الخلفاء الفاطميين فى المغرب كانوا يعنون بنشر تعاليم الدعوة الإسماعيلية. وقد ذكر المعز أن أباه المنصور كان يشرح له بعض كتب الباطن الرمزية الخاصة بشرح معانى الحروف الأبجدية والكتب التى ورثها عن المهدى، وأن أباه المنصور كان يهتم بتدريس هذه الكتب له اهتماما بالغا، حتى إنه كان يقول له : « كنت أحب أن أعيش لك أكثر مما عشت لأفيدك وأزيدك[٢] »؛ وضرب المعز نفسه بسهم وافر فى شرح هذه الكتب

ولما ولى المعز الخلافة أصبح نشر الدعوة الإسماعيلية جزءا من سياسة الدولة، وسن هذا الخليفة سُننا إسماعيلية، وحتم على الرعية قبولها والعمل بها، مما يدل على أن المعز لدين الله قد عمل فى جد ونشاط على نشر الدعوة، واستغل مركزه الحكومى فى سبيل تحقيق هذه السياسة. ولذلك نراه فى سنة ٣٤٩ هـ يحتم على أئمة المساجد ومؤذنيها أن يذكروا فى الأذان عبارة « حىّ على خير العمل »، وأن يقرءوا : بسم الله الرحمن الرحيم فى أول كل سورة، ويكبروا على الجنائز خمسا، ولا يؤخروا العصر، ولا يبكروا بالعشاء الآخرة، ولا تصيح امرأة وراء جنازة، ولا يقرأ العميان على القبور إلا عند الدفن[٣].

(١) النعمان المجالس والمسايرات ج ٢ ص ٦٣٠

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١٦٣

(٣) ابن عذارى البيان المغرب، فى أخبار المغرب ج ١ ص ٢٣١.

ويظهر أن المعز لدين الله قد خصص وقتا لأخذ العهود على المستجيبين ، ولم يرض أن ينوب عنه دعاته . وإنما كان يرمى من وراء ذلك إلى إثارة حماسة أتباعه ، لكى يلتفوا حول إمامهم وخليفتهم ومن ثم أخذ المستجيبون من مشارق الأرض ومغاربها يفدون عليه وكان المستجيب يرى الفخر كله فى لثم يد الخليفة ، وأخذ العهد عليه دون غيره ولاغرو ، فقد كان المعز ينتهز فرصة اجتماع هؤلاء الغرباء ، ويعمل على تلقينهم مبادىء الدعوة التى راجت بفضل هذه السياسة فى كافة أرجاء العالم الإسلامى ، وساعدت على اتصال مدينة المنصورية بغيرها من المدن الإسلامية

وكان المعز نفسه يؤلف الرسائل والمحاضرات ، ويبعث بها إلى النعمان ، فيلقيها على الناس دون زيادة أو نقص وبهذا اشتهر بيت النعمان فى مصر فى عهد الخليفة العزيز وخلفائه ، حيث كانوا يلقون على مسامع الأتباع والمستجيبين المحاضرات الممهورة بإمضاء الخليفة . وكان من أثر ذلك أن « كثر المستجيبون ، وعظمت رغباتهم ، وأقبلوا من كل أفق يقطعون البحار والقفار، إلى ذلك ، من نيل رحمته[١] ».

ولم يقتصر نشاط المعز على « المنشورات » التى يضعها ويلقيها قاضى قضاته ، والاجتماعات التى تعقد فى المسجد أو فى القصر لسماع هذه المنشورات ، بل عنى هذا الخليفة عناية فائقة بتلقين أشياعه خصائص المذهب الإسماعيلى وأسراره ، أو علوم الباطن كما كانوا يسمونها ولذلك أخرج من خزائن كتبه كثيرا من هذه الكتب ومنحها النعمان ، وأعد له فى قصره مكانا آخر يلقى فيه هذه الكتب . وقد أقبل الإسماعيلية على سماع محاضرات النعمان إقبالا أثار إعجاب المعز وتقديره . وإذا كانت مجالس الحكمة بالقاهرة فى عهد العزيز قد حفلت بالمستمعين حتى مات بعض من شدة الزحام ، فإن « مجالس الباطن » التى كان المعز يعقدها فى قصره بالمنصورية كانت لا تقل فى روعتها عن مجالس الحكمة فى القاهرة ، « فكثر ازدحام الناس ، وغص بهم المكان ، وخرج فى احتفالهم عن حد السماع ، وملئوا المجلس الذى أمر باجتماعهم فيه ، وطائفة من رحبة القصر ، وصاروا إلى حيث لا ينتهى الصوت إلى آخرهم[٢] »

(١) النعمان : المجالس والمسايرات جـ ٢ ص ٦٣٢

(٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٢٨٩ .

إذن كانت هنـاك دعاية تقوم بهـا الدولة تحت إشراف الخليفة المعز ، ويقوم بها كبار دعاته وكان الغرض من هذه الدعاية نشر مبادئ المذهب الإسماعيلى بين الناس ، وبخاصة المستجيبين منهم وعندنا أن مجالس القصر أو محاضرات الباطن هذه ، كانت لا تلقى إلا على المستجيبين وحدهم . وهـذا لا يمنعنا من القول بأن من يحضر لسماع هـذه المحاضرات كانوا لا يدخلون هـذه المجالس إلا بعد التحقق من أشخاصهم فإن كانوا من المستجيبين ، أذن لهم ، وإلا عادوا من حيث أتوا ومما يدل على أن هؤلاء كانوا من المستجيبين ، أنه لما كثر عددهم ، وعجز النعمان عن أن يسمع جموعهم الحاشدة ، فكر فى أن ينحى عن مجالس الباطن هؤلاء الذين لم تتسع مداركهم لفهم المحاضرات التأويلية ، ليلقى عليهم معلومات أقل تعمقا فى التأويل من تلك المعلومات التى تلقى فى مجالس القصر . إلا أن المعز أبى ذلك ، لأن الجميع «قد شملته الدعوة» ، واستشهد بقوله تعـالى « وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقو ربهم[١]» ، وقوله تعالى: «ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون[٢]» . وإنما فعل المعز ذلك لأنه لم يشأ أن يحرم مستجيبا من تلقى علوم الباطن ، أو علوم أهل البيت كما كانوا يسمونها[٣]

وإذا كانت مجالس القصر تعد من مجالس الباطن التى لا يحضرها إلا المستجيبون من الإسماعيلية ، فإن مجالس المسجد الجامع كانت تلقى على الناس كافة ، سواء أكانوا من السنيين أم الشيعيين . ولذلك كان المعز يعنى عناية بالغة باعداد هذه المحاضرات التى أطلق عليها « المنشورات » ، ليسهل فهمها على الإسماعيلية والسنيين على سواء .

وكان لهذه المجالس أثرها فى كافة أنحاء البـــلاد الإسلامية ، حيث أخذ دعاة الإسماعيلية يلقون فى أصول المذهب الإسماعيلى ، محاضرات على غرار المحاضرات التى كانت تلقى فى حاضرة الدولة . وكان الخليفة المعز نفسه يزودهم بمنشوراته التى تلقى فى مساجد المنصورية وقصورها ، كما يتضح ذلك فى هذه العبارة التى أمدنا بها النعمان المغربى وصار للإسماعيلية «بكل مصر جماعة وألفة واجتماع على طلب العلم

(١) سورة هود آية ٢٩

(٢) نفس السورة آية ٣٠

(٣) النعمان المجالس والمسايرات جـ ٢ ص ٢٨٩ — ٢٩٢ .

والحكمة ، وبث فيهم صلى الله عليه وسلم ما يُقرأ عليهم . وتواترت علىّ كتب جماعة من أهل ذلك ، من قريب البلدان وبعيدها ، يسألون الزيادة من فضله ونعمته ، فرفعت ذلك إليه ، وسألت إسعافهم ببعض ما يخرجه به ، ليقرأ على من بحضرته المرْضيـة وأنهيت إليه رغباتهم وسؤالهم ، فوقع إلىّ كثّـر الله المؤمنين ، ومحق الكافرين . وما سألت وسألوا إلا ما ينبغى إسعافهم به ونحن نتصفح من ذلك ما يصلح لهم ، وننفذه إليهم ، إن شاء الله تعالى[1] » .

وبفضل هذا التنظيم كانت رسل دعاة المعز يفدون عليه فى المشرق ، يحملون إليه الأموال والتحف والطرف والكتب التى تؤكد له ، « ما هم عليه من صلاح الأحوال ، واستقامة الأمور ، وظهور الكلمة ، وانبساط الدعوة[2] » .

لذلك كان المعز يختار للبلاد الإسلامية الأخرى دعاة من العلماء الأذكياء ، وكان إذا وجد داعيا « متخلفا » عن كبار علماء عصره ، همَّ بعزله وتولية غيره وهذا يعلل لنا نجاح هذه النهضة الثقافية ، عن طريق نشر الدعوة الإسماعيلية ، التى راجت فى القرن الرابع الهجرى ، كما يبين لنا فى جلاء هـذه السياسة التى سار عليها المعز فى تثقيف أتباعه ، دعاة كانوا أو مستجيبين .

ومن أهم ما تمتاز به كتب الدعوة الإسماعيلية فى عهد المعز فى المغرب ، أنها كانت زاخرة بالنصائح التى توجه الدعاة ليسيروا على هديها فى تلقين عقائد المذهب الإسماعيلى ، وليكونوا من « الفراسة » بحيث يستطيعون أن يميزوا بين المستجيبين ، ويلقنوا كل واحد منهم بمقدار استعداده فإذا كان خصومهم أقوياء ، لجأ الدعاة إلى الباطن والتأويل ، وهـذا ما يفسر اعتماد الإسماعيلية على الدعاة المأذونين لأنهم لا يأذنون بالدعوة إلا إلى العلماء القادرين منهم ، أو بالأحرى لم « يأذنوا فى الكلام إلا لمن ارتضوه وأطلقوا ذلك له[3] » .

ومن الوصايا التى كان الدعاة يسيرون على هديها ، ما أورده أبو حنيفة النعمان

(١) النعمان المجالس والمسايرات ج ٢ ص ٦٣٢ ـ ٦٣٣ .

٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٦٦٣ .

(٣) النعمان كتاب الهمة وفضل الأئمة ج ١ ورقة ٢٠ .

المغربى فى قوله « متى ناظرك من ترى أنه ألحن(١) بالحجة منك ، فاستتر بالباطن ، يعنى أن يقطع كلامه ، ويومى إلى أن فى ذلك باطنا لا يتهيأ له ذكره ، ولا يتمادى فى الكلام ، إلى أن يظهر عليه مخاصمه ، فيكون ذلك فتنة ، وداعيا إلى الإصرار على ما هو عليه ، ولكن يبقيه على شبهة من أمره ، إن كان قد وجل فى مناظرته وإن علم أنه ألحن منه قبل المناظرة ، لم يناظره ، واستتر كذلك بالباطن منه ما أمكنه ، لأن احتجاج المبطلين ربما شبهوا به ، وخيلوا للسامعين أنه الحق(٢) »

وقد رسمت كتب الدعوة الرسمية الخطة التى يسير عليها الداعى فى تلقين مبادىء الدعوة ، فيسير معهم خطـًا متئدة ، حتى لا يضع « البذور فى أرض سبخة » ، فلا ينحرف عن السبيل ، أو ينعكس عليه قصده ، فتصاب الدعوة بالخيبة والخذلان . ومن ثم نرى الدعاة يلمون بأحوال المدعوين ، ويسيرون فى معاملتهم إياهم على وفق أصول المذهب الإسماعيلى ، فيتدخلون فى شئونهم الخاصة وقد أوضح المشترع الإسماعيلى ما يجب أن يكون عليه الدعاة فى علاقاتهم بمدعويهم فى هذه العبارة فقال

« ينبغى للداعى اختيار أمر من يدعوه ، وتعرف أحوالهم رجلا رجلا ، وتميز كل امرىء منهم ، ومعرفة ما يصلح له أن يؤتى إليه ، ويحمله عليه من أمر الله وأمر أوليائه ، ومقدار ما يحمله من ذلك ، ومدى قوته وطاقته ، ومتى يوصل ذلك إليه ؛ وكيف يغذوه به ، وامتحان الرجال ، وتعرف الأموال ، ومقدار القوى ، ومبلغ الطاقات . وعلم ذلك هو أفضل ما يحتاج إليه الدعاة فى باب السياسات والرياضيات(٣) » .

ولم يكن هذا كل ما حددته كتب الدعوة فى تنظيم العلاقة بين الداعى ومدعويه ، وقد رسمت للدعاة الخطوط الرئيسة التى يسلكونها مع مدعويهم ، فأبانت لهم وجوب الظهور بمظهر الوقار والإجلال ، ليكون ذلك مدعاة إلى تفانى المدعوين فى الالتفاف حولهم ، وأن يكون مصدر هيبة الداعى ووقاره « حسن الصمت ، وخفض الجناح ، ولين الجانب ، وحسن العشرة ، وجميل المخالفة ، من غير تجبر عليهم ، ولا تكبر

(١) ألحن بالحجة أقوى حجة

(٢) النعمان كتاب الهمة ج ٢ ص ٨٨

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٨٨

عليهم ، بل يكون التواضع سيماه ، والوقار همته »(١)

كذلك وضعت رياسة الدعوة الإسماعيلية للدعاة نظم الحكم بين المدعوين ، وقررت لهم مبادىء لاتقل صراحة عن تلك المبادىء الفقهية ، التى يصدر القضاة أحكامهم على وفقها ، فحتمت على الدعاة إثابة المحسن ، وزجر المخالف ، وعقابه ، إلا أنها سمت العقوبة التى تقع على أهل الدعوة بالتأديب ومن أهم هذه العقوبات التىسنت لتربية المؤمنين ، أى الإسماعيلية ، وتأديبهم ، إقصاء المعاقب وهجره ، بحيث يهجره الداعى، ويهجره إخوانه من الإسماعيلية المستجيبين ، «فيبقى مهجورا فى قومه ، مبعدا فىأهله وخاصته » ، وتغريمه الأموال ، أو الحكم عليه بالأشغال الشاقة . ومن وسائل تأديب المدعوين ، تبكيت الداعى وتوبيخه على مسمع من الجميع وجلده أو سجنه ، وإن استحق القتل أمر الداعى بقتله . ويلاحظ أن رياسة الدعوة تركت للدعاة الحرية فى اختيار العقوبة التى تتناسب مع ذنب المدعو .

وهكذا كان للإسماعيلية فى البلاد التى يدعون فيها لمذهبهم تشريع خاص فى معاملتهمأهالى هذه البلاد ، كما كانت لهم ثقافة وصلاة وأذان وضرائب مقررة . ولا غرو ، فإن كل إسماعيلى، مهما بعدت دياره ، كان يحن إلى الدولة الفاطمية ، ويسعى إلى إرضائها ، ويلبي ما تفرضه عليه مبادئها ونظمها ، كما كان يعتقد أن المعز إمامه الحق ، الذى يجب عليه أن يتجه إليه بقلبه . ومن ثم أخذت أموال الإسماعيلية تتدفق على المنصورية ، حتى كان المعز يتمتع بخمس ما يملكه أشياعه ، الذين كانوا يلبون نداء رياسة الدعوة والدولة ، ذلك النداء الذى يتجلى فى هذه العبارة القصيرة : « فما كسب أحدكم من كسب ، أو أفاد من فائدة ، فليخرج خمسه فى وقت وصوله إليه ، فيرفعه إلى إمامه »(٢).

بهذا كله نستطيع أن نقول ، إن المعز لدين الله وجه الدعوة الإسماعيلية توجيها عليما صحيحا ، سواء أكان ذلك فى حاضرة خلافته أم فى البلاد التابعة له ، أم بين الإسماعيلية فى البلاد الأخرى ، خارج حدود إمبراطوريته فكان فقهاء المذهب الإسماعيلى يلقون مبادئ هذا المذهب فى صـــورة محاضرات أو منشورات

(١) النعمان كتاب الهمة ج ٢ ص ٨٩ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٣ .

فى أوقات معينة ، على الرعايا تارة وعلى الأشياع أخرى ، وكانوا يلقون هذه المحاضرات فى المساجد أحيانا ، وفى قصر الخليفة بالمنصورية أحيانا أخرى

ولم يكن هذا كل ماقام به المعز ودعاته؛ فقد وضع كثيرا من الكتب التى تعمق أشياع المذهب الإسماعيلى فى دراستها وأقبل المستجيبون على مجالسها ، وأغرم المعز نفسه بإعداد المحاضرات وتذييلها بإمضائه ، ليكون تأثيرها فى النفوس أشد كما كانت رياسة الدعوة بالمنصورية على اتصال دائم بالمدعوين الذين كان يرسل إليهم منشوراته أو محاضراته ، فيهرعون إلى سماعها فى شغف ولذة

انظر المعز يعظ بعض دعاته ، وكانوا قد قدموا عليه بأموال كثيرة من المشرق ، ثم عولوا على العودة إلى بلادهم ، وأظهروا الأسف لفراق إمامهم قائلين: «لاجعل الله آخر عهدنا بك ، فما أشد علينا فراقك ، لولا مانرجوه فى امتثال أمرك . وإنا لذلك شخصنا عنك وفارقناك» فقال لهم (المعز) صلع : إذا كان اعتقادكم ولايتنا، وامتثال أمرنا وطاعتنا والتسليم لنا ، ووصلتم ذلك قولا وفعلا ، فأنتم معنا حيث كنتم متصلة أرواحكم بأرواحنا ، ومودتكم بمودتنا ومن كان على خلاف ذلك ، لم ينفعه قربه منا، لأن الاتصال لايكون بتقارب الأجسام ، وإنما يكون عن تقارب الأنفس؛ فأنفسكم ، ما كنتم على ماوصفنا ، قريبة من أنفسنا ، وإن بعدت الأجسام ، ونأت المنازل ، ومطابقة الولاية أخص وأقرب وألصق من مطابقة الأهل والقرابة . وأنتم واجدون منا ما لا تجدونه من الآباء والأمهات ؛ إن أحسنتم أحسنتم إلى أنفسكم ، شكرنا ذلك من أمركم ، وعرفنا فضله لكم ، وجزيناكم به ؛ وإن أسأتم صفحنا عما يجب صفحه عنكم . وكل إنسان منكم ينظر لنفسه ، ويكدح لها . ونحن نتظر ونعنى بصلاح جميعكم ، فأعينونا على ذلك ، بتقوى الله وامتثال أمره ، والانتهاء بنهيه . فإنكم إذا فعلتم ذلك ، أصلح الله حالكم ، وأجزل أجوركم ، وأقر أعينكم ، وأعيننا بكم . وعن قريب ترون من صنع الله وفضله ماتحبونه إن شاء الله[1]» . وهذه العبارة الأخيرة تكشف لنا عن تفكير المعز فى فتح مصر ، ومد نفوذ الفاطميين إلى المشرق

---

(١) النعمان المجالس والمسايرات جـ ١ ص ٣٦٣ — ٣٦٤ .

وكان من أثر هذه الدعاية العلمية المنظمة أن انتشرت الدعوة ، وذاعت فى مصر والشام خاصة ، وفى بلاد الدولة العباسية عامة ، مما أدى إلى اعتقاد أنصار الدعوة أن المشرق قد أصبح فى قبضة المعز ، حتى كانوا يقولون له وهو بالمنصورية « ما يمنع أمير المؤمنين من المشرق ، ولا يحول دونه إلا أنه لم ير العزم فى أمره ؛ فأما لو عزم على ذلك لما حال دونه حائل[١] »

وكان لهذه الدعاية المنظمة أثرها فى فتح مصر بقيادة جوهر . فقد رأينا اتصال المدعوين فى هذه البلاد بالخليفة المعز قبيل الفتح ، كما رأينا اتصال أنصاره فى سلمية ، حتى كان المعز يعبر عن ثقته فى إخضاع جميع بلاد المشرق[٢] . ويرجع الفضل فى ذلك كله إلى هذه الدعاية المنظمة

٢ — الدعوة الإسماعيلية فى مصر :

حكم الفاطميون إفريقية قبل تحول خلافتهم إلى مصر أكثر من نصف قرن ، وكانت آمالهم تتجه إلى هذه البلاد ، لحسن موقعها الجغرافى الذى يساعدهم على الإغارة على بلاد الدولة العباسية ، وصلاحيتها لنشر الدعوة الإسماعيلية ولذلك لم يكد جوهر يستقر فى مصر ، حتى أسس مدينة القاهرة التى حلت محل المنصورية حاضرة الفاطميين فى المغرب ، بعد وصول المعز إلى مصر فى سنة ٣٦٢هـ ، وأصبحت مركزا رئيسا لنشر الدعوة الفاطمية .

وكانت سياسة جوهر الصقلى مع المصريين ، تدل على شىء كثير من المهارة ، فقد سار فى حكم هذه البلاد فى حذر وتؤدة ، ولم يشأ أن يواجه المصريين بالانتقال الفجائى من المذاهب السنية إلى المذهب الإسماعيلى فأمر بإبطال الخطبة للخليفة العباسى من مصر ، وأقامها للخليفة المعز الفاطمى ، فى كافة أرجاء البلاد ، وضرب السكة باسم الخليفة الفاطمى بدلا من اسم الخليفة العباسى ، فكتب على أحد وجهيها : « باسم مولانا المعز » ، « دعا الإمام معد بتوحيد الإله الصمد » ، وفى السطر الثانى « المعز لدين الله

---

(١) النعمان المجالس جـ ٢ ص ٤٧٦

(٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٩٤ — ٩٥ .

أمير المؤمنين » ، وفى السطر الثالث « باسم الله ، ضرب هذا الدينار بمصر سنة ثمان وخمسين وثلثمائة » . كما كتب على الوجه الآخر : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، أرسله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون ، علىّ خير الوصيين ، وزير خير المرسلين[١] » .

كذلك أمر جوهر بإبطال السواد شعار العباسيين ، الذى اتخذه الأمراء وكبار الموظفين فى عصر الإخشيديين وأمر الخطباء بارتداء الملابس البيض ، شعار الفاطميين ، وأعدّ المصريين لقبول عقائد الفاطميين ولذلك نهى الناس عن التكبير بعد صلاة الجمعة ، وكان من العادات المألوفة عند السنيين[٢] ، وأقام ، كما رأينا ، رئيس ديوان المظالم ، ونظر فيها بنفسه ، وأصدر أحكامه على وفق عقائد المذهب الإسماعيلى مذهب الفاطميين ، فدل ذلك على رغبة الفاطميين الصريحة فى محاولة نشر الدعوة للمذهب الإسماعيلى بين المصريين تدريجيا

الدعوة الفاطمية فى المساجد

لم يكن نشر الدعوة الإسماعيلية من مساجد مصر بدعة جديدة ، فقد رأينا كيف كانت مساجد المنصورية تغص بالإسماعيلية الذين كانوا يلتفون حول دعاتهم ، حين يلقون عليهم المحاضرات فى أصول المذهب الإسماعيلى . ولذلك اتخذ جوهر بعد أن فتح مصر ، من مساجدها أمكنة لتلقين مبادىء المذهب الإسماعيلى حقيقة كان الغرض من بناء المساجد فى مصر أن تتخذ أماكن للصلاة ، إلا أنه سرعان ما اتخذت هذه المساجد كغيرها من المساجد ، مدارس يتلقى فيها الطلاب أصول الدين . ولم يقف الحال عند هذا الحد ، فقد أصبح المسجد المكان الذى تذاع فيه الأخبار الهامة التى تتعلق بالمصلحة العامة[٣] ، وغدا القضاة يتخذون من المساجد أماكن يقضون فيها بين المتخاصمين ، واتخذ الفاطميون المساجد مراكز لنشر شعائر مذهبهم

---

(١) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ٧٦ . وقد رأينا كيف عمل جوهر على الحط من قيمة الدينار العباسى ، حتى يمحو جميع آثار العباسيين من مصر

(٢) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ٧٦

(٣) Margoliouth Cairo, Jerusalem and Damascus, p. 40.

١ — الدعوة الفاطمية فى مسجد عمرو :

ما كاد جوهر الصقلى يستقر فى مصر ، حتى أخذ يعمل على إعداد عقول الناس وأذهانهم ، لتقبل عقائد المذهب الإسماعيلى ، مذهب الفاطميين

« وقد أقيمت صلاة الجمعة فى المسجد العتيق ، وخطب فيه للمعز فى التاسع عشر من شعبان سنة ٣٥٨ ﻫ (٩٦٩ م) ، أى بعد استيلاء جوهر على الفسطاط بأيام قليلة . وقد خطب فى هذا اليوم هبة الله بن أحمد خليفة إمام الجامع ، وأدخل فى خطبة الجمعة ، العبارة الآتية ، التى حلت محل العبارات التى كانت تقال فى عهد العباسيين . قال الخطيب

« اللهم صل على عبدك ووليك ثمرة النبوة ، وسليل العزة الهادية المهدية عبد الله الإمام معد أبى تميم ، المعز لدين الله أمير المؤمنين ، كما صليتَ على آبائه الطاهرين وأسلافه الأئمة الراشدين اللهم ارفع درجته ، وأعل كلمته ، وأوضح حجته ، واجمع الأمة على طاعته ، والقلوب على موالاته ، واجعل الرشاد فى موافقته ، وورثه مشارق الأرض ومغاربها ، وأحمده مبادىء الأمور وعواقبها ، فإنك تقول وقولك الحق (ولقد كَتبنا فى الزبور من بعد الذّكر أنَّ الأرض يرثُها عبادِى الصالحون[١]) . فقد امتعض لدينك ، ولما انتُهِك من حرمتك ، ودَرَس من الجهاد فى سبيلك ، وانقطع عن الحج إلى بيتك وزيارة قبر رسولك ﷺ فأعد للجهاد عدته ، وأخذ لكل خطب أهبته ، فسيّر الجيوش لنصرتك وأنفق الأموال فى طاعتك ، وبذل المجهود فى رضاك ، فارتدع الجاهل ، وقصر المتطاول ، وظهر الحق وزهق الباطل . فانصر اللهم جيوشه التى سيرها ، وسراياه التى ندبها لقتال المشركين وجهاد الملحدين ، والذب عن المسلمين ، وعمارة الثغور والحرم ، وإزالة الظلم ، وبسط العدل فى الأمم اللهم اجعل راياته عالية مشهورة ، وعساكره غالبة منصورة وأصلح به وعلى يديه ، واجعل لنا منك واقية عليه[٢] » .

---

(١) سورة الأنبياء آية ١٠٥

(٢) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ٧٥ — ٧٦ .

وكانت هذه الخطبة (١٩ من شعبان سنة ٣٥٨ هـ) إيذانا بنهاية نفوذ العباسيين فى مصر وبداية لصراع مذهبي عنيف بين الفاطميين والعباسيين ، استمر أكثر من قرنين وإن إقامة الخطبة للخليفة الفاطمى فى جامع عمرو ، هى صورة موجزة من ذلك البيان الذى أذاعه جوهر الصقلى على المصريين[١].

وقد أخذ الخطيب يشيد فى هذه الخطبه بفضائل الأئمة الإسماعيلية الذين اغتصب العباسيون حقهم فى الإمامة والزعامة ، وتشير كلمة الجهاد التى عرج الخطيب عليها إلى ذلك البرنامج الحافل الذى وضعه الفاطميون لمحاربة الروم والقرامطة والعباسيين وغيرهم.

وإن الدعاء للخليفة المعز فى مصر، ليصور فى جلاء ذلك المظهر الدينى ، الذى ظهر به الفاطميون ، للوصول إلى أغراضهم الدنيوية ، كما يبين أن جوهرا الصقلى والمعز لدين الله قد بدأ ذلك النزاع الدينى الذى قام بين الشيعيين والسنيين فى مصر ذلك النزاع الذى سوف يحتدم وتظهر آثاره بعد عهد المعز[٢]

وقد وجدت العقائد الإسماعيلية الشيعية فى مصر مرعى أكثر خصبا ونماء منه في بلاد المغرب فى شهر ذى القعدة من سنة ٣٥٨ هـ ، زاد جوهر فى الخطبة هذه العبارة ، التى تدل على رغبة الفاطميين فى جذب رعاياهم إلى أهل البيت : « اللهم صل على محمد المصطفى ، وعلى علىّ المرتضى ، وعلى فاطمة البتول[٣]، وعلى الحسن والحسين سبطى الرسول ، الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيرا اللهم صل على الأئمة الراشدين ، آباء أمير المؤمنين ، الهادين المهديين[٤]»

كما أمر جوهر فى جمادى الأولى من سنة ٣٥٩ هـ (٩٧٠ م) بأن يزاد فى الأذان بجامع عمرو عبارة « حى على خير العمل ! » التى تميز الأذان السنى عن الأذان الشيعى . كما أمر بقراءة البسملة قبل الفاتحة فى الصلاة ، بصوت مرتفع، بخلاف ما يفعله السنيون ، مما يدل على إمعان الفاطميين فى نشر الدعوة للمذهب الإسماعيلى بصورة

---

(١) انظر ملحق ٢ من هذا الكتاب .

(٢) حسن إبراهيم حسن الفاطميون فى مصر ص ١٢١

(٣) التى انقطعت عن الدنيا إلى الله تعالى

(٤) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ٧٧ .

جدية بمحاولة غزو العقائد والأفكار السنية تدريجيا ولم يقنع جوهر بهذا كله فقد أمر فى رمضان من سنة ٣٥٩ هـ بنقش جدران الجامع العتيق وسواريه باللون الأخضر (١)

هذه أهم التغييرات الدينيـة التى أدخلها جوهر الصقلى لنشر الدعوة للمذهب الفاطمى من جامع عمرو ، ومنها نرى أن الفاطميين لم يعملوا على صبغ السنيين بالصبغة الإسماعيلية عن طريق العنف وإنما لجئوا إلى سياسة الدهاء والإغراء واستطاع جوهر بفضل هذه السياسة أن ينال شيئا غير قليل من النجاح . أضف إلى ذلك أن الخلفاء الفاطميين فى مصر أخذوا يعملون من جانبهم على إدخال كثير من مبادىء الشيعة وإذاعتها عن طريق المسجد العتيق وغيره من المساجد

٢ — الدعوة الفاطمية فى جامع ابن طولون :

لم يستطع جوهر الصقلى أن ينشر من جامع ابن طولون ما كان ينشره من جامع عمرو ، إلا بعد مدة طويلة لا تقل عن ثمانية أشهر. ففى يوم الجمعة الثامن عشر من شهر ربيع الثانى سنة ٣٥٩ هـ ، أدخل شىء غير قليل من خصائص الدعوة الإسماعيلية ؛ فأدخل المؤذنون على الأذان عبارة « حى على خير العمل » التى تميز أذان الفاطميين عن أذان السنيين . ولم تلبث هذه العبارة أن استعملت فى مسجد العسكر وفى الجامع العتيق بالفسطاط . وعلى هذا النحو استغل الفاطميون عنصر الزمن ، فبدءوا بإقامة الخطبة فى جامع عمرو ، ثم أدخلوا فى الأذان العبارات التى كانت مألوفة عند الشيعيين.

وقد سر القائد جوهر لذلك النجاح ، وبعث للمعز يزف إليه هذه الأنباء (٢) وحضر جوهر بنفسه للصلاة فى جامع ابن طولون فى يوم الجمعة ١٨ من ربيع الثانى سنة ٣٥٩ هـ ، وازدحم المسجد بالمصلين . ومما هو جدير بالملاحظة أن عبد السميع الذى أسندت إليه رياسة الخطباء بمصر ، هو الذى أخذ على عاتقه تنفيذ برنامج الفاطميين ، فأذاع خطبهم ، ونشر مبادئهم من فوق المنابر ، وأخذ يشيد فى الخطبة بأئمة أهل البيت

---

(١) كان اللونان الأبيض والأخضر من الألوان المحببة إلى الفاطميين ، ولذلك كان الخطباء يلبسون الملابس البيض .

(٢) حسن إبراهيم حسن الفاطميون فى مصر ص ١٢٣ .

لأول مرة فى جامع ابن طولون ودعا للقائد جوهر ، فاعترض عليه ، ولم يقرّه على مافعل ، واحتج بأن الخليفة المعز لم يأذن له بإدخال اسمه فى الخطبة . كذلك حتم جوهر على الإمام أن يجهر بالبسملة فى الخطبة والصلاة والقنوت (١) فى صلاة الجمعة بعد الركعة الثانية ، مع أن السنيين لا يقنتون فى صلاة الجمعة ، وإنما يفعلون ذلك فى صلاة الصبح وفى الوتر فى النصف الثانى من شهر رمضان غالبا

من ذلك كله نستطيع أن نقول: إن الخطبة للفاطميين قد بدأت فى جامع عمرو ، ثم تلتها فى المساجد الأخرى ؛ وإن الأذان بدأ من جامع ابن طولون ثم فى مساجد العسكر والفسطاط .

كما يجب أن نلاحظ أن التغييرات التى أحدثها جوهر الصقلى فى مصر لم تكن تمت إلى أصول الشريعة بصلة ، وإنما تمت إلى فروعها ونوافلها . فلم تكن إضافة عبارة «حى على خير العمل» ، أو القنوت فى الصلاة ، أو الدعوة للمعز لدين الله فى الخطبة بدل الخليفة العباسى ، مما يطعن فى عقائد الفاطميين ، أو يثير كراهية السنيين عليهم . على أن هذه التغييرات إن دلت على شىء ، فإنما تدل على الخطة التى عول الفاطميون على أن يسلكوها فى مصر ، والتى تتلخص فى أنهم عولوا على ألا يتدخلوا فى عقائد السنيين ، أو يحاولوا تغييرها . وبحسبهم أن ، يضموا إلى هذه العقائد السنية بعض العبارات ، التى يتميز بها المذهب الإسماعيلى ، ولا سيما فى مساجد الفسطاط والعسكر والقطائع ، بخلاف ما كانت عليه الحال فى مساجد القاهرة المعزية ؛ فقد كانت التغييرات المذهبية فيها أكثر شمولا ، وعلى الأخص بعد سنة ٣٦٥ هـ ، فاتخذوا من الأزهر مدرسة لتعليم أصول المذهب الإسماعيلى ، ودراسة خصائص الدعوة الإسماعيلية بعيدا عن السنيين . ومن ثم نرى الاعتراض الذى لقيته السياسة المذهبية الفاطمية ينبعث من ناحية الأهالى ، الذين لا يقيمون فى القاهرة المعزية ، أى من أهالى الفسطاط والعسكر

---

(١) يقول بعض العلماء : القنوت فى الجمعة بدعة . وكان مكحول الدمشقى يكرهه ، ولم يؤثر عن أحد من الصحابة أنه قنت فى الجمعة . وقال أبو بكر بن أبى شيبة : (نا) يحيى بن أبى بكير قال حدثنى أبى : قال: ,, أدركت الناس قبل عمر بن عبد العزيز يقنتون فى الجمعة ؛ فلما كان زمن عمر بن عبد العزيز ترك القنوت فى الجمعة ،، المقريزى اتعاظ الحنفا ص ٧٩ .

٣ – الدعوة الفاطمية فى الأزهر

ذكرنا من قبل أن الفاطميين اتخذوا الأزهر مركزا لنشر مبادىء المذهب الإسماعيلى ، وأن جوهرا صلى فيه أول جمعة فى اليوم السابع من شهر رمضان سنة ٣٦١ ﻫ .

« أما ما كان هنالك من زيادة فى الأذان والخطبة ، منذ أقيمت الصلاة فى الأزهر إلى أن وصل المعز إلى القاهرة فشىء لم يكشف لنا التاريخ الستار عنه ويلوح لنا أن ما زيد فى الخطبة والأذان فى الجامع العتيق ، ومسجد ابن طولون هو الذى أدخل على الخطبة والأذان فى الأزهر[1] » .

والواقع أنه لا بد أن يكون جوهر قد أدخل هذه الزيادات فى الأزهر ؛ ولا غرو فإنه أصبح أكثر حرية فى نشر عقائد مذهبه فى داخل أسوار القاهرة دون أن يلقى معارضة من السنيين إلا أنه ينبغى أن نعلم أن جوهرا قد حرص على عدم إثارة سخط السنيين فى مصر ، وأنه كان يخشى فى بادىء الأمر أن يأخذ السنيين على غرة فى المساجد بإضافة هذه العبارة إلى الخطبة وهى « السلام على الأئمة آباء أمير المؤمنين المعز لدين الله ». ولكن المعز لم يكد يصل إلى مصر حتى « تطورت الحالة تطورا محسوسا من حيث تنظيم الدعوة الفاطمية على يد الخلفاء أنفسهم[2] » .

وقد اتخذ المعز وابنه العزيز من بعده ، الجامع الأزهر مكانا رئيسا لإقامة خطبة الجمعة . فلما فتح مسجد الحاكم أصبحت الخطبة فى مساجد عمرو وابن طولون والحاكم والأزهر على التوالى . وبذل الفاطميون قصاراهم فى تزيين الأزهر والعناية به ، فأناروه بالأنوار الساطعة فى أيام الأعياد ، وزينوا منارأته بأبهى الزينات . وهذا ما حدا المعز على بناء المنظرة ، التى أطلق عليها اسم « منظرة الجامع الأزهر » ، لمشاهدة هذه الزينات

ومن أهم التغييرات التى أدخلت على الدعوة الإسماعيلية ، أن المعز أمر على أثر

---

(١) حسن إبراهيم حسن الفاطميون فى مصر ص ١٢٤

(٢) المصدر نفسه

وصوله إلى مصر بأن ينقش على جدران الفسطاط عبارة «خير الناس بعد رسول الله ﷺ أمير المؤمنين على بن أبى طالب» ، هذه العبارة التى لا تختلف كثيرا عن عبارة «حى على خير العمل» و «محمد وعلى خير البشر» التى أبطلها نورالدين محمود صاحب حلب ، والتى يستعملها الشيعيون والإسماعيلية منهم بوجه خاص، فى الأذان. وقد قيل إن محمود نور الدين أمر فى سنة ٥٤٣ ﻫ الفقهاء أن يصعدوا المنارات فى وقت الأذان لمنع المؤذنين من ذكرها وقال لهم «مروهم يؤذنوا الأذان المشروع ، ومن امتنع كبوه على رأسه[1]»

وكذلك صلى المعز لدين الله العيد سنة ٣٦٣ ﻫ فى مصلى القاهرة ، التى بناها جوهر فى خارج «باب النصر» (سنة ٣٥٨ ﻫ) ، على طريقة الإسماعيلية ، فقرأ فى الركعة الأولى فاتحة الكتاب ، فسورة الغاشية ، ثم كبر ، وأطال الركوع والسجود ، فسبح نيفا وسبعين تسبيحة فى كل ركعة وسجدة. وكان محمد بن النعمان القاضى يبلغ عنه التكبير. وقرأ المعز فى الركعة الثانية فاتحة الكتاب ، فسورة الضحى ، ثم كبّر ، وفعل ما فعله فى الركعة الأولى ، وجهر بالبسملة ، محتذيا فى ذلك حذو على بن أبى طالب

« ولما فرغ الخليفة المعز من الصلاة ، صعد المنبر وسلم على الناس يمينا وشمالا فقال: «السلام عليكم ورحمة الله !» وكان أعلى المنبر وسادة من ديباج مثقل ، أعدت لجلوس الخليفة بين الخطبتين . وكان معه على المنبر جوهر ، وابن عمار من رؤساء كتامة ، وشفيع صاحب المظلة ، بعد ذلك نشر العلمان اللذان كانا على المنبر ، وقرأ الخليفة خطبة أخرى من خلفهما ، فبدأها بالبسملة جهرا ، وأعقبها بالتكبير مرتين. وقد ألقى الخطبة فى خضوع وخشوع ، وكانت من الفصاحة والتأثير بحيث استدرت دموع المصلين[2]» . وعاد بعد الصلاة إلى قصره فى موكب حافل ، يحف به أبناؤه وحاشيته ، ودعا الناس إلى موائده ، وتهدد من بلغه أنه صام العيد[3]، لا لأن الصوم غير مقبول فى أيام التشريق ، بل لأن عادة الفاطميين قد جرت بأن يصوموا

(١) المقريزى خطط ج ٢ ص ٢٧١

(٢) حسن ابراهيم حسن الفاطميون فى مصر ص ١٢٦ .

(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٩١ — ٩٢ .

أو يفطروا من غير أن يكترثوا لرؤية هلال شوال أو رمضان ، وإنما كانوا يهتمون بمراعاة عدد أيام الشهور

وقد سن المعز لخلفائه سنة خطبة الجمعة فى شهر رمضان وفى الأعياد ، سواء أكان ذلك فى الأزهر أم فى سواه ونستطيع أن نقتطف شيئا مما ذكره أبو المحاسن فى وصف خطبة الجمعة فى عهد المعز ومن جاء بعده من الخلفاء نقلا عن ابن عبدالظاهر، قال : « وأما عظمُ الخليفة (المعز) فى أيامه . وما كانت قاعدته وطريقته، التى رتّبها ودامت من بعده عادة لكل خليفة ، فشىء كثير . من ذلك أنه كان يخطب فى شهر رمضان ثلاث خطب ، ويستريح فيه جمعة ، وكانوا يسمونها جمعة الراحة[1]. وكان إذا أراد أن يخطب ، يتقدم متولى خزانة الفرش إلى الجامع ، ويغلق المقصورة التى برسم الخليفة ، والمنظرة وأبواب مقاصيرها ، وبادهنج[2] المنبر ، ثم يركب متولى بيت المال وعلى يد كل واحد منهما تعليقه وفرشه وهى عدة سجادات مفروزة[3] منطّقة ، وبأعلاها سجادة لطيفة لا تكشف إلا عند توجه الخليفة إلى المحراب . ثم يفرش الجامع بالحصر المفروزة مما يلى المحراب ـ وكان ذلك بجامع الأزهر قبل أن يبنى الحاكم جامعه ، ثم صار بعد ذلك بجامع الحاكم . ثم يهيأ للداخل للجامع مثل ذلك ، ثم يطلق البخور ، وتغلق أبواب الجامع ، ويجعل عليها الحجاب والبوابون ، ولا يمكن أحد أن يدخله إلا من هو معروف من الخواص والأعيان . فإذا كان حضور الخليفة إلى الجامع ضربت السلسلة من ركن الجامع إلى الوجه الذى قبالته ، ولا يمكن أحد من الترجل عندها .

« ثم يركب الخليفة ، ويسلم لكل واحد من مقدمى الركاب فى الميمنة والميسرة أكياس الذهب والورق ، سوى الرسوم المستقرة والهبات والصدقات فى طول الطريق . ويخرج الخليفة من باب الذهب والمظلة بشدة الجوهر على رأسه ، وعلى الخليفة الطيلسان[4] ، فعند ذلك يستفتح المقرئون بالقراءة فى ركابه بغير

(١) كانت جمعة الراحة غالبا الجمعة الأولى من شهر رمضان .

(٢) معرب بادخون ، والمراد به الفتحتان الجانبيتان فى المنبر .

(٣) الثوب المفروز ما كانت له تطاريف أى شراريب .

(٤) الطيلسان كساء مدور أخضر لا أسفل له ، وهو معرب .

رهجة[١] ، والدكاكين مزينة ، مملوءة بأوانى الذهب والفضة ، فيسير الخليفة إلى أن يصل إلى وجه الجامع ، ووزيره بين يديه ، فتحط السلسلة ، ويتم الخليفة راكبا إلى باب الأزهر الذى تجاه درب الأتراك[٢] ، فينزل ويدخل من باب الجامع إلى الدهليز الأول الصغير ، ومنه إلى القاعة المعلقة التى كانت برسم جلوسه ، فيجلس فى مجلسه ، وترخى المقرَمة الحرير ، ويقرأ المقرئون ، وتفتح أبواب الجامع حينئذ . فإذا استحق الأذان أذن مؤذنو القصر كلهم على باب مجلس الخليفة ورئيس الجامع على باب المنبر ، وبقية المؤذنين فى المآذن . فعندما يسمع قاضى القضاة الأذان ، يتوجه إلى المنبر فيقبّل أول درجة ، وبعده متولى بيت المال ، ومعه المبخرة ، وهو يبخره ، ولم يزالا يقبّلان درجة بعد درجة إلى أن يصلا ذروة المنبر ، فيفتح القاضى بيده التزرير ، ويرفع الستر ، ويتناول من متولى بيت المال المبخرة ، ويبخر هو أيضا ، ثم يقبلان الدرج أيضا وهما نازلان . وبعد نزولهما يخرج الخليفة والمقرئون بين يديه بتلك الأصوات المشجية ، إلى أن يصل إلى المنبر ويصعد عليه . فإذا صار بأعلاه ، أشار للوزير بالطلوع ، فيطلع إليه وهو يقبل الدرج حتى يصل إليه ، فيزر عليه القبة ثم ينزل الوزير ويقف على الدرجة الأولى ، ويجهر المقرئون بالقراءة ، ثم يكبر المؤذنون ، ثم يشرع المؤذنون فى الصمت ، ويخطب الخليفة . حتى إذا فرغ من الخطبة . طلع إليه الوزير ، وحل الأزرار ؛ فينزل الخليفة ، وعن يمينه الوزير ، وعن يساره القاضى ، والداعى بين يديه — والقاضى والداعى يوصلان الأذان إلى المؤذنين — حتى يدخل المحراب ويصلى بالناس ويسلم .

« فإذا انقضت الصلاة أخذ لنفسه راحة بالجامع بمقدار ما تعرض عليه الرسوم وتفرق ؛ وهى للنائب فى الخطابة ثلاثة دنانير ، وللنائب فى صلوات الخمس ثلاثة دنانير ، وللمؤذنين أربعة دنانير ، ولمشارف خزانة الفرش وفراشها ومتوليها لكل ثلاثة دنانير ، ولصبيان بيت المال ديناران ، ولمعبئ الفاكهة ديناران . وأما القراء فكان لهم رسوم غير ذلك ومن حين يركب الخليفة من القصر إلى الجامع حتى يعود ، الصدقات تعم الناس[٣] » .

(١) الرهج ويحرك ، الغبار والسحاب بلا ماء ، والرهجة الشغب أيضا

(٢) وهو الآن قبالة باب الأزهر المسمى باب المغاربة.

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٠٢ — ١٠٤

من هذه الوثيقة نرى أن الفاطميين فى مصر ، نهجوا ، منذ أيام المعز ، نهجا دينيا اجتماعيا لم يألفه المصريون من قبل ويرجع ذلك إلى أن مصر كانت إلى أن وصل إليها المعز دار إمارة لا دار خلافة ؛ فلم يكن الوالى السنى فى صلاته أو خطبته يعمل مايعمله الخلفاء الفاطميون . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، كان السواد الأعظم من المصريين يدينون بعقائد المذاهب السنية ، ومن ثم لم ينظروا إلى الخلفاء الفاطميين كما ينظر إليهم الشيعيون ، لذلك كانت هذه التقاليد الفاطمية تبدو غريبة عليهم ولكنهم ألفوها على مر الزمن ونظروا إليها كما ينظر المتفرج إلى المناظر الغريبة عليه .

وفى الحق أن المعز لدين الله أدخل فى مصر شيئا غير قليل من خصائص المذهب الإسماعيلى ، التى لم يكن للمصريين بها عهد من قبل ؛ فكان يكبر فى صلاته على الميت تكبيرات تتناسب فى كثرتها وقلتها مع مكانة الميت وقربه من الأئمة ، مقتفيا فى ذلك أثر جده على بن أبى طالب ، الذى كان يكبر على الميت بقدر ما يتناسب مع مكانته . وهذا يخالف ما ذهب إليه السنيون الذين يكبرون على الميت أربع تكبيرات فقط[1] . ولذلك نرى المعز يصلى فى الأزهر على بعض بنى أعمامه ، فيكبر على أحدهم سبع تكبيرات ، ويكبر على آخر خمس تكبيرات . ولو أنه صلى على هؤلاء فى مسجد غير مساجد القاهرة لأثار عليه السنيين .

ومما يوضح هذه السياسة التى سار عليها الإسماعيلية إزاء السنيين ، احتفال المعز بعيد الغدير[2] . ولأول مرة فى تاريخ مصر يشهد المصريون احتفالات رائعة ، يرمى القائمون بها إلى تقديس أشخاص الأئمة والإشادة بمذهبهم ، ويربطون عليا بالرسول برباط وثيق حقيقة كان علىّ أول من أسلم من الصبيان ، وكان ابن عم الرسول

---

(١) المقريزى خطط ج ٢ ص ٥٣

(٢) هو غدير خم : ويقع بين مكة والمدينة ، ويعتقد الشيعة أن الرسول اجتمع مع على فى هذا الغدير ، يوم ١٨ من ذى الحجة سنة ١٠ هـ ، وتآخى معه . ومن ثم اعتبر الشيعة هذا اليوم عيدا ، يحتفلون به فى مشارق الأرض ومغاربها . ويقول المقريزى (خطط ج ١ ص ٣٨٨) : إن معز الدولة بن بويه كان أول من احتفل به فى سنة ٣٥٢ هـ ، فأخذ الشيعيون يحتفلون به منذ ذلك الوقت.

وزوج ابنته فاطمة ، وأشجع من دافع عن الإسلام فى أدوار محنته ، كما كان موضع تقدير الرسول ، وأحب الناس إلى قلبه لكن الشيعة رأوا أن يحاربوا العباسيين بنفس سلاحهم ، لأن هؤلاء يقولون ، إن العباس جدهم عم الرسول ، وإن على بن أبى طالب جد العلويين ، ابن عمه ، والعم أقرب من ابن العم بالطبع . ويقولون أيضا : إن العباس يرث الرسول بالعصبية ، وإن أبناء فاطمة بنت الرسول لا يستطيعون ذلك ، كما يتبين من قول شاعر العباسيين

أنَّى يكون وليس ذاك بكائن لبنى البنات وراثة الأعمام ؟

عمل العلويون على محاربه العباسيين ، كما تقدم ، فأوحوا أن الرسول آخى عليا فى يوم الغدير ، وأنه « أخذ بيد على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، فقال ألستم تعلمون أنى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ قالوا بلى ! قال : ألستم تعلمون أنى أولى بكل مؤمن من نفسه ؟ قالوا : بلى ! فقال من كنت مولاه فعلىّ مولاه . علىّ منى بمنزلة هارون بن موسى ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله وكانوا يرمون من وراء ذلك إلى أن يصبغوا دعواهم فى الخلافة والإمامة بصبغة شرعية .

وإن عيد الغدير الذى احتفل به المعز ولا يزال الشيعيون يحتفلون به إلى اليوم ، يؤيد النظرية التى يقول أصحابها: إن على بن أبى طالب ولى عهد الرسول دون سواه ، وإنه كان يجب أن يخلفه فى زعامة المسلمين . ومن ثم يرى الشيعيون أن أبا بكر وعمر وعثمان ، وبنى أمية ثم بنى العباس اغتصبوا حق الخلافة من على وأبنائه(١). وبذلك عمل المعز على جذب أنصار الخلفاء الراشدين والأمويين ثم العباسيين إلى الدعوة الفاطمية ، وأنه أستطاع التأثير فيهم . وقد عنى المعز بالاحتفال بعيد الغدير عناية فائقة ، وحذا خلفاؤه حذوه فى هذه السبيل ، فأصبح الاحتفال بيوم ١٨ ذى الحجة من كل سنة من أهم الاحتفالات الدينيه ، التى كانت تهتز لها جوانب القاهرة فرحا وسرورا ، ويقف منها السنيون موقف المتفرجين المعجبين ، لأنها كانت من عوامل تسليتهم . ويعد عيد

---

(١) ويروون أن عمر بن الخطاب قال لعلى ,, هنيئا لك يابن أبى طالب أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة،، .

الغدير ، كما تقدم ، من أهم أعياد الفاطميين ، فيهنىء الإسماعيلية بعضهم بعضا ، وينحرون فيه أكثر مما ينحرون فى عيد الأضحى ، لأنهم يفضلون عيد الغدير عليه .

يقول ابن زُولاق(١) : « فى يوم ثمانية عشرة من ذى الحجة سنة اثنتين وثلثمائة ، وهو عيدالغدير ، تجمع خلق من أهل مصر والمغاربة ومن تبعهم ، للدعاء ، لأنه يوم عيد ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم ، عهد إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب فيه واستخلفه ؛ فأعجب المعز ذلك من فعلهم . وكان هذا أول ما عمل بمصر » . ويقول المسبحى(٢) فى يوم الغدير هذا : « اجتمع الناس بجامع القاهرة (الأزهر) ، والقراء والفقهاء والمنشدون ؛ فكان جمعا عظيما أقاموا إلى الظهر ، ثم خرجوا إلى القصر ، فخرجت إليهم الجائزة » . وبذلك كان اهتمام المعز بهذا اليوم كبيرا ، حتى إنه كان يخرج إلى قنطرة المقس ، ويعرض الأسطول ويعوّذه(٣) ويباركه ويدعو له .

وهكذا وضع المعز لدين الله لخلفائه الأساس الذى يعتمدون عليه فى نشر شعائر المذهب الإسماعيلى ، ومن ثم أخذوا ينشرون هذه الشعائر من المساجد التى بنيت بعد وفاته ، وساهم كل من جامع الحاكم ، وجامع راشدة وجامع المقس مع الجامع الأزهر خاصة ، والجامع العتيق عامة ، فى نشر الدعوة الفاطمية

٤ — الدعوة السرية وأعلام الدعاة

هذه هى أهم مظاهر الدعوة الإسماعيلية ، كما كانت الدولة الفاطمية تقوم بنشرها فى مصر ، منذ فتحت على يد جوهر فى سنة ٣٥٨ هـ ، إلى أن سقطت هذه الدولة على يد صلاح الدين الأيوبى سنه ٥٦٧ هـ . والواقع أن هذه التغييرات المذهبية التى كان الفاطميون يحرصون على ترويجها بين السنيين لم تعْد أن تكون أمورا شكلية ، لا تستطيع أن تحفظ المذهب الإسماعيلى من مناوأة المذاهب السنية وغيرها من المذاهب . ولكن هل كانت هذه التغييرات الشكلية كل ما كان يسعى إليه رجال الدعوة الفاطمية ؟ نعتقد أن الدعوة الإسماعيلية كانت تنهج فى مصر منهجين : منهجا علنيا

(١) نقلا عن المقريزى خطط : جـ ١ ص ٣٨٨ .

(٢) المصدر نفسه جـ ١ ص ٣٨٨ .

(٣) أى يقرأ المعوذتين .

ومنهجا سريا . أما المنهج العلنى فقد أخذ رجال الدولة الفاطمية على عاتقهم ترويجه بين السنيين والإسماعيلية على سواء ، بحيث يرضى الإسماعيلية ولا يثير سخط السنيين . وهذا هو ماسلكه جوهر والمعز من إدخال عبارات مذهبية ، حيث يقولون فى الأذان عبارة «حى على خير العمل» ، ويقنتون فى صلاة الجمعة ، ويكبرون على الموتى تكبيرات متفاوتة العدد ، ويدعون من فوق المنابر لآل البيت وللمعز لدين الله ، ويجهرون بالبسملة فى خطبهم وصلاتهم ، ويحتفلون بعيد الغدير ، ويوم عاشوراء ، إلى غير ذلك من المسائل التى أشرنا إليها من قبل ، وهى مسائل غيرُ ذاتِ بالٍ إذا ماقوبلت بجوهر المذهب الإسماعيلى .

وفى الحق أن هذا هو أقصى ماتستطيع أن تقوم به دولة شيعية تحكم أغلبية من السنيين ، فهى تستطيع أن تنادى بين السنيين بمبدأ الإمامة ونظرياته المختلفة ، التى تتركز حول تقديس شخص الإمام ، والوصول به إلى مرتبة النبوة أحيانا والألوهية أحيانا أخرى . وليست نظرية التعليم من الإمام الإسماعيلى ، الظاهر أو المستور ، وتعيين الإمام بالنص ، وغيرها من النظريات الإسماعيلية إلا صدًى للمبادئ الإسماعيلية . كما أن هذه الدولة الشيعية رأت من الحكمة أن لا تنادى بمبدأ الحلول Incarnation أو التناسخ Metempsychosis أو التأويل Interpretation ، الذى اشتهر به الإسماعيلية خاصة ، إلى غير ذلك من المبادىء الإسماعيلية التى ظلت سرا مكتوما لا يعلمه إلا خواصهم من العلماء والدعاة .

والذى يلفت النظر حقا أن هذه التغييرات الشكلية المذهبية ، هى التى تصدى لذكرها المؤرخون فنسبوها إلى المعز وجوهر أما المبادىء السرية والدعوة السرية ، فلم يتناولها أحد بالبحث ، بل يكاد المؤرخون يجمعون على أن دراسة مبادىء المذهب الإسماعيلى وأصوله فى مصر ، لم تبدأ إلا فى أخريات عهد العزيز ، وأن مكتبة القصر وغيرها من المكتبات أصبحت غاصة بكتب « الباطن » ، وغدا المستجيبون والدعاة يتناولونها بالبحث والتنقيب ، وأن الخلفاء الفاطميين فتحوا أبواب قصورهم للمؤمنين والمؤمنات (أى الإسماعيلية والإسماعيليات) ، وأصبحت مجالس الدعوة التى يشرف على إعدادها داعى الدعاة ، مثلا عليا فى الدقة والتنظيم .

وإن دراسة أصول المذهب الإسماعيلى ، والعمل على ترويج الدعوة الإسماعيلية فى مصر وغيرها ، وتنظيم طرق الدعوة وتدريبها ، ووضعها تحت إشراف موظفى الدولة ، كداعى الدعاة ومعاونيه ـ كل هذا كان فى مصر فى عهد المعز ، على الرغم من أن المؤرخين لم يذكروا لنا شيئا عن عنايته بهذه الناحية .

ذلك أن المعز حين غزت جيوشه مصر ، كان يعلم أنه يحارب العباسيين والقرامطة معا ، وأنه لا يستطيع أن يستغنى عن الدعاية فى حرب هاتين القوتين ، ولا سيما جماعة القرامطة الإسماعيلية . ونحن نعلم أن المعز استطاع بفضل دعوته السرية ، ونشاط دعاته الجم ، أن يلقى بذور الشقاق فى صفوف الهيئة الحاكمة من أسرة الجنابى وبين أفراد الشعب القرمطى .

ونحن نعتقد أن المعز لا يستطيع أن يحدث ذلك كله دون أن يعتمد على الدعوة السرية ونظمها الدقيقة ، ولو أنه اعتمد على التغييرات الشكلية الظاهرية وحدها ، لكان ذلك وبالا على دولته ومذهبه . وهذا ما يجعلنا نتفق مع بعض المؤرخين الذين يذهبون إلى القول بأن الدولة الفاطمية كانت تنهج فى سياستها نهجين ، نهجا يتفق مع سياسة الدولة من التظاهر أمام الناس بأن المذهب الإسماعيلى لا يختلف كثيرا عن المذاهب السنية ، ونهجا آخر يتفق مع سياسة الدعوة لا الدولة ، فيتصل الخلفاء الفاطميون بأشياعهم ، لا برعاياهم ، ويؤكدون لهؤلاء الأشياع أن المذهب الإسماعيلى دين الخاصة ، ويدرسون معهم أصول هذا المذهب فى شىء من الحرية والصراحة ، عن طريق دراسة كتب الباطن والوقوف على أسرار المذهب الإسماعيلى .

وليس هذا فقط ، فإن المعز لدين الله كان يروج أصول المذهب الإسماعيلى وهو بإفريقية ، من مساجد المنصورية ومن قصور الخلافة فيها ، عن طريق النعمان المغربى قاضى قضاته وكبير دعاته ، كما كان يذيع أصول هذا المذهب ، عن طريق منشوراته أو محاضراته ، التى كان يكتبها بنفسه ويذيلها بتوقيعه ، ويسلمها إلى النعمان ، ليقرأها على الناس . وكثيرا ما كان المعز ، يرسل منشوراته إلى بلاد المشرق واليمن وسواها ، كما رأيناه يأمر كبير دعاته أبا حنيفة النعمان أن يقرأ كتب الباطن على المستجيبين

وكان الإقبال على سماع هذه الكتب الباطنية عظيما حتى إن أبهاء قصر الخليفة لم تعد تسع المستجيبين . فإذا كان ذلك ما أحدثه المعز فى سبيل النهوض بالدعوة وهو بالمغرب ، فكيف نستطيع أن نفسر تقاعده عن النهوض بها فى مصر ؟ الحق أن المعز لم يتقاعد عن نصرة هذه الدعوة ، وإلا هدم دولته ومذهبه ، وقضى على نفسه بنفسه ؛ لأن الدولة الفاطمية إنما قامت على الدعوة الإسماعيلية ، التى لا تزال تغذى الدولة بالمبادىء التى تمد فى حياتها ، وتمنحها الحيوية والقوة والنفوذ . وهكذا لم يكن بد من أن يعتمد المعز على الدعوة السرية ، وأن يعين لها فى مصر دعاة يقومون على نشرها ، كما فعل هو فى بلاد المغرب ، وكما فعل آباؤه من قبل

وإذا علمنا أن القاهرة بأسوارها ومساجدها وقصور الخلافة فيها ، التى لا يدخل إليها إلا الإسماعيلية ، تستطيع أن تغذى الدعوة الإسماعيلية بالسرية المحكمة ، وأن غير الإسماعيلية لا يستطيعون أن يدخلوا هذه المدينة أو ينفذوا إلى قصور الخلافة فيها ، لسماع مجالس الدعوة — إذا علمنا هذا ، أدركنا أن المعز قد حاط دعوته فى مصر بسياج محكم من السرية ، و أنه قد تعذر على كثير من المؤرخين أن يعرفوا شيئا عن جهود هذا الخليفة فى ترويج هذه الدعوة السرية فى هذه المدينة ومساجدها وقصورها.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فنحن نعلم أن المعز لدين الله أحضر معه إلى مصر كل شىء يمت إلى الدعوة والمذهب بسبب ، وبخاصة تلك الكتب التى تتناول أصول المذهب الإسماعيلى . ولما كانت مكتبة قصر المعز بالمنصورية ملأى بهذه الكتب ، فلا يعقل أن يتركها هذا الخليفة بالمنصورية، دون أن يحضرها معه إلى القاهرة . أضف إلى ذلك أن الخلفاء الفاطميين عامة كانوا يعنون عناية بالغة بالكتب الباطنية التأويلية ، حتى إن المهدى قال حين استرد القائم بعض كتبه ، التى كانت قد سرقت منه وهو فى طريقه إلى المغرب : لو أن غزوة القائم على مصر (٣٠٠-٣٠١ هـ) لم تتمخض إلا عن استرداد هذه الكتب لعد ذلك نجاحا كبيرا .

وإذا علمنا أن المعز كان أكثر شغفا بالكتب ممن جاء قبله من الخلفاء الفاطميين ، أدركنا كيف ملأ مكتبة قصره فى القاهرة بهذه الكتب التأويلية ، أو على الأقل كيف وضع نواة طيبة لمكتبات القاهرة التى فاقت جميع مكتبات العالم الإسلامى فى ذلك الحين ، كما أدركنا أن الأدب الإسماعيلى ظل رائجا فى مصر ،

فى عهد المعز ، كما كان فى بلاد المغرب من قبل[1] .

ومما يجعلنا نميل إلى هذا الاعتقاد ، أن المعز كان يروج مبادىء المذهب الإسماعيلى سرا فى القاهرة ، وأنه لذلك صحب معه النعمان المغربى ، قاضى قضاته وداعى دعاته فى المغرب ، وأبناءه ، وكانوا جميعا من كبار رجال الدعوة والقضاء والأدب . وكان المعز لدين الله يرمى من وراء إحضار النعمان وأبنائه إلى مصر إلى ، الاستعانة به فى النهوض بالدعوة السريه فيها ، كما نهض بها فى المغرب ، والاستفادة من كفايتهم العلمية والقضائية . ولما كانت النهضة الأدبية التى حاول المعز بعثها فى مصر تقتضى أن يكتم عن رعاياه أسرار المذهب الذى يدعو إليه ، ظهرت جهود بيت النعمان فى الناحية القضائية ، واختفت فى الناحية الأدبية فى عهد ذلك الخليفة . ونستطيع أن نقول ، إن النعمان رسم خطة النهوض بالدعوة السرية والأدبية ، ولكنه لم يتمتع بثمرة جهوده ، لأنه مات بعد أن وصل إلى مصر بسنة واحدة (٣٦٣ هـ) .

ولهذا فإن جهود المعز فى النهضة الأدبية للدعوة قد تجلت قبل وفاته ، وأن هذه النهضة قامت على أكتاف بيت النعمان ؛ فنرى القاضى على بن النعمان يجلس بالجامع الأزهر فى أوائل سنة ٣٦٥ هـ ، ويشرح كتاب « الاقتصار » الذى وضعه أبوه ، ويمليه على الناس . ويشتمل هذا الكتاب على مسائل فقهية استمدها من أئمة أهل البيت . ونعتقد أن الذين كانوا يحضرون لسماع هذه المحاضرات من الشيعة ، أو على الأقل من المستجيبين ، لأن الدولة الفاطمية كانت تهتم بهؤلاء وتقيد أسماءهم فى سجلات خاصة[2] . ولا غرو فقد كان الإقبال على سماع فقه أئمة أهل البيت عظيما حقا .

وعلى الرغم من أن على بن النعمان لم يلقب بلقب داعى الدعاة ، بل بلقب قاضى القضاه ، كان يقوم منذ عهد المعز بأعباء داعى الدعاة ، ذلك اللقب الذى لقب به

---

(١) كان المعز وهو فى القاهرة يرى أن ينافس علماؤه علماء بغداد وقرطبة.

(٢) يقول المقريزى (خطط ج ٢ ص ٣٤١) : « فى صفر سنة خمس وستين وثلثمائة ، جلس على ابن النعمان القاضى بجامع القاهرة المعروف بالجامع الأزهر ، وأملى مختصر أبيه فى الفقه من أهل البيت ، ويعرف هذا المختصر بالاقتصار ، وكان جمعا عظيما ، وأثبت أسماء الحاضرين » .

أخوه وخليفته أبو عبد الله محمد بن النعمان[١]، الذى كان يجلس لتدريس فقه الأئمة فى الجامع الأزهر . كما أعد له المعز وابنه العزيز فى قصر الخلافة مجلسا يلقى فيه محاضرات فى أصول المذهب الإسماعيلى . يدل على ذلك ما ذكره المسبحى عن محمد ابن النعمان داعى دعاة الإسماعيلية من أنه فى سنة ٣٨٥ هـ « جلس على كرسى بالقصر لقراءة علوم آل البيت ، على الرسم المعتاد المتقدم له ولأخيه [٢] بمصر ، ولأبيه[٣] بالمغرب [٤] » .

وإذن كانت فى قصور الخلافة مجالس للدعوة تلقى فيها المحاضرات منذ عهد المعز ، ولابد أن يكون هذا الخليفة قد سن لبيت النعمان ذلك النظام الذى نراه سائدا فى عهد خلفائه ، « حيث كان الداعى يواصل الجلوس بالقصر لقراءة مايقرأ على الأولياء ... فكان يفرد للأولياء مجلسا ، وللخاصة وشيوخ الدولة ومن يختص بالقصور من الخدم وغيرهم مجلسا ، ولعوام الناس وللطارئين على البلد مجلسا ، وللنساء فى جامع القاهرة الجامع الأزهر مجلسا ، وللحرم وخواص نساء القصور مجلسا [٥]» .

ولسنا بصدد تقصى نهضة الدعوة السرية والأدبية فى عهد الفاطميين عامة ، وإنما نريد أن نقول ، إن المعز وضع فى مصر أصول الدعوة السرية والظاهرية ، وإن خلفاءه تعهدوها ، فنمت نموا مطردا . ويكفى المعز فخرا أن الدعوة أنجبت فى عهده رجلين بعثا أدب الإسماعيلية بعثا جديدا ، وكان لتآليفهما أثر كبير فى نشر الدعوة الإسماعيلية فى الشرق والغرب ، ولاتزال آثارهما باقية بين أيدينا إلى اليوم ، تشهد بعلو كعبهما فى عالم الدعوة والفقه والأدب . هذان هما أبو حنيفة النعمان المغربى ، وجعفر ابن منصور اليمن . ومما يمتاز به هذان العالمان أن مقرهما كان بحاضرة الدولة الفاطمية ، وأنهما كانا يتنقلان من حاضرة إلى أخرى ، فعاشا فى المهدية ، ثم فى المنصورية ، فالقاهرة ، وقاسما الخلفاء الفاطميين مر الحياة وما فيها من نصر وظفر

---

(١) الكندى كتاب الولاة وكتاب القضاة ص ٥٩١ .

(٢) يقصد على بن النعمان أخا محمد بن النعمان هذا

(٣) يقصد أباحنيفة النعمان نفسه.

(٤) المقريزى : خطط ج ١ ص ٣٩١ .

(٥) المصدر نفسه

أبو حنيفة النعمان [1] (٣٦٣ هـ = ٩٧٣—٩٧٤ م)

ينتمى أبو حنيفة النعمان بن أبى عبد الله بن محمد بن أحمد بن حيون إلى قبيلة تميم ويسميه الإسماعيلية «سيدنا القاضى النعمان» ليميزوا بينه وبين أبى حنيفة النعمان، صاحب المذهب الحنفى المشهور. كما يسمونه أحيانا باسم «سيدنا الأوحد»، وأحيانا «القاضى الأجل»؛ ويعرف عندهم أيضا بأبى حنيفة الشيعة [2]

عاصر أبو حنيفة الفاطميين فى المغرب، واعترف غير مرة أنه دخل فى خدمة عبيد الله الفاطمى حول سنة ٣١٣ هـ (٩٢٠ م). وكان النعمان مالكى المذهب كسائر أفراد أسرته، ثم انتحل المذهب الإسماعيلى فأخلص له. وكان عمله الرئيس فى أيام المهدى والقائم والمنصور مقصورا على الجمع والحفظ ونشر الكتب الخاصة بالمذهب الإسماعيلى، كما تولى القضاء فى طرابلس فى أيام القائم، واتخذه المنصور والمعز قاضيا لهما. ولما جاء مصر كان أحد أبنائه يتقلد منصب القضاء. وعلى الرغم من بقاء أبى طاهر القاضى السنى فى منصبه كانت رياسة القضاء الفعلية فى أسرة النعمان.

ويعد النعمان من أهم دعائم الدعوة الإسماعيلية. ويذهب الداعى إدريس عماد الدين إلى أن النعمان كان مشرعا، وأنه كان دعامة من دعائم المذهب الإسماعيلى وعلى الرغم من أن كتاب «العيون» للداعى إدريس لم يذكر رتبته فى الدعوة، فإنه من الراجح جدا أن يكون قد وصل إلى رتبة الحجة [3]، وربما كان ذلك راجعا إلى أنه اشتغل بالقضاء. ويقول ابن خلكان [4] عن النعمان: «قاضيه الواصل من المغرب معه، أبو حنيفة النعمان بن محمد الداعى». والحق أن أبا حنيفة النعمان كان رئيسا للقضاة، كما كان داعيا

أما نشاطه فى التأليف فإنه لا يحد، ولا غرو، فقد أفاد الدعوة الإسماعيلية بكثرة

---

(١) انظر طه أحمد شرف: تاريخ الاسماعيلية السياسى (مخطوط) جـ ١ ورقة ٢٨٣ – ٢٨٥.

(٢) Fayzee : The Ismailian Law of Mut'a (J. B. B. R. A.S. 1929) p. 85.

(٣) Fayzee Kadi an-Numan (J. R. A. S., 1934), p. 12.

(٤) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١٥٦.

مؤلفاته في الفقه الإسماعيلي ، وفي المناظرة ، والتأويل ، والعقائد ، والسير ، والتاريخ ، والوعظ ، وغير ذلك . ومن الثابت أن النعمان ألف بضعة وأربعين كتابا ؛ بقي منها حتى اليوم نحو عشرين كتابا ، وضاع الباقي .

وأهم هذه الكتب جميعا كتاب « دعائم الإسلام » ، واسمه الكامل « دعائم الإسلام ، في ذكر الحلال والحرام ، والقضايا والأحكام » . ويتناول الكلام على فقه الإسماعيلية ، ويقع في مجلدين ضخمين ، يشتمل كل منهما على سبعمائة صفحة . ويعتز به البهرة اليوم في اليمن والهند ويذهب الداعي إدريس في كتابه « العيون » إلى القول بأن المعز هو الذي حث النعمان على تأليفه ، وكان قد مثل بين يديه مع كثير من الدعاة ، فتناولوا الكلام على الأحاديث الموضوعة ، والاختلاف في الرواية ، فذكر لهم المعز الحديث المشهور « إذا ظهرت البدع في أمة فليظهر العالم علمه ، وإلا فعليه لعنة الله » . ونظر المعز لدين الله عليه الصلاة والسلام إلى القاضي النعمان بن محمد ، رضوان الله عليه ! فقال أنت المعني في هذه الأوراق يا نعمان ، ثم أمر بتأليف « دعائم الإسلام » وأصّل أصوله ، وفرع فروعه ، وأخبره بصحيح الروايات عن الطاهرين من آبائه عن رسول الله ﷺ (١) » .

ويعد كتاب الدعائم أهم المراجع في فقه الإسماعيلية . وقد استغل النعمان ميوله المذهبية في تأليف هذا الكتاب ، حتى إننا نراه يزيد قواعد الإسلام ، فيجعلها سبعا ، ذلك العدد الذي يفضله الشيعيون عامة ، فيضيف «الولاية» ، وهي حب أهل البيت ، ثم « الطهارة » إلى القواعد الخمس المعروفة عند السنيين(٢)

وقد أخذ دعاة الإسماعيلية يرجعون إلى كتاب الدعائم في أحكامهم ، كما أخذ الخلفاء الفاطميون يشجعونهم على ذلك . فقد أرسل الخليفة الحاكم (٤١١هـ) في ذي القعدة من سنة ٣٩١ هـ (أكتوبر سنة ١٠٠١ م) إلى هارون بن محمد داعيه في بلاد اليمن ، رسالة جاء فيها : « ولتكن فتواك للمستفتين في الحلال والحرام من كتاب

(١) عماد الدين إدريس : عيون الأخبار (المجلة الآسيوية الملكية سنة ١٩٣٤ ، ص ٢٢) .

(٢) H. Hamdani : (J.R.A.S.,1933), p. 369.

دعائم الإسلام دون سواه من الكتب المتنفلة(١) . كما نهج الوزير يعقوب بن كلس في كتابه «مصنف الوزير» منهج كتاب الدعائم . وأطنب الدعاة المتأخرون في مدح هذا الكتاب ، فذكره «حميد الدين الكرماني» داعي الحاكم في فارس ، في كتابه «راحة العقل» ، وأشاد به حتى جعله في المرتبة التي تلي القرآن والحديث . وكان المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي يقرأ كتاب الدعائم في مجالسه التي كان يلقيها على أبي كاليجار البويهي . وفي ذلك يقول المؤيد(٢) «وكان بناء المجالس التي تعقد بحضرته في ليالي الجمعات على أن يبتدىء بقراءة شيء من قوارع القرآن ، ويثنى من كتاب دعائم الإسلام» .

وقد ترك النعمان المغربي في مؤلفاته الرائعة الكثيرة ثروة ثمينة . وعلى الرغم من ضياع كثير من مؤلفاته ، لا يزال أكثرما بقي منها في حوزة البهرة ، وقد أفاد الإسماعيلية كثيرا من هذه المؤلفات ولا غرو ، فإن النعمان ضرب بسهم في جميع نواحي النشاط العلمي . ومن أهم كتبه ، كتاب «الإيضاح» ؛ وكان مطولا جدا ، حتى قيل إنه شغل مائتين وعشرين كراسة ، وقد وصفه بقوله

وجئتُ بالشاهد والبرهان   لثابت القول مع التبيان
من بعد ذكرى عند كل مسألهْ   ما جاء منها باختلاف النقله
بذكر نقلها من الكتاب   نصًّا وبالإسناد والأنساب
بغير ما رأيٍ ولا قياس   إلا على المثْبَت في الأساس
تكلمتْ في مائتي كتاب   تزيد عشرين على الحساب(٣)

ومن كتب النعمان كتاب «الينبوع» ، وكتاب «مختصر الآثار» ، وكتاب «الطهارة» . ومن كتبه الفقهية التي لعبت بها يد الدهر كتاب «مختصر الإيضاح» ، وكتاب «كيفية الصلاة» ، وكتاب «منهاج الفرائض» وغيرها .

---

(١) أي الزائدة والدخيلة .

Fayzee Cadi An-Numan (J.R.A.S., 1934), p. 23.

(٢) السيرة المؤيدية ص ٦٢ .

(٣) Hamdani : Some Unknown Ismaili Authors (J.R.A.S, 1933) , p. 369.

ومما يؤسف له أنه لم يعثر للنعمان على كتاب واحد من كتب المناظرة التى ألف فيها « الرسالة المصرية» فى الرد على الشافعى ، و « الرسالة ذات البيان » فى الرد على ابن قتيبة ، وكتاب فى الرد على أحمد بن سريج البغدادى ، وكتاب « اختلاف أصول المذاهب » .

وقد بقى للنعمان من كتب التأويل كتاب « أساس التأويل » ، وكتاب « تأويل الدعائم » . وضاع من كتبه فى هذه الناحية كتاب « نهج السبيل » إلى معرفة علم التأويل » .

ومما خلفه النعمان من كتب العقائد : كتاب «القصيدة المختارة» ، وكتاب «الهمة» ، وسنتناوله فى شىء من التفصيل أما المؤلفات المفقودة فى العقائد ، فمن أشهرها كتاب « الدعاء » ، وكتاب «الشروط» ، وكتاب « التعاقب والانتقاد » ، وكتاب « الحلى والثياب » .

أما كتبه فى الأخبار والسير ، فقد بقى منها كتاب « شرح الأخبار » ، وقد ضاعت الأرجوزة المسماة « ذات المنن » ، والأرجوزة المسماة « ذات المحن » . ومن أشهر كتبه التاريخية « افتتاح الدعوة الزاهرة » ، وهو من الكتب الخطية المحفوظة بمكتبة جامعة فؤاد الأول بالقاهرة . وقد اقتبس منه المقريزى وغيره من المؤرخين ، وكتاب « مناقب بنى هاشم » ، ولم يقف الناس له على أثر .

ومن مؤلفاته فى الوعظ ذلك الكتاب الممتع « المجالس والمسايرات » ، الذى سنتكلم عليه فيما بعد ، وكتاب «معالم الهدى» ، و «الرسالة إلى المرشد الداعى بمصر فى تربية المؤمنين » ، وقد ضاع كل منهما للأسف .

ومن الكتب التى تنسب إليه بلا مراء كتاب « تأويل الرؤيا » ، وكتاب «منامات الأئمة» ، وكتاب «التقريع والتصنيف» ، وكتاب « مفاتيح النعمة » ، وقد ضاعت كلها ، كما ضاع من كتبه فى الحقائق كتاب « حدود المعرفة » ، وكتاب « فى الإمامة » ، وكتاب « إثبات الحقائق » ، وكتاب «التوحيد والأمانة» .

ومن الكتب التى تنسب إلى النعمان ولم تثبت صحة هذه النسبة بعد : كتاب « تقويم الأحكام » ، وكتاب « الراحة والتسلية » ، وكتاب « سيرة الأئمة[١] » .

(١) Fayzee Cadi An-Numan (J.R.A.S., 1934), pp. 15-18

ومما تمتاز به تآليف النعمان ، عدم الإغراق فى التأويل الذى نلمسه فى تآليف زميله جعفر بن منصور اليمن ، ذلك التأويل الذى اشتهر به دعاة الإسماعيلية فى الدور القداحى، أو دور الستر ، وقد أسرف فى هذه الناحية دعاة الإسماعيلية فى بلاد فارس خاصة . ولا عجب فى ذلك فقد كان أبو حنيفة النعمان يخاطب عقولا لا تدرك جوهر الفلسفة الإسماعيلية ، ولذلك يعتبر من هذه الناحية خير من يمثل المدرسة الإسماعيلية القديمة ، التى التزمت عدم إثارة شعور الرعايا السنيين على الحكم الفاطمى .

ولنلق نظرة عاجلة على مؤلَّفى النعمان القيمين « المجالس والمسايرات » و « الهمة وفضل الأئمة » ، لنتبين إلى أى حد أصاب النعمان من توفيق فى الناحيتين المذهبية والأدبية

فكتاب « المجالس والمسايرات » يشمل ثلاثة مجلدات ، إلا أنه ينقسم قسمين : يطلق على القسم الأول منهما ، اسم « النصف الأول » ويشمل « المجلد الأول » وهو فى ٣٧٣ صفحة . أما القسم الثانى ، فيشتمل على مجلدين يكونان « النصف الثانى » ، ويشغلان ٦٧٢ صفحة .

ويعد كتاب « المجالس والمسايرات » خير ما ألف فى وصف حياة الخلفاء الفاطميين فى الدور المغربى ، فقد تناول فيه مؤلفه حياة الخلفاء الأربعة ، وهم المهدى والقائم ، والمنصور ، والمعز خاصة ولذلك يعد هذا الكتاب أحسن مرجع لتاريخ الخلفاء الفاطميين فى الدور المغربى ولا نستطيع أن نجد مرجعا آخر تناول الحياة الاجتماعية الفاطمية فى عهد المعز خاصة . ومن هذا الكتاب نستطيع أن نقف على شىء غير قليل عن حياة الخلفاء الخاصة، وعن وصف قصورهم ، وأوقات فراغهم .

وقد أمدنا هذا المؤلف القيم بوثائق ذات قيمة تاريخية كبيرة ، عن نظام الحكم فى عهد المعز . فمن نصائح يسديها المعز للولاة والحكام والقضاة ، إلى أعمال يقوم بها هذا الخليفة ومنه نقف على مدى اعتماد المعز على الكتاميين فى نواحى النشاط فى دولته ، كما تعرض النعمان لاستقصاء أحكام الأئمة من أهل البيت ، مثل جعفر الصادق وأبيه محمد الباقر ، وجدهما على بن أبى طالب ، إلى غير ذلك . ناهيك عن رده القوى على أعداء المذهب الإسماعيلى . ومهما يكن من شىء، فإن كتاب المجالس والمسايرات يكشف لنا عن مقدرة النعمان القضائية والفقهية ، ويبين فى الوقت نفسه أن المعز

لدين الله كان ـ على الرغم من صغر سنه ـ أستاذا لهذا العالم العبقرى ، كما يعد بحق من نوابغ علماء عصره .

ويعتبر كتاب «المجالس والمسايرات» من أهم المراجع التاريخية المعاصرة للمعز ؛ فقد تناول فى إسهاب علاقة المعز بالأمويين فى الأندلس ، وشرح أسباب العداء الذى قام بينهم وبين الفاطميين ، ووازن بين قوة كل من هذين الفريقين ، وكشف عن مخاوف الخليفة الناصر الأموى من أساطيل المعز ، وخوفه على عرشه من أن يقع فى أيدى الفاطميين . كما تكلم على الحملات البحريه التى شنها المعز على الناصر وخلفائه ، وعرض لجهود الأمويين فى إفريقية . ولأول مرة فى تاريخ الأندلس ، يتصل عبدالرحمن الناصر الأموى بالمعز ، يتزلف إليه تارة ، ويهدده تارة أخرى وتعتبر الرسائل التى تبودلت بين الفريقين من أحسن ما كتب فى الأدب والمنطق ، لما اشتملت عليه من الحجج والبراهين ، فى الإثبات والنفى وما إلى ذلك .

وعرض النعمان غير مرة لعلاقة المعز بالدولة البيزنطية ، فأوضح اعتماد الناصر الأموى على الروم فى صراعه مع الفاطميين ، وصوّر ما حل بهؤلاء الروم وحلفائهم أمام أساطيل المعز تصويرا رائعا ، وذكر الرسائل التى بعث بها أباطرة الدولة الرومانية لاستدرار عطف المعز ومهادنته .

ولأول مرة نسمع أن مسلمى جزيرة إقريطش (كريت) الذين كانوا تحت حكم العباسيين ، يطلبون النجدة والمساعدة من المعز لدين الله على حرب الروم . ومن دراستنا للوثائق التى تبودلت بين أهل إقريطش المسلمين وبين المعز لدين الله ، نرى مدى ما وصلت إليه الدولة الفاطمية من قوة ونفوذ

ويصوّر كتاب «المجالس والمسايرات» موقف المعز لدين الله من صاحبى سجلماسة وفاس ، بما لا يختلف بحال من الأحوال عما ذكره المؤرخون السنيون ، فيبين الأسباب التى أثارت غضب المعز على صاحب سجلماسة ، ويذكر أن ذلك الغضب كان راجعا إلى تلقيبه نفسه بألقاب الخليفة المعز ، ومنها لقب «أمير المؤمنين» ، كما يعرض لحملة جوهر الصقلى الكبرى على بلاد المغرب (٣٤٧ هـ) عرضا يدل على صدق الرواية وتحرى الحقيقة .

ومن دراسة كتاب « المجالس والمسايرات » ، نرى كيف كان المعز يرنو ببصره إلى بلاد المشرق ، ويعد العدة لإخضاعها ، ويمنى أنصاره بامتلاك الشام ، إلى غير ذلك . وليس هذا وحده ، فقد عرض هذا الكتاب لمسألة نسب الفاطميين ، وأمدنا بوثيقة جاءت على لسان المعز نفسه ، ومنها ندرك أن الخليفة القائم كان من بيت غير بيت عبيد الله المهدى . وهذا يتفق مع ماذهبنا إليه فى كتابنا «عبيد الله المهدى(١)».

أما من الناحية المذهبية فان كتاب « المجالس والمسايرات » يعد أهم كتب الدعوة الإسماعيلية ، لأن مؤلفه النعمان استمد مادته من الإمام المعز الخليفة الفاطمى ، وقد عده أنصار المذهب الإسماعيلى من أهم مراجعهم الدينية ، ولا يزالون على ذلك إلى اليوم وقد أفدنا من هذا الكتاب فائدة كبيرة ، فيما ذكرناه عن اهتمام المعز بترويج الدعوة الإسماعيلية ومبادئها .

وإن كتاب «المجالس والمسايرات» قطعة أدبية رائعة ، يمتاز بإسلوب رقيق سهل ، كما يمتاز بانسجام ألفاظه ومعانيه . ولا غرو فقد سمعه النعمان عن الخليفة المعز نابغة عصره علما وأدبا ، ودبجه بأسلوبه القوى الجذاب .

وصفوة القول أن هـــذا الكتاب مرآة صادقة للأدب الإسماعيلى والعقائد الإسماعيلية ، ولا يستغنى عنه الباحثون فى تاريخ الفاطميين فى الدور المغربى بوجه عام ، وفى عهد المعز بوجه خاص

أما كتاب «الهمة وفضل الأئمة» ، فيتكون من جزأين ، يشغل أولها ٤٦ صفحة (ص ١–٤٦) ، ويشغل ثانيهما ٤٦ صفحة (ص ٤٦–٩٢) . وقد قسم المؤلف الجزء الأول إلى ثمانية فصول ، والقسم الثانى إلى أحد عشر فصلا .

وترجع أهمية هذا الكتاب الذى كان يعد من الكتب المفقودة حتى سنة ١٩٣٤ ، إلى أنه من أقدم المراجع التى تمثل الأدب الإسماعيلى فى عصوره الأولى أصدق تمثيل ، كما يعد من أقدم كتب الإسماعيلية التى وضعت بقصد تربية أفراد هذه الطائفة ، وتدريبهم على التفانى فى الإخلاص لمبادئها .

---

(١) انظر ص ١١ — ١٣ من هذا الكتاب ، ص ١٦٥ — ١٦٩ من كتاب ,, عبيد الله المهدى ,, للمؤلفين

ويتناول هذا الكتاب بقسميه الحدود الدينية ويهتم اهتماما خاصا بشرح واجبات الأتباع نحو رؤسائهم المباشرين ، وهم الدعاة ونحو الأئمة كما يشرح واجبات المستجيبين بعضهم نحو بعض ويرسم لهم الخطط التى يجب عليهم أن يسلكوها فى حياتهم فنراه يعقد الفصل الثالث من الجزء الثانى(١) لنهى « أتباع الأئمة عن الحسد والبغى والشره والحقد وسوء الظن » ويقصر الفصلين الرابع(٢) والخامس(٣) من هذا الجزء على « ذكر الأمر لأتباع الأئمة بالتواضع لله تعالى ولهم (أى للأئمة) ، وإطراح (أى ترك) الكبر والأنفة ، وإعطاء الحق الذى يلزمهم » ، و « ذكر الأمر لأتباع الأئمة بالحلم والعفو والوقار والسكينة » . وأهم من ذلك أن مؤلفه يعمل على تأليف قلوب الأتباع على ما نراه فى الفصل السادس(٤)، ويختص بما « ينبغى لأتباع الأئمة فيما بينهم من التعاطف والتواصل والتواد والتباذل » .

ويهدف كتاب الهمة إلى جذب المستجيبين إلى أئمتهم فيشيد بفضل الأئمة الإسماعيلية كافة ، ويبين حاجة العالم(٥) إليهم فى عبارات خلابة تصل إلى سويداء القلوب . ويحتم على المستجيبين وجوب « الوفاء بعهود الأئمة ورعايتها ، وتذكار ما أخذ لهم منها(٦) » ، ويبين للأتباع أن اتصالهم بالأئمة والجهاد معهم ، جهاد فى سبيل الله(٧). ويعد كتاب الهمة من أهم وأقدم كتب الاشتراع المالى عند الإسماعيلية ، فيبنى مؤلفه اشتراعه المالى على أسس مستمدة من القرآن الكريم ، تحمل المستجيب على أن يؤدى الأموال للإمام وهو طائع مختار . ولذلك خصص النعمان الفصل السادس(٨) من الجزء الأول لما « يجب للأئمة الصادقين أخذه من أموال المؤمنين والمؤمنات » ونراه يقرر

---

(١) كتاب الهمة ج٢ ص ٥٢ — ٥٥

(٢) المصدر نفسه ص ٥٥ — ٥٦ .

(٣) المصدر نفسه ص ٥٦ — ٥٧

(٤) المصدر نفسه ص ٥٧ — ٨٠ .

(٥) اسمى الفصل الأول من كتاب الهمة ،، فى وجوب طاعة الأئمة ،، (ص ٨ — ١٣)

(٦) وهو عنوان الفصل الثالث من الجزء الأول ص ١٣ — ١٩ .

(٧) كتاب الهمة ج ١ ص ٢٤—٣٠ .

(٨) المصدر نفسه ج١ص ٣٠ — ٣٧ .

على الأتباع وجوب دفع خمس أموالهم لإمامهم معتمدا فى ذلك على بعض الأحاديث النبوية ، وأحاديث الأئمة ، إلى أن يقول «فاعلموا أيها المؤمنون — كما علمكم الله — «أنّما غنتم من شىء» . أى كسبتموه ، «فأن لله خمسه» ، تتقربون به إليه، و «للرسول» ، تدفعونه إلى إمام عصركم ، ثم إليه الأمر فيه ، وفيما يعطى منه فقراء أهل بيته ويتاماهم وأبناء سبيلهم»[1]. وهذا يفسر قوله تعالى «واعلموا أنما غنمتم من شىء فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل»[2]. ويؤكد فى شرحه وجوب دفع الخمس لإمام الزمان ، لأنه هو الذى حل محل الرسول ﷺ بعد موته ، كما يفسر اعتماد الأئمة الإسماعيلية على قرابتهم من الرسول ، ومحاربتهم العباسيين من هذه الناحية ، فيقولون إنهم أحق بوراثة الرسول من العباسيين ، لأنهم أهل بيته المقربون . ولم يكتف النعمان بحمل الأتباع على دفع خمس أموالهم للأئمة ، بل حتم عليهم دفع زكاتهم إلى هؤلاء الأئمة . انظره يقول : «فعلى جميع المؤمنين أن يدفعوا خمس ما غنموه فى كل عصر ، إلى إمام ذلك الزمان ، من أهل بيت رسول الله ﷺ ، كما أمر الله عز وجل ، مع زكاة أموالهم[3]» .

ولكى يربط النعمان بين الأتباع والخلفاء ، عقد عدة فصول ، أشاد فيها بالأئمة ، وحتم على الأتباع تقديسهم ، والتأدب فى طلب الحوائج منهم[4] ، شارحا طرق توصيل دعاويهم إلى أئمتهم وينهى الأتباع «عن إنكار أفعال الأئمة» ، ويأمرهم «بتلقيها عنهم بالقبول» ، كما يأمر الأشياع «بتحرى ما وافق الأئمة صلوات الله عليهم[5]» . وبهذا وضع النعمان دستور المذهب الفاطمى ، الذى يجب على المؤمنين (الإسماعيلية) أن يسيروا على هديه مع أئمتهم .

من ذلك نخلص إلى القول بأن المعز قد أفاد من مؤلفات رجال دعوته ، وبخاصة

---

(١) كتاب الهمة ص ٢٣ .

(٢) سورة الأنفال آية ٤١ .

(٣) النعمان كتاب الهمة جـ ١ ص ٣٢ .

(٤) انظر الفصل الثامن من الجزء الثانى ، من كتاب الهمة جـ ٢ ص ٧٨ — ٨٠

(٥) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٨٠ — ٨٤ .

تلك المؤلفات التي يحاول أصحابها ربط الأشياع بإمامهم الخليفة الفاطمى ويعد كتاب الهمة من الكتب النادرة ، التى ضربت بسهم فى تدعيم أواصر المحبة والوفاء بين رياسة الدعوة فى المنصورية ثم فى القاهرة ، وبين الأتباع فى سائر أرجاء العالم الإسلامى .

هذا وقد اهتم النعمان اهتماما بالغا بتحديد العلاقة بين الدعاة ومستجيبيهم من جهة ، وبينهم وبين الأئمة من جهة أخرى ؛ فوضع الخطوط الرئيسة التى يجب على الدعاة أن يسلكوها فى جذب الأشياع ، وحثهم على التجمل بالصفات الطيبة ، كالورع والتقوى والصلاح والعفاف ، لكى يكون تأثيرهم فى النفوس كبيرا وكذلك بين النعمان فى كتابه كيف يختار الدعاة مستجيبهم ، فألزمهم أن يدرسوا حالة الأتباع النفسية والعقلية دراسة وافية ، حتى يوصلوا إلى عقولهم المعارف التى يستطيعون تمثيلها وفهمها كما ينصح النعمان جماعة الدعاة بالتقرب إلى المدعوين ، فيجعل الداعى من نفسه للمريدين أبا وأخا ومعلما ، ويشير على الداعى بأن يقرب إليه من حسنت نيته ، وصفت سريرته ، دون اعتبار للجاه أو المال . « فإن التقريب على الدين والتفضيل به ، والترفيع لأهله ، أقرب سببا إلى اغتباط الناس به ، ودخولهم فيه »[1] ؛ كما يظهر أمامهم بمظهر الهيبة والوقار ، مع لين الجانب ، وحسن الصمت ، وقلة الكلام ، مستشهدا بقول جعفر الصادق : اطلبوا العلم ، وتزينوا معه بالوقار والحلم ، وتواضعوا لمن تتعلمون منه ، ولمن تعلّمونه . ولا تكونوا علماء جبارين ، فيذهب باطلكم بحقكم من طلب العلم ليدافع به العلماء ، ويمارىَ به السفهاء ، أو ليصرف به وجوه الناس إليه ، ويتكبر عليهم ، فليتبوأ مقعده من النار ، إن الرياسة لا تصلح إلا لأهلها[2] » .

وكذلك يحتم النعمان على الدعاة أن يكونوا قضاة نزيهين ، يحكمون بين المستجيبين بالقسطاس المستقيم ، جاعلين نصب أعينهم صلاح أحوال الأشياع . ولهذا قصَر المؤلف الفصل العاشر من الجزء الثانى[3] على « ذكر ما ينبغى لمن استرعى أمر رعايا

(١) النعمان كتاب الهمة ج ٢ ص ٨٩ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٨٩ — ٩٠

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٨٤ — ٨٨ .

الأئمة ، من السير بالعدل فيمن ولوا أمره من الأئمة »

وهكذا كان للنعمان أثر لا يعدله أثر فى النهضة الثقافية للدعوة ، وحق للعلماء أن يسموه «المشرع الإسماعيلى» . ولا غرو فقد كان ساعد المعز الأيمن ، ولسانه الناطق ، واستحق بهذا كله أن يتربع على عرش الدعوة الإسماعيلية فى المغرب ، وأن يورث أبناءه هذه الزعامة في مصر ، حيث توفى فى شهر جمادى الآخرة سنة ٣٦٣ هـ ، وصلى عليه المعز لدين الله

جعفر بن منصور اليمن (١) :

اشتهر جعفر بن المنصور (بن حوشب) منذ نعومة أظفاره بحب الفاطميين واختلف مع أخيه أبى الحسن بن منصور ، الذى ثار على الخليفة المهدى فى أخريات حياته . وغادر جعفر بلاد اليمن حنقا على أخيه ، وقصد بلاد المغرب فى سنة ٣٢٢ هـ (٩٣٣م) ويظهر أنه كان يراسل أخاه ، ويؤنبه على ما اقترفه مع الفاطميين . وفى ذلك يقول الحمادى اليمانى(٢) : «فدخل عليه جعفر ، فقبح ما فعله ، وقال قطعت يدك بيدك ، فلم يلتفت إلى قوله ، وخرج جعفر إلى ولد عبيدالله المسمى بالقائم ، فكاتب أخاه يعيب عليه فعله بشعر طويل يقول فيه

فكنتم وأنتم تهدمون وأبتنى فشتان مَنْ يَبْنِى وآخر يهدم»

وقد تمتع جعفر بمركز رفيع فى الدولة الفاطمية ، فى المغرب ثم فى مصر . وكان موضع تقدير القائم والمنصور ، كما نال تقدير المعز ، حتى اتخذه « باب أبوابه » فى مصر وهى أعلى من رتبة قاضى القضاة . ولا غرو فقد ضرب جعفر بأوفر سهم فى التأويل الإسماعيلى كما كان لفراره من بلاد اليمن حبا فى النهوض بالمذهب الإسماعيلى ، أثره فى تقدير الخلفاء الفاطميين له ، ومحبتهم إياه ، وعطفهم عليه

وقد ترك جعفر كثيرا من الآثار العلمية التى لا تزال عند البهرة إلى اليوم ومن أهم مؤلفاته كتاب « تأويل الزكاة » وهو بمكتبة الجامعة بليدن وقد ألفه ، على ما يبدو ، فى عهد المعز لدين الله ومنه نقف على غلو الإسماعيلية

---

(١) طه شرف تاريخ الاسماعيلية السياسى ج ١ ورقة ٢٨١ — ٢٨٢ .

(٢) كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤٠

فى تأويلهم ، حتى لقد ذهب هذا الفقيه الإسماعيلى إلى تأليه الأئمة ، مؤيدا فى ذلك النظرية الإسماعيلية التى تقول «من عرف إمام زمانه عرف ربه» ويقول دى غويه[١] فى كتاب «تأويل الزكاة» إن به كثيرا من مبادىء القرامطة الخارجة على الدين . ويذهب الأستاذ ماسينيو[٢] إلى القول بأن جعفرا ألف هذا الكتاب فى سنة ٣٦٠ ه ، ويسميه تأويل الفرائض بل إن الأستاذ إيڤانو[٣] يذهب إلى أن كتاب تأويل الفرائض هو نفس كتاب جعفر المسمى «الفرائض وحدود الدين»

ولجعفر بن منصور اليمن من الكتب أيضا كتاب «سرائر النطقاء» ، وكتاب «أسرار النطقاء» الذى سنتناوله بالتفصيل ، وكتاب «الشواهد والبيان» المحفوظ بدار الكتب المصرية ، بمكتبة تيمور باشا ، تحت رقم ١٨٤ عقائد . وله من الكتب كتاب «الكشف» ، وهو كتاب قيم فى التأويل ، أوّل فيه بعض آيات من القرآن فى شىء كثير من الغلو من ذلك ما ذهب إليه فى تفسير قوله تعالى «والتين والزيتون ، وطورسينين ، وهذا البلد الأمين» بأن التين هو الحسن ، والزيتون هو الحسين ، وطورسينين هو سيدنا محمد ﷺ ، والبلد الأمين على بن أبى طالب ، الأمر الذى حداه على أن يأمر بحفظ محتويات هذا الكتاب وعدم إذاعة أسرارها.

ولجعفر بن منصور من الكتب كتاب «الفترات والقرانات» ويسمى «الجَفْر الأسود» . ويظهر أنه كتاب «الجفر» الذى ينسب إلى جعفر الصادق ويعتقد الإسماعيلية أن على بن أبى طالب هو الذى وضع أصوله ، ليستبقى علم التأويل والباطن فى سلالته . كما يظهر أن «الجفر الأسود» من وضع أحد الدعاة المتأخرين ، لأنه يتناول حوادث وقعت فى القرن الخامس الهجرى . ويتناول هذا الكتاب حوادث بعض الأنبياء مع أضدادهم ، ويتعرض لشرح تأثير الكواكب فى الدعوة وأطوارها ؛ فهو إذن نوع من الملاحم التى أغرم بها الإسماعيلية ومهما يكن من شىء ، فإن جعفرا يسلك فى مؤلفاته هذه مسلك التأويل ، حتى إنه ينادى بمبدأ استمرار

---

(١) Memoires sur les Carmathes du Bahraïn, vol. ii. pp.169-170.

(٢) عجب نامه ص ٣٣١

(٣) A Guide to Ismaili Literature, p. 31.

الأديان والحلول ، أى حلول الأنبياء من شخص إلى آخر[١]

وبهذا نرى أن نشاط الداعى جعفر بن منصور كان خصبا فى دراسة عقائد المذهب الإسماعيلى . ويقص علينا الداعى إدريس عماد الدين فى كتابه « عيون الأخبار » ، ما يشعرنا بسمو مركز جعفر فى الدعوة الإسماعيلية وذلك أن أبا حنيفة النعمان المغربى ، قاضى قضاة المعز لدين الله ، مرض وهو بمصر ، فزاره كثير من علية القوم ، ومنهم جعفر ، باب أبواب المعز . ولما أبل أبو حنيفة من مرضه ، سأله المعز عمن زاروه ، فذكر أسماءهم جميعا سوى جعفر بن منصور ، فأخذ المعز يطرى جعفرا ، ثم قدم إلى أبى حنيفة رسالة ، وطلب منه قراءتها ، وسأله عن مؤلفها . وقد نالت هذه الرسالة إعجاب قاضى القضاة ، حتى إنه قال للخليفة المعز : إنها من تأليف مولانا الخليفة ؛ فأجابه المعز بأنها من وضع مولاه الرئيس جعفر بن منصور[٢]. وفى وصف المعز جعفرا بالرئيس والمولى ما يشعر بعلو مكانته . لذلك نزل القاضى أبو حنيفة على الفور ، وذهب إلى دار جعفر الداعى ، وعبر له عن أصدق احترامه وتقديره . وهكذا كان مركز جعفر يفوق مركز النعمان . وصفوة القول أن جعفرا أحد اثنين يعدان من أشهر الدعاة الذين أنجبتهم مدارس الدعوة فى بلاد المغرب خاصة . وقد مات بعد رحيله إلى مصر مع المعز ولا ندرى على وجه التحقيق اليوم الذى مات فيه .

ولنعرض الآن عرضا سريعا لأهم ما ورد فى كتاب أسرار النطقاء لجعفر بن منصور اليمن .

يعد هذا الكتاب من أقدم مصادر الإسماعيلية التى تتناول تاريخ الأئمة المستورين ، ومن أهم الكتب المذهبية التى ألفت للدفاع عن المذهب الإسماعيلى وأنصاره ، كما يعد بحق من أحسن الكتب التى تمثل الأدب الإسماعيلى القديم أصدق تمثيل

وقد بحث هذا المؤلف تاريخ الأئمة العلويين الذين سبقوا إسماعيل بن جعفر الصادق بحثا دقيقا . ولهذا يعد كتابه «أسرار النطقاء» من أحسن المراجع فى تاريخ

---

(١) Hamdani Some Unknown Ismaili Authors (J.R.A.S., 1933.) p. 371.

(٢) Ibid.

الأئمة من لدن على بن أبى طالب إلى جعفر الصادق . كما يتناول هذا الكتاب بعض المبادىء الشيعية ، التى شرحها شرحا مستقصىً. من ذلك نظرية « الغيبة » ، أى اختفاء الإمام ، ونظرية الإمام الصامت[١]، إلى غير ذلك .

ويكاد يقتصر كتاب أسرار النطقاء على الرد على الموسوية الاثناعشرية ، فينقض آراءهم فى وضوح ودقة ، مما يدل على تضلع جعفر فى النقاش الكلامى .

كما يعد هذا الكتاب من أهم المراجع التى تصدت لبحث تاريخ فرق الشيعة ، التى ظهرت بعد وفاة جعفر الصادق ، كالموسوية والأبطحية ، نسبة إلى الأبطح ، أحد أبناء جعفر الصادق ، والمحمدية ، نسبة إلى محمد بن جعفر . ونرى الداعى جعفرا يرد ردا عنيفا على أنصار هذه الفرق ، ويبرهن لهم على بطلان دعاويهم ، ويجذبهم فى الوقت نفسه إلى طائفة الإسماعيلية . كما يعتبر هذا الكتاب مرجعا هاما فى تاريخ أبناء على الرضا (بن موسى الكاظم) وأبنائه حتى الإمام المنتظر (٢٦٠هـ) .

وكذلك تعرض جعفر فى كتابه لتاريخ الأئمة الإسماعيلية المستورين ؛ فذكر معلومات ذات غناء عن إسماعيل بن جعفر ، وشرح موقفه من أبيه جعفر ، وأخيه موسى[٢]، وتناول انتقال الإمامة إلى إسماعيل . ويستدل على صحة دعواه بأحاديث عن جعفر وسواه ، ليؤكد صحة إمامة إسماعيل . وإن ما كتبه جعفر بن منصور اليمن عن إسماعيل بن جعفر ، ليصور حياة الإسماعيلية ونشأتهم أصدق تصوير ؛ فنراه يعرض لعلاقة إسماعيل ببعض غلاة المذهب الإسماعيلى ، ويناقش مسألة وفاة هذا الإمام ، أو قل اختفاءه ، فلا يقر أن وفاته حدثت فى حياة أبيه جعفر الصادق .

وقد عرض جعفر بن منصور غير مرة لشرح بعض خصائص المذهب الإسماعيلى، كالإمام المستقر والإمام المستودع . فيقول مثلا : « إنه لما غاب إسماعيل ، أحضر جعفر ولده (محمد بن إسماعيل) ، وجماعة صحبه وسلم إليه الإمامة بمحضر منهم فى مجلس أبيه . واستودع منزلته حجته ، كما فعل أبوه إسماعيل بالكبش المنصوب بين

(١) لكل نبى عند الاسماعيلية إمام ، يعاصره ويأخذ عنه ويشرح شريعته ، ويسمونه الأساس ، أى أساس النطق . ويتبع هذا الأساس ستة أئمة بالتوالى ، يسمى كل منهم ،، الصامت ،، . وعندهم أن على بن أبى طالب أساس ، ومن جاء بعده من الأئمة ، حتى جعفر الصادق ، أئمة صامتون . فعلى زين العابدين ، ومحمد الباقر ، وجعفر الصادق أئمة صامتون

(٢) انظر كتاب أسرار النطقاء (من المنتخب) ص ٨٥ — ٩٣

يديه قبله ، وجعله ستراً عليه من فرعون وقته وجلس الصادق بمجلسه ، كما جلس يعقوب بمجلس يوسف عند غيبته[١]» . كما ذكر كثيراً من التأويلات ومبادئ الإسماعيلية كالحجة والاستيداع وما إليهما ومهما يكن من شيء فإن جعفراً قد أجاد فى وصف دور استتار الأئمة الإجادة كلها ، وملأه بالتأويل الغالى والمعتدل مما يجعلنا نعتقد أنه من أشهر رجال التأويل فى الدور المغربى ، كما يعتبر النعمان المشترع الأول فى هذا الدور .

لذلك يعد هذا الكتاب من كتب المناظرات الإسماعيلية القيمة ، حتى إن هذه الطائفة قد اتخذته أساساً للرد على مخالفيهم . كما يعد من كتب التأويل وكتب التاريخ ، التى توضح للقارىء شيئاً غير قليل من تاريخ كبار أئمة الإسماعيلية الأوائل ، وغيرهم ممن يدعون الإمامة ولا يخلو هذا الكتاب من الغلو المذهبى ، ولا سيما حين يوازن بين الأئمة والأنبياء ، أو يؤول بعض الآيات القرآنية ، وسنن الأنبياء وأفعالهم ، بما لا يتفق مع العقل . وعلى الرغم من ذلك كله ، لا ننكر أن هذا الكتاب وغيره من مؤلفات جعفر من الكتب التى رفعت منار الدعوة الإسماعيلية فى عهد المعز لدين الله

وهكذا سمت الدعوة الإسماعيلية بآدابها فى عهد هذا الخليفة ، وبلغت أوجها على يد الإمام المعز نفسه ، وقاضى قضاته النعمان ، وباب أبوابه جعفر بن منصور وكان لهذه المدرسة التى تقدمها هؤلاء الثلاثة أثرها فيما بعد ، واستطاع أحد تلامذتها ، وهو حميد الدين الكرمانى ، أن يرفع منار الدعوة فى عهد الحاكم فى كل من فارس ومصر وكان المؤيد الشيرازى والحسن الصباح أثراً من آثار هذه المدرسة ، على ما نبينه فى كتاب المستنصر بالله الفاطمى إن شاء الله

٣ — أهم مظاهر الحياة الاجتماعية

تطورت الحياة الاجتماعية فى عهد المعز ، سواء أكان ذلك فى بلاد المغرب أو فى مصر ، فقد وضع هذا الخليفة أساس الحياة الاجتماعية (فى مصر) كالمواسم والأعياد والاحتفالات الدينية والقومية ، وما صحبها من مظاهر الترف والثروة

---

(١) أسرار النطقاء (من المنتخب) ص ٩٩

(ا) مظاهر الترف والثروة

امتلأت خزائن الفاطميين فى عهد الخليفة المعز بالأموال ، ويرجع ذلك إلى النظام المالى الدقيق الذى سنه الفاطميون لاستغلال موارد الدولة ، وإلى النظم المالية التى وضعها رجال الدعوة فى سبيل جمع الأموال التى يتبرع بها المستجيبون من الإسماعيلية ، الذين كانوا يدفعون ـ طائعين ـ خمس أموالهم للدولة الفاطمية .

ومن أهم مظاهر الثروة فى عهد المعز لدين الله ، تلك الأموال الضخمة التى أنفقها هذا الخليفة فى سنة ٣٥١ هـ ، حين عزم على ختان أبنائه ؛ فقد رأى أن يشرك رعيته فى أفراحه ، وحتم أن يقدم الأهلون أبناءهم الصغار ليختتنوا ، ويأخذوا من الدولة كفاء ذلك مالا معلوماً وقد سار المعز على هذه السياسة فى سائر بلاده ، وتدفقت الأموال من مدينة المنصورية ، حاضرة الفاطميين ، إلى الولايات المختلفة ، ليقوم الولاة بدفع الهبات والنفقات والهدايا لآباء الصغار المختتنين وإذا علمنا أن المعز كان يعطى كلا من هؤلاء الأطفال كسوة حسنة بعد اختتانه ، ويمنحه مقدارا من المال يتراوح بين مائة وخمسين درهما ومائتى درهم ، وأنه قد اختتن فى مدينة المنصورية وحدها نحو ربع مليون من الصبيان[1] ، ظهرت لنا ضخامة الأموال التى أنفقها المعز فى حاضرة خلافته وغيرها

ومما يدل على ضخامة هذه الأموال التى أنفقت فى الاحتفالات التى أقيمت بمناسبة هذا الختان ، أن المعز أرسل إلى صقلية وحدها خمسين حملا من المال فى كل حمل عشرة آلاف دينار ، أى أن ما أنفق فى صقلية من الأموال ـ غير الكساء ـ بلغ نصف مليون دينار وإذا علمنا أن هذا الختان تم فى سنة ٣٥١ هـ ، أى بعد انضواء جميع بلاد المغرب تحت لوائه وأنه أنفق على طهور أبناء رعاياه فى جميع بلاد المغرب الأدنى والأوسط والأقصى وأن عدد من اختتن فى

---

(١) يرى المقريزى (اتعاظ الحنفا ص ٦٠) أنه كان يختتن بحضرة المعز يوميا ـ ولمدة شهر ـ عدد لا يقل عن اثنى عشر ألف صبى ، على حين يرى أبو حنيفة النعمان ـ وكان معاصرا للمعز ـ أن هذا العدد كان يتراوح بين عشرة آلاف وخمسة آلاف صبى . ولو صدقنا المقريزى لكان عدد من اختتن فى المنصورية ٣٦٠٠٠٠ صبى

المنصورية لا يقل عن ربع مليون ، كما تقدم ، فكم كان عـــدد من اختتن فى كافة أنحاء الدولة الفاطمية ؟ وإذا كان المعز قد أنفق فى صقلية وحدها نصف مليون من الدنانير ، فماذا يكون مجموع ما أنفقـه فى برقة وطرابلس وتونس والجـزائر ومراكش ؟ ومما يدل على ضخامة الأموال التى أنفقها المعز فى هذا الختان أن وزن «الأكياس المفرغة التى أنفقت فى هذا الأعذار[١] بلغ مائة وسبعين قنطارا[٢] » .

ولندع النعمان - قاضى المعز - يحدثنا عن وصف حالة البلاد التى كانت تابعة للدولة الفاطمية وقتئذ ، فى هذه العبارة المستفيضة : «ولما أراد المعز لدين الله - صلع - أن يطهّـر عبد الله ونزارا وعقيلا - بنيه - تقـدم إلى خاصته وأوليائه وسائر جنده وعبيده وجميع رجاله ، وكافة من بالحضرة من سائر التجار والصناع وعامة الرعية بالمنصورية والقيروان ، وجميع أهل مدن إفريقية وكورها من حاضر وباد . وأمر بالكتب إلى العمال من لدن برقة وأعمالها إلى سجلماسة وحـدودها وما بين ذلك ، وما حوته مملكته ، وإلى جزيرة صقلية ومن بها من طبقات الناس ، فى حضر وبدو ، أن يتقدموا فى طهور أبنائهم يوم الثلاثاء أول يوم من شهر ربيع الأول من سنة إحدى وخمسين وثلثمائة إلى انقضاء هذا الشهر ، وأمر أن يحمل إلى كل بلد من هـــذه البلدان من الحضرة[٣] أموال وخلع ، تفرق على كل من طهر من أبناء المسلمين من خاص وعام ؛ فكان الذى رأيناه حمل إلى صقلية من المـال خمسين حملا سوى الخلع ، ومثل ذلك ونحوه إلى كل عامل ليفرقه على أهل عمله .

« وتقدم (صلع) فى طهور ولده يوم الثلاثاء هذا المذكور ، وجلس بنفسه الزكية لطهور سائر أهـل الحضرة وما يليها من البوادى وأمر بضرب سرادقات بساحة قصر البحر [٤] حول الماء ، وبإدخال الصبيان مع من أراد الدخول معهم من آبائهم وأمهاتهم وعبيدهم وخدمهم ، ومن أرادوا أن يطهروه من عبيدهم . واعتزم على أن يصل الطهـور أيام هذا الشهر كله وكان يجلس صلع من وقت الغداة ، فلا

(١) الاعذار : الطهور .

(٢) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ٦٠

(٣) أى الحاضرة ، ويقصد بها المنصورية .

(٤) انظر ما كتبناه عن هذا القصر فى الباب الخامس من هذا الكتاب

يزال جالسا وهم يطهرون ويمرون بين يديه ، فيكسون ويوصلون ، لا يخيب من ذلك منهم شريف ولا مشروف ، ولا حر ولا عبد ، ولا قريب ولا بعيد ، ولا حاضر ولا باد والختانون فى السرادقات على الكراسى ، وبين أيديهم المذابر لجلوس الصبيان ، والقومة يمسكونهم فى حجورهم ، ويذرون الذرورات الممسكة للدم على ختاناتهم ، ويقفون بالبخور وماء الورد على رءوسهم يرشونهم على وجوههم ، لما يعتريهم من الروع ، والسند بأصناف الملاعب قيام عليهم ، يلهونهم ويصحبون من طهر منهم يزفونه إلى منزله

« وكان الذى أعطاه الخاصة من الخلع والصلات على أقدارهم ما يتفاوت ويطول ذكره . وكان الذى أعطاه العامة من الصلة غير الكسوة ، لكل صبي منهم مائتا درهم إلى مائة وخمسين ، وأقل ما أعطاه المجهولون من أهل البوادى ونظرائهم وعبيدهم ، كل صبي منهم عشرة دراهم . وكان يطهر[1] منهم فى كل يوم من أيام هذا[2] الشهر ، من عشرة آلاف صبي إلى خمسة آلاف أقل ذلك .

« وأكثر الناس الخوض والحديث فى ذلك وتعاظموه ، وأجمعوا فى ابتداء الأمر أن ذلك لا يتم ، وأن الأموال لا تنهض به . وذكروا ، لكثرة ما رأوه من الخلائق ، أن ذلك لو وصل حولا ، لما انقطع الناس ، ولا أتى على آخرهم فيه وكنت (أى النعمان) ممن تعاظم ذلك ، وتداخله الإشفاق[3] » .

وهذا يدل على ضخامة المالية الفاطمية ، كما يدل على جود المعز ورغبته فى إسعاد شعبه . ولا غرو فقد خصص مقدارا ضخما من المال من ميزانية دولته ، ووقفه على هذا العمل الخيرى الجليل . وحق له أن يفخر على معاصريه من الخلفاء والأمراء ، الذين كانوا ينفقون الأموال فى اللهو والمجون . واستطاع المعز هو وعماله أن يتموا هذه المهمة الشاقة فى الوقت الذى حدده تماما ونستطيع أن نتصور مدى السرور الذى غمر رعايا الدولة الفاطمية فى ذلك الحين ، مما ورد على لسان النعمان حيث قال : « وكانت أيام هذا الشهر أيام أعياد ومسرات وأفراح وهبات ، بكل وجه

(١) فى الأصل يطهرهم

(٢) « « هذه .

(٣) النعمان المجالس والمسايرات ج ٢ ص ٦٥٤ — ٦٥٩

وجهة من مملكة أمير المؤمنين ص ، من بدو وحضر. وعمهم فضله ، وتبين عليهم أثره وارتفق به أغنياؤهم، وانتعش له فقراؤهم ، ودخلت المسرة على أهل كل بيت منهم. وقد كان أثرا جميلا لم يسبقه إليه ص ع (أى ﷺ) أحد قبله ، ولا أظن أحد أن أحداً يتسع له مثله[1] » وهكذا انتشر الثناء عليه والدعاء له على ألسن العامة والمخالفين والمؤالفين ، لما ظهر من فضله على الفقراء والمساكين ، إذ كان أحدهم يأتى بالثلاثة والأربعة وأكثر من ذلك من ولده ، فيأخذ لكل واحد منهم صلة لعله لم ير فى يده قط مثلها[2] »

وإن دل هذا العمل على شيء ، فإنما يدل على حب المعز لرعيته ، وحدبه عليها ، ومتانة ماليتـه ، والتفاف القلوب حوله . ولا عجب فقـد كان المعز يهتم برعاياه وأنصاره اهتماما بالغا ، حتى إنه كان يقدم إلى كثير منهم الأموال الوفيرة ، ويشفق على فقرائهم ، ويساعدهم على تزويج أبنائهم ، وإدخال السرور عليهم . بل كان كثيرا ما يبنى الدور للفقراء منهم ، حتى كان موضع إعجاب رعيته وتقديرهم وإذا وازنا بين علاقة الفاطميين والعباسيين برعاياهم ، وجدنا أن رعايا الفاطميين كانوا أكثر التفافا حول خلفائهم من رعايا العباسيين ويرجع ذلك إلى ضعف الخلفاء العباسيين فى عصر نفوذ الأتراك ، الذين لم يتركوا لهم من الخلافة إلا اسمها ثم جاء بنو بويه ، فقضوا على ما بقى لهم من نفوذ. ولولا خوف البويهيين من ضياع نفوذهم السياسى ، لحولوا الخلافة العباسية إلى خلافة شيعية وعلى العكس من ذلك زادت هيبة المعز ، لا نتسابه إلى الرسول ، وحدبه على رعاياه ، وظهوره بمظهر المتدين الورع

ومما يدل على مظاهر الثروة فى عهد المعـز ، تلك الإغاثة العاجلة التى قدمها إلى الديار المصرية فى وقت محنتها . فقـد أرسل إليها ـ وهو بالمغـرب ـ الحبوب والأموال الكثيرة ، حتى استقامت الأمور بها . وإن ما كان ينفقه المعز على حملاته الكثيرة ، ليدلنا على مـدى ثراء الفاطميين فى عهـده فقد استطاع بفضل أمواله الكثيرة أن يوجه الحرب فى عدة جهات، فأصبحت جيوشه تغزو جميع بلاد المغرب ، وتصـل إلى المحيط الأطلسى ، وتتابع الضربات للأمويين فى عقر دارهم ، وتقف

(١) النعمان المجالس والمسايرات جـ ٢ ص ٦٦١ — ٦٦٢

(٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٦٦٣ — ٦٦٤ .

بالمرصاد للبيزنطيين ، فتهزمهم فى صقلية ، وتستولى على بعض بلاد إيطاليـا الجنوبية فى قلورية ، وتهدد الروم فى إقريطش. وليس هذا وحده ، بل إن الأموال الضخمة التى أنفقها المعز فى فتح مصر ، أكبر دليل على مدى الثراء الذى وصلت إليه دولته فقد بلغ ماحمله جوهر إلى مصر من الأموال وحدها ، أربعة وعشرين مليونا من الدنانير ، أى مايقرب من ثلاثة عشر مليونا من الجنيهات ، وهو مقدار لا يستهان به فى ذلك العهد[١] أضف إلى ذلك الأموال والإمدادات التى كانت ترسل إلى مصر تباعا كل هذا يبين مدى ضخامة مالية الفاطميين فى عهد المعز

وليس أدل على صحة هذا القول ، من تلك الهدية الفخمة التى أرسلها القائد جوهر إلى المعز فى بلاد المغرب فى سنة ٣٥٩ هـ. «فكان فيما أهداه تسع وتسعون[٢] بختية، وإحدى وعشرون قبة ، عليها الديباج المنسوج بالذهب ، ولها مناطق من ذهب مكللة بالجوهر، ومائة وعشرون ناقة بأجلة [٣] الديباج ، وأعنة محلاة بالفضة ، وخمسمائة جمل عرابا[٤] ، وستة وخمسون جلا ، وثمانية وأربعون دابة ، منها بغلة واحدة ، وسبعة وأربعون فرسا بأجلة حرير منقوش ، وسروج كلها مابين ذهب وفضة ، ولجمها كذلك، وعودان كأطول مايكون من العود الذى يفتخر به[٥] » .

وليست هذه الهدية هى وحدها التى وصلت إلى المعز من جوهر ؛ فقد قدم إليه هدية أخرى بعد أن وصل إلى مصر فى سنة ٣٦٢ هـ وقد اشتملت هذه الهدية على أشياء كثيرة ، منها «مائة وخمسون فرسا مسرجة ملجمة ، منها مذهب ومنها مرصع ومنها معنبر ، وإحدى وثلاثون قبة على نوق بخاتى بالديباج ، والفرس ، منها تسعة بديباج مثقل ، وتسعة نوق مزينة بمثقل . وثلاثة وثلاثون بغلا ، منها سبعة مسرجة ملجمة ، ومائة وثلاثون بغلا للنقل ، وتسعون نجيبا ، وأربعة صناديق مشبكة يرى ما فيها ، وفيها أوانى الذهب والفضة ، ومائة سيف محلى بالذهب والفضة ، ودرجان

---

(١) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ٦١ ، ٦٢ .

(٢) فى الأصل تسعا وتسعين .

(٣) مفرده جل ، والجل للبعير كالثوب للانسان

(٤) العراب من الابل خلاف البخاتى ، وخيل عراب خلاف البراذين .

(٥) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ٧٩ .

من فضة مخرقة فيها جوهر ، وشاشية مرصعة فى غلاف ، وتسعمائة ما بين سَفَط وتخت ، فيها سائر ما أعد له من ذخائر مصر (١) » .

على أن ما أحضره المعز من بلاد المغرب ، يدل على وفرة الأموال فى هذه البلاد فى عهده . ومما هو جدير بالملاحظة ، أن المعز كان ينفق تلك الأموال الكثيرة فى سبيل النهوض بالدعوة والدولة ولو اقتفى خلفاؤه أثره فى ذلك لما اضمحلت دولتهم بسرعة ومهما يكن من شىء ، فإنه « لما عزم المعز على الرحيل إلى مصر حمل معه أمواله ـ وكانت كثيرة ـ على ألف بعير » ، وسبك الدنانير على شكل الطواحين جعل على كل جمل قطعتين ، وجعل فى وسط كل قطعة نقبا تجمع به القطعة إلى الأخرى ، فاستعظم ذلك الجند والرعية ، وصاروا يقفون فى الطرق لرؤية بيت المال المحمول (٢) » .

ونحن نعتقد أنه لو قدر للمعز البقاء فى مصر طويلا ، لاستطاع أن يستغل مركزها الجغرافى فى التجارة ، وخصب أرضها فى الزراعة أحسن استغلال ، ولفاضت خزائنه بالأموال تبعا لذلك ومع هذا فإن المعز ترك فى مصر ثروة ضخمة ، حتى إنه اتخذ له عرشا من الذهب الخالص ، كان جوهر الصقلى قد أعده له فى القصر الكبير . وقد أطلق المقريزى عليه اسم «سرير الملك (٣)» و «السرير الذهب» ، ويقول فيه إنه كان يزن « مائة ألف مثقال وعشرة آلاف مثقال (٤) » ، أى مايقرب من ثمانية قناطير من الذهب الخالص ، إذا اعتبرنا أن الدرهم يزن مثقالا

ومما يدل على وفرة ثروة مصر فى عهد المعز ، تلك الكسوة التى أعدها هذا الخليفة للكعبة الشريفة ، التى فاقت الكسوة التى كان العباسيون يرسلونها إلى الكعبة ، حتى أصبحت مضرب المثل ومثار الإعجاب ، ولم يستطع صانعو الجوهر أن يقدروا ثمنها لكبرها ودقة صنعها . وقد وصفها ابن ميسر (٥) فى هذه العبارة : « وسعتها

---

(١) المقريزى خطط ج ١ ص ٣٨٥ .

(٢) اتعاظ الحنفا ص ٦٥ .

(٣) ويسميه أيضا سرير الملك الكبير ، وكان وزنه ٧٫٠٦٤ قنطارا من الذهب .

(٤) المقريزى خطط ج ١ ص ٣٨٥ .

(٥) تاريخ مصر ص ٤٤ .

اثنا عشر شبرا(١)، وأرضها ديباج أحمر، ودَوْرها اثنا عشر(٢) هلالا ذهبا ، فى كل هلال أترجة(٣) ذهب مشتبك وفى جوف كل أترجة خمسون درة كبارا كبيض الحمام وفيها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق فيها كتب على دورها آيات الحج بزمرد أخضر ، وحشو الكتابة در كبار لم ير مثله ، وحشو الشمسية المسك المسحوق . فرآها الناس فى القصر ومن خارج القصر لعلو موضعها وإنما نصبها عدة فراشين لثقل وزنها . . وذكر أصحاب الجوهر أنه لا قيمة لها(٤)، وأن شمسية بنى العباس مساحتها مثل ربع هذه وكذلك كانت شمسية كافور الذى عملها لمولاه أونوجور »

كل هذا يدل على عظمة مصر ووفرة ثروتها فى عهد المعز . وإذا علمنا أن الاحتفال بعرض هذه الكسوة قد أقيم فى آخر سنة ٣٦٢ هـ ، أى فى نفس السنة التى وصل فيها المعز إلى مصر . وأنه استطاع فى تلك المدة القصيرة أن يتمم صنع هذه الكسوة الفاخرة ، فى الوقت الذى لم تكن فيه أقدام الفاطميين قد استقرت بعد فى مصر ـ إذا علمنا ذلك ، أدركنا مدى ضخامة ثروة مصر فى ذلك العهد ، ودقة النظام المالى فى الدولة الفاطمية . ولا غرو فقد ساعدتهم هذه الثروة على أن يحتفلوا بأعيادهم ومواسمهم ، ويقيموا المنشآت الكثيرة ، وينفقوا الأموال على حملاتهم الحربية والبحرية .

ومن مظاهر الثراء فى عهد المعز ، تلك النهضة العمرانية التى نراها فى بناء القصور الفخمة فى بلاد المغرب ، وإنشاء البساتين والميادين الواسعة ، والفوارات الجميلة ، والقنوات العجيبة التى كانت تأخذ ماءها من الجبال ، ثم تسير فى طريقها إلى مدينة المنصورية ، مخترقة السهل والحزن . ثم ، أليس فيما بذله الفاطميون من أموال ضخمة على بناء مدينة القاهرة وقصورها ومساجدها ، البرهان القاطع على ثروة الدولة الفاطمية فى عهد المعز ؟ وقد ذكر المقريزى(٥) هذه العبارة التى تؤيد صحة ما ذهبنا إليه فقال « وكان الذى أنفقه المعز على مصر ، ما لا يضبط ولا يعرفه إلا هو

---

(١) فى الأصل اثنى عشر .

(٢) « «

(٣) الأترجة ثمر من جنس الليمون ، أى أنه كان فى كل هلال قطعة من الذهب المشبك على شكل الأترجة.

(٤) أى لا تقوم بمال ، لكثرة ما بها من الجواهر النفيسة .

(٥) اتعاظ الحنفا ص ٦١ .

وخزانه » ، كما نقل هذا المؤرخ عبارة أخرى جاءت على لسان بعض كتاب بيت مال المعز فقال: « حملنا إلى مصر أكياسا فارغة ، أنفق ما كان فيها فى أربعة أعدال[١] على جملين » . ونحن نعلم أن جوهرا حمل معه إلى مصر ما بلغت قيمته أربعة وعشرين مليونا من الدنانير وإذن فإن المال الذى أنفقه المعز على مصر ، والذى بلغت أكياسه أربعة غرائر ، غير ذلك المال الذى حمله معه جوهر ، ليدل دلالة واضحة على مبلغ ثراء مصر فى عهد المعز

وعلى الرغم من تظاهر المعز للمغاربة بالتقشف ، كانت قصوره آية فى الروعة ، حتى إنها أخذت بمجامع قلب سفير الروم حين زاره فى المنصورية نعم ! كان المعز يعمل على الظهور لشعبه بأنه لا يفتر عن العمل ، وأنه يصل ليله بنهاره ، وأن قصوره لم تتخذ وسيلة للهو والعبث فلم يكن الخلفاء الفاطميون « يأكلون ويشربون ، ويتقلبون فى المثقل والديباج والحرير والفنك والسمور والمسك والخمر والغناء ، كما يفعل أرباب الدنيا[٢] » . ولذلك كان المعز يظهر كثيرا أمام رعاياه فى مجالس تتجلى فيها البساطة والتواضع . فنراه ذات مرة يأمر بإحضار شيوخ كتامة ليروه « فى مجلس مربع كبير ، مفروش باللبود على مطارح ، وحوله كساء وعليه جبة ، وحواليه أبواب مفتحة تفضى إلى خزائن كتب وبين يديه دواة وكتب[٣] »

والحق أن قصور المعز كانت آية فى الإبداع حتى لقد صرح له سفير الروم حين رآه جالسا فوق عرشه بقوله « دخلت عليك ، فرأيتك على سريرك ، فظننتك خالقا[٤] » . والواقع أنه كان لقصور المعز مداخل كثيرة ، تفضى إلى أروقة متواضعة ، وإلى أبهاء وأفنية آية فى الروعة والإبداع . حتى إن قصر البحر الذى تكلمنا عنه فى الباب الخامس من هذا الكتاب ، كان مثلا أعلى للقصور فى العصور الوسطى ؛ فكان جزؤه الأوسط أشبه بجزيرة تقع فى وسط بحيرة ، وقد بلغ جزؤه الخارجى الذى يحيط بالبركة من الاتساع ، بحيث يخيل إلى الناظر أنه مدينة من المدن .

---

(١) جمع عدل . والأعدال هى الغرائر .

(٢) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ٦١

(٣) المقريزى خطط ج ١ ص ٣٥١

(٤) ابن الأثير الكامل ج ٨ ص ٢٣٩ .

ولم يكن القصر الشرقى الكبير فى القاهرة بأقل روعة من قصر البحر فى المنصورية ، فقد كان يحتوى على آلاف الحجرات ، المؤثثة بأعظم الأثاث ، والمزينة بأبهى الزينات . كما كان هذا القصر يشتمل «على ما فيه من عين وورق وجوهر وحلى وفرش وأوانى وثياب وسلاح وأسفاط وأعدال وسروج ولجم ، وبيت المال بحاله بما فيه ، وفيه جميع ما يكون للملوك» . (١)

وكان المعز يجلس على سرير الملك بالإيوان الكبير ، قبل أن ينشىء العزيز قصر الذهب ، وكان هذا المجلس مضرب المثل فى الأناقة ؛ وظل على ذلك طول عهد الفاطميين . كما كان يعلق فيه «ستور الديباج شتاء والدبيقى (٢) صيفا ، وفرش الشتاء بسط الحرير ، عوضا عن الصوف ، مطابقا لستور الديباج . وفرش الصيف مطابقا لستور الدبيقى ، ما بين طبرى وطبرستانى مذهب معدوم المثل»(٣) ، مما يدل على أن مجالس الخلفاء الفاطميين فى مصر ، وخاصة فى عهد المعز ، لم تكن أقل روعة وبهاء من مجالس الخلفاء العباسيين فى بغداد والأمويين فى قرطبة . ولكثرة أبهاء هذا القصر ومَمَارِّه وسراديبه ، بنى بحيث يستطيع الخليفة أن ينتقل فى جميع أنحائه فى سهولة ويسر ، واكتنفته فسقيات المياه حتى لا يتعرض لخطر الحريق .

ومما يدل على عظمة الدولة فى عهد المعز وكثرة ثرائها ، ذلك النسيج المفخم الذى نسج من الحرير والذهب فقد رأى المعز فى سنة ٣٥٣ هـ أن يرسم مصورا للعالم ، ويوضح فيه موقع بلاد الحجاز منه ؛ فعمل له ثوب من الحرير المنسوج بالذهب ، كان موضع إعجابه وإعجاب خلفائه . وقد وصفه المقريزى (٤) فقال : هو «مقطع من الحرير الأزرق التسترى(٥) القرقوبى ، غريب الصنعة ، منسوج بالذهب

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٩٠ .

(٢) الدبيقى نسبة إلى مدينة دبيق بين الفرما وتنيس ؛ وقد اشتهرت بما كان يصنع فيها من الملابس .

(٣) المقريزى خطط جـ ١ ص ٢٨٦

(٤) خطط جـ ١ ص ٤١٧

(٥) نسبة إلى تستر ، أشهر مدن إقليم خوزستان جنوبى فارس الغربى .

وسائر ألوان الحرير ، كان المعز لدين الله أمر بعمله فى سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة ، فيه صورة أقاليم الأرض وجبالها وبحارها ومدنها وأنهارها ومسالكها . وفيه صورة مكة والمدينة ، مبينة للناظر ، مكتوب على كل مدينة وجبل وبلد ونهر وبحر وطريق ، اسمه بالذهب أو الفضة أو الحرير ؛ وفى آخره مما أمر بعمله المعز لدين الله ، شوقا إلى حرم الله ، وإشهارا لمعالم رسول الله ، فى سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة ، والنفقة عليه اثنان وعشرون ألف دينار »

ولا بد أن يكون المعز قد أحضر ذلك النسيج الثمين معه وهو فى طريقه إلى مصر، بدليل أنه وقع فيما بعد فى قبضة الجنود ، حين ثاروا على المستنصر الفاطمى . وقد حذا الخلفاء الفاطميون حذو المعز فى اقتناء التحف النادرة المثال ، حتى كان البلاط الفاطمى مضرب المثل فى الروعة والبهاء وكأن المعز قد أراد أن يحوط عرشه وتاجه بهالة من الأبهة ، فاستغل ثروته الواسعة فى سبيل تحقيق ذلك ، ونجح فى تحقيق أمنيته نجاحا ملحوظا ، ولم يشأ أن ينفق أمواله على المغنين والمغنيات ، وعلى مجالس اللهو والطرب ، كما كان يفعل العباسيون والأمويون فى عصره

يدل على ذلك أنه بنى مؤسسة أطلق عليها « دار الكسوة » ، لتفصيل جميع أنواع الثياب ونسجها ، وجعل يهب هذه الأقمشة لرعاياه وموظفيه وأعد للشتاء ملابس ، وللصيف أخرى . ولم تكن هذه الهبات مقصورة على العامة ، بل شملت الموظفين . وبذلك سن المعز بعمله هذا لأبنائه سنة ظلوا يتوارثونها حتى سقطت دولتهم . يقول ابن أبى طىّ « وعمل المعز لدين الله دارا وسماها دار الكسوة ، كان يفصل فيها من جميع أنواع الثياب . . . ويكسو بها الناس على اختلاف أصنافهم كسوة الشتاء والصيف . وكانت لأولاد الناس ونسائهم كذلك ، وجعل ذلك رسما يتوارثونه فى الأعقاب ، وكتب بذلك كتبا ، وسمى هذا الموضع خزانة الكسوة . ومن أخبارهم أنهم كانوا يخرجون من خزائن الكسوة إلى جميع خدمهم وحواشيهم ، ومن يلوذ بهم من صغير وكبير ورفيع وحقير، كسوات الصيف والشتاء ، من العمامة إلى السراويل وما دونه من الملابس والمنديل، من فاخر الثياب ، ونفيس الملبوس ، ويقومون لهم بجميع ما يحتاجون إليه من نفيس المطعومات

والمشروبات (١) » . وبهذا وغيره جعل المعز عامة شعبه وموظفيه يلتفون حوله .

وليس أدل على مظاهر الترف عند الفاطميين ، من تلك الثروة الضخمة التى كان أبناء المعز ينعمون بها ، حتى إن إحدى بناته قد تركت ثروة لا تقل عن مليون وسبعمائة ألف دينار ، وهى ثروة كبيرة إذا قورنت بحالة الرخاء التى كانت سائدة فى ذلك العصر ، إلى غير ذلك من وسائل الترف التى تجل عن الوصف كما تركت ابنة ثانية للمعز أموالا كثيرة وحليا فاخرة (٢) وإذا حاولنا تقويم ذلك التراث الهائل الذى خلفته هاتان الأميرتان لما استطعنا لفخامته وكثرته ولا شك أن الأمراء الفاطميين كانوا يشاركون الخلفاء فى عظمتهم وميلهم إلى الظهور . وإذا كان الخلفاء الفاطميون - على ما يقوله لينپول Lane-Poole - من أكثر ملوك مصر حبا للأبهة والظهور (٣) ، فإن أمراء البيت الفاطمى وأميراته كانوا لا يقلون فى ميلهم إلى الظهور عن الخلفاء أنفسهم وإن تلك الثروة الضخمة التى خلفتها ابنتا المعز لأكبر شاهد على صحة ما ذهبنا إليه .

وقد أنفقت تغريد زوجة المعز لدين الله ، فى أوائل حكم العزيز ، من مالها

---

(١) المقريزى خطط ج ١ ص ٤٠٩ .

(٢) وهذا المقريزى (خطط ج ١ ص ٤١٥) يحدثنا عن ضخامة التركة التى خلفتها بنتا المعز - رشيدة وعبدة - فيقول : ,, ووجد للسيدة رشيدة ابنة المعز حين ماتت فى سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة ، ماقيمته ألفا ألف دينار وسبعمائة ألف دينار ، من جملته ثلاثون ألف ثوب خز مقطوع ، واثنا عشر ألفا من الثياب المصمت ألوانا . وما وجد لها معممات بجواهرها من أيام المعز ... ووجد لعبدة بنت المعز أيضا ، وماتت فى سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة ، ما لا يحصى . . . . إن خزائن السيدة عبدة ومقاصيرها وصناديقها وما يجب أن يختم عليه ذهب من الشمع فى خواتيمه ، على الصحة والمشاهدة أربعون رطلا بالمصرى . وأن بطائق المتاع كتبت فى ثلاثين رزمة ورق . وما وجد لها أيضا أربعمائة قطارة وألف وثلثمائة ميناً فضة مخرقة ، زنة كل ميناً عشرة آلاف درهم ، وأربعمائة سيف محلى بالذهب ، وثلاثون ألف شقة صقلية ومن الجوهر ما لا يحد كثرة ، وزمرد كيلة أردب واحد . وإن سيد الوزراء أبا محمد اليازورى ، وجد فى موجوداتها طستا وإبريقا ، فلفرط استحسانه لهما سأل المستنصر فيهما ، فوهبهما له . ووجد مدهن ياقوت أحمر وزنه سبعة وعشرون مثقالا ، وأخرج أيضا تسعون طستا وتسعون إبريقا من صافى البلور ,,

(٣) The Story of Cairo, p. 133.

الخاص مالا كثيرا على تشييد مسجد فخم بالقرافة ، وأقامت فى السنة نفسها قصرا فسيحا فى القرافة ، احاطته ببستان جميل ، وأنشأت فيه حماما و بئرا . وعلى الرغم من أن بناء هذه العمائر قد تم فى أوائل عهد العزيز ، فإن الفضل فى ذلك يرجع إلى ثروة الدولة الفاطمية فى عهد المعز . ولقد أثر عن تغريد أنها أنفقت « أموالا جمة على تشييد مسـجد لها بالقرافة ، وقد قام برسم المسجد الحسن بن عبد العزيز الفارسى المحتسب ، وتولى زخرفته ونقشه جماعة من الفنانين من أهل البصرة . وكان يحيط بهذا الجامع من غربيه حديقة غناء وصهريج ، واختط هذا المسجد على شكل مربع الزوايا ، وفى جوانبه أروقة كالأزهر ، بيد أن نقوشه كانت فى غاية الإبداع أما بابه فكان ذا مصطبة كبيرة تحت المنارة العالية ، وكان مصفحا بالحديد . وكانت المقصورة يدخل إليها من أربعة عشر بابا مربعة ، أمام كل باب قنطرة مقوسة على عمودين من الرخام فى ثلاثة صفوف . وكانت الأبواب مجوفة مدهونة بالأزرق والأحمر والأخضر ، كما كانت السقوف ملونة بمختلف الألوان . وكان أمام الباب الأوسط قنطرة على هيئة قوس ، ملونة بألوان مختلفة ، يكاد الناظر إليها يخالها شكلا طبيعيا . وقد حاول النقاشون أن يحاكوها فما استطاعوا » (١)

وقد أمرت زوجة المعز الحسن بن عبد العزيز المحتسب ، الذى رسم مسجد القرافة ، فبنى لها قصر القرافة فى سنة ٣٦٦ هـ . وكان يتصل بهذا القصر بستان لطيف وحمام و بئر . وكان — كما يقول المقريزى (٢) — قصرا فخما يسر الناظرين ، يتردد عليه أهلوه طلبا للراحة . وكان بهذا القصر قنطرة مقامة على قبو يستظل به المسافرون من الشمس

(ب) الحفلات والأعياد :

عمل الفاطميون على كسب احترام رعاياهم ، وساروا على هذه السياسة فى

(١) انظر : حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٢٤٠ .
المقريزى خطط ج ١ ص ٤١٥ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٤١٦

بلاد المغرب ، وغلا خلفاؤهم فى مصر فى إقامة الحفلات التى طبعوها بطابع خاص ، وأقاموا المناظر ، وبخاصة فى أنحاء القاهرة . فكان المعز ومن أتى بعده من الخلفاء يحتفلون بصلاة الجمعة ـ على ما رأينا ـ وصلاة العيدين ، وتوديع الحملات الحربية ، كما كانوا يحتفلون بيوم عاشوراء ، ومولد بعض أئمتهم مثل على بن أبى طالب ، وفاطمة الزهراء ابنة الرسول وزوجة علىّ ومولد الحسن والحسين ، كما كانوا يحتفلون أيضا ببعض الأعياد الأخرى التى تميزهم عن السنيين ، مثل عيد الغدير ، ومولد الخليفة القائم بالأمر . وكانوا يحتفلون كذلك بأعياد أخرى مثل ليلة أول رجب ، وليلة نصف رجب ، وليلة أول شعبان ، وليلة نصف شعبان ، وبعيد غرة رمضان . وكانوا يشاركون الأهلين فى الاحتفال ببعض أعيادهم ، مثل عيد جبر الخليج ، وعيد النوروز [1] ، وشاركوا القبط فى الاحتفال بيوم الغطاس ، وخميس العهد[2] وغيرها

ونلاحظ على هذه الأعياد أمورا منها

أن المعز لدين الله كان أول من مهد لهذه الأعياد فى مصر وعمل على ترويجها ، بإقامة الولائم الفخمة احتفالا بها فكان يقيم الأسمطة فى قصور الخلافة وفى المساجد وحذا خلفاؤه حذوه ، فكانوا يقيمون الأسمطة فى قاعة الذهب بالقصر الكبير طوال شهر رمضان وأيام العيدين . وكانت هذه الأسمطة آية فى الروعة والجلال . وكان يدعى إليها قاضى القضاة ، وكبار القواد والموظفين ، ويمثل الخليفة فيها الوزير غالبا ، كما كانت الدولة تنفق عليها أموالا طائلة ، مما يدل على وفرة ثروة مصر فى عهد الفاطميين .

وكان الفاطميون يتخذون هذه الأعياد وسيلة لجذب الرعايا إليهم ، لذلك

(١) النوروز عيد فارسى قديم ، وهو أول السنة عندهم ، ويقع عند ابتداء الربيع . وكان المصريون يحتفلون به منذ زمن طويل .

(٢) أما خميس العهد ، فيحتفل فيه النصارى بانجيلهم ، وذلك قبل عيد الفصح بثلاثة أيام ويمتاز هذا العيد عند الفاطميين بالهدايا التى كان ينالها كبار الموظفين وغيرهم

أنظر حسن إبراهيم حسن ، الفاطميون فى مصر ص ٨٥ ، هامش ١ ، ٣

شارك المعز القبط فى الاحتفال بعيد « خميس العهد » ، وعيد « يوم الغطاس » وعيد « الميلاد » وغيرها . وقد نهج أبناؤه وأحفاده نهجه فى ذلك . حقًّا لم ينل عيد النوروز من تقدير المعز ما ناله على يد الخلفاء الفاطميين الذين ولوا الخلافة من بعده ؛ فقد أمر هذا الخليفة فى سنة ٣٦٢ هـ بمنع الاحتفال بعيد النوروز ، وشهر بكل من حدثته نفسه بالابتهاج بلياليه . وإنما فعل المعز ذلك ، لما كان يصحب هذا العيد من عادات لم تنل رضا هذا الخليفة ، فقد كان الفساد والخلاعة يقترنان به ، كما يتبين ذلك مما أورده المقريزى [١] نقلا عن ابن زولاق ، حيث يقول عند كلامه على حوادث سنة ٣٦٣ هـ « منع أمير المؤمنين المعز لدين الله من وقود النيران ليلة النوروز فى السكك ، ومن صب الماء يوم النوروز» ، ويقول فى حوادث سنة ٣٦٤هـ « وفى يوم النوروز زاد اللعب بالماء ووقود النيران ، وطاف أهل الأسواق ، وعملوا فيه ، وخرجوا إلى القاهرة بلعبهم ، ولعبوا ثلاثة أيام ، وأظهروا السماجات [٢] والحلى فى الأسواق . ثم أمر المعز بالنداء بالكف ، وأن لا توقد نار ولا يصب ماء . وأخذ قوم فحبسوا ، وأخذ قوم فطيف بهم على الجمال » . وليس معنى ذلك أن المعز كان يقف فى وجه رعاياه ، وإنما كان يعمل على حفظ الأمن وبسط الطمأنينة ، والمحافظة على الآداب والفضيلة . وسوف يصبح عيد النوروز من أهم أعياد الفاطميين

ومما يدل على أن المعز كان يتخذ من الأعياد وسيلة لجذب رعاياه إليه ، تلك الجهود التى كان يبذلها لإحياء بعض الأعياد القومية ، مثل عيد جبر الخليج ؛ فقد سن المعز لخلفائه من بعده سنة التودد إلى المصريين فى ذلك اليوم ، فكان الفاطميون ينفقون الأموال الجزلة للاحتفال به فتعطل دواوين الحكومة ، وتحتفل به الدولة احتفالا رسميا

أضف إلى ذلك أن المعز كان يشترك مع رعاياه فى الاحتفال بعيد رأس السنة الهجرية ، ومولد النبى ﷺ ، وليلة أول رجب ونصفه ، وأول شعبان ونصفه

---

(١) خطط جـ ١ ص ٢٦٨ .

(٢) السماجة القبحة وسوء الأدب واطراح الحشمة .

وموسم غرة رمضـان ، حتى لا يثير نفوس السنيين ، ويقرّب مسافة الخلف بين المبادئ السنية والعقائد الشيعية

وكذلك كان المعز لدين الله يستغل هـذه الأعياد التى زخر بها عهـده فى نشر خصائص المذهب الإسماعيلى وعقائده ؛ ولذلك كان يحتفل بيوم عاشوراء ، ليحيي فيها ذكرى الحسين رضى الله عنه ، كما كان يحي ذكرى مولد كثير من الأئمة ، وذكر مولد الخليفة القائم بالأمر . وهكذا اتخذ المعز من الاحتفال بهذه الأعياد وسيلة لجذب رعاياه إليه ، ونشر مبادىء المذهب الإسماعيلى .

٤ — أخلاق المعز وصفاته .

يعتبر المعـز لدين الله مثلا أعلى للخلفـاء الفاطميين ، فقـد كان يتصف بصفات رفعتـه إلى مصاف كبار الملوك والسلاطين . فـكان قوى العزيمة ، يواجه الصعاب دون خوف أو وجل ، يقف فى عزم ثابت فى وجه الثورات التى يذكى نيرانها الخارجون على الدولة ، ويتصدى لمناوأة الأمراء الذين يعملون على الاستقـلال عن الفاطميين ، والإنضواء تحت لواء الأمويين فيضرب هؤلاء بأولئك ، ويأخذ كلا على غرة ، حتى تم له توحيد بـلاد المغرب . انظره وقد تحالف الأمويون والروم عليه ، وناوءوه برا وبحرا ، وأجمع رجاله على البدء بالأمويين دون الروم ، عزم هو على مهاجمة الاثنين معا فى وقت واحد ، واستطاع بما أوتيه من عزم ثابت أن يقضى على الروم والأمويين جميعا

كما كان المعز رحب الصدر كثير الحـلم ، وخصوصا نحو الرعية ، حتى كانوا يهرعون إليه إذا رأوه ، ويرفعون إليه ظلاماتهم، فيسمع لكل واحد منهم على حدة ، وينهر من يقف فى وجههم . وعلى الرغم من كثرة مشاغله ، كان واسع الصدر مع رعيته وأبنائه وموظفيه ، يحلم عليهم ليسمو بأخلاقهم إلى أعلى المراتب ، ويثور بهم إذا خالفوا الدين ، وحادوا عن الطريق المستقيم . ولنأت بمثل أو مثلين لنقف منهما على مدى حلم المعز. يقول أبو حنيفة النعمان المغربى[1] « وركب المعز صلع

(١) المجالس والمسايرات ج ٢ ص ٣٥ — ٣٧ .

يوما من أيام الربيع ، إلى مكان وصف له أن فيه زهرا حسنا ونبتا عميا ، وفى الطريق الحامل إليه مثل ذلك. فلما خرج (صلع) من باب المنصورية اكتنفه الناس يسألونه حوائجهم ، ويرفعون أمورهم ، فما زال يقبل بوجهه على الواحد والجماعة منهم ، ويكلمهم ويجيبهم ، حتى انتهى إلى المكان الذى وصف له وانصرف وهو على مثل ذلك ، ما تملّى(١) مما أراد النظر إليه ، ولا أعاره الطرف إلا اختلاسا ، ولا أضجره ما كان من أمر الناس ، وإنا حوله لنضجر له لذلك ، وإن المشاة بين يديه يدفعون(٢) الناس ، فيأمرهم بتخلية من يدفعونه . وإن كثيرا منهم ليطيل مسايرته ، ويكرر حاجته ، فيأمره من حوله بالانصراف ، ويغمزه (٣) إرادة التخفيف عليه ، وأن ينظر إلى ما خرج إليه ، فينهاهم عن ذلك ، ويأمر أن يدعوا من كلمه إلى أن يقضى حاجته ، وينصرف عن رأى نفسه . وهذا دأبه فى أكثر خروجه ... ولا أعلم ولا سمعت أحدا وصف بمثل ذلك من الصبر ، وسعة الصدر » .

وكان المعز يضرب به المثـــل فى حلمه مع خدمه وعبيده ، حتى لقد كان بعضهم يعترض عليه ، ويقاطع رأيه ، ويحتج عليه. ومع ذلك كان يجادلهم بالحسنى ، ويناقشهم باللين ، ولا يأخذهم بالشدة ، يفعل كل هذا ولا يجد الغضب إلى نفسه سبيلا (٤). ولم يكن ذلك عن ضعف منه ، ولكنه الحلم المستساغ ، الذى يحبب صاحبه إلى الناس ، ويجذب قلوبهم إليه يقول النعمان(٥): « وحضرت يوما بمجلسه فتحدث مليا ، ثم قال لبعض الخدم بين يديه أصلح الحمام . قال نعم ! فجلس بعد ذلك طويلا ، ولا أشك إلا أنه قد كان أمر قبل ذلك بإصلاحه ، ثم دعا الفرس فركبه ، ومشينا بين يديه إلى الحجرة التى فيها(٦) الحمام من قصره ، فدخل ، ونزل ليدخل الحمام ، فأصاب بابه مقفلا ولم يصلح بعد ، فسئل عن المفتاح فلم يوجد ، فوقف طويلا وما تنكر حاله ، ولا

(١) فى الأصل ما تملاء .

(٢) فى الأصل يرفعون .

(٣) فى الأصل ويغمره

(٤) النعمان المجالس والمسايرات جـ ١ ص ٣١١ – ٣١٢ .

(٥) المصدر نفسه جـ ١ ص ٣٠٩ .

(٦) فى الأصل فيه .

بدا منه غضب ، ولا قال فى ذلك قولا ثم دعا بالكرسى فجلس ، وجعل يتحدث ، حتى أتى بالمفتاح ، وأصلح الحمام ، وقام فدخل ، وما حرك ذلك منه ساكنا ، ولا هاج كائنا . هذا الخليفة الذى يحلم هذا الحلم على خدمه وعبيده ، قد هاجه اعتراض سفن الخليفة الناصر الأموى لسفينة صغيرة من سفنه ، وأثارها حربا دامية فى البر والبحر.

أما تقوى المعز وورعه ، فحدث عنهما ولا حرج ؛ كان المثل الأعلى للملك الورع التقى ، لم يغيره الملك ولا الجاه ، ولم يعبث كما كان الخلفاء الأمويون فى المشرق والمغرب يعبثون ، ولا كما كان كثير من خلفاء العباسيين ووزرائهم وأمرائهم يفعلون. فلم يعرف عنه أنه شرب الخمر، أو خالف أوامر الدين ونواهيه ، بل كان المثل الأعلى للحاكم الذى يحافظ على أوامر الشرع ، يقضى سحابة يومه فى النظر فى شئون الرعية ، والحكم فيهم بما أنزل الله ، وأتى به الرسول ، أو فى الاطلاع والبحث والدرس ، أو فى تأليف الكتب والمقالات إلى الدعاة والمدعوين والعمال

ومما يدل على ورع المعز ما أورده النعمان من أنه « حضر عيد الفطر وتقدمه نوء(١) عظيم، وكثير من الوحل والطين ، وذكر ذلك للإمام المعز لدين الله (ص) ، وما بالمصلى منه ، وما فى الطريق إليه من الماء والوحل والطين ، وظنوا أنه يصلى صلاة العيد فى المسجد ، فقال (ص) : يكون من ذلك ما كان ، لابد من قضاء فرض الله تعالى فى البراح ، على ما أمر به جل ذكره ، وسنة رسول الله (ص) وقال المعز: وهذا من أقل ما ينبغى أن يفعل فى ذات الله وأكثر منه . والله لو حبونا فى الطين حبوا على الركب ، وكان ذلك مما يرضى الله عنا ، ويقبله منا، لفعلناه . إن رسول الله (ص) يقول: إذا سمعتم داعيا إلى أهل بيتى ، فسارعوا إليه ولو حبوا على الثلج والنار؛ فإذا كان الله تعالى قد أوجب لنا هذا على عباده ، ونحن خلق من خلقه ، قد ابتدأنا بفضله ، وأنعم علينا بإحسانه ، فكيف بما يجب علينا للخالق جل ذكره أن نرخص فيه ، أو نتعاظم مشقة تدخل علينا من أجله . معاذ الله أن نستكبر عن عبادته ، أو نستحسر فى طاعته . وخرج (عم) ، وخرج الناس فى غد يخوضون الماء والطين ، فما انصرفوا إلا وقد تخضبوا فيه ، وامتلأت ثيابهم منه وكان

---

(١) النوء العواصف واضطراب الجو

مشهدا يرضى الله من وليه ، وممن ذهب فيه مذهبه [(١)] »

كما اشتهر المعز لدين الله بالجود ، فكان يعمل على إسعاد شعبه ، وينفق على إصلاح أحوالهم كثيرا من أمواله . انظره وقد أرسل كسوة الكعبة ، فكانت أعظم من غيرها إذا ضُوهيت بكسوة العباسيين وسواهم. ثم انظره ينفق الأموال الضخمة على أبناء رعيته حين قام بختان أبنائه ؛ يدل على ذلك قول المعز نفسه « والله لقد كفينا كثيرا ممن اختصصناه منهم من أوليائنا وعبيدنا أمر دنياهم ، وأطعمناهم مما نأكل ، وكسوناهم مما نلبس ، وشاركناهم فيما نملك. وإنهم ليأكلون من ذلك ، ويلبسون ويملكون ما لا تعب ولا نصب ولا كلفة عليهم فيه ، وإنا لنتعب وننصب ونتكلف ذلك لهم ؛ فهم على ذلك أخفض عيشا منا فيه ، وأقل تعبا واهتماما به [(٢)] »

وكان المعز عالما متشرعا من متشرعي المذهب الإسماعيلي ومؤلفيهم ، ضرب فى كل علم بسهم وافر . ولا غرو فقد كان متوفرا على البحث والاطلاع ، لا يجد اللهو إلى نفسه سبيلا . وكان ، كعامة الإسماعيلية ، يعتقد أنه منبع العلم والعرفان ، وأن التعليم من الأئمة هو التعليم الحق وقد رأينا مدى مساهمته فى حركة التأليف والتثقيف ونشر الدعوة ، كما رأينا تشجيعه العلماء والمؤلفين من أمثال النعمان المغربى. وهكذا نستطيع أن نقول فى غير إسراف إن المعز لدين الله كان أكبر شخصية فى العالم الإسلامى فى عصره ، فقد فاق بثروته وانتصاراته وأخلاقه الخليفة الأموى الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) ، وكان معاصرا له ، وفاق المطيع والطائع العباسيين ، ولم يستطع أحد من أمراء عصره أن يصل إلى ما وصل اليه من قوة ونفوذ .

٥ — خاتمة القول فى المعز لدين الله :

كان عصر المعز لدين الله عصرا ممتازا فى تاريخ الدولة الفاطمية، وكانت حياته حافلة بجلائل الأعمال وقد رأينا كيف كان فى جميع أطوار حياته مثلا أعلى . وكان فى طفولته حاد الذكاء ، تحوطه عيون الأئمة ، ويرعاه الخلفاء . ولا غرو فقد كان إمام

(١) النعمان المجالس والمسايرات جـ ٣ ص ٤٤٠ — ٤٤٢.

(٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٢٠١ — ٢٠٢ .

استقرار ، تنبأ له أبوه بالسمو فى عالمى الخلافة والدعوة واعتمد عليه كل من القائم والمنصور ، فكان يسندان إليه القيام بكثير من أمور الدعوة والدولة ، وأخذ يصرف شئون الدواوين فى مهارة فائقة جعلته موضع الإعجاب والتقدير . كما افاد كثيرا من المحن والخطوب التى ألمت بالدولة الفاطمية فى طفولته وشبابه ، فأحالته إلى رجل عرك الحياة لاتصرعه الحوادث ولا تزعزعه الخطوب فكان لهذا كله أفضل أمراء البيت الفاطمى ، وأحقهم بالاضطلاع بالملك والدعوة ، فعهد إليه أبوه المنصور بالخلافة من بعده ، فجاء اختياره موفقا غاية التوفيق .

وقد استطاع المعز لدين الله أن يشكل جغرافية شمالى إفريقية بالشكل الذى يبتغيه ، واستطاع أن يوحد بين ربوع هذه البلاد الشاسعة ، ويكوّن من برقة وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش وحدة فاطمية تدين له بالولاء والطاعة ، بحيث كان يلقى أوامره من المنصورية أو القاهرة ، فيلبيها المغاربة من سواحل المحيط الأطلسى حتى حدود مصر الغربية .

كانت مناهج المعز الحربية فى إفريقية حافلة بالأعمال والخطط الواسعة ؛ كان عليه أن يقضى على الأمراء الذين يحاولون الاستقلال بولاياتهم الإفريقية فكان ينفس عليهم هذه الزعامة . ويضع الخطط للقضاء عليهم ويرسل إليهم الجيوش تلو الجيوش ويبعث إليهم بدعاته لغزو أفكار الناس فى بلادهم ، وتهيئة الأمور لسيوف المعز لتعمل عملها بعد حين ، كما كان يبذل قصارى جهده لإذلال هؤلاء الأمراء حتى يكونوا عبرة لسواهم فلا تحدثهم أنفسهم بالخروج عليه ولهذا كان يمثل بهم أشنع تمثيل ، وكذلك استطاع أن يقضى على نفوذ قبائل زناتة التى حاولت الاستقلال عن الفاطميين ، وأن يفل شوكة أبناء عمه الأدارسة ويقضى على دولتهم ، كما استطاع أن يقضى قضاء تاما على بيت ابن أبى العافية ، الذى كان شوكة فى جنب الفاطميين منذ أيام الخليفة المهدى (٣٢٢ هـ) .

وكانت سياسة المعز لدين الله ترمى إلى القضاء على جميع أمراء المغاربة الذين يحاولون الاتصال بالأمويين فى الأندلس ، حتى لا يترك لأعدائه الأمويين فرصة تغلغل نفوذهم السياسى فى بلاده وكان لجهوده فى هذه السبيل أثر ملموس فى القضاء على نفوذ هؤلاء الأمويين ، الذين كانوا يرمون من ورائها إلى الاستقرار فى إفريقية .

ولم تقف جهود المعز عند ذلك الحد ، فقد كان من سياسته أن يرث الأمويين فى الأندلس ، ولذلك عول على غزو شبه جزيرة أيبريا ، وأعد لهذا الأمر عدته ، واستعان بأسطوله الإفريقى ، كما استعان بأسطول صقلية الفاطمى ولولا مهارة الخليفة الناصر الأموى ، ومحالفته الروم على الفاطميين واستغلال عنصر المفاجأة فى حروبه مع المعز واستقراره فى سبتة وطنجة ، لاستطاع المعز لدين الله أن يحتل شبه جزيرة أيبريا ، وينشر الإسلام فى أوربا

وقد عثرنا على وثائق تاريخية هامة معاصرة ، تبين العلاقة بين المعز الفاطمى وعبد الرحمن الناصر الأموى وهذا الموضوع لم يتناوله - فيما نعلم - أحد من قبل . فقد عثرنا فى كتاب « المجالس والمسايرات » للنعمان المغربى ، على أكثر من مائة صفحة قصرها هذا المؤلف على بحث العلاقة بين الأمويين والفاطميين فى عهد المعز ، ودوّن الرسائل التى تبودلت بين هؤلاء وأولئك ، مما أفادنا كثيرا فى بيان العلاقة بين المعز والأمويين فى الأندلس

ويعتبر ما أوردناه عن علاقة المعز بجزيرة إقريطش ، من أحدث ما كتب فى هذا الموضوع ، فقد أوضحنا علاقة المعز بالإخشيديين فى منتصف القرن الرابع الهجرى ، بالروم فى سنة ٣٥٠ هـ ، وبمسلمى هذه الجزيرة ، وشرحنا العوامل السياسية التى ساعدت المعز على التدخل فى شئون جزيرة إقريطش وجعلها حلقة اتصال بين الشرق والغرب ، واعتمدنا فيما ذكرناه فى هذا الموضوع على المصادر المعاصرة

أما موقف المعز لدين الله من جزيرة صقلية ، فقد بينا كيف اعتمد هذا الخليفة فى صراعه مع الأمويين فى الأندلس والبيزنطيين فى قلورية ، على سيوف مسلمى هذه الجزيرة ، وكيف كان موقع هذه الجزيرة من عوامل انتصار الفاطميين على الأمويين والروم ، وبينا تلك الجهود الهائلة التى بذلها المعز لدين الله ، هو وولاته الكلبيون فى النهوض بهذه الجزيرة وإقصاء الروم عنها وذهبنا إلى القول بأنه لولا قيام إمبراطورية أوتو الجرمانى ، ووقوفها فى وجه الفاطميين ، لاستطاع المعز أن يغزو إيطاليا جميعها ، ويضمها إلى ملكه الواسع فى شمال إفريقية ، كما بحثنا العلاقة المباشرة بين المعز وأسرة الحسن الكلبى بحثا مستفيضا وانتهينا من هذا كله إلى القول بأن عهد المعز يعتبر العصر الذهبى لجزيرة صقلية .

بهذا كله نستطيع أن نقول ، إن المعز لدين الله لم يسير جيوشه إلى مصر سنة ٣٥٨ ه ، إلا بعد أن أصبح شمال إفريقية وجزيرة صقلية موحدا تحت رايته وعلى الرغم من انتقاله إلى مصر واتخاذه مدينة القاهرة بدل المنصورية حاضرة لدولته ظل سلطان الفاطميين فى بلاد المغرب على قوته ، ولم يحاول الصنهاجيون الاستقلال بهذه البلاد إلا فى عهد المستنصر الفاطمى

ولم يكن توحيد بلاد المغرب وصقلية تحت راية الفاطميين كل ما كان يسعى إليه الخليفة المعز ، بل إنه كان يرمى إلى ضم بلاد الشام ومصر إلى إمبراطوريته الواسعة. وكان لذلك العداء التقليدى بين الفاطميين والعباسيين أثره فى اتجاه الفاطميين نحو مصر والشام ؛ ولا غرو فقد استغل ضعف العباسيين والإخشيديين ، والعداء بين التشيع الذى يدين به الفاطميون والسنية Sunnism التى يدين بها العباسيون ، وهذه الانتصارات الرائعة التى أحرزها على الأمويين والروم وأمراء المغرب ، للتأثير فى جنوده للمسير إلى هذه البلاد . لذلك لم يكد المعز ينتهى من تلك الحروب ، حتى حول أداة حربه إلى المشرق ؛ فتم له ما أراد ، وفتح مصر والشام فى شهور معدودات، واستطاع بذلك أن يخضع شمالى إفريقية كافة ، وجزءا كبيرا من آسيا ، ومات المعز وقد امتدت بلاده من شمال الشام حتى سواحل المحيط الأطلسى .

ولم تكن مهمة المعز فى المشرق قد انتهت بفتح مصر والشام فقد كان يعتبر فتح هذه البلاد خطوة يتلوها فتح بغداد ، وزوال نفوذ العباسيين منها ، وكان عليه فوق ذلك أن يقف فى وجه الروم الذين أخذ نفوذهم يطغَى على بلاد الشرق الأدنى منذ منتصف القرن الرابع ومن ثم اتخذ دمشق قاعدة يوجه منها جيوشه لصد الروم فى شمال الشام . إلا أنه سرعان ما دهمه خطر القرامطة ، إخوانه فى المذهب والعقيدة وقد بحثنا موقف المعز من هؤلاء القرامطة بحثا مستوفى ، وعزونا أسباب العداء الذى قام بينهم وبين المعز إلى تدخل هذا الخليفة فى شئونهم الداخلية ، وإيثاره أبناء أبى طاهر على أبناء أبى سعيد ، وبينا كيف حز ذلك فى نفوس الفئة الحاكمة ، فأشعلوا نار الثورة على زعيمهم الأول ، المعز لدين الله . أضف إلى ذلك أن العباسيين استغلوا هذه المنافسة التى تفاقمت بين المعز والقرامطة ، وأثاروا الفئة القرمطية الحاكمة على المعز ، ليشغلوه عن قصد بغداد . وقد نجح العباسيون فى هذه

السياسة نجاحا منقطع النظير ، فانضم الأعصم إليهم ، ورفع السيف فى وجه سادته ورؤسائه فى المذهب . ومن ثم كان الصراع بين هؤلاء وأولئك صراعا بين السنيين والشيعيين .

وقد تمكن القرامطة بمساعدة العباسيين والبويهيين والحمدانيين من انتزاع بلاد الشام من الفاطميين وتهديد مصر نفسها ولولا مهارة المعز السياسية والحربية ، لما استطاع أن يسدد الضربات للحسن الأعصم وأنصاره ويطرده من مصر ، ويطارد جيشه إلى الشام وما زال المعز بالقرامطة المنافسين له ، حتى رد رئيسهم إلى بلاد البحرين ، وأثار النزاع بين أنصارهم فى بلاد الشام ، التى لم تلبث أن خضعت له .

من ذلك نرى أن العباسيين لم يحققوا سياستهم التى ترمى إلى استرداد مصر والشام على أيدى القرامطة . غير أنهم استطاعوا أن يحولوا دون استيلاء الفاطميين على بغداد. ولو لم يكن لتدخل العباسيين فى ذلك الصراع الذى قام بين القرامطة والمعز من أثر سوى صد الفاطميين عن بغداد ، لكان ذلك أقصى ما وصلت إليه السياسة العباسية من نجاح فى هذه السبيل .

ولم يعترف العباسيون بهذه الهزيمة ، ولذلك شاركوا هم والبويهيون فى الحركة التى قام بها أفتكين . فكانت ثورتا الأعصم القرمطى وأفتكين التركى نوعا من أنواع الصراع العنيف الذى قام بين الفاطميين الشيعيين والعباسيين السنيين. وعلى الرغم من هذا كله استطاع المعز أن يحتفظ لنفسه بمعظم بلاد الشام ، وأن يبعد إلى الأبد خطر القرامطة عن مصر ؛ ولو مدّ الله له فى أسباب الحياة ، لاستطاع بلباقته أن يبعد خطر أفتكين عن الشام .

وكان لنظم الحكم المحكمة التى سار عليها المعز لدين الله أثر بعيد فى رقى بلاده . ولا غرو فقد كان المعز يمثل الحاكم المستنير ، الذى يجمع فى يده السلطات كلها . ولكنه كان يسعى دائما لإسعاد شعبه ، فكان يعتبر الحكم أمانة من الله ائتمنه عليها ، وأن زعامته للمسلمين واجب ألقاه على عاتقه انتسابه إلى الرسول ﷺ ولذلك كان ينفس على الخلفاء العباسيين والأمويين ، لأنهم اغتصبوا الحق من أهله ، كما

كان يعتز بلقب « إمام » و« أمير المؤمنين » ، ويحقد على الناصر الأموى والمطيع العباسى وغيرهما انتحالهم لقب « أمير المؤمنين » ، و يعتز بانتسابه إلى الرسول فلم يكن يعتمد فى تأييد هذا النسب ـ كما ذهب إليه بعض ـ على سيفه وذهبه بل كان يستغل انتسابه إلى الرسول ليحمل الرعايا على طاعته ، وينادى أن من عصاه فقد عصى الله ورسوله ، ومن أطاعه فقد أطاع الله ورسوله . وهذا يفسر لنا التفاف رعيته من حوله ، وإخلاصها له . كما كان المعز يعتقد أن الفاطميين سيرثون العالم ، وأن هذا وعد الله إياهم ، وأن الله سينجز وعده عاجلا أو آجلا ، وكان يتمنى أن يتم ذلك على يده ، لذلك حاول فتح أسبانيا ، ثم فتح مصر والشام وود لو تم له فتح العراق وإخضاع العالم الإسلامى كافة .

ولم يترك المعز شيئا كثيرا من النفوذ لرجال دولته ومعاونيه ، حتى لا يستبدوا بالأمور دونه ، كما فعل البويهيون مع العباسيين ، كما أنه لم يهمل شئون دولته ، وينغمس فى العبث والمجون كغيره من الخلفاء ، بل كان يشرف على جميع شئون الدولة صغيرها وكبيرها ، ويستعين بأخلص الناس إليه فى إدارة الحكومة المركزية . وقد اعتمد على جوهر الصقلى ، فاتخذ منه كاتبا وقائدا ووزيرا ، لكنه لم يترك له من النفوذ ما يساعده على الاستبداد، فيمثل الدور الذى مثله البرامكة مع العباسيين ، وإنما جعله وزير تنفيذ فقط ، يأتمر بأوامره ، وينتهى بنواهيه ولم يشأ المعز أو قائده جوهر أن يترك شيئا من النفوذ للوزير ابن الفرات خدًّا من نفوذه ، وعينا الجواسيس تتبعه كظله .

وأما النظام الإدارى الذى سنه المعز لإدارة البلاد فقد عنى بإدارة الولايات المختلفة ، واختار حكامها من أكفأ رجاله وأخلصهم لدولته ومذهبه . ولم يجعل لمبدأ الوراثة مكانة بين موظفيه ، بل كانت الكفاية والإخلاص من أهم المؤهلات التى يعتمد عليها فى اختيارهم وقد سن المعز لموظفيه مبادىء سداها الإخلاص لشخصه ، ولحمتها التفانى فى سبيل حماية الدولة .

واهتم المعز لدين الله بتقسيم بلاده إلى ولايات كبرى ، يعين عليها الولاة الذين يثق بهم . وعلى الرغم من أنه منح هؤلاء الولاة شيئا من الحرية، كان كثير التجسس عليهم ،

كما كان يعين كثيرا من عمال المدن المختلفة بنفسه ، ويتصل بهم مباشرة أو عن طريق حكام الولايات الكبرى ومهما يكن من شيء ، فقد كانت الكلمة العليا فى القرية والمدينة والولاية للمعز دون سواه وكثيرا ما كان المعز يعتمد فى إدارة بعض الولايات على جيوش الاحتلال ، التى يسيرها إلى هذه الولايات ، لمعاونة الولاة ، وإخضاع الثورات، كما كانت الحال فى بلاد الشام و بعض بلاد المغرب الأقصى وصقلية.

ومما يدل على ميل المعز إلى الاستئثار بالحكم ، وسلب السلطة من أيدى ولاته فى الأقاليم ، أنه لم يترك لبلكين بن زيرى بن مناد ، شيئا من النفوذ أو السلطان فى كثير من الولايات المغربية ؛ فجعل صقلية وطرابلس وبرقة وبعض المدن الهامة تخضع لشخصه هو فى مصر دون بلكين . وبذلك ضمن ولاء أهالى هذه الولايات للخلافة الفاطمية حينا من الدهر . ولم يستطع هذا البيت الصنهاجى أن يستقل ببلاد المغرب ، إلا بعد أن عهد العزيز وخلفاؤه إليهم بالإشراف على كثير من هذه الولايات ، وبخاصة طرابلس وبرقة ، مما يدل على بعد نظر المعز لدين الله .

أضف إلى ذلك أن المعز كان يعين بجانب الولاة جماعة يثق بهم ليكونوا عيونا على الولاة . ومن هؤلاء الجباة وأصحاب الخراج . وقد رأينا كيف استعان المعز بابن القديم ليكون عينا له فى تونس ، حتى لا يستبد بها الصنهاجيون . وبفضل هذا كله ظلت إمبراطوريته الفسيحة ، على ولائها وإخلاصها له وهو بالمنصورية ثم بالقاهرة

وقد اهتم المعز فى إدارة بلاده بالشرطة ، سواء أكان ذلك فى حاضرة الدولة التابعة لها أم فى الولايات . وبفضل نظام الشرطة ساد الأمن وانتشرت الطمأنينة فى ربوع الإمبراطورية الفاطمية . واتخذ المعز من الشرطة أداة لحفظ هيبته وهيبة الخلافة ، وبقى نظام الشرطة فى مصر على ما كان عليه فى عهد الإخشيديين ، وأسند أعمالها إلى المخلصين له من المغاربة . والحق أن المعز لدين الله وضع دستورا جديدا للوظائف فى مصر ، حيث أشرك المغاربة مع المصريين فى الوظائف ، واستطاع بفضل هذا النظام أن يبقى على كثير من النظم التى كانت سائدة فى مصر ، ولا يثير كراهة المصريين ، مما أدى إلى استقرار الأمور فى عهده

كما كان للنظام المالى الدقيق الذى وضعه المعز أثر ملحوظ في نهضة الدولة ، فقد استعان بمبادىء المذهب الإسماعيلى الذى يحتم على الأشياع أن يؤدوا خمس أموالهم للإمام . وكذلك عنى المعز بدواوين الخراج ، وأسند إدارتها إلى أشد الناس إخلاصا له ، واهتم بالمكوس والتجارة الداخلية والخارجية ، فامتلأت خزائنه بالأموال الكثيرة ، التى ساعدته على النهوض ببلاده كما استطاع المعز بفضل هذا النظام المالى الدقيق أن يبنى أسطولا ضخما ، ويجمع جيشا قويا ، استطاع بهما أن يصد الأعداء عن بلاده ، ويقف حجر عَثْرة فى وجه الأمويين والروم . وليس هذا وحده ، بل استطاعت خزائنه أن تمد جيوشه بالأموال والإمدادات ، ومن ثم قضى على الثورات فى بلاده ، وتم له فتح مصر فى سهولة ويسر

أما النظام الحربى الذى اعتمد عليه المعز ، فقد كان راجعا إلى اهتمامه بالجيش الدائم ، وقصر جيشه على أشياعه المخلصين له ، فأسند قيادته إلى قواد عرفوا بالحزم والإخلاص للفاطميين كما عنى المعز بنظام التجنيد الإجبارى ، وملأ البلاد بتوقيعاته الكثيرة التى تثير حماسة رعاياه ، وتدفعهم إلى حمل السلاح فى سبيل الذود عن بلادهم . وسلك المعز ما يسلكه قادة الدول اليوم ، من الاهتمام بإمداد الجيوش المهاجمة ، وربطها بحاضرة الدولة ؛ فكان يمد جيوشه عن طريق البر والبحر ، وينفذ معها رجال المال للإنفاق عليها كما لم يترك نظام الجنود المرتزقة ، فكان لإغداقه الأموال على الجنود أثره فى إقبال كثير من الناس على الانضمام إلى طائفة المرتزقة

ومن مآثر المعز أنه كان ينفق على جنوده المحاربين ، وعلى ذويهم أيضا ، بل كان يجعل لهم معاشا سنويا إذا وقع عائلهم فى ساحة القتال ، كما كان يشجع المحسن منهم بتعيينه فى أرقى المناصب ، وإقطاعه الإقطاعات الكثيرة . ومن مآثر المعز لدين الله ، أنه كان يمنح قواده شيئا غير قليل من الاحترام ، فكان يحتم على أبنائه وأقاربه وكبار ولاته ، أن يظهروا للقواد ولاءهم واحترامهم ، مما ساعد على التفاف الجنود حول قوادهم ، وإخلاصهم لهم

وعلى الرغم من أن المعز كان يعتمد فى تكوين جيوشه على العصبية ، فيجعل من الكتاميين فرقا ، ومن الصنهاجيين والأتراك وسواهم فرقا أخرى ، كانوا جميعا

يخضعون لقوادهم خضوعا أعمى . وبفضل هذه النظم التى سنها المعز، استطاع أن يسير إلى مصر جيشا لا يقل عن مائة ألف رجل ، مزودين بالمال والعدة والسلاح استطاعوا أن يضموا إلى أملاك الدولة الفاطمية مصر والشام ، ويهددوا العراق نفسها وبفضل هذه النظم نبغ كثير من القواد الذين كان لأعمالهم أثر بعيد فى الشرق والغرب

ناهيك عن عناية المعز بالأسطول ، فقد اتخذ من مدينتى المهدية وسوسة فى المغرب ، والإسكندرية ودمياط والفسطاط والمقس فى مصر، قواعد أساسية لعمارة السفن والحق أن أسطول الفاطميين فى عهد المعز كان من أقوى أساطيل العصور الوسطى وبفضله استطاع هذا الخليفة أن يحول البحر الأبيض الشرقى إلى بحيرة فاطمية وغدت سفنه فى الإسكندرية ودمياط وعسقلان وصُور مصدر فزع البيزنطيين وخوفهم .

وكان المعز يضفى على رجال أسطوله شيئا غير قليل من التجلة والاحترام حتى قلد قيادة الأسطول رجلا لا تقل رتبته عن رتبة الوزراء ، كما كان الخليفة نفسه ينفق على الأسطول فى غزواته ، ويغدق الرتب والأموال على رجاله ، ويبنى المناظر ليشرف منها على أسطوله فى غدواته وروحاته وبفضل هذا الأسطول البحرى ، بلغت الدولة الفاطمية فى عهد المعز أقصى ما وصلت إليه من قوة ونفوذ .

وكذلك عنى المعز لدين الله بالنظام القضائى، واتخذه وسيلة لبث العقائد الشيعية والفقه الشيعى ، وفوض إلى أبى حنيفة النعمان أمور القضاء ، وعهد إليه فى تعيين قضاة الأقاليم، فكان النعمان بذلك أشبه بوزير العدل عندنا اليوم. كما كان المعز شديدا فى الحق، لا يخشى فيه لومة لائم ، يكثر النصح لقضاته ، ويشرف عليهم وينقح أحكامهم . ولا غرو، فقد جعل المعز قاضى قضاته يقوم بالفتيا إلى جانب نظره فى القضايا فى قاعدة الدولة . وليس من شك فى أن القضايا والأحكام كانت تصدر وفق عقائد المذهب الإسماعيلى ، مما يحملنا على الاعتقاد بأن القضاء عند الفاطميين كان لونا من ألوان الدعاية للمذهب الإسماعيلى .

وقد نجح المعز وجوهر الصقلىّ فى تنظيم القضاء بمصر ، فلم يتركا للقضاة السنيين الفرصة ليصدروا أحكامهم وفق عقائد السنيين ، بل أشركا معهم قضاة من الشيعيين.

وهكذا وضع المعز لدين الله فى مصر نظام إقصاء القضاة السنيين ، ثم تعهد أبناؤه هذا النظام حتى أضحى للقضاء الإسماعيلى السيادة فى البلاد المصرية . وهكذا نهض المعز بالقضاء الإسماعيلى فى مصر ، كما نهض به فى بلاد المغرب ، دون أن يثير كراهية المصريين له ، وسخطهم عليه

وكذلك اهتم المعز بالحسبة التى تعد وسطا بين القضاء والمظالم ، وأشرك المغاربة فى إدارتها ، وما زال يقوى من نفوذهم حتى آلت هذه الوظيفة إليهم . وكان لتحول الحسبة إلى أيدى الإسماعيلية فى عهد المعز أثره فى كبح جماح التجار ، وإقرار الأمن والطمأنينة فى البلاد ، فى الوقت الذى لم تكن أقدام الفاطميين قد استقرت بعد فى مصر

وقد اهتم المعز بالنظر فى المظالم ، فكان ينظر فيها بنفسه وهو بالمغرب ، ويفخر بذلك اعتقادا منه أنه يأتم بجده على بن أبى طالب وقد حاكى جوهر الصقلى مولاه المعز فى ذلك ، فكان يجلس للنظر فى المظالم فى بعض أيام الأسبوع ، ويعهد لغيره بالفصل فى القضايا ، حتى إنه انتصر لإحدى الأميرات الإخشيديات - كما رأينا وبهذا نرى أن نظم الحكم التى وضعها المعز لدين الله ، كانت أساسا صالحا ارتكز عليه أبناؤه وأحفاده فى رفع شأن دولتهم

وقد بلغ اهتمام المعز بالفن والثقافة مبلغا عظيما ، فعنى بالعمارة فى المغرب ومصر ، وأكثر من بناء القصور ، وتنسيق الحدائق فى المنصورية ؛ كما شق القنوات التى تصل إلى حاضرة الدولة ، وتزيد من بهجتها وجمالها ، حتى لقد بهرت حاضرة المعز سفراء الدولة البيزنطية ، لما شاهدوه من اتساع ميادينها وكثرة حدائقها وعظمة قصورها ولا غرو فإنه قصر البحر الذى بناه المعز فى المنصورية ، كان مفخرة من مفاخر الفاطميين ، وقد فاق بجماله وروعته قصور بغداد وقرطبة .

أما فى مصر فقد نهض المعز بفن العمارة نهضة نراها فى تأسيس مدينة القاهرة المعزية ، وما اكتنفها من شوارع منظمة وميادين واسعة . وكان للمذهب الشيعى أثر كبير فى عمارة القاهرة ، فقد حاطها المعز بسور ضخم ، حتى يستطيع أتباعه أن يؤدوا شعائرهم الدينية الشيعية بعيدين عن مضايقة السنيين ، ويستطيعوا أن يصدوا الأعداء

إذا حاولوا إخراجهم من مصر وكأن المعز كان يخشى ثورة المصريين عليه ، كما كان لبناء سور القاهرة أثر كبير فى صد القرامطة عن مصر

وكانت القاهرة فى عهد المعز مدينة حربية ، فقد قام بتأسيسها لإيواء جيوشه . ولذلك قسمها إلى خطط وحارات ، وجعل لكل جماعة من جنوده حارة ، فهناك حارة المصامدة وأخرى للكتاميين وثالثة للأتراك ، ورابعة لزَويلة ، وهكذا

كما أن بناء الجامع الأزهر ، الذى يعد بحق أعظم آثار الفاطميين ، لم يكن إلا لتحقيق غرض مذهبي بحت فقد رمى المعز من وراء بنائه إلى اتخاذه مسجدا لأداء شعائر المذهب الإسماعيلى من جهة ، ومدرسة لتعليم عقائد هذا المذهب من جهة أخرى . وقد بنى جوهر لمولاه المعز قصرا كبيرا فاق فى فخامته وأبهته قصر البحر فى المنصورية . وقد ذكر المؤرخون أن المعز لدين الله هو الذى وضع لجوهر خطة بنائه ، فوضعه على الأسلوب الذى رسمه له [1]. وكان الغرض من بنائه أن يكون مقرا للخلافة ، وأن يتخذ من أبهائه مدارس لنشر مبادئ المذهب الإسماعيلى. وكان قصر المعز هذا أشبه بمستعمرة أو مدينة صغيرة ، حتى لقد ذهب بعض إلى القول بأن حجراته كانت تزيد على أربعة آلاف . وهكذا نهض المعز بالعمارة فى المغرب ومصر، وإليه يرجع الفضل فى تأسيس مدينة القاهرة التى تعد من أمهات المدن الإسلامية اليوم، والأزهر الشريف الذى كان ولا يزال منبعا للعلوم والمعارف .

كما عُنى المعز بالثقافة عنايته بالفن ؛ فعمل على تشجيع الثقافة العلمية والمذهبية ، وكان يعقد المجالس العلمية فى قصره بالمنصورية خاصة ، ويناقش العلماء والفلاسفة ، ويحث رعاياه على الاطلاع والبحث ، ويرى الخير كل الخير فى أن يحكم شعبا مثقفا ، لا شعبا جاهلا. أضف إلى ذلك تشجيعه العلماء والشعراء ، وإدراره الأموال عليهم . وكان فى الوقت نفسه يشجع المؤلفين ، ويشرف على النهضة العلمية ، وينقد العلماء. وليس هذا وحده ، نه فتح أبواب قصره للعلماء ، وجعل مكتباته تحت تصرفهم. ومن ثم اشتغل الناس بدراسة كثير من العلوم فى عهده ، كالتفسير والحديث والمناظرة والفقه والكلام والوعظ والتأويل ، وما إليها والحق أن المعز كان من

---

(١) المقريزى خطط ج ١ ص ٣٨٤ .

كبار العلماء والمتشرعين ؛ فكان مؤلفاً وفقيها ومتكلما ومفسرا ومحدثا وفيلسوفا . ويعتبر عصره من أزهى عصور الخلفاء الفاطميين من الناحية العلمية ، حتى لقد نبغ فى عهده علماء كثيرون ، وشعراء كثيرون ، كابن هانىء الأندلسى ، وتميم بن المعز .

أما الثقافة المذهبية الخاصة بالدعوة الإسماعيلية والمذهب الإسماعيلى، فقد انتشرت انتشارا واسعا فى كل من المغرب ومصر حتى كان المعز نفسه يكتب الكتب والمحاضرات التى كان يطلق عليها « المنشورات » ويقدمها إلى داعى دعاته ليلقيها على الناس ، ويبعث بها إلى الإسماعيلية فى كافة أنحاء العالم الإسلامى. ولم يكتف المعز بذلك ، بل كان يأخذ العهد على كثير من المستجيبين ، الذين كانوا يفدون إليه من مشارق الأرض ومغاربها

ولم يقف نشاط المعز عند هذا الحد ، بل عمل على تثقيف أشياعه بعلوم المذهب الإسماعيلى أو علوم الباطن ـ كما كانوا يسمونها ـ فأخذ يخرج من مكتباته كثيرا من هذه الكتب ليقرأها النعمان داعى دعاته على الأتباع . وكانت هذه المحاضرات أشبه بمجالس الحكمة فى مصر ، وكان الإقبال على سماعها فى قصر البحر بالمنصورية عظيما ، كما كان دعاة المعز فى كافة أنحاء العالم الإسلامى يقلدون النعمان ، فيلقون على المؤمنين والمؤمنات (الإسماعيلية) محاضرات فى علوم الباطن

وقد نهج مؤلفو الإسماعيلية فى بلاد المغرب نهجا جديدا فكانوا يضعون فى تآليفهم المبادىء التى يجب على الداعى والمستجيب أن يدين بها ، والأسس التى يسير عليها ، ويوضحون فيها ما يجب أن تكون عليه علاقة بعض الإسماعيلية ببعض ، إلى غير ذلك من الأسس التى تنظم المجتمع الإسماعيلى وتدعمه .

أما فى مصر فقد عنى الفاطميون بنشر مبادىء المذهب الإسماعيلى مذ وطئت أقدامهم هذه البلاد ، فأنشئوا القاهرة ، وحاطوها بسور منيع ، ليستطيعوا نشر مبادئهم الخالصة فى داخل أسوار هذه المدينة ، واتخذوا من الأزهر مدرسة يلقنون فيها الناس مبادئهم الشيعية ، بل عملوا على نشر عقائدهم بين السنيين فيه وفى غيره من المساجد ، فأدخلوا فى الأذان العبارات المألوفة عند الشيعيين ، مثل «حى على خير العمل ، ومحمد وعلى خير البشر » وشادوا فى خطبهم بأئمتهم وعقائد مذهبهم. وكانوا يقنتون فى صلاة الجمعة ، إلى غير ذلك من الرسوم الشيعية الخالصة

وليس من شك فى أن الدعوة الإسماعيلية السرية كانت رائجة فى مصر رواجها فى المغرب ، إذ لا يمكن الدولة الفاطمية أن تعتمد على هذه التغييرات الشكلية ومن أشهر من أنجبتهم هذه الدعوة فى ذلك الحين ، أبو حنيفة النعمان المغربى ، والداعى جعفر بن منصور اليمن ، وهما يمثلان أدب الإسماعيلية فى بلاد المغرب خير تمثيل

ومن مظاهر الحياة الاجتماعية فى عهد المعز ، هذه الثروة الذى كانت تتجلى فى مواسم الفاطميين وأعيادهم . ومن أهم مظاهر الثروة تلك الأموال الضخمة التى أنفقها فى حروبه برا وبحرا ، وإشراكه رعاياه فى أفراحه وأعياده ، فتراه ينفق ملايين الدنانير ، احتفالا لختان أبنائه وأبناء رعاياه ، حتى كانت أيامه « أيام أعياد ومسرات ، وأفراح وهبات » ومن مظاهر عظم الثروة فى عهده ، هذه الإعانة التى بعث بها وهو بالمغرب لإنقاذ مصر ، والهدية الفخمة التى أرسلها إليه جوهر ، والأموال الوفيرة التى أحضرها معه من بلاد المغرب ، والكسوة الفخمة التى كان يبعث بها إلى الكعبة ، حتى فاقت جميع الكسوات التى كان الخلفاء والسلاطين السنيون يبعثون بها . أضف إلى ذلك هذه النهضة العمرانية التى رأيناها فى بلاد المغرب ومصر ، والأبهة التى كانت تتجلى فى قصور المعز ، والثروة التى كان يتمتع بها أبناؤه ، إلى غير ذلك ، مما يدل على أن عهده كان عهد رخاء شامل .

أما الحفلات والأعياد ، فقد كان المعز يرمى من ورائها إلى إظهار عظمة الفاطميين ، وجذب الرعية إليه وإلى دولته ودعوته . وكثيرا ما اتخذ هذه الأعياد وسيلة لنشر المذهب الإسماعيلى . والمعز لدين الله كان أول من سن لخلفائه سنة الاحتفال بهذه الأعياد التى زخر بها العصر الفاطمى

الملاحق

الملحق الأول

رسالة المعز إلى أبى الحسن على الإخشيد ، يطلب إليه إنجاد مسلمى إقريطش [١]

قال المعز : « إن الله سبحانه قد خَوَّلنا من فضله وأمدَّنا من معونته وتأييده ، بما نرى ، بحوله وقوته ، ونصره لنا وإظهارنا على عدونا ، أنا نكشّف أيدى الكفرة ، عما تطاولت[٢] إليه من حرب هذا الصُّقع والإيقاع بأهله . وقد انتهى إلينا أنك أظهرت الحركة إلى الجهاد ، وإمداد هؤلاء القوم بمراكب من قبلك . وأنت لعمرى بذلك أجدر لقربهم منك ، واتصالهم بك ، وميرتهم بلدك ، وكونهم وإياك فى دعوة واحدة ولو أسلمناهم إليك ، وقعدنا عنهم ، لما كان لك ولا لهم علينا حجة فى ذلك . ولكننا آثرنا نصرة أمة جدنا محمد ﷺ ، ولم نر التخلف عن ذلك . وقد رجونا له ، وألقوا بأنفسهم إلينا فيه ، ونحن لا نحول[٣] بينك وبين الجهاد فى سبيل الله ، ولا نمنعك من تمام ما أملت منه . فلا يكن مايتصل بك من إنفاذ أساطيلنا يَـريثك[٤] عن الذى هممت به من ذلك ، وأن تخشى على من تبعث به وعلى مراكبك منا فلك علينا عهد الله وميثاقه ، أنا لا نكون معهم إلا بسبيل خير ، وأنا نحلهم محل رجالنا ، ونجعل أيديهم مع أيدينا ، ونشركهم فيما أفاء الله علينا ، ونقيمهم فى ذلك وغيره مقام رجالنا ، ومراكبك مقام أساطيلنا ، حتى يفتح لنا إن شاء الله ، ثم ينصرفوا إليك على ذلك ، أو يكون من أمر الله وقضائه ما هو فاعله . فاعلم ذلك ، وثق به منا ، فى ذلك تظافر المسلمين على عدوهم ، واجتماع كلمتهم ، وإعزاز لدين الله ، وكبت لأعدائه ، فقد سهلنا لك السبيل ، والله على ما نقول وكيل . فإن وثقت بذلك ، ورأيت إيثار الجهاد ، فاعمل على أن تنفذ

(١) النعمان : المجالس والمسايرات ج ٢ ص ٤١٧ — ٤٢٠

(٢) تطاولت أيدى الكفرة يقصد الروم

(٣) فى الأصل حول .

(٤) يؤخرك ويثنيك عن عزمك

مراكبك إلى مرسى «طبنة» من أرض برقة ، لقرب هذا المرسى من جزيرة إقريطش ، ويكون اجتماعهم مع أساطيلنا بهذا المرسى فى مستهل ربيع الآخر (سنة ٣٥٠ هـ) بتوفيق الله وقوته وتأييده ، ونصره وعونه ؛ وإلا تر ذلك ، فقد أبلغنا فى المعذرة إليك والنصيحة لك ، وخرجنا مما علينا إليك .

ونحن بحول الله وقوته ، وتأييده ونصره وعونه ، مستغنون عنك وعن غيرك ، وعلى عزم وبصيرة فى إنفاذ أساطيلنا ورجالنا وعُـدتنا ، وما خولنا الله إياه ، وأقدرنا عليه ، بما نرى (أننا) بحوله وقوته نبلغ به ما نؤم إليه بذلك ، ونصمد نحوه . فبالله نستعين ، وعليه نتوكل ، وعلى تأييده نعول ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

الملحق الثانى

عهد جوهر الصقلى إلى المصريين[1]

« بسم الله الرحمن الرحيم ! هـذا كتاب من جوهر الكاتب عبد أمير المؤمنين المعز لدين الله ، صلوات الله عليه ، لجماعة أهل مصر ، الساكنين بها (من أهلها) ، ومن غيرهم . إنه قد ورد من سألتموه الترسل والاجتماع معى ، وهم أبو جعفر مسلم الشريف ، أطال الله بقاه ، وأبو إسماعيل الرسى أيده الله ، وأبو طالب الهاشمى أيده الله ، وأبو جعفر أحمد بن نصر ، أعزه الله ، والقاضى ، أعزه الله ، وذكروا عنكم أنكم التمستم كتابا يشتمل على أمانكم فى أنفسكم وأموالكم وبلادكم وجميع أحوالكم فعرفتم ما تقدَّم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وحسن نظره لكم . فلتحمدوا الله على ما أولاكم ، وتشكروه على ما حماكم ، وتدأبوا فيما يلزمكم ، وتسارعوا إلى طاعته العاصمة لكم ، العائدة بالسعادة عليكم ، وبالسلامة لكم ؛ وهو أنه صلوات الله عليه ، لم يكن إخراجه للعساكر المنصورة ، والجيوش المظفرة ، إلا لما فيه إعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم ؛ إذ قد تخطفتكم الأيدى ، واستطال عليكم المستذل . وأطمعته نفسه بالاقتدار على بلدكم فى هذه السنة ، والتغلب عليه ، وأسر من فيه ، والاحتواء على نعمكم وأموالكم ، حسب ما فعله فى غيركم من أهل بلدان الشرق ؛ وتأكد عزمه ، واشتد كلبه[2] ، فعاجله مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، بإخراج العساكر

---

(١) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ٦٧ — ٧٠

(٢) أى طمعه ، ويقصد بذلك الدولة البيزنطية

المنصورة ، وبادره بإنفاذ الجيوش المظفرة دونكم ، ومجاهدته عنكم وعن كافة المسلمين ببلدان الشرق ، الذين عمهم الخزى ، وشملتهم الذلة ، واكتنفتهم المصائب ، وتتابعت (عليهم) الرزايا ، واتصل عندهم الخوف . وكثرت استغاثتهم ، وعظم ضجيجهم ، وعلا صراخهم ؛ فلم يغثهم إلا من أرمضه أمرهم ، ومضه حالهم ، وأبكى عينه ما نالهم ، وأسهرها ما حل بهم ، وهو مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، فرجا بفضل الله عليه ، وإحسانه لديه ، وما عوده وأرجاه عليه ، استنقاذ من أصبح منهم فى ذل مقيم ، وعذاب أليم ؛ وأن يؤمن من استولى عليه المهل ، ويفرخ روع من لم يزل فى خوف ووجل ، وآثر إقامة الحج الذى تعطل ، وأهمل العباد فروضه وحقوقه ، للخوف المستولى عليهم ؛ وإذ لا يُؤَمَّنون على أنفسهم ولا على أموالهم ؛ وإذ قد أوقع بهم مرة بعد أخرى ، فسفكت دماؤهم ، وابتزت أموالهم ، مع اعتماد ما جرت به عادته من صلاح الطرقات ، وقطع عبث العابثين فيها ، ليطرق النـاس آمنين ، ويسيروا مطمئنين ، ويتحفوا بالأطعمة والأقوات ، إذ كان قد انتهى إليه ، صلوات الله عليه ، انقطاع طرقاتها ، لخوف مارتها ، إذ لا زاجر للمعتدين ولا دافع للظالمين ؛ ثم تجويد السِّكة ، وصرفها إلى العيار الذى عليه السكة الميمونة المنصورية المباركة ، وقطع الغش منها ، إذ كانت هذه الثلاث خصال ، هى التى لا يسع من ينظر فى أمور المسلمين إلا إصلاحها ، واستفراغ الوسع فيما يلزمه منها ؛ وما أوعز به سيدنا ومولانا أمير المؤمنين ، صلوات الله عليه ! إلى عبده من نشر العدل ، وبسط الحق ، وحسم الظلم ، وقطع العدوان ، ونفى الأذى ، ورفع المؤن ، والقيام فى الحق ، وإعانة المظلوم مع الشفقة والإحسان ، وجميل النظر ، وكرم الصحبة ، ولطف العشرة ، واقتفاء الأحوال ، وحياطة أهل البلد فى ليلهم ونهارهم وحين تصرفهم فى أوان ابتغاء معاشهم ، حتى لا تجرى أمورهم إلا على ما لمَّ شعثهم ، وأقام أودهم ، وجمع قلوبهم ، وألف كلمتهم على طاعة (وليه) ، مولانا وسيدنا أمير المؤمنين ، صلوات الله عليه ، وما أمره به مولاه من إسقاط الرسوم الجائرة ، التى لا يرتضى صلوات الله عليه بإثباتها عليكم . وأن أجريكم[١] فى المواريث على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأضع ما كان يؤخذ من تركات موتاكم لبيت المال من غير وصية من المتوفى بها ، فلا استحقاق لمصيرها لبيت المال وأن أتقدم فى رم مساجدكم وتزيينها بالفرش والإيقاد ، وأن أعطى

(١) فى الأصل أجيرم

مؤذنيها وقَوَمتها ومن يؤم الناس فيها أرزاقهم ، وأدرها عليهم ، ولا أقطعها عنهم ، ولا أدفعها إلا من بيت المال ، لا بإحالة على من يقبض منهم ؛ وغير ما ذكره مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه، مما ضمنه كتابه هذا ، من توسل عنكم ، أيدكم الله وصانكم أجمعين ، بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، من أنكم ذكرتم وجوها التمستم ذكرها فى كتاب أمانكم ، فذكرتها إجابة لكم، وتطمينا لأنفسكم ؛ فلم يكن فى ذكرها معنى، ولا فى نشرها فائدة ، إذ كان الإسلام سنة واحدة، وشريعة متبعة ، وهى إقامتكم على مذهبكم ، وأن تتركوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض فى العلم، والاجتماع عليه فى جوامعكم ومساجدكم ، وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة، من الصحابة رضى الله عنهم، والتابعين بعدهم، وفقهاء الأمصار، الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم ؛ وأن يجرى الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره وقيام لياليه ، والزكاة والحج والجهاد على ما أمر الله فى كتابه ونصه نبيه صلى الله عليه فى سنته ؛ وأجرى أهل الذمة على ما كانوا عليه . ولكم علىّ أمان الله التام العام ، الدائم المتصل، الشامل الكامل، المتجدد المتأكد على الأيام ، وكرور الأعوام، فى أنفسكم وأموالكم، وأهليكم ونعمكم وضياعكم ورباعكم، وقليلكم وكثيركم ، وعلى أنه لا يعترض عليكم معترض ، ولا يتجنى عليكم متجن ، ولا يتعقب عليكم متعقب؛ وعلى أنكم تُصانون وتُحفظون وتُحرسون، ويذب عنكم، ويمنع منكم؛ فلا يتعرض إلى أذاكم، ولا يسارع أحد فى الاعتداء عليكم ، ولا فى الاستطالة على قويكم، فضلا عن ضعيفكم ؛ وعلى ألا أزال مجتهدا فيما يعمكم صلاحه، ويشملكم نفعه ، ويصل إليكم خيره وتتعرفون بركته ، وتغتبطون معه بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه . ولكم علىّ الوفاء بما التزمته وأعطيتكم إياه ، عهد الله وغليظ ميثاقه وذمته ، وذمة أنبيائه ورسله ، وذمة الأئمة موالينا أمراء المؤمنين ، قدس الله أرواحهم ، وذمة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه ، فتصرحون بها وتعلنون بالانصراف إليها، وتخرجون إلىّ، وتسلمون علىّ، وتكونون بين يدى إلى أن أعبر الجسر، وأنزل فى المناخ المبارك ، وتحفظون وتحافظون من بعد على الطاعة ، وتثابرون عليها ، وتسارعون إلى فروضها ، ولا تخذلون وليا لمولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وتلزمون ما أمرتم به . وفقكم الله وأرشدكم أجمعين ! »

الملحق الثالث

رسالة المعز لدين الله إلى الحسن الأعصم القرمطي (١)

من عبد الله ووليه ، وخيرته وصفيه ، معد أبي تميم ، المعز لدين الله أمير المؤمنين ، وسلالة خير النبيين ، ونجل علىّ أفضل الوصيين ، إلى الحسن بن أحمد

بسم الله الرحمن الرحيم . رسوم النطقاء ، ومذاهب الأئمة والأنبياء ، ومسالك الرسل والأوصياء ، السالف والآنف منا ، صلوات الله علينا ، وعلى آبائنا أولى الأيدى والأبصار ، فى متقدم الدهور والأكوار ، وسالف الأزمان والأعصار ، عند قيامهم بأحكام الله ، وانتصابهم لأمر الله ، الابتداء بالأعذار ، والانتهاء بالإنذار ، قبل إنفاذ الأقدار ، فى أهل الشقاق والآصار ، لتكون الحجة على من خالف وعصى ، والعقوبة على من باين وغوى ، حسبما قال الله جل وعز «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا»(٢). «وإنْ من أمة إلا خلا فيها نذير»(٣)، وقوله سبحانه: «قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى، وسبحان الله وما أنا من المشركين (٤)» . «فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم فى شقاق»(٥).

أما بعد أيها الناس ، فإنا نحمد الله بجميع محامده ، ونمجده بأحسن مماجده . حمدا دائما أبدا ، ومجدا عاليا سرمدا ، على سبوغ نعمائه ، وحسن بلائه ، ونبتغى إليه الوسيلة ، بالتوفيق والمعونة على طاعته ، والتسديد فى نصرته . ونستكفيه ممايلة الهوى ، والزيغ عن قصد الهدى ، ونستزيد منه إتمام الصلوات ، وإفاضات البركات ، وطيب التحيات ، على أوليائه الماضين ، وخلفائه التالين ، منا ومن آبائنا

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٢٣ — ١٤٣ .

(٢) سورة الاسراء آية ١٥

(٣) سورة فاطر آية ٢٤ .

(٤) سورة يوسف آية ١٠٨

(٥) سورة البقرة آية ١٣٧ .

الراشدين ، المهديين ، المنتخبين ، الذين قَضَوا بالحق ، وكانوا به يعدلون . أيها الناس ! قد جاءكم بصائر من ربكم ، فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها ، ليذّكر من يذكر وينذر من أبصر واعتبر

أيها الناس ! إن الله جل وعز إذا أراد أمرا قضاه ، وإذا قضاه أمضاه ، وكان من قضائه فينا قبل التكوين ، أن خلقنا أشباحا ، وأبرزنا أرواحا ، بالقدرة مالكين ، وبالقوة قادرين ، حين لا سماءَ مبنية ، ولا أرض مدحية ، ولا شمس تضيء ، ولا قمر يسرى ، ولا كوكب يجرى ، ولا ليل يجن ، ولا أفق يَكنّ ، ولا لسان ينطق ، ولا جناح يخفق ، ولا ليل ولا نهار ، ولا فلك دوار ، ولا كوكب سيار . فنحن أول الفكرة وآخر العمل ، بقدر مقدور ، وأمر فى القدم مبرور فعند تكامل الأمر ، وصحة العزم ، وإنشاء الله جل وعز المنشآت ، وإبداء الأمهات ، من الهيولات ، طبعنا أنوارا وظلما ، وحركة وسكونا وكان من حكمه السابق فى علمه ما ترون من فلك دوار ، وكوكب سيار ، وليل ونهار ، وما فى الآفاق من آثار معجزات ، وأقدار باهرات ، وما فى الأقطار من الآثار ، وما فى النفوس من الأجناس والصور والأنواع ، من كثيف ولطيف ، وموجود ومعدوم ، وظاهر وباطن ، ومحسوس وملموس ، ودان وشاسع ، وهابط وطالع ، كل ذلك لنا ، ومن أجلنا ، دلالة علينا ، وإشارة إلينا ، يهدى به الله من كان له لُبٌّ سَجيح(١) ، ورأى صحيح ، قد سبقت له منا الحسنى ، فدان بالمعنى . ثم إنه جل وعلا أبرز من مكنون العلم ، ومخزون الحكم ، آدم وحواء ، أبوين ذكرا وأنثى ، سببا لإنشاء البشرية ، ودلالة لإظهار القدرة القوية ، وزاوج بينهما ، فتوالدا الأولاد ، وتكاثرت الأعداد

ونحن ننتقل فى الأصلاب الزكية ، والأرحام الطاهرة المرضية ، كلما ضمنا صلب ورحم ، أظهرمنا قدرة وعلم ، وهلم جرًّا ، إلى آخر الجد الأول ، والأب الأفضل ، سيد المرسلين ، وإمام النبيين ، أحمد ومحمد ، صلوات الله عليه ، وعلى آله فى كل ناد ومشهد . فحسن آلاؤه ، وبان َغناؤه ، وأباد المشركين ، وقصم الظالمين ، وأظهر الحق ، واستعمل الصدق ، وظهر بالأحدية ، ودان بالصمديه ، فعندها سقطت الأصنام ، وانعقد الإسلام ، وانتشر الإيمان ، وبطل السحر والقربان ، وهربت الأوثان ،

---

(١) معتدل

وأتى بالقرآن ، شاهدا (بالحق) والبرهان ، فيه خبر ما كان وما يكون ، إلى يوم الوقت المعلوم ، مثبتا عن كتب تقدمت ، فى صحف قد تنزلت ، تبيانا لكل شيء ، وهدى ورحمة ونورا ، وسراجا منيرا

وكل ذلك دلالات لنا ، ومقدمات بين أيدينا ، وأسباب لإظهار أمرنا ، هدايات وآيات ، وشهادات وسعادات ، قُدْسيات إلاهيات ، أزليات كائنات ، منشآت ، مبديات معيدات . فما من ناطق نطق ، ولا نبى بعث ، ولا وصى ظهر ، إلا وقد أشار إلينا ، ولوّح بنا ، ودل علينا ، فى كتابه وخطابه ، ومنار أعلامه ، ومرموز كلامه ، فيما هو موجود غير معدوم ، وظاهر وباطن ، يعلمه من يسمع النداء ، وشاهد ورأى من الملأ الأعلى ؛ فمن أغفل منكم أو نسى ، أو ضل أو غوى ؛ فلينظر فى الكتب الأولة ، والصحف المنزلة ، وليتأمل إلى القرآن ، وما فيه من البيان ، وليسأل أهل الذكر إن كان لايعلم ، فقد أمر الله عز وجل بالسؤال ، فقال : «فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون (١)» . وقال سبحانه وتعالى «فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون (٢)» . ألا تسمعون قول الله حيث يقول «وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون(٣)» ، وقوله تقدست أسماؤه : «ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم(٤)» ، وقوله له العزة : «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه (٥)» ، ومثل ذلك فى كتاب الله تعالى .

ولولا الإطالة لأتينا على كثير منه وعما دل به علينا ، وأنبأ به عنا ، قوله عز وجل : «كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة ، لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضيء ، ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس ، والله

(١) سورة النحل آية ٤٣

(٢) سورة التوبه آية ١٢٢

(٣) سورة الزخرف آية ٢٨ .

(٤) سورة آل عمران آية ٣٤ .

(٥) سورة الشورى آية ١٣

بكل شئ عليم»(١)، وقوله فى تفضيل الجد الفاضل، والأب الكامل، محمد صلى الله عليه و (على) علىّ عليه (السلام)، إعلاما بجليل قدرنا، وعلو أمرنا: «ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم»(٢) هـذا مع ما أشار ولوح، وأبان وأوضح، فى السر والإعلان، من كل مثل مضروب، وآية وخبر، وإشارة ودلالة، حيث يقول «وتلك الأمثال نضربها للناس، وما يعقلها إلا العالمون». وقال سبحانه وتعالى: «إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب»(٣)، وقوله جل وعز: «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق». فإن اعتبر معتبر، وقام وتدبر ما فى الأرض وما فى الأقطار والآثار وما فى النفس من الصور المختلفات، والأعضاء المؤتلفات والآيات والعلامات والاتفاقات والاختراعات، والأجناس والأنواع وما فى كون الإبداع من الصور البشرية، والآثار العلوية، وما يشهد به حروف المعجم، والحساب المقوم، وما جمعته الفرائض والسنن، وما جمعته السنون، من فصل وشهر ويوم، وتصنيف القـــرآن من تحزيبه، وأسباعه، ومعانيه وأرباعه، وموضع الشرائع المتقدمة، والسنن المحكمة، وما جمعته كلمة الإخلاص فى تقاطيعها، وحروفها وفصولها، وما فى الأرض من إقليم وجزيرة، وبر وبحر وسهل وجبل، وطول وعرض، وفوق وتحت، إلى ما اتفق (عليه) فى جمع الحروف من أسماء المدبرات السبعة، والأيام السبعة، النطقاء والأوصياء والخلفاء، وما صدرت به الشرائع من فرض وسنة، وحدّ وشبهة، وما فى الحساب من آحاد وأفراد وأزواج، وأعداد ثنائيه وترابيعه، واثناً عشريته وتسابيعه وأبواب العشرات والمئين والألوف، وكيف تجتمع وتشتمل على ما اجتمع عليه ما تقدم، من شاهد عدل، وقول صدق، وحكمة حكيم، وترتيب عليم، فلا إله إلا هو له الأسماء الحسنى والأمثال العليا، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها، وفوق كل ذى علم عليم. «ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله». وليعلم من الناس من كان

---

(١) سورة النور آية ٣٥.

(٢) سورة الحجر آية ٨٧

(٣) سورة آل عمران آية ١٩٠

(٤) سورة السجدة آية ٥٣.

له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، أنا كلمات الله الأزليات ، وأسماؤه التامات ، وأنواره الشعشعانيات ، وأعلامه النيرات ، ومصابيحه البينات ، وبدائعه المنشآت ، وآياته الباهرات ، وأقداره النافذات ، لا يخرج منا أمر ، ولا يخلو منا عصر ، وإنا لكما قال الله سبحانه وتعالى « ما يكون من نجوى ثلثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، إن الله بكل شيء عليم »[1] فاستشعروا النظر ، فقد نقر فى الناقور ، وفار التنور ، وأتى النذير بين يدى عذاب شديد ؛ فمن شاء فلينظر ، ومن شاء فليتدبر ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين .

وكتابنا هذا من فسطاط مصر ، وقد جئناها على قدر مقدور ، ووقت مذكور ، فلا نرفع قدما ، ولا نضع قدما ، إلا بعلم موضوع ، وحكم مجموع ، وأجل معلوم ، وأمر قد سبق ، وقضاء قد تحقق . فلما دخلنا وقد قدر المرجفون من أهلها أن الرجفة تنالهم ، والصعقة تحل بهم ، تبادروا وتعادوا شاردين ، وجلوا عن الأهل والحريم والأولاد والرسوم وإنا لنارُ الله الموقدة ، التى تتطلع على الأفئدة ، فلم أكشف لهم خبرا ، ولا قصصت لهم أثرا ، ولكنى أمرت بالنداء ، وأذنت بالأمان ، الكل باد وحاضر ، ومنافق ومشاقق ، وعاص ومارق ، ومعاند ومسابق ، ومن أظهر صفحته وأبدى لى سوءته ، فاجتمع الموافق والمخالف ، والبائن والمنافق ، فقابلت الولى بالإحسان ، والمسيء بالغفران ، حتى رجع النائى والشارد ، وتساوى الفريقان ، واتفق الجمعان ، وانبسط القطوب ، وزال الشحوب ، جريا على العادة بالإحسان والصفح والامتنان ، والرأفة والغفران ، فتكاثرت الخيرات ، وانتشرت البركات . كل ذلك بقدرة ربانية ، وأمَرَة برهانية ؛ فأقمت الحدود بالبينة ، والشهود فى العرب والعبيد ، والخاص والعام ، والبادى والحاضر ، بأحكام الله عز وجل وآدابه ، وحقه وصوابه ، فالولى آمن جذل ، والعدو خائف وجل

فأما أنت (أيها) الغادر ، الخائن الناكث ، البائن عن هدى آبائه وأجداده ، المنسلخ من دين أسلافه وأنداده ، ، والموقد لنار الفتنة ، والخارج عن الجماعة والسنة ، فلم أغفل أمرك ، ولا خفى عنى خبرك ، ولا استتر دونى أثرك ، وإنك منى لبمنظر

---

(١) سورة المجادلة آية ٧

ومسمع ، كما قال الله جل وعز « إنى معكما أسمع وأرى »(١) ، « ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا »(٢) فعرفنا على أى رأى أصلت ، وأى طريق سلكت أما كان لك بجدك أبى سعيد أسوة وبعمل أبى طاهر قدوة ؟ أما نظرت فى كتبهم وأخبارهم ؟ ولا قرأت وصاياهم وأشعارهم ؟ أكنت غائبا عن ديارهم وما كان من آثارهم ؟ ألم تعلم أنهم كانوا عبادا لنا أولى بأس شديد ، وعزم شديد ، وأمر رشيد ، وفعل حميد ؟ يفيض إليهم موادنا وينشر عليهم بركاتنا حتى ظهروا على الأعمال ، ودان لهم كل أمير ووال ، ولقبوا بالسادة ، فسادوا ، منحة منا ، واسما من أسمائنا ؛ فعلت أسماؤهم ، واستعلت هممهم ، واشتد عزمهم ، فسارت إليهم وفود الآفاق ، وامتدت نحوهم الأحداق ، وخضعت لهيبتهم الأعناق ، وخيف منهم الفساد والعناد ، وأن يكونوا لبنى العباس أضدادا ، فعبيت الجيوش ، وسار إليهم كل خميس ، بالرجال المنتخبة ، والعدد المهذبة ، والعساكر الموكبة ، فلم يلقهم جيش إلا كروه ، ولا رئيس إلا أسروه ، ولا عسكر إلا كسروه ، وألحاظنا ترمقهم ، ونصرنا يلحقهم ، كما قال الله جل وعز « إنا لننصر رسلنا (والذين آمنوا) فى الحياة الدنيا »(٣) « وإن جندنا لهم الغالبون »(٤) ، وإن حزبنا لهم المنصورون

فلم يزل ذلك دأبهم ، وعين الله ترمقهم ، إلى أن اختار لهم ما اختاروه ، من نقلهم من دار الفناء إلى دار البقاء ، ومن نعيم يزول إلى نعيم لا يزول ، فعاشوا محمودين ، وانتقلوا مفقودين ، إلى روح وريحان وجنات النعيم ، فطوبى لهم وحسن مآب . ومع هذا ، فما من جزيرة فى الأرض ، ولا إقليم إلا ولنا فيه حجج ودعاة يدعون إلينا ، و« » يدلون علينا ، ويأخذون تبعتنا ، ويذكرون رجعتنا ، وينشرون علمنا ، وينذرون بأسنا ، ويبشرون بأيامنا ، بتصاريف اللغات واختلاف الألسن . وفى كل جزيرة وإقليم رجال منهم يفقهون ، وعنهم يأخذون . وهو قول الله جل وعز

(١) سورة طه آية ٤٦ .

(٢) سورة مريم آية ٢٩

(٣) سورة المؤمنون آية ٥١ .

(٤) سورة الصافات آية ٧٣ .

« وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم[١] » ، وأنت عارف بذلك

فيأيها الناكث الحانث ، ما الذى أرداك وصدك ؟ أشىء أشككت فيه ، أم أمر استربت به ؟ أم كنت خليا من الحكمة ، وخارجا عن الكلمة ، فأزالك وصدك ، وعن السبيل ردك ؟ إن هى إلا فتنة لكم ومتاع إلى حين . وايم الله لقد كان الأعلى لجدك ، والأرفع لقدرك ، والأفضل لمجدك ، والأوسع لرفدك ، والأنضر لعودك ، والأحسن لعذرك ، الكشف عن أحوال سلفك وإن خفيت عليك ، والقفو لآثارهم وإن عميت لديك ، لتجرى على سننهم ، وتدخل فى زمرهم ، وتسلك فى مذهبهم ، أخذا بأمورهم فى وقتهم ، وزمرهم فى عصرهم ، فتكون خلفا قفا سلفا بجد وعزم مؤتلف وأمر غير مختلف . لكن غلب الران [٢] على قلبك ، والصدأ على لبك ، فأزالك عن الهدى ، وأزاغك عن البصيرة والضياء ، وأمالك عن مناهج الأولياء ، وكنت من بعدهم كما قال الله عز وجل : « فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا[٣] » ، ثم لم تقنع فى انتكاسك ، وترديك فى ارتكاسك ، وارتباكك وانعكاسك ، من خلافك الآباء ، ومشيك القهقرى ، والنكوص على الأعقاب ، والتسمى بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان . وعصيانك مولاك ، وجحدك ولاءك ، حتى انقلبت على الأدبار ، وتحملت عظيم الأوزار ، لتقيم [٤] دعوة قد درست ودولة قد طمست ، إنك لمن الغاوين ، وإنك لفى ضلال مبين أم تريد أن ترد القرون السالفة ، والأشخاص الغابرة ؟ أما قرأت كتاب السفر وما فيه من نص وخبر ؟ فأين تذهبون ؟ إن هى إلا حياتكم الدنيا ، تموتون وتظنون أنكم لستم بمبعوثين ! قل : بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم ، وذلك على الله يسير . أما علمت أن المطيع آخر ولد العباس ، وآخر المترئس فى الناس ؟ أما تراهم كأنهم أعجاز نخل خاوية ؟ فهل ترى لهم من باقية ؟ ختم والله

---

(١) سورة إبراهيم آية ٤

(٢) من ران عليه حب المال غلب عليه وغطى قلبه

(٣) سورة مريم آية ٥٩

(٤) يعنى أنه يريد إقامة دولة بنى العباس بكونه أخذ منهم السلاح والمال من أبى تغلب بن حمدان وتقدم يقاتل المعز نصرة لهم .

الحساب ، وطُوى الكتاب ، وعاد الأمر إلى أهله ، والزمان إلى أوله ، وأزفت الآزفة ، ووقعت الواقعة ، وقرعت القارعة ، وطلعت الشمس من مغربها ، والآية من وطنها ، وجيء بالملائكة والنبيين ، وخسر هنالك المبطلون . هنالك الولاية لله الحق، والملك لله الواحد القهار ؛ فله الأمر من قبل ومن بعد . ويومئذ يفرح المؤمنون ، بنصر الله ينصر من يشاء ، «يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد»(١). فقد ضل عملك ، وخاب سعيك ، وطلع نحسك ، وغاب سعيك ، حين آثرت الحياة الدنيا على الآخرة ، ومال(٢) بك الهوى ، فأزالك عن الهدى. فإن تكفر أنت ومن فى الأرض جميعا فإن الله هو الغنى الحميد . ثم لم يكفك ذلك من بلائك ، وطول شقائك ، حتى جمعت أرجاسك (وأنجاسك) . وحشدت أوباشك وأقلاسك (٣) ، وسرت قاصدا إلى دمشق ، وبها جعفر بن فلاح فى فئة قليلة من كتامة وزويلة ، فقتلته وقتلتهم ، جرأة على الله ، وردا لأمره ، واستبحت أموالهم، وسبيت نساءهم ، وليس بينك وبينهم ترة ولا ثار ، ولا حقد ولا إضرار ، فعلَ بنى الأصفر والترك والخزر. ثم سرت أمامك ولم ترجع ، وأقمت على كفرك ولم تقلع ، حتى أتيت الرملة وفيها سعادة بن حيان ، فى زمرة قليلة ، وفرقة يسـيرة ؛ فاعتزل عنك إلى يافا ، فلم تزل ما كثا على نكثك ، باكرا وصائحا ، وغاديا ورائحا ، تقعد لهم بكل مقعد ، وتأخذ عليهم كل مرصد ، وتقصدهم بكل مقصد ، كأنهم ترك وروم وخزر ، لاينهاك عن سفك الدماء دين ، ولا يردعك عهد ولا يقين قد استوعب من الردى حيزومك ، وانقسم على الشقاء خرطومك . أما كان لك مذكر ، وفى بعض أفعالك مزدجر ؟ أو ما كان لك فى كتاب الله عز وجل معتبر حيث يقول «ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ، وغضب الله عليه ، ولعنه وأعد له عذابا عظيما» (٤)؟ فحسبك فعلة بها يلقاك يوم ورودك وحشرك ، حين لامناص ، ولا لك من الله خلاص،

(١) سورة الحج آية ٢

(٢) فى الأصل ومالك

(٣) ما خرج من الحلق وملأ الفم

(٤) سورة النساء آية ٩٣ .

ولم تستقلها وكيف تستقبلها ؟ وأنّى لك مقيلها ؟ هيهات هيهات ! هلك الضالون وخسر هنالك المبطلون ، وقل النصير ، وزال العشير ، ومن بعد ذلك تماديك فى غيك ، ومقامك فى بغيك ، عداوةً لله ولأوليائه ، وكفرا لهم وطغيانا وعمى وبهتانا. أتراك تحسب أنك مخلد أم لأمر الله راد ؟ أم يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله مُتِمّ نوره ولو كره الكافرون؟ هيهات لاخلود لمذكور ، ولامرد لمقدور ، ولاطافىء لنور ، ولا مفر لمولود ، ولا قرار لموعود . لقد خاب منك الأمل ، وحان لك الأجل ، فإن شئت فاستعر للتوبة بابا ، وللنقلة جلبابا ، فقد بلغ الكتاب أجله ، والوالى أمله ، وقد رفع الله قبضته عن أفواه حكمته ، ونطق من كان بالأمس صامتا ، ونهض من كان هناك خائفا . ونحن أشباح فوق الأمر ، والنفس دون العقل وأرواح فى القدس ، نسبة ذاتية ، وآيات لدنية ، نسمع ونرى ، ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ، وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون

ونحن عارضون ثلاث خصال ، والرابعة أردى لك ، وأشق لبالك ، وما أحسبك تحصل إلا عليها . فاختر: إمَّا قِدتَ نفسك بجعفر بن فلاح ، وأتباعك بأنفس المستشهدين معه بدمشق والرملة ، من رجاله ورجال سعادة بن حيان ، ورد جميع ما كان لهم من رجال ، وكراع ، ومتاع ، إلى آخر حبة ، من عقال ناقة ، وخطام بعير ، وهى أسهل ما يرد عليك ؛ وإمَّا أن تردهم أحياء فى صورهم وأعيانهم وأموالهم وأحوالهم ، ولا سبيل لك إلى ذلك ولا اقتدار ؛ وإما سرت ومن معك بغير ذمام ولا أمان ، فأحكم فيك وفيهم بما حكمت ، وأجريكم على (إحدى) ثلاث: إما قصاص ، وإما مَنّ بعد ، وإما فداء . فعسى أن يكون تمحيصا لذنوبك وإقالة لعثرتك . وإن أبيت إلا فعل اللعين ، فاخرج منها فإنك رجيم ، وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين . اخرج منها ، فما يكون لك أن تتكبر فيها ، وقيل اخسئوا فيها ولا تكلمون ، فما أنت إلا كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار . فلا سماء تظلك ، ولا أرض تقلك ، ولا ليل يجنك ، ولا نهار يكنك ، ولا علم يسترك ، ولا فئة تنصرك . قد تقطعت بكم الأسباب ، وأعجزكم الذهاب ، فأنتم كما قال الله عز وجل: « مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء »(١) ، فلا ملجأ لكم من الله يومئذ ولا منجى منه ، وجنود

الله فى طلبك قافيـة ، .... فلا تجد فى السماء مصعدا ، ولا فى الأرض مقعدا ، ولا فى الأرض ولا فى البحر منهجا ، ولا فى الجبال مسلـكا ، ولا فى الهواء سلما ، ولا إلى مخلوق ملتجأ حينئذ يفارقك أصحابك ، ويتخلى عنك أحبابك ، ويخذلك أترابك ، فتبقى وحيدا فريدا ، وخائفا طريدا ، وهائما شريدا قد ألجمك العرق ، وكظك[٢] الغَـلق ، وأسلمتك ذنوبك وازدراك خزيك ، كلا لا وزر ، إلى ربك يومئذ المستقر ، ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر[٣]

وقد أورد النويرى[٤] فى كتابه نهاية الأرب خاتمة هذه الرسالة الممتعة فقال « وقال (المعز) فى فصل آخر إنا لسنا مهمليك ولا ممهليك ، إلا ريثما يرد به كتابك ، والوقوف على مجرى جوابك فانظر لنفسك مايبقى ليومك ومعادك ، قبل انغلاق باب التوبة ، وحلول وقت النوبة حينئذ لاينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل ، أو كسبت فى إيمانها خيرا. ثم ختمه بأن قال : فما أنت وقومك إلا كمناخ نَـعَـم ، أو مراح غنم. فإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك ، فإنا عليهم مقتدرون. فعندها تخسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين فأنذرتهم نارا تلظى ، لايصلاها إلا الأشقى ، الذى كذب وتولى ، يوم يرون مايوعدون ، لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ ، فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ؟ فليتدبر من كان ذا تدبير ، وليتفكر من كان ذا تفـكير ، وليحذر يوم القيامة ، يوم الحسرة والندامة ، أن تقول نفس ياحسرتا على ما فرطت فى جنب الله ، وياحسرتنا على ما فرطنا ، ويا ليتنا نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل. والسلام على من اتبع الهدى ، وسلم من عواقب الردى ! وهو حسبنا ونعم الوكيل »

---

(١) سورة النساء آية ١٤٢

(٢) اى ملأك الهم. اتعاظ الحنفا ص ١٣٢ — ١٤٣

(٣) سورة القيامة آية ١١ — ١٣

(٤) ج ٢٦ (مخطوط) ورقة ٤٤

المعز الرابع

موقف المعز من أهل سجلماسة (١)

« لما تمادى أمر اللعين ابن واسول(٢)، وارتكب ما ارتكبه، وتعاطى ما تعاطاه، من التغلب بسجلماسة، وخلع طاعة الأئمة، وتسمى بالإمام أمير المؤمنين الشاكر لله، وهو الكافر بالله (عج) لعظيم ما ارتكبه رأى المعز لدين الله (صلع) جهاده، لعظيم جرمه، وأنه لايسعه تركه، لما تعدى إليه وتعاطاه، فأنهض إليه عسكرا، فأمكنه الله (عز وجل) منه من غير يد لأحد من الخلق عليه فيه. وذلك أن قائد ذلك العسكر تقدم إلى أهل سجلماسة من قبل أن يحل بهم عدة، يكتب منه فى القبض عليه، وأنهم إن فعلوا ذلك، أمنهم وأحسن إليهم، وعفا عن ذنوبهم التى اقترفوها بطاعته، على ما ارتكبه من عظيم جرمه، وإلقائهم بأيديهم إليه، فلم يفعلوا ولما قربت العساكر المنصورة منه، خرج من المدينة هاربا بنفسه، فلقيه نفر من أهل المدينة، فأخذوه وأتوا به القائد. فعاتب القائد أهل سجلماسة فى تركه، ثم رأى الصفح عنهم، وولى عليهم واليا منهم، وانصرف.

فوثبوا على ذلك الوالى فقتلوه، وأقاموا مقامه « منتصر بن محمد بن المعتز »، وكان أبوه وجده قد وليا البلد باستعمال أمير المؤمنين، وكانا من أهل الولاية وكان ابن واسول، هذا الفاسق المتغلب، لما تغلب على البلد، اعتقل منتصرا هذا، وهو غلام حدث، فأقام معتقلا عنده فقدمه أهل البلد لما قتلوا العامل الذى استعمله عليهم القائد، ونسبوا إليه من القبيح ما زعموا أنه أوجب قتله، وذكروا أن الغوغاء والعامة قتلوه، وذهبوا فى تقديمهم هذا الذى قدموه، إلى ما هو عليه من الولاية والمحبة. وقيل إنه سعى فى قتله فى ذلك، وأرسل رسولا من فوره، وأرسل أهل البلد، وكتبوا إلى أمير المؤمنين المعز لدين الله (ص) يذكرون ذلك، ويعتذرون ويصفون حالهم، فصرف رسولهم بأنه غير قابل ذلك من عذرهم، وأنهم لا أمان

(١) النعمان المجالس والمسايرات ج ٢ ص ٢٩٥ — ٣٠٥

(٢) انظر ما ذكرناه عن الشاكر لله الذى تغلب على سجلماسة فى الباب الثانى من هذا الكتاب

لهم عنده[1]، إلى أن يأتى وجوههم وسماهم ، ويأتى منتصر هذا إليه ، محكمين فى أنفسهم ، فحينئذ يرى رأيه فيهم . وانصرف الرسول بذلك إليهم ، فما كان إلا مقدار مسافة وصوله إليهم وانصرافه ، حتى أتى منتصر هذا الذى قدموه ، وماتتا رجل من وجوههم ، وهم الذين سماهم أمير المؤمنين ، قد ركبوا طرق الرمال والفلوات ، خوفا من أن يصل إليهم أحد دون الباب ، حتى حلوا به ، فأدخلهم أمير المؤمنين صلع . فلما مثلوا بين يديه وقبلوا الأرض ، ووقفوا ، نظر إليهم نظرة مغضب ، وأطرق ساعة ، فامتقعت[2] ألوانهم ، وارتعدت[3] فرائصهم ، ولم يستطع أحد منهم أن ينطق بحرف ، لما داخلهم من الخوف ، فرفع رأسه فقال

« يأهل سجلماسة ا فعلتم ما فعلتم فى أيام المهـــدى بالله (صلع) . واقتدر عليكم مرة بعد أخرى ، فعفا عنكم وأحسن إليكم ، لحلوله فيكم ، ومجاورته إياكم ، مدة إقامته فيكم كما يرعاه من أحله الله محله من كرم الطباع وحسن صنيع ، من غير يد كانت له عنده ، ولا فعل من الجميل تقدم لكم لديه . فصفح وأحسن ، وعفا وأجمل ، فما رعيتم ذلك حق رعايته ولا فهتم بشكره ثم نعق فيكم ناعق من الشيطان فلبيتموه ، ودعاكم إليه داع فأجبتموه قام فيكم دعىّ فيما ادعاه ، متوثب على ما تولاه ، قد عرفتم نسبه ودريتم سببه ، فتغلب على ظاهر أمركم ، وتحلى بالرياسة والتصنع لكم ، وتسمى بأمير المؤمنين ، وإمام المسلمين لكم ، وأنتم على علم لا تشكون ، ويقين لا تمترون ، أن ذلك لا يجوز له ، ولا يحل تسليمه ، فسلمتموه لمثله له ، وأطعتموه وتوليتموه واتبعتموه ، ففارقتم جماعة المسلمين ، وخرجتم من حزب المؤمنين ، وأحدثتم حدثا عظيما فى الدين . وانتهى إلينا من أمركم وأمره ، مالم يسعنا تركه والغفلة عنه ، لما افترضه الله علينا عز اسمه ، من القيام بحقه فى أرضه ، وجهاد من صدف عن[4] دينه ، وغير سنة رسوله ، وحل محلكم ومحل هذا الفاسق فيكم ؛ فأنهضنا إليكم جيشا من أوليائنـا ، وأنصار دولتنا ، وعبيدنا ، مع عبـد أمرناه عليهم ، وتقدمنا إليه فى الإعذار والإنذار إليكم ، فى الإنابة والتوبة ، قبل الوقوع بكم ؛ فلم يزل مع طى

(١) فى الأصل عندهم ، والصواب عنده

(٢) فى الأصل فامتقع .

(٣) فى الأصل وارتعد فرائصهم.

(٤) صدف عن ابتعد عن.

المراحل نحوكم، يتابع الكتب إليكم مع رسوله، تأكيدا في الحجة عليكم، مرة بالوعد، ومرة بالوعيد، وتارة باللين، وتارة بالتشديد، يدعوكم إلى الطاعة، والنزوع عما أنتم عليه من المعصية والضلال، والقبض على عدو الله فيكم، إن تمادى على ما هو عليه من الغي والضلال إن استطعتموه، أو البراءة منه، وتركه بجانب إن لم تقدروا عليه؛ ووصلت كتبه إليكم، وأدى إليكم من اختار به منكم، وكل ذلك وأنتم على باطلكم مصرون، وبالفاسق المضل لكم متمسكون، إلى أن حلت جيوشنا بقربكم، وانتشرت عساكرنا ببلدكم، وعاين من عاينكم من عيون عدو الله من جمعها وعتادها وقوتها، ما أنهاه إليه، وقد علم أنه لا طاقة لكم ولا له بعسكر من عسكرنا؛ فلما حلت بَعقْوَتكم (١)، ونزلت بداركم، وأنتم مع الفاسق على ما أنتم عليه، نهض موليا عنكم، وهاربا متسللا من بين أظهركم، وقد كنتم تقدرون على أخذه لو أردتموه، وبمكنكم من ذلك، ومن حصاره في داره متى أحببتموه، لو أخذتم بحظكم في ذلك ففعلتموه؛ لكنكم أقمتم مصرين على طاعته وتولّيه، إلى أن نزع عنكم، وأقدرنا الله عج (عزوجل) بفضله وإحسانه عليه، كعادته الجميلة، بلا صنع لكم ولا لغيركم في ذلك وأقدرنا عليكم، وأمكننا منكم، وأنتم على ما أنتم عليه من غيكم وضلالكم، وما تستوجبون به اجتياحكم ودماركم؛ فسار عبدنا فيكم بما أمرناه به، من العفو والصفح والمرحمة، وانصرف عنكم، فأحدثتم من بعده ما أحدثتم. فماذا تستحقون أن يفعل بكم؟» يكلمهم بهذا الكلام (صلع) كلام مغضب، فاصفرت ألوانهم، وتغيرت وجوههم، وأرعدت فرائصهم، وألجم أكثرهم عن الكلام. وقال من قال منهم قول مذعور دهش: إن يعاقب أمير المؤمنين (صلع)، فنحن أهل العقوبة، وإن يعف فهو أهل العفو والفضل والمرحمة فأطرق صلع مليا، ثم دعا منتصر بن أحمد بن المعتز، فقربه إليه، وأمره بالجلوس، فقبل الأرض مرارا، وشكر لأمير المؤمنين، ثم عطف (صلع) على الوفد، فقال قد كنتم تستحقون أليم العذاب والنكال، ولكنا للذي جبلنا الله عليه من الصفح والعفو والرحمة، قد عفونا ما سلف من ذنوبكم ما استقمتم وأصلحتم. وقد استعملنا عليكم عبدنا هذا، وأومأ إلى منتصر، فقبل، وقبلوا الأرض مرارا، وشكروا بما قدروا عليه، وزال ما ظهر عليهم

(١) العقوة بفتح العين وتسكين القاف ما حول الدار والمحلة.

من الهلع والجزع . وأمر (صلعم) بصرفهم إلى موضع أنزلهم فيه ، وخلع على منتصر وحمله ، وفعل ذلك بجماعة من وجوههم ، وأمر بإجراء النزل لهم أجمعين ، وأقاموا بذلك مدة فى أرفه عيش ، وأحسن حال .

ثم لما رأى صرفهم ، عقد لمنتصر على سجلماسة وعملها ، وخلع عليه خلعا سنية ، وحمله على عدة من الخيل سروجا مفرقة ، ووصله بصلات جزيلة . وحمل جميع من قدم معه ، وكساهم ووصلهم ، وصرفهم إلى بلدهم بما لم يؤملوه ، ولم يتوهموه وكان غاية آمالهم أن يسلموا من القتل ، فانصرفوا وقد طالت بالشكر ألسنتهم ، وملئت فرحا قلوبهم » .

الملحق الخامس

نصيحة المعز لعامل سجلماسة (١)

قال النعمان : « وسمعت منتصرا(٢)هذا يوما يشكر لأمير المؤمنين المعز لدين الله (ص) صنيعته فيه ، ويذكر ما وهبه الله له من عطفه عليه، وإحسانه إليه ، وما صار له بذلك من النعمة والفائدة والغبطة . فقال له المعز لدين الله (ص) يكفيك والله من ذلك تعجيل الراحة لك ، وإزالة الغمة عن نفسك ، وتجديد المسرات بأن كان الفاسق المتغلب قبلك يتوقع من حلول بأس الله به على أيدينا، ما قد أصاره الله (عج)، وعجل له به ، فلم يكن لذلك يلذ عيشا. وكلما انتهى إليه شيء مما يتولاه الله (عج) لنا من الصنع نكاه(٣)، وقد كان حتفه ، وإمكان الله (عج) إيانا منه يتصل بذلك، فهو كما قال الله (عج) فى إخوانه المنافقين ، يحسبون كل صيحة عليهم، هم العدو . وأنت اليوم قد أمنت ذلك كله ، وكلما جدد الله (عج) لنا نعمة، وأولانا فضيلة ومكرمة ، تجدد لك بذلك سرور ، واتصلت بك باتصاله نعمة وغبطة. فلو لم يكن لعدونا عقوبة ، ولولينا مثوبة غير هذا لكفاهما . فكيف وقد تكفل الله (عج) بالصنع فى عاجل الدنيا بإعزاز الولى وكبت العدو ؟ أعد لأوليائنا فى الآخرة كريم الثواب ، ولأعدائنا

---

(١) النعمان المجالس والمسايرات ج ٢ ص ٣٠٧ — ٣٠٩ .

(٢) والى سجلماسة .

(٣) أى أصاب منه وآلمه .

أليم العقاب . فقال منتصر : صدق والله أمير المؤمنين ، لقد كان عدو الله ابن واسول من توقع أمر الله الذى وقع به ، وما يتصل به من صنع الله عند وليه ، لنى أمر ، ماهو اليوم بدون ما كان فيه . وإن عبد أمير المؤمنين بحمد الله وفضل وليه (صلع) ، من خفض العيش وراحة النفس، انى مايسأل الله دوامه له بطول بقاء وليه (صلع) ، فقال أمير المؤمنين: لن تعدم نعمة وفضلا من الله وقبولا منا عليك ، ما عرفت قدر النعمة عندك ، وشكرت ما يأتى منها إليك ، إن شاء الله »

الملحق السادس

تهديد المعز إمبراطور الدولة البيزنطية لاستيلائه على إقريطش [1]

يقول النعمان أمر الإمام المعز « بكتاب فى ذلك إليه (إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية) ، وأملاه على الكاتب بحضرة من بين يديه ، بكلام ما سمعت أجزل ولا أبلغ منه ، فقال بعد أن خيره بين أن يقلع عن حرب أهل إقريطش ، وبين أن ينبذ إليه عهده ، كما نبذ رسول الله (ﷺ) إلى مشركى العرب عهدهم وأرسل عليا ببراءة ، فقرأها فى الموسم عليهم . ولقول الله أصدق القائلين : « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم [2] » ثم قال له فى كتابه ع م (عليه السلام) ولا يرى أن دعوة أهل إقريطش قبل اليوم إلى غيرنا وقد أنابوا اليوم إلينا ، واستغاثوا بنا، مما يوجب لك عندنا تمام الموادعة ، بتركهم إليك ، وترك اعتراضك فيهم . إن امتناع أهل الباطل من أهل الحق ليس بمزيل حقهم ، وإن تغلبوا عليه دونهم ، بل هو لهم بتبصير الله تع (تعالى) إياه إليهم

فإقريطش وغيرها من جميع الأرض لنا ، بما خولنا الله منها ، وأقامنا له فيها أطاعنا فيها من أطاعنا ، وعصانا من عصى ، وليس بطاعتهم يجب لنا أن نملك ولا بعصيانهم يحق علينا أن نترك . ولو كان ذلك ، لكان الأمر إليهم ، لا لله تعالى الذى خولنا، ولا لنا، إن شاءوا أعطونا ، وإن أحبوا منعونا. كلا، إن ذلك لله تعالى الذى له ما فى السموات وما فى الأرض هو الذى اصطفانا وملكنا وأعطانا ولو كان ذلك للخلق ، لما وسعنا قتال من امتنع منهم علينا ، ولا رد ما انتزعوه

(١) النعمان المجالس والمسايرات جـ ٢ ص ٤١٣ — ٤١٦

(٢) سورة الأنفال آية ٥٨

بالغصب من أيدينا إذا قدرنا الله على ذلك وبه قوانا

فإن قلت أنت غير ذلك ، وأنت ترى أن ما فى يديك لك ، فقد كان رومانس[1] تغلب عليك وعلى أبيك من قبلك ، ثم دارت لكما عليه الدائرة . فإن رأيت أن من احتجز شيئا وتغلب عليه فهو له دون صاحب الحق الذى ملكه ، فلم يكن لك ولا لأبيك القيام على رومانس ، ولا انتزاع ما صار إليه من بين يديه. فهذه سبيل أهل الحق عندنا ؛ فإن اعترفت لها فقد أنصفت ، وإن جهلتها ، لم يكن جهلك إياها حجة على من عرفها

وعهدك إن تماديت على حرب من أناب إلينا منبوذ[2] إليك . فانظر لنفسك ولأهل ملتك ، فإنا مناجزوك وإياهم الحرب بعون الله لنا وتأييده ، ولا حول ولا قوة إلا به ! »

الملحق السابع

كلام فى مجلس خوطب به رسول الأموى[3]

«قال : وكان فيما ذكره الرسول ، أنه استرحم أمير المؤمنين للمسلمين وقال قد علم أمير المؤمنين أن الحرب متى كانت ، هلك فيها من الفريقين وهم مسلمون فإن رأى أمير المؤمنين حقن دمائهم والكف عما يخاف فيه الهلاك عليهم فقال أمير المؤمنين المسلمون هم أمة جدى لا أمة جد مرسلك ؛ وأنا أرحم بهم وأرأف ، وأعطف وألطف بهم . فإن دخل أحد منهم فى جملة صاحبك ، فقد دخل فى جملة طائفة أهل البغى ، ووجب علىّ وعلى سائر المسلمين قتالهم ، كما أمر الله عز وجل (ع ج) فى كتابه ، وقرأ حتى تفىء إلى أمر الله . فمن قتل منهم على البغى ، فبحكم الكتاب قتل ، ومن قتلوه من أهل العدل معى ، ففى سبيل الله استشهد ، وبأمره عمل وقد زعم صاحبك أنه يطلب ثأره من موضعه إلى آخر الدنيا ، وإنما

---

(١) يخاطب المعز رومانس الثانى (٣٤٨ — ٣٥٢ هـ = ٩٥٩ — ٩٦٣ م) ، ويشير إلى الامبراطور رومانس الأول ليباسين Lépacène (٣٠٧ — ٣٣٣ هـ = ٩١٩ — ٩٤٤ م) ، الذى اغتصب العرش من أسرة قسطنطين السابع (٢٩٥ — ٣٤٨ هـ = ٩١١ — ٩٥٩ م) .

(٢) فى الأصل منبوذا

(٣) النعمان المجالس والمسايرات ج ١ ص ٢٣٨ — ٢٤٧

هو فى جزيرة بطرف منها فإن كان المسلمون عندك وعنده ، إنما هم أهل جزيرة الأندلس فقط ، فقد أصاب صاحبك فى قوله ، وإن كان المسلمون قد عموا أكثر الأرض ـ وهو كذلك ـ فكان ينبغى أن تقول هذا القول الذى قلته لنا ، له ؛ إذ تواعدهم بالقتل وكان ينبغى لك أن تسترحمه لهم . وقد جمع جموعه كما علمت ، وأخرج مراكبه ، وأوطأ علينا المشركين ، وأنزل رجاله فى غير موضع من المراسى ، ليقتل قوما من المسلمين ، ماهم منه بسبيل ، ولا آذوه ولا بغوا عليه ، إلا أنهم ممن حوته مملكتنا ، ودان بطاعتنا ، فأظهرهم الله عليه ورده منهم بغيظه ؛ فهلا كنت أخذت ذلك عليه ، وقبحت فعله إليه ؟ وقد علمتَ أنا أغضينا عن جواز مراكبه فى بحرنا ومملكتنا ، عما يجتازون به إليه من السوءات والقبائح ، حتى عاثوا ومدوا أيديهم إلى رعيتنا ، وأخذوا كتبنا من أيدى رسلنا ؛ فقمنا فى ذلك قيام مثلنا ، وطلبنا من أفسد وعاث فى بلدنا ، وقاتلنا من قام دونه إذ وصلنا إليه . حتى إذا أظهرنا الله بفضله كما عودنا ، رفعنا أيدينا عمن لم يقاتلنا ، فلم نهتك حرمة ، ولا خفرنا ذمة ، عملا بسيرة جدنا رسول الله ﷺ ، وأبينا علىّ صلوات الله عليه وعلى الأئمة من أبنائه . ثم قد رأيت لما دلف إلينا مرة مواليا علينا المشركين ، كيف قد صرفنا الجد إلى المشركين عن أصحابه ، وإن كانوا للشر مستحقين ، لبغيهم علينا ، وزحفهم إلينا . إلا أنا آثرنا ما يجب إيثاره ، وأعرضنا عنهم ، فعجل الله انتقامه على أيدى أوليائنا منهم فمن تراه أرأف بالمسلمين ، وأرحم لأهل الدين نحن أم صاحبك ؟ أم كيف رأيت الله أقدرنا بفضله على الفريقين ، وأمكننا من الطائفتين ؟ ولقد سألنا المشركون موادعتهم حينئذ ، ومال إلى ذلك جماعة من أوليائنا ، ليصرفوا وجوههم إلى أصحابك ، فأبينا ذلك ، لئلا يرى المشركون أنا وادعناهم على خوفٍ منكم ومنهم حتى إذا هزمنا أساطيلهم ، وقتلنا حماتهم ، وحللنا بعَقْوَة ديارهم ، وأثخناهم بالقتل فيهم ، وامتلأت أيدى أوليائنا من سبيهم وغنائمهم ، ورأينا أن الذى هو أفضل للمسلمين أن نوادعهم مدة نستجمعهم بها ، وادعناهم على أموال ألزمها نفسه لنا ملكهم ، وهو لا يلزم نفسه ذلك لأحد غيرنا ، بمشرق الأرض ولا مغربها ، جزية يؤديها إلينا ، وإطلاق أسارى أهل المشرق الذين فى يديه لنا ، وعلى شرائط يطول ذكرها ، شرطناها عليه شرط العزيز على الذليل . فمن أرحم بالمسلمين نحن أم من والى عليهم المشركين ؟ مخالفا لما أنزل الله فى الكتاب المبين ، إذ يقول ، وهو أصدق القائلين

« يا أيها الذين آمنوا لا تتَّخذوا عَدُوِّى وعدوَّكم أولياء(١). » الآية.

أفما رأيت أساطيل صاحبك وقد خرجت أساطيلنا لقتال أوليائه من المشركين، وهى تنزل فى مراسى المغرب لا تمر بمرسى إلا نزلت فيه ووضع من فيها الحرب على أهليه، فيجعل الدائرة السوء فيهم، والهزيمة عليهم، والقتل فى رجالهم؟ فهؤلاء الذين أوقعوا هذا الإيقاع بهم عندك وعند صاحبك، مسلمون أم مشركون؟ فإن كانوا من المسلمين وهم لم يتحرجوا إليه، ولا تعرضوه، فكيف جاز قتالهم، ومعاونة المشركين عليهم؟ ثم يزعم مفتخرا لما انصرفوا منكوبين، أنه لم يرسلهم إلا ليبلغوا إلى المهدية وكذلك كان عقدهم مع طاغية القسطنطينية، وكذلك دلف إلينا كل واحد منهم بأسطوله، ودخل المشركون فى بحرنا، وجاوزوا صقلية إلينا، ولم يكونوا يتجرءون على ذلك قط فى أيامنا، إلا بما أطمعهم فيه صاحبك، فهزم الله الجمعين، وأمكننا من الفريقين. وإنما كان يفتخر صاحبك بمثل ما هيأه الله لنا لو قد هيأه الله له. كلا، لن يفعل الله ذلك بفضله علينا، إنما أملنا إدراك مركب من مراكبه لنحرقه، فأقدرنا الله عليها وعلى جميع أساطيله، فحرقناها، وعلى أرضه ومملكته فوطئناها. فأما أمله أن يبلغ المهدية، فرده الله من دونها مغلوبا منكوبا، له خزى من الله أكمله، وخذلان انقطع به أمله فلو كان من أهل التمييز والعقول، أو كان يدرى ما يقول، لم يقل مثل ذلك، ولا يفخر به، وهو عليه خزية وعار وسبة. وما فعل الله عز وجل ذلك به، إلا كفعله باللعناء آبائه، إذ رجعوا إلى رسول الله (صلعم) من مكة إلى المدينة على بكرة أبيهم، وقد استجاشوا بمن يليهم، فردهم الله عز وجل كما قال: «بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا، وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا(٢)». فكانت هذه تيك، حَذْوَ النعل بالنعل، والقذة بالقذة، بل هذه بحمد الله أنكى لأصحابك، بما قتله الله ع ج منهم، وللمشركين عن قتل أيضا، وأسر وهزم من أساطيلهم وجموعهم. وتلك عادة الله قديما لأوليائه، وهو ولى ما عوده حتى ينجز وعده إن شاء الله لهم.

---

(١) سورة الممتحنة آية ١

(٢) سورة الأحزاب آية ٢٥، ٢٦

ثم يبلغنا أنه يلعننا على منابره كلعن سلفه الفسقة لأمير المؤمنين عليّ (صلع) وينكر علينا لعنه . فنحن إن لعناه ، لعناه بكتاب الله ، لأنه ممن قال الله فيه — وهو أصدق القائلين: « ألا لعنة الله على الظالمين». ومن أسلافه لعناء رسول الله (صلع) ، لأنه يتولاهم والله عز وجل يقول « ومن يتولهم منكم فإنه منهم » . وهو إن لعننا أو شتمنا ، فبالاقتداء بسلفه ، الذين كانوا يشتمون رسول الله (صلع) ويلعنون وصيه - صلوات الله عليه وعلى الأئمة من ولده ! وما زاده الله ، ولا يزيدنا بذلك إلا رفعة وشرفا ولا زادهم إلّا شقاء ، ولا يزيدهم إلا ضعة عند الله وعند عباده ومقتا ثم قال (صلع): وإنما معنى اللعن الطرد والإبعاد عن الله وعن رسول الله (صلع) وأهل بيته ، الذين هم أولى به ، وأقعد وأقرب إليه (صع) ، ممَّنْ عاداهم وناصبهم وكذبهم. فلو تدبر الشقى هذا لعلم أن لعنة الله راجعة عليه ، لا تعدوه ولا تعدو سلفه .

قال الرسول إنما قلت يا أمير المؤمنين ما قيل لى أن أقوله ، والقول ماقاله أمير المؤمنين ، والحجة له . قال له أمير المؤمنين (صلع) إذا قلت ما قيل لك ، فقد سمعت جوابك غير محمل إياه ، ولا مرسل إلى من أرسلك به . فانصرف إذا شئت ، وسر حيث أردت . ولو علمنا أن هذا مما قيل لك لتقوله لنا ، لمـــا سمعناه منك ، ولا أجبناك عنه وإنما أجبناك عن قولك جوابا منا لك لا لمن أرسلك » .

الملحق الثامن

رد المعز على عبد الرحمن الناصر الأموى (١)

« أما ما يتخوفه من الحرب والفتنة وسفك الدماء ، فما ظهر له منا ما يتخوف منه ذلك ، وما نحن بمن يؤمنه منه ولـكنه بغى علينا من بغى من أهل عمله ، فانتصرنا بالله ، فنصرنا الله ، وبلغنا فوق آمالنا فقام وقعد ، وأبرق وأرعد ، ووالى علينـا المشركين ، الذين رأى الآن أن اشتغالنا به واشتغاله بنا داع إلى ترك جهادهم ، وأن ذلك نقص ووكف على الإسلام فهلا رأى ذلك إذا بعث بأمواله وهداياه ورسوله

(١) النعمان المجالس والمسايرات ج ١ ص ٢٣٠ — ٢٣٤

إليهم، واستنصر علينا بهم؟ فكيف رأى عز وجل ما فُعل بهم وبجميعهم؟ ألم يصرف الجمعين مغلوبين خائبين خاسرين؟ ونحن بعدها، فما كان رأى منا إليه حركة، فما هذا القلق وهذه العجلة؟

وأما ما دعا إليه من السلم والكف والموادعة والصلح، وهو يزعم أنه أمير المؤمنين، كما تسمى دون من سلف من آبائه، وإمام الأمة بدعواه وانتحاله ونحن نقول إننا أهل ذلك دونه ودون من سواه، ونرى أن فرض الله علينا محاربة من انتحل ذلك دوننا وادعاه، مع ما بين أسلافنا وأسلافه، ومن مضى من القديم والحديث من آبائنا وآبائه، من العداوة القديمة الأصلية، والبغضة في الإسلام والجاهلية، وما اعتقدوه لنا في ذلك في الإسلام، وطالبونا به من قديم الأيام من لعن رسول الله، صلوات الله عليه، آباءهم، وقتله من قتله على الشرك والكفر بالله منهم، وطلبهم بثأرهم ودمائهم، وطلبنا نحن إياهم بمن قتلوه منا كذلك في سلطانهم وأيام تغلبهم. فكيف بالصلح الذي ذكره بعد هذا النبأ الجليل خطره، يأبى لنا من ذلك قول الله ع ج: لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر، يوادون من حاد الله ورسوله، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم.

ما أنا بالمداهن في دين الله، ولا بالراكن بالمودة إلى أعداء الله، ولا بالمخادع في أمر من أمور الله عز وجل ارجع بجوابي هذا إليه، فماله عندي سواه، ومالي من الأمر من شيء، إن الأمر كله لله، عليه توكلت وإليه أنيب فإن حركني الله إليه، وقذف في قلبي حربه وغزوه، فلا أشك أن الله عز وجل أراد قطع دابره واستئصال شأفته، وتطهير الأرض من رجسه، وحسم أيامه ومدته، وإلا يقذف ذلك في قلبي، ويصرف إلى من سواه وجهي، فللأمر هو بالغه فيه، وإملاء هو محتج به عليه، ومدة سبقت في علمه له. قال تعالى «ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خيرٌ لأنفسهم، إنما نملي لهم ليزدادوا إثما[1]». فلينتظر أحد الأمرين، وليتوقع وجها من الوجهين: إما هلاكا يعجل اصطلامه، وإما إملاء من الله يوفر آثامه؛ ونحن ننتظر من الله ع ج إحدى الحُسْنَيَيْن، ونرجو منه لنا خير الأمرين:

---

(١) سورة آل عمران آية ١٨٠

إما نصرا من الله يعجله لنا عليه، فيشفى قلوبنا وقلوب المؤمنين به ، وإما أن يملى له على ما هو عليه من معاصيه ومخازيه ، فنى ذلك سرور من رأى عدوه عليه ، فقد كان يقال: حسبك درك أمل من عدوك ، أن تراه عاملا بمعاصى الله ، وذلك أن المعاصى تعجل الدمار ، وتولج عما قليل عذاب النار .

الملحق التاسع

نقض المعز كتاب الناصر (١)

«قال النعمان: وكان فى الكتاب الذى قدم به الرسول من الأندلس الذى قدمت خبره، وأنه رفع إلى أمير المؤمنين ، يعنى لعينهم ، الكتاب الوارد ؛ فرأى فيه من أطراء فلان ، يعنى أمير المؤمنين ، لنفسه، وذهابه بها وافتخاره، ما لا يليق بأهل العقول مثله، وليس من شيم أهل العقول إطراء أنفسهم وقال المعز لدين الله (صلع) فاسمعوا إلى جهل هذا الجاهل إن هذا الكتاب ورد من رجل منا على رجل من قبله ، جوابا عن كتاب كتبه إليه ، فنسب إلينا فيه أنا قلناه بلا علم له بذلك . ونحن إن أطرينا أنفسنا ، وأطرانا غيرنا ، وافتخرنا ، وافتخر لنا من سوانا أو افتخر بنا؛ فنحن بحمد الله أهل الفخر والإطراء والفضل . وأسنا من قرابتنا من رسول الله (صلع) ، ومحلنا الذى أحلنا الله به من الإمامة ، وما أولاناه من الفضل والفخر والكرامة ؟ فإن ذكرنا ذلك وقلنا ، فبأمر الله ع ج ذكرناه . قال تبارك وتعالى لنبيه: « وأما بنعمة ربك فحدث » فهذه نعم الله علينا ، وفضله وإحسانه إلينا ، لا على أن نفتخر زهوا وتكبرا، ولا نذكر من فضلنا ما نذكره أشرا ولا بطرا وقد قال رسول الله صلوات الله عليه «أنا سيد ولد آدم ولا فخر ، وأنا أتقاكم لله ولا فخر » . فهذا القول الذى قاله صلع هو غاية الفخر ، ولكنه إنما نفى عن نفسه الكبر والتجبر والدعوى بغير الحق ، كما فخر هذا المنتقد علينا الفخر . ثم قرأ علينا فصلا بعد هذا من الكتاب ، فإذا فيه من افتخاره ما يطول ذكره ، فتعجب المعز ، صلوات الله عليه ! وتعجبنا من غفلته عن نفسه. وقال: هذا مما قلناه ، إن هذا كتاب جوابُه فيه ، وإنا لو رأينا

---

(١) النعمان المجالس والمسايرات جـ ١ ص ٢٤٨ - ٢٨٦

الجواب عنه ، لدرجناه ورددناه إلى كاتبه ، وقلنا له جواب فصل كذا من كتابك فصل كذا، حتى تأتى عليه. ثم قال (عم) : وهذا مما قيل لنا إنه جمع كتابه ووزراءه فيه ، ثم اختار من كلامهم ما جمعه ، ولم يدر أن بعضه لبعض نقيض ، بسوء تمييزه ، وبعد فهمه ، وشغله بما هو فيه من معاصيه ، عن انتقاد الكلام والنظر فى معانيه .

وفى الفصل الثانى قال وكان فى فصل من الكتاب ، افتخار اللعين الأموى بما حواه من الأموال ، وورثه عن آبائه من الخزائن والذخائر . فقال المعز (صلع): وهذا مما ذكرناه له ، يأخذ علينا الفخر بفضلنا على البرية ، بولادة رسول الله (صلع) وبما خصنا الله به من إمامة عباده ، وبما نطق به كتاب الله ع ج من فضلنا وحقنا ، وافترضه فيه على الأمة من مودتنا وطاعتنا ، وجعله مع رسول الله صلوات الله عليه من الفيء لنا ، فوصفنا إحسان الله ع ج فى ذلك إلينا ، وفضله وإنعامه علينا

وهذا يفخر هو علينا بملك مال تغلب عليه ، ومن الحرام اكتسبه ، وبسلطان تعدى عليه واغتصبه . يكاثرنا لاهيا ، كما قال الله عز وجل « ألهاكم التكاثر ، حتى زرتم المقابر[1] » ، إلى آخر السورة وهذا وعيد الله لهذا الفاسق ولأمثاله ، الذين ألهاهم التكاثر مما تغلبوا عليه من أمواله فهذا الذى فخر به عائد عليه وزره وإثمه ووباله ، والقليل من ذلك كان أحق عليه وأولى به ، وما استكثر منه، فإنما استكثر به من سخط الله وغضبه ، وإنما هو فى ذلك بمنزلة السارق يفخر بما سرق ، والخائن يكاثر بما فيه خان ؛ فليفاخر وليكاثر بذلك أمثاله ، ويباهِ به نظراءه وأشكاله الذين تعبدوا الدنيا فآثروها ، واطرحوا الآخرة ورفضوها ، واستعدوا منها ما استعدوه لمعاصى الله ، وما يبعدهم منه كالذى استعداه له هذا الشقى من الملاهى والخمور ، واعتكاف على المخازى والفجور. فقد روى عن رسول الله (صلع) أنه قال: من أراد أن يعرف مال أمرىء من حيث اكتسبه ، فلينظر فيما ينفقه ، فإن الحرام فى مثله ينفق وقال يسأل كل أمرىء منكم عن ماله : مما اكتسبه ، وفيما أنفقه . وهذا مما لا يشك فيه أحد منكم ، إن الحرام إذا أنفق كان حراما ، لأنه ليس لمن اكتسبه أخذه ولا إنفاقه

وفى الفصل الثالث قال : وكان فى فصل من فصول هذا الكتاب ، أن الروم يزعم

(١) سورة التكاثر آية ١ ، ٢

من كتبه قد غلبوا علينا، وأسروا خلقا من المسلمين من أساطيلنا. وأنا وادعناهم على تركهم لهم، إيثارا لحرب المسلمين. فقال المعز لدين الله - أمير المؤمنين (عم): أفلا تعجبون لهـذا الخائن الكاذب؟ لو أن هذا القول مما تزين به عند أهل موضعه لكان قبيحا شنيعا من الكذب، فكيف بأن يكتب به إلى من يعلم باطله، ويقف على كذبه؟ فهـل علمتم أن الروم أسروا من المسلمين من قبلنا، إلا أهل المركب الحمّال، الذى مر بهم؟ فاسترجعناه، وعقدنا عليهم، فيما عقدناه من الموادعة بيننا وبينهم، أن يأتونا بمن أسروه من أهل المشرق، وما أخذوه لهم، وأنهم قد سألونا ورغبوا إلينا أن نطلق لهم من سبيناه وأسرناه من رجالهم ونسائهم وذراريهم، فما أجبناهم إلى إطلاق نسمة واحـدة منهم، إعزازا للإسلام وأهله، ووضعا للكفر وحزبه، أفما يستحي هذا الخائن من الكذب والتمويه؟ ولكنه ما استحيا مما هو من ذلك أخزى له، من العيوب الفاضحة، والآثام القبيحة، التى اشتهر بها، واستفاض عنه الخبر فيها، من أنه يؤتى فى نفسه يقول ذلك المعز صلى الله عليه، مطرقا معرضا بوجهه، استحياء من ذكره. قال: ولقد قلت لهذا الرسول قولا فى ابن هذا الفاسق المنسوب إلى عهده، إنى أردت به هذا المعنى، فقال لى محتجا عنه: إنما يقال هذا يامولاى فى أبيه، فكفى بمن لم ينف ذلك عنه وليه ورسوله، لاشتهاره به. ولعمرى أن هذا إقدام من كانت هذه حاله، وذلك داؤه وداء سلفه، قبحهم الله وأخزاهم، ولعنهم وأقصاهم.

وفى الفصـل الرابع قال وكان فى فصل من هذا الكتاب، افتخار الأموى اللعين بما يحاك له فى بلد الأندلس من الخز والوشى وأصناف الثياب، مما زعم أنه لا يحاك بالمشرق مثله، وأنه قد استغنى بذلك عما يجلب إليه من المشرق. قال أمير المؤمنين المعز لدين الله ص ع وما سمعنا أحدا يدعى عقلا يفخر بالحائك. ولو كان ذلك مما يُفخر بمثله، لكان عندنا من الطراز، وأنواع الأعمال البديعة، والصنعة العجيبة، مما يشك من رآه أنه ما رأى مثله، مما يعمله عبيدنا الذين أفاء الله ع ج بهم علينا، من سبى الروم بأسيافنا، دون من نخر هو بمثله من سائر الرعايا. ولكن مثل هذا لايفخر به ذوو العقول، بل الحاكة وأهل الصنائع، إذا كانوا هم الأغلب على أهل بلد نقصوا بهم، كما قال المصرى لليمانى: إنما أهل اليمن بين حائك برد، ودابغ جلد، وسائس قرد، فذمهم بذلك. فجعل هذا الجاهل هذا فخرا، وأنه إذا قيس إلى معايبه يفخر بمثله.

وفى الفصل الخامس قال وذكر فى فصل من فصول هذا الكتاب عليا صع ، فترحم عليه وقال وإن كان الذى صار اليه إنما تهيأ له بالحيلة قال المعز صع والذى دعاه إلى أن ترحم على على ع م ، الضرورة ، التى دعته إلى الصلوات على رسول الله ، صلوات الله عليه وعلى آله ، ولأن الجماعة اليوم قد أجمعوا على فضله . ولو أمكنه ما كان أمكن اللعناء سلفه ، للعنه كما لعنوه على المنابر ، حتى كان مما مدح به عمر بن عبد العزيز منهم بعض من مدحه لما أمسك عن لعنه أن قال

وليت فلم تشتم عليا ولم تخف بريا ولم تقبل مقالة مجرم

ثم قال صع : وفى ترحم هذا الفاسق على علىّ صع ما يلزمه لعن آبائه الذين لعنوه ، والبراءة منهم ، لوكان ذلك منه اعتقادا فأما قوله : إن عليا صار إلى ما صار إليه بالحيلة ، فهذا مما تقدم ذكرنا له من قحته ومباهتته . وقد علم الخاص والعام أن الذى صار إليه بالحيلة اللعناء سلفه ، أقربهم إليه مروان الطريد ، فى احتياله على معاوية ابن يزيد ، ودسه من دس من أهل الجابية فى توليته ، وإن لم يوجد له يومئذ منقبة ولا فضيلة يقولها أو يذكره بها من ذكره ، إلا أنه قال: إنه شاب حتى شابت ذراعاه ، وقد كان فيهم يومئذ من شيوخ السوء من هو أكثر شيبا منه ، وإن من حضر يومئذ بالجابية أكثروا التعجب ممن قام بذكره ، ورضى بولايته ، على ضعف أهل الجابية ، وقلة تمييزهم ، حتى تمثل المتمثل منهم بأن قال هذا أمرٌ مـُشِى فيه بليل فأما علىّ ، صلوات الله عليه ، فقد علم الخاص والعام ، والمخالف والمؤالف ، أنه لم يجتمع الناس على أحد قبله بعد رسول الله ، صلوات الله عليه وآله ، اجتماعهم على بيعته . أما أبو بكر فقد نازعه الأنصار وغيرهم ، ومات كثير من الصحابة وما بايعوه . وأما عمر فقد اجتمعوا فيه إلى أبى بكر، فقالوا له نناشدك الله أن تولى علينا رجلا فظا غليظا. قال أبربى تخوفونى ! إذا لقيت الله قلت له : إنى وليت عليهم خير أهلك . وأما عثمان ، فما اجتمعوا على توليته ، ولكنهم اجتمعوا على قتله . وأما علىّ صع وعلى الأئمة من ولده ، فأجمعوا بإجماعهم عليه ، وامتنع منهم ، وأطبقوا عليه ، وما زالوا به حتى أجابهم ، إذ لم يجد لدفع ذلك وجها تقوم له به الحجة . ولو توقفوا عنه ، كما توقف من توقف منهم قبل ذلك ، لتركهم . وكان أول من بايعه الذين نكثوا عليه ، لما لم يجدوا عنده من الأثرة ما عوّدوه ، وقد سأله معاوية تركه على الشام ،

فلو فعل ذلك لما كان الذى كان منه ، ولكنه (صلع) تلا عند ذلك قول الله عز وجل: وما كنت متخذ المضلين عضدا . فعمد هذا الفاسق إلى ما عسى أنه كان يقال فى أسلافه ، فرمانا به ، كما قيل فى المثل لعاهرة رمت عفيفة بالزنا « رمتها بدائها وانسلت »

وفى الفصل السادس قال: وذكر فى فصل من هذا الكتاب معاوية ، فترحم عليه ، وقال أمير المؤمنين معاوية . فقال مولانا المعز صلع فإذا كان معاوية عنده أمير المؤمنين ، فقد شهد على أسلافه بالغصب ، وعلى نفسه بذلك ، لأن معاوية قد أقر الأمر فى ولده ، فما أدخل مروان وآل مروان فيها ، ومعاوية وولده لم يجعلوا ذلك لهم ، ولا عهد أحد منهم إليهم ، ولا أجمع المسلمون عليهم . فهم بقوله مغتصبون متغلبون ، وبمثل هذا رضى هو وأسلافه لمن ادعى التفقه من العامة ، أن جعلوهم أئمة يأخذون دينهم عنهم ، وأفتاهم أولئك أن من رضيه المسلمون فهو أمير عليهم ، ولو أفادوا هذا الأصل ، لم يعد ذلك الذين رضوه لو كان ذلك كما أصلوا ، إذ ليس عندهم لأحد أن يستخلف ولا يوكل أحدا على ما ليس له . وكيف وليس ذلك لهم فى أنفسهم ولا فى غيرهم ، لأن الله جل ذكره قرن طاعة الأئمة بطاعته وطاعة رسوله ، فقال جل ذكره « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » فلو كان للناس أن يقيموا لأنفسهم إماما ، فتجب طاعته بإقامتهم إياه ، لوجب كذلك أن يقيموا نبيا وإلها ، كما فعلت الجاهلية فى نصبها آلهة من دون الله تعالى عن قول المبطلين الظالمين ، فالكلام فى هذا يتسع

وفي الفصل السابع قال وكان فى فصل من هذا الكتاب ، ذكر أبى عبد الله صاحب الدعوة ، وقيامه بها ، وقتل المهدى له صلع ، وأنه لم يف له ، وانتقم الله منه على يديه . فقال المعز صلع ما عسى أن يجهله هذا الجاهل من أمر أبى عبد الله فقد عرفتموه ، وأن أخاه أبا العباس كان سبب قتله ، وأن المهدى صلع ما أراد قتله ، وإن استحق القتل عنده ، حفظا لما تقدم له وإن كان قد سعى مع أخيه ، ومال إليه ، وغلب الهوى عليه ، لما رأى الأمور خرجت من يديه. وهذا الفاسق لا يدرى ما أوجب قتله ، ولا كيف كان سببه ، ولا يعلم حال القتل ، الذى هو سخط وانتقام ، وقهر من حال القتل ، الذى هو قصاص وواجب وطهر ، فما الذى أدخله فيما لا علم له به ؟

فإن أنكر مثل هذا ، فلينكر فعل الله عز وجل فيمن عاقبه من أنبيائه الذين اصطفاهم على عباده ، ثم عاقبهم بما اجترموه ، وطهرهم بالعقوبة مما كانوا اقترفوه فقد أخبر الله تعالى ، وهو أصدق القائلين ، عمن عاقبه من أنبيائه ، مثل آدم ويونس وأيوب وسليمان وداود ويعقوب ، فإن أنكر عقاب المحسنين إذا اقترفوا السيئات بعد الحسنات ، فلينكر ما جعله الله عز وجل من ذلك قرآنا مسطورا ، وذلك قوله «وقَدِمْنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا»[١] . والأمة لا تختلف فى أن عابدا لو عبد الله طول دهره ، وسائر عمره ، قائما لا يفتر ، وصائما لا يفطر ، ثم كفر بعد ذلك طرفة عين به ، ومات على كفره ، لأحبط الله عمله . فإن أنكر ذلك ، فليقرأ قول الله ع ج وهو أصدق القائلين: «ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك: لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين»[٢] . وقد كان رسول الله صلع وعلى الأئمة من ذريته الطاهرين ، كما وصفه الله فى كتابه المبين ، إذ يقول وهو أصدق القائلين «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم»[٣] فكان صلع مع ما وصفه الله من الرحمة فيه ، يقتل القاتل ، ويرجم الزانى المحصن ، ويحد البكر ، ويقطع السارق ، لأن هذه حدود الله التى ذكر فى كتابه أن من تعداها فقد ظلم نفسه ، وأن الرحمة فيها وفى ترك تنفيذها ، لا تعد رحمة الله ، لأن الله ع ج ، الذى ذكر حدوده التى افترضها ، وأمر عباده بإقامتها ، هو أرحم بخلقه ، وأعلم بصلاح عباده أجمعين . فإن زعم الذى أنكر قتله أنه لم يقتل ، فيجب القتل عليه ، واحتج بالحديث الذى رواه أئمته ، أن رسول الله قال فيما زعموه لا يحل قتل امرئ يؤمن بالله واليوم الآخر، إلا فى ثلاث : زنا بعد إحصان ، أو كفر بعد إيمان ، أو قتل نفس بغير نفس . فهو لا يدرى ، إن كان هذا الذى أنكر قتله ، قد اقترف شيئا من ذلك أو لم يقترفه . وقد نطق الكتاب بقتل غير من ذكروه فى هذا الحديث ، فقد قال الله تعالى: «إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض»[٤]. والمفسد فى الأرض وقاطع الطريق يقتل فى قول أئمته ،

(١) سورة الفرقان آية ٢٣ .

(٢) سورة الزمر آية ٦٥

(٣) سورة التوبة آية ١٣٧

(٤) سورة المائدة آية ٣٣

وكذلك اللص ، ومن نازع رجلا على شيء من ماله أو مال غيره من المسلمين ، أو أراد قتله ، فجائز له أن يقتله . قال الله ع ج « فإن بغت إحداهما على الأخرى ، فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله »(١) ، فأوجب قتال أهل البغي ، وأباح قتلهم . فهل كان هذا الفاسق الجاهل المعترض يعلم حال الذي أنكر قتله ، وأنه كان بريئا من هذه الوجوه كلها ، والتباعات بأسرها ؟ أو كان علم كيفية قتله ، وعلى أي الوجوه جرت أموره ؟ بل هو لا يدري على الحقيقة من ذلك شيئا ، ولكنه يدري أن العبد الذي هرب بجده الداخل إلى الأندلس من المشرق ، وخاطر بنفسه فيه ، حتى أصاره المصير الذي صار إليه ، قد قطع ، وقتله من أجل أنه لطمه يوما في حين مجيئه به . وقد رأى بعض رجال السلطان ، ليوهمهم أنه عبده ، وأراد بذلك نجاته ، فكان ينبغي لهذا المنتقد ما يجهله ، أن ينتقد على سلفه ما يدريه ويعرفه . وقد يكون المؤدب والقيم على أولاد الملوك ، يؤدبهم ويضربهم في الأمر اليسير ، ثم يصير من يصير منهم بعد ذلك إلى الملك ، فيوفي حق مؤدبه والقيم عليه ، الذي كان يضربه ويؤدبه ، لما يقيمه عليه من الواجب .

فكيف لمن كان إنما أراد بما فعله حياة من فعل ذلك به واستنقاذه من القتل فاستنقذه من ذلك ، وأصاره إلى الملك ، وبذل نفسه فيه ، فيكون جزاؤه أن تقطع يده ويقتل ؟ فمثل هذا لو تعقبه الجاهل الأحمق على سلفه ، لشغله عن تعقبه ما لا يدريه على غيره ثم قال مولانا الإمام المعز صلع : وفي مثله قال بعض الحكماء : من عمي عن معايب نفسه لم يعلم محاسن غيره فهو لا يقلع عن المعايب إذ جهلها ، ولا يدري المحاسن في غيره فيستحسنها ثم قال ع م لقد مر بي هذا الكلام منذ أيام في كتاب ، فأعجبني غاية الإعجاب ، وأحسبه بهذا اللفظ ، ثم دعا صلع بالكتاب فاستخرجه منه ، فوجده ورده ، ثم قال إنه لمن كلام الحكمة .

في الفصل الثامن قال القاضي النعمان بن محمد : وكان في فصل من فصول هذا الكتاب ، مما افتخر به الأموي اللعين ، أن ذكر عدة رجاله ، فقال المعز صلع : لو علمنا أنا ندرك بمشقة ، لرأينا أنا نتحملها . فإن كان هذا الأحمق الجاهل لم يعلم أن علم هذا في أقل بلد من بلداننا وأدنى عسكر من عساكرنا ، أضعاف ما ذكره من العدد الذي به تهيب ، فقد جهل ما لا ينبغي لمثله أن يجهله ؛ وإن كان قد علم ذلك ، فعرفنا بما عنده من العدد ، فما زاد على أن أوقفنا على ضعفه ووهنه ، وعرفنا قدر ما يحتاجه إذا أردنا محاربته . وما أدري ما معنى ذكره هذا ؛ ولكن لا عقول ولا تحصيل إلا لذوي العقول .

---

(١) سورة الحجرات آية ٩

وفى الفصل التاسع قال وكان فى فصل من فصول هذا الكتاب ذكر إفريقية فقال إنما بها برابر أغتام لا يميزون شيئا . فتبسم المعز صلع عند ذكر ذلك وقال هذا مما قيل فى الأخبار عن بعض الملوك ، أن اختلاطا أصاب الناس فى زمانه ، وسلم هو منه لأمر تحفظ له فلما رأوه وقد خالف معناهم قالوا قد اختبل الملك ، وهموا أن يخلعوه ، فاتصل به ذلك ، فتناول ما كان تحفظ منه ، حتى دخل عليه ما دخل عليهم ، فقالوا : قد صح ، وصبر على ذلك ، حتى زال عنه بزواله عنهم ؛ فكذلك هذا الجاهل الركيك ، لما قصر عقله عن عقول ذوى العقول ، رماهم بالجهل أفلم ير الجاهل أئمته الذين هم فيما يزعمون فقهاء أهل بلده ؟ وإنما أخذوا عليهم أكثره عمن كان بإفريقية ، وكتبهم إلى اليوم فى أيديهم ، وكل من طرأ منهم إليهم فأخذ عنهم ، حتى إنهم ليأخذون عمن لا يؤبه إليه منهم . والجهل إذا نعت ، والحمق إذا وصف ، والرقاعة إذا نزلت ، فإنما يضاف ذلك إلى أهل الأندلس ، (فهم) أشبه الناس طباعا وأخلاقا ، وزيا ومنظرا وهما ، بأهل وادى الروم ، وهم منهم . وقد رأيت كثيرا ممن ألف الكتب فى البلدان وذكر أحوال أهلها فكل قد أجمعوا على أن الذكاء والفطنة والعلم والرقة فى أهل العراق ، ثم بعدهم فى أهل إفريقية وذكروا سائر البلدان ، وما ذكروا الأندلس فى الذاكرين . ولولا سخف عقولهم ، وغلاظ طباعهم وأذهانهم ، لما أقروا لمن طرأ إليهم ممن فر من بنى أمية ، ولو وجد فى الأرض أجهل منهم لقصد إليهم دونهم . فأما ما ذكره من البربر ، فلولا من ينتزع إلى ناحيته منهم ، رغبة فى جهاد المشركين وذودهم عنه ، لما قر به قراره ، ولا اطمأنت به داره .

وفى الفصل العاشر قال : فكان في فصل من فصول هذا الكتاب أنه ترك أهل المذاهب ، وما اختاروه لأنفسهم ، ولم يعرض لأحد منهم ، فنزع أكثر الناس إليه ، وسكنوا بلده لذلك فقال المعز صلوات الله عليه وهذا مما قدمنا ذكره ، أنه والمتغلبين أمثاله ، إنما أرادوا عاجل الدنيا . فلما سلمها الناس إليهم ، لم ينظروا فى شيء من أمر دينهم ، وسلموا إليهم ، وأخذوا عنهم . ولو كانوا ممن تعبدهم الله ع ج لتقويم عباده ، على ما شرعه لهم من دينهم ، والدعاء إليه ، لقوموهم عليه ، ودعوهم إلى ما فيه صلاحهم ، وكان ذاك أهم عليهم من أمر الدنيا ، لأن الله عز وجل لم يرسل الرسل

و(لا) أقام الأئمة، إلا لإظهار دينه ، وتقويم عباده عليه ، والدعاء إليه . وأما ماذكره ممن نزع إلى بلده ، فما علمنا أحدا نزع إليه لعلم يأثره ، ولا لدين يطلبه ، وما نزع من نزع إليه إلا لما أباح لهم من شرب الخمور ، والمجاهرة بالمعاصى ، وجعل ذلك سببا لمجاهرته هو بذلك . ولو أنكر ذلك على غيره ، لوجب أن ينكره على نفسه على أنه إن عد من نزع إليه فخرا ، فإنا لانعرف قرية من القرى ، فضلا عن الأمصار والمدن ، من أقصى المغرب إلى ما يقرب من المشرق ، إلا وفيها طائفة من أهل الأندلس ، قد نزعوا إليها ، ووطنوا بها ؛ وأن كثيرا منهم ليذكر أن الذى نزع به خوف سخط الله ، لما رآه من إظهار المعاصى ببلده ، فخرج هاربا لذلك بنفسه . فإن كان يعد من نزع إليه مفخرا ، فلينظر من نزع عنه ، مع أن هذا من مفاخر الجهال . وما زال الناس ينتقلون من بعض البلدان إلى بعض ، اختيارا أو شهوة ، ولعلة أو لغير علة ، على قديم الزمان ، فى كل مكان . فإن كان عنده أن كل بلد ينتقل إليه ، له الفضل على البلد المنقول منه ، فليفضل إن شاء ذلك وقال به ، البلدَ الذى نفى رسول الله صلع جده الحكم بن أبى العاص إليه ، على حرمه الذى نفاه منه ، ليفيد قوله ، ويكمل له افتخاره.

وفى الفصل الحادى عشر قال وقد كان فى فصل من فصول هذا الكتاب ، أنه ، يعنى أمير المؤمنين ، مولانا صلع لم يرض فى الدعاء له بطول البقاء ، حتى تعدى إلى ما يدعى به للأنبياء من الصلاة . قال المعز صلع فلو علم هذا الجاهل معنى الصلاة على الحقيقة ، أو معناها فى مجاز اللغة ، لما أنكر ما أنكره ، ولكن لجهله مثل هذا عدلنا عن جوابه ، وسكتنا عنه ، لأنه كان يقال السكوت عن الأحمق جوابه ، فرجعنا إليه رسوله من غير جواب ، احتقارا له وكأن هذا الجاهل لم يسمع قول الله وهو أصدق القائلين «وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون»[١] ، وقوله «إن الله وملائكته يصلون على النبى يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما[٢]» . وما رواه أئمته ، أن الناس سألوا رسول الله صلع لما نزلت هذه الآية قالوا: يا رسول الله، كيف نصلى عليك ؟ فقال قولوا : اللهم صل

---

(١) سورة البقرة آية ١٥٧

(٢) سورة الأحزاب آية ٥٦

على محمد وعلى آل محمد ، كما صليتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين ، إنك حميد مجيد ... ثم قال المعز صلع : فنحن آل محمد المصلى علينا فى كتاب الله ، وعلى لسان رسوله ، على رغم أنف الفاسق المنكر ذلك والجاهل له ثم قال صلع فإن كان هذا عنده لم يُتعارف إلا للأنبياء كما قال ، فما باله يسمى أمير المؤمنين ، وذلك لا يعرف بالأندلس ، ولا كان من تقدمه من آبائه يسمون به ، ولا هو صدرا طويلا من أيامه ، فما الذى أوجب ذلك له ؟ هل كان هو فيما تقدم له وآباؤه من قبله على جهل فى ذلك ، فاهتدى إلى الصواب بعد ذلك ؟ فليشهد على نفسه وعليهم بذلك ، وإن كانوا على صواب، فقد أتى الجهل بخلافه إياهم ، ودعواه ما ليس له دونهم

وفى الفصل الثانى عشر (قال) وقد كان فى فصل من فصول هذا الكتاب ، أنه آثر السلم والصلح والموادعة ، لما أراده من حقن دماء المسلمين ، وكره ما يدعو إلى غير ذلك . فقال المعز صلع فهلا كره إذ أرسل رسله وهداياه وأمواله ، إلى طاغية الروم يستنصره عليهم ، وواطأه على حربهم وأقبل كل واحد منهم من ناحيته برجاله ونجدته ؟ أفلم يكونوا عنده يومئذ مسلمين ؟ وإنما أسلموا اليوم لما صرفنا وجوهنا إليه ، وبرقت بوارقنا نحوه يخلط لنا اللين بالشدة ويظهر لنا التجلد والنجدة ، ثم يسترحمنا للمسلمين ثم ذكر صلع فى ذلك نحوا مما ذكره للرسول ، وقد تقدم ذكره فى مثل هذا القول لما ذكره له .

وفى الفصل الثالث عشر قال وكان فى فصل من فصول هذا الكتاب ، أنه ، يعنى أمير المؤمنين صلع ، منع أهل بلده ، يعنى أهل الأندلس ، من حج بيت الله الحرام ، وحال بينهم وبينه ، فقال المعز صلع أفرأيتم أشنع من هذا الفاسق كذبا ، أو أقبح منه قولا ؟ ومتى منعنا نحن أهل الأندلس ، أهل بلده ، من الحج أو من السفر حيث أحبوا ؟ بل هو الذى منعهم ، وغيرهم ممن كان من أهل البلدان ببلده من الخروج ، لئلا يؤدوا بزعمه أخباره إلينا ، فرد ذلك علينا . وهؤلاء يذهبون ويرجعون ، فما نتعرض لأحد منهم ولا نمنعهم وكيف نصد عن بيت الله ونحن أهله ؟ أم نمنع من زيارة قبر جدنا محمد صلع ونحن ولده ؟ قبح الله هذا الفاسق وترحه ، فما أشنع شناعته وأقبح كذبه ! والعيان يدفعه ، والمشاهدة تبطله .

وفى الفصل الرابع عشر قال : وكان فى فصل من فصول هذا الكتاب ، أن جميع من ضمته وحوته جزيرة الأندلس ، أولياؤه ورجاله وأشياعه ، ومواليه وعبيده ، وجنده وأنصاره . قال المعز صلع فلو صدقنا فى ذلك قوله ، وأخذناهم بشهادته وادعائه ، لقتلنا من ظفرنا به منهم ، وأخذنا أموالهم . فضلا عن أن نحول بينهم وبين حججهم ، لأنهم إذا كانوا على ما وصفهم ، فهم لنا حرب وأعداء ، وجاز لنا أن نفعل فيهم ما قلناه ؛ إذ هم على مازعم منه وهو منهم ، بتوليهم له ، وكونهم فى حزبه . ولكننا نعلم أن الأمر فيهم على خلاف ما ادعاه ، وأنه كذب ، لعنه الله وأخزاه . وإنا لنعلم أن كثيرا ممن حوته داره ، وأحاط به جداره ، يشنؤه ويمقته ، ويستبعد أجله ، ويستبطىء موته ، وأنه لو قدر على ذلك لاستعجله له ، فضلا عن سائر أهل بلده ، الذين قد سامهم سوء العذاب ، وتجاوز فى أموالهم حد الواجب ، إلى أن صاروا إلى الانتهاب ؛ وما كف عنهم بعض شره إلا منذ أوقعنا به ، وأنهم ليدعون الله لنا لذلك بالنصر عليه ، لما كففنا عنهم منه فنحن لا نقبل قوله عليهم ، ولا نصدقه فيهم ؛ نحسن لمحسنهم ، كما قد أحسنا إلى من قدرنا عليه منهم .

وفى الفصل الخامس عشر قال وكان فى فصل من فصول هذا الكتاب المتقدم ذكره ، قال : وكتب إلينا ، يعنى من كتب إليهم من الحضرة ، أنا أرسلنا مدد البربر عليهم فى مراكب ، وأنها عطبت ، ونكب أهلها فأسروا ، فبيعوا بالكلاب ، فقال وهذا موضع غم واسترجاع لمن عقل ، أن يكون أحرار المسلمين يباعون بالكلاب قال المعز لدين الله صلع والكاتب بذلك إليهم ، لم يقل أنا أبحنا ذلك ولا أجزناه ، وإنما أخبر عن عقوبة الله إياهم لما فعلوه . وأما نحن ، فلو ظفرنا بهم ، لما حكمنا فيهم إلا بالقتل أو المن ، أو ما يجب فى أمثالهم فى الحكم . ثم قال صلع وما حجزهم عن الملك والسبى إلا ظاهر الشهادة فأما أعمالهم فأعمال أهل الشرك . وإذا كان الله ع ج قد أحل بهم من البأس والعقوبة ، ما عسى أن لو كنا ظفرنا بهم ، لم نفعله فيهم ، فذلك أشفى لقلوبنا ، وأبلغ فى نعمة الله وفضله علينا ، فجعل معرفتنا بنعمة الله علينا فى هلاك عدونا ، ومن قصد بالمكروه إلينا ، وذكرنا ما أحله الله به عيبا علينا قال ثم ذكر هو فى كتابه هذا ، أنا لما أخرجنا أسطولنا إلى المرية ، وأحرقنا مراكبه ، ووطئنا بلده ، أن الله لم يتم ذلك لنا ، لأنا أخرجنا مع ذلك

أسطولا إلى غزوة الروم بقرشقة ، فلم نظفر بشىء ؛ وانصرف أهل أسطولنا خائبين ، وأوقع ببعضهم المشركون قال المعز صلع : وهذا مما ذكرناه من تناقض كتابه ، وأنه لو صرف إليه لكان جوابا له ، وهو هاهنا يبكتنا بأن ذكرنا نعمة الله علينا ، فى دفاعه عمن أرسله مادة علينا وأنه أحل بهم النقمة والبأس دوننا فهوهنا يعتقد ويسر بأن المشركين حموا أنفسهم منا ، وأصابوا من المسلمين مما هو فيه مع الكاذبين ، بل وطئنا بلدهم ، وقتلنا منهم ، وأجليناهم . وانصرف رجالنا سالمين ، بحمد الله رب العالمين. فجمع فى الكذب المسرة بخلاص المشركين ، ونكبة المسلمين. وهذا هو اعتقاده ، قد أبداه الله على لسانه ، وأظهرته حميته ، مع التغاير فى كتابه ، الذى لايجوز على كثير من المجانين مثله ، أنه ينتقد علينا مالا ينتقد ، ويأتى بمثل المعنى الذى نحلنا إياه ، وبأعظم منه

وفى الفصل السادس عشر قال وكان فى فصل من فصول هذا الكتاب ، ثم زعم أن الله ع ج ، سيقطع مدتنا، وينتقم منا. قال وهذا قول جاهل به ، وكيف بجهله بأن يقطع بالغيب على الله مالا يعلمه ؟ قال المعز صلع ونحن فلو قلنا ذلك ، لقلنا من كتاب الله جل ذكره ، وقول جدنا رسوله صلع . لأنا إذا رأينا هذا الفاسق مرتكبا لمحارم الله ع ج ، متهاونا بأمره ، مناصبا لأوليائه وحزبه ، حكمنا عليه بحكم الله ، واستنجزنا فيه وعده لأنه يقول ـ لا شريك له ـ « إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون» ، «فلما آسفونا انتقمنا منهم» ، «وأملى لهم إن كيدى متين» وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » . فعلمنا أن الله ع ج لا يدع مثله حتى ينتقم منه ، ولايهمل منكره بل يغيره ، ولا يدع أن يطهر منه أرضه ، ويورثها ـ كما قال ـ صالحى عباده .

قال المعز صلع : ثم هذا فصل فى كتابه بعد هذا ، يذكر فيه بزعمه سوء رأينا ، وقال فيه : ومن كانت هذه أحواله لم تدم أيامه ، فجاء بمل ما أخذه بزعمه علينا لم يعده ، كأنه ليس هو الذى أخذه ، ثم قال : وهذا مما قدمنا ذكره من تغاير قوله ، وسوء توجيهه ، والله للظالمين بالمرصاد »

الملحق العاشر

بعض الأحكام الشرعية الإسماعيلية فى عهد المعز لدين الله (١)

وأما ما جاء من قول الباقر محمد بن على بن الحسين ، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين ، والصفوة من ذريته الأئمة الصادقين : «بنى الإسلام على سبع دعائم: الولاية هى أفضلها ، وبها وبالولى ينتهى إلى معرفتها ، والطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد» فهذه كما قال صلوات الله عليه ، دعائم الإسلام وقواعده ، وأصوله التى افترضها على عباده ، ولها فى التأويل الباطن أمثال . فالولاية مثلها مثل آدم عليه السلام ، لأنه أول من افترض الله تعالى ولايته ، وأمر الملائكة بالسجود له ؛ والسجود الطاعة ، وهى الولاية ، ولم يكلفهم غير ذلك ، فسجدوا إلا إبليس ، كما أخبر الله سبحانه ، فكانت المحنة بآدم عليه السلام الولاية وكان آدم مثلها ، ولا بد لجميع الخلق من اعتقاد ولايته . ومن لم يتوله ، لم تنفعه ولاية من تولاه من بعده ، إذا لم يدن بولايته ، ويعترف بحقه ، وبأنه أصل من أوجب الله عز وجل ولايته ، من رسله وأنبيائه وأئمة دينه ، وأولهم أبوهم

والطهارة مثلها مثل نوح عليه السلام ، وهو أول مبعوث ومرسل من قبل الله عز وجل ، لتطهير العباد عن المعاصى والذنوب التى اقترفوها ووقعوا فيها من بعد آدم صلى الله عليهما ، وهو أول ناطق من بعده ، وأول أولى العزم من الرسل أصحاب الشرائع ، وجعل الله عز وجل آيته التى جاء بها ، الماء الذى جعله للطهارة، وسماه طهورا

والصلاة مثلها مثل إبراهيم عليه السلام ، وهو الذى بنى البيت الحرام ، ونصب المقام ، فجعل الله عز وجل البيت قبلة ، والمقام مصلى، وحكى قوله عز وجل: «إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين(٢) » . فكان هذا القول هو افتتاح الصلاة للمصلين والزكاة مثلها مثل موسى عليه السلام، وهو أول من دعا إليها وأرسل بها . قال الله تعالى «وهل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربه

---

(١) المجالس المستنصرية نشره الدكتور محمد كامل حسين ص ١٥٨ - ١٦٤.

(٢) سورة الأنعام آية ٧٩ .

بالوادى المقدس طوى ، اذهب إلى فرعون إنه طغى ، فقل هل لك إلى أن تزكى(١) » ، فكان أول ما أمره الله أن يدعو إليه أن يزكى .

والصوم مثله مثل عيسى عليه السلام ، وهو أول ماخاطب به أمه أن تقول لمن رأته من البشر ، وهو قوله الذى حكاه عز وجل عنه لها « فإما ترين من البشر أحدا فقولى إنى نذرت للرحمن صوما ، فلن أكلم اليوم إنسيا(٢) » ، وكان هو كذلك عليه السلام يصوم دهره ، ولم يكن يأتى النساء ، كما لا يجوز للصائم أن يأتيهن فى حال صومه.

والحج مثله مثل محمد صلى الله عليه وآله ، وهو أول من أقام مناسك الحج ، وسن سننه وكانت العرب وغيرها من الأمم تحج البيت فى الجاهلية ، ولا تقيم شيئا من مناسكه ، كما أخبر الله عز وجل عنهم بقوله : « وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية » . وكانوا يطوفون به عراة ، فكان أول شىء نهاهم عنه ذلك ، فقال فى العمرة التى اعتمرها قبل فتح مكة ، بعد أن وادع أهلها وهم مشركون : « لا يطوفن بعدُ هذا البيت عريان ولا عريانة » وكانوا قد نصبوا حول البيت أصناما لهم يعبدونها ، فلما فتح مكة ، كسرها وأزالها ، وسن لهم سنن الحج ومناسكه . وأقام لهم بأمر الله تعالى معالمه ، وافترض فرائضه . وكان الحج خاتمة الأعمال المفروضة ، وكان هو صلى الله عليه وآله خاتم النبيين . فلم يبق بعد الحج من دعائم الإسلام غير الجهاد ، وهو مثل سابع الأئمة ، الذى يكون سابع أسبوعهم الأخير ، الذى هو صاحب القيامة »(٣)

والطهارة فى الظاهر الوضوء والغسل بالماء ، والتيمم بالصعيد لمن يجوز له ذلك من أحداث الأبدان . والطهارة فى الباطن التطهير بالعلم وبما يوجبه العلم من أحداث النفوس قال الله جل من قائل : « وأنزلنا من السماء ماء طهورا » . وقال عز وجل « وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم » ، وقد تقدم القول بأن الماء مثله مثل العلم ، فكما يطهر الماء الظاهر من أحداث الأبدان الظاهرة ، كذلك يطهر العلم من أحداث النفوس الباطنة ، وأفاعيلها الردية الموبقة . فأصل القول فى باطن الطهارة ، أنها الطهارة من أنجاس الأبدان فى الظاهر بالماء ، ومن أنجاس الأرواح فى الباطن بالعلم

(١) سورة النازعات آية ١٤ — ١٨

(٢) سورة مريم آية ٢٦

(٣) المجلس الأول من كتاب دعائم الاسلام للنعمان المغربى ص ٧ وما بعدها

وأما قوله ﷺ « بنيت الصلاة على أربعة أسهم: سهم لإسباغ الوضوء ، وسهم للركوع ، وسهم للسجود ، وسهم للخشوع » ؛ فإسباغ الوضوء فى الباطن المبالغة فى التطهر من الذنوب ، بالنزوع عنها ، والتوبة منها

ومن صفات الوضوء اعتقاد النية فيه ، وقيل فى ذلك إنه لا وضوء إلا بنية . وكذلك جاء فى سائر الأعمال ، أنه لا عمل إلا بنية ، لقول رسول الله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات » . ومثل النية فى الباطن مثل الولاية . فمن لم يتول أولياء الله عز وجل الذين افترض ولا يتهم على العباد ، لم يقبل له عمل ، كما لا يكون العمل كذلك فى الظاهر عملا يرجى قبوله إلا بنية وقد سمعتم أن مثل الطهارة فى الظاهر بالماء ، مثل الطهارة فى الباطن بالعلم المأخوذ عن أولياء الله ، ولا يكون ذلك إلا بعد اعتقاد ولايتهم ، كما لا يجوز الطهارة فى الظاهر إلا بنية .

أما غسل الوجه ، فهو أول الفرائض ؛ والوجه فى التأويل الباطن ، مثله مثل النبى ﷺ فى عصره والإمام فى زمانه . فكل واحد منهما ، به يتوجه أهل عصره إلى الله تعالى ، وهو وجه الله الذى يؤتى من قبله ، وفيه أمثال النطقاء السبعة ، وهى العينان والأذنان والمنخران والفم ؛ وفيه الحواس الخمس ، وذلك السمع والبصر والشم والطعم واللمس ، لأن اللمس قد يكون باليد وبكل الجسد ، فيحس به كما يحس باليد . كذلك الناطق قد جمع الله تعالى فيه جميع الآيات منافع الدين للعباد ، فمثل غسله فى الباطن مثل الإقرار بإمام الزمان ، وبالسبعة النطقاء ، والسبعة الأئمة ، الذين يتعاقبون الإمامة .

وغسل اليدين إلى المرفقين ، فباطن ذلك أن اليدين مثلهما مثل الإمام والحجة ، ويجرى مثلهما كذلك فيمن دونهما من الحدود المزدوجة ، فغسلهما إلى المرفقين ، وهما منتهى حديهما ، إقرار ومعرفة بحدودهما ، من أولها إلى آخرهما ، وغسل كل واحدة منهما بالأخرى ، مثله مثل إقامة باطن الحجة على ظاهر الإمام ، وإقامة ظاهر الإمام على باطن الحجة ، واعتقاد إيجاب أهل الظاهر والباطن والإيمان بهما وتصديق الظاهر للباطن ، والباطن للظاهر ، وشهادة بعضهما لبعض .

وأما ما جاء من الأمر بالمسح على الرأس ، فالرأس فى التأويل هو الرئيس ، وكذلك هو فى اللغة ، ورأس كل شىء أعلاه وأشرفه وأفضله . والرأس مسكن

الدماغ الذى فيه العقل، وبه الحواس والحياة . وإذا بطل ، بطلت الحواس ، وفسد العقل، وإذا ذهب هلك صاحبه. فمثل المسح بالرأس فى الباطن ، مثل الإقرار بصاحب الشريعة محمد (ﷺ) ، والتمسك بشريعته وسنته

وأما ما جاء من غسل الرجلين والمسح عليهما ، وأن المسح هو الواجب ، فعلى الرجلين يقوم ، وهما يحملان الجسد وينقلانه . ومثلهما أيضا مثل الإمام والحجة . هما ينهضان بعالم زمانهما ، ويحملان ثقله ، وينقلان أهله على مراتبهم ، ويصرفانهم فى أمور الدين إلى حيث يتوجهون وذلك يقع ، كما ذكرنا ، على من دونهما من الحدود المزدوجة ، إلى الداعى والمأذون ، وكل يحمل من أمور الخلائق ما حمله الله عز وجل. ويصرفهم فيما أذن له يصرفهم فيه . فالمسح على الرجلين ، هو الإقرار بالإمام والحجة فمن دونهما من الحدود ، ومعرفة الواجب لهم ، والغسل تأويله الطاعة ، والمسح تأويله الإقرار فما أمر الله عز وجل بغسله من أعضاء الوضوء ، فتأويل ذلك الطاعة لمن جعل له مثلا فى الباطن ، وما أمر بمسحه ، فتأويله الإقرار لمن جعله له مثلا فى الباطن؛ فمن أجل ذلك كان الغسل أتم ، وأمر بإسباغه ، لأن الطاعة كذلك تلزم المأمور بها فى قليل الأمور وكثيرها . والغسل لابد فيه من مسح اليد ، فهو يجمع الطاعة والإقرار، والإقرار إنما يكون بجارحتين ، قول باللسان واعتقاد بالقلب .كذلك المسح لا يعم جميع العضو الذى يمسح عليه ، ولا يصيبه الماء كله بالمسح ، كما يصيبه بالغسل.

الملحق الحادى عشر

ما ينبغى أن يستعمله الدعاة إلى الأئمة صلوات الله عليهم فى دعائهم إليهم[1].

«أن يبدءوا بصلاح أنفسهم . . . فهم أحق الناس بالورع والصلاح ، والتقوى والعفاف ، والعمل بكل صالحة ، واجتناب كل مكروه . وهذا باب أيضا يدخل فيه جماعة المؤمنين لقول الصادق جعفر بن محمد ﷺ ، لكافة شيعته ممن لم تطلق له الدعوة: كونوا لنا دعاة صامتين . ثم بين ذلك، وأخبرهم أنهم إذا عملوا صالحا، علم الناس أنهم خير ، فدخلوا فى جملتهم، وكانوا دعاتهم بأعمالهم لا بألسنتهم : وكل مؤمن يعمل الخير، فهو داع إلى الأئمة ، ولكن سبيله ما حُـد له ، لا ينبغى له أن يتجاوزه

(١) النعمان الهمة فى آداب أتباع الأئمة ج ٢ ص ٨٨ - ٩١ .

ولا يقصر عنه فرأس أمر الدعاة إلى أولياء الله وسيد أعمالهم ، وقطب أمورهم ، صلاح أنفسهم بالدين الصادق ، والورع الحاجز ، والدعاء بالحكمة البالغة ، والموعظة الشافية ، كما قال الله لرسوله « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة[1]» .

ثم ينبغي للداعي اختيار أمر من يدعوه ، وتعرف أحوالهم رجلا رجلا ، وتمييز كل امرىء منهم ، ومعرفة ما يصلح له أن يؤتى إليه ويحمله من أمر الله وأمر أوليائه ، ومقدار ما يحمله من ذلك ، ومدى قدرته وطاقته ، ومتى يوصل ذلك إليه ، وكيف يغذوه به وامتحان الرجال وتعرف الأحوال ، ومقدار القوى ومبلغ الطاقات وعلم ذلك هو أفضل ما يحتاج إليه الدعاة فى باب السياسات والرياضات فكثير ما فسد أمر الداعى من جهله بهذا الباب (ج ٢ ص ٨٩) . وفسدت دعوته منه وقد يعترف من يجوز عليه التضييع من الدعاة ، وينفق عنده منهم ، وتجوز عليه الحيل ، من الفساد فى أمره ، والخلل فى دعوته ، ما يطول القول بذكره .

فينبغي للداعى أن يحكم أمر هذا الوجه من نفسه ، ويكون أسبق أهل دعوته به ؛ وأقربهم منه ، وأحقهم بفوائده ، من حسنت نيته ، وصفت طويته ، ودق ذهنه ، وصح اعتقاده ، وجاد عقله ، وملك سره ، وقام بفرضه ما كان ، مما كثر أو قل ، شرف عند الناس من كانت هذه حاله ، أو انحط لديهم ، أو صغر أو كبر عندهم ، إلا أن يحتاج الداعى إلى استمالة الإشراف فى حال ما يستميلهم ، كما تستمال المؤلفة قلوبهم على مقدار أحوالهم ... فإن التقريب على الدين ، والتفضيل به ، والترفيع لأهله . أقرب سببا إلى اغتباط الناس به ، ودخولهم فيه .

وينبغي للداعى أن يُتهيب عند أهل دعوته ، وأن لا يعودهم الجرأة عليه ، ولا يبسطهم كل البسط لديه ، فيهون عندهم ويصغر أمره لديهم . فإنه كلما كان أهيب عندهم ، كانوا أكثر انتفاعا به ، وأحرى عنده . وليكن تهيبه ذلك بحسن الصمت ، وخفض الجناح ، ولين الجانب ، وحسن العشرة ، وجميل المخالفة ، من غير تجبر عليهم ، ولا تكبر فى أمره عليهم ، بل يكون التواضع سيماه ، والوقار همته

وقد جاء عن الصادق جعفر بن محمد ، صلوات الله عليه ، أنه قال اطلبوا

---

(١) سورة النحل آية ١٢٥

العلم ، وتزينوا معه بالوقار والحلم ، وتواضعوا لمن تتعلمون منه ولمن تعلمونه ولا تكونوا علماء جبارين ، فيذهب باطلكم بحقكم . وقال: من طلب العلم ليدافع به العلماء ، ويجارى به السفهاء (ج ٢ ص ٩٠) ، أو ليصرف به وجوه الناس إليه ، ويتكبر عليهم ، فليتبوأ مقعده من النار إن الرياسة لا تصلح إلا لأهلها

فينبغي للداعى أن يكون مهيبا فى غير تكبر ولا صَلَف[1]، متواضعا لا لمهانة ولا لضعف . فإن اجتمع له أمره واستحكم ، واتصل له مراده ، وانتظم وعده فى أهل دعوته وعظم ؛ فليحسن إلى محسنهم ، ويقربهم على درجاتهم ، وينزلهم على طبقات أعمالهم ؛ ولا يهمل أمرهم ، فيدع عقوبتهم على ما يتضح له من ذنوبهم ، ويصح له من إساءتهم . فقد كان من استحكم أمره من الدعاة ، يؤدب من أدب من أهل دعوته بصنوف من الأدب ؛ فيقصى بعضهم ويهجره ، ويأمر المؤمنين أن يهجروه ، فلا يكلمه أحد منهم ، ولا يدانيه ، فيبقى مهجورا فى قومه ، مبعدا فى أهله وخاصته ، حتى تضيق الأرض عليه برحبها ، ويتطارح عليه فى التوبة وقبولها ، ويمتحنه بما شاء أن يمتحنه فى نفسه أو فى ماله ، أو فيما رآه من أحواله ، بعد المدة الطويلة ، والنكاية الشديدة ومنهم من يبكته على رءوس الملأ ، ومنهم من يذله ويوبخه فى الخلاء ، ومنهم من يأمر بجلده ، ومنهم من يمضى العقوبة فى قتله ، ويمتحن بذلك أقرب الناس إليه ؛ فيأمر الأخ بقتل أخيه ، والحميم بقتل حميمه ، فيقتله ، ويكون ذلك محنة القاتل فى نفسه ، وعزاء فى وليه ، إذ لم يل أمره غيره ، وصلاحا فى أن يسلم من الحقد قلبه ، فيعاقب كل امرىء منهم بقدر ذنبه ، ويجعل العقوبة له بحسبه ، ولم يكن يهمل شيئا من أمرهم ، فاستقامت لذلك إرادته منهم .

وقد قال على ، صلوات الله عليه إن الله جل ذكره أدب هذه الأمة بالسيف والسوط ، ليس عند الإمام فيها هوادة . ولو علم الله ، جل ثناؤه ، أن عباده يصلحهم التجاوز عنهم ، لأمر به ، ولكنه ، جل ثناؤه ، حد حدود الذنب بهم ، إذ علم - لا شريك له - أن بها صلاحهم ، فجعل حد القاتل فى العمد القتل ، وجعل فى الخطأ الدية ، وحكم فى الزانى المحصن[2] بالرجم ، وفى البكر بالجلد ، وفى السارق

---

(١) الصلف : التكلم بما يكره صاحبه ، ومجاوزة القدر تكبرا .

(٢) الرجل المحصن : المتزوج .

بالقطع ، وفى المحارب بالصلب أو النفى وقطع اليد والرجل ، والقاذف بالجلد ، وفى الشارب بالحد فى حدود فصلها وأحكام افترضها وأجراها . . . (ج ٢ ص ٩١) . وطبقات الدعاة والولاة ، ينبغى لهم التأدب بكل ما جرى ذكره فى هذا الكتاب والتخلق به ، واعتقاده قولا وعملا ، ودينا ونية . ولذلك أجريت ذكرهم فيه ، وهم أخص بالأئمة ، صلوات الله عليهم ، من كثير ممن قدمنا ذكرهم . . . فإذا تأدب المبتدئ بها أولا فأولا ، واستعملها بابا بابا ، صار إلى درجة هؤلاء ، ودخل فى جملتهم »

الملحق الثانى عشر

فى الحث على طاعة الفاطميين (١)

يقول النعمان : سمعت المعز لدين الله « وقد دخل إليه جماعة من الأولياء والعبيد ورجال المملكة ، فأوصاهم بوصايا ... منها أن قال لهم : « السعيد والله منكم من امتثل أمرنا وقبل عنا . والله ما هو إلا أن يأخذ المرء نفسه ويروضها قليلا على طاعتنا ، والعمل بما يرضينا ، فما أيسر ما يناله من ذلك حتى ينال خير الدنيا والآخرة . إن الله عز وجل قد وصل أيام سلطاننا وظهور أمرنا بأيام الآخرة ، فمن أحسن منكم فيها ، اتصلت له سعادة الدنيا بسعادة الآخرة ، واجتمع له خيرهما ، ومن غلبت عليه شهوة عاجل الدنيا ، حتى يخالف أمرنا ، ويعتاض منه حطاما قليلا ، خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين .

حسبكم وصية عنا ، ما تشاهدونه منا . فاقتدوا بنا ، واقتفوا آثارنا ، والله لو لم يجب طاعتنا واتباع أمرنا عليكم إلا بإحساننا فى أمور الدنيا إليكم ، لكان من الواجب الوفاء لنا منكم ، وأن تكافئونا بإحساننا إليكم ، وكيف وقد جمع الله لكم بنا خير الدنيا والآخرة ؟ والله إن الرجل المتمسك بشىء من المروءة والأدب ، ليكون له الصديق والصاحب ، يأمره بالأمر ، فلا يرى مخالفة أمره ، ويكلفه الحاجة ،

(١) النعمان : المجالس والمسايرات ج ٢ ص ٦٥ - ٦٧ .

فيبذل فيها مجهوده ، فكيف من يعتقد إمامتنا ، ويعرف فرض طاعتنا ؟ » .

المجلس الثالث عشر

مدح المعز كتامة (١)

يقول النعمان : سمعت المعز ، « صلوات الله عليه يقول ، وقد دخل إليه رجال من كتامة ، أتوا من النواحي لشهود العيد ، فدخلوا إليه وسلموا عليه ، ووقفوا بين يديه ، فسألهم عن أحوالهم ، ومن خلفوه منهم ، فأحفى السؤال بهم ، فشكروا ذلك من افتقاده وسؤاله ، وذكروا جميل أحوالهم ، وهدو نواحيهم ، واستقامة الأمور قبلهم ، وشكروا عمال بلدانهم . فابتهج لذلك المعز ، صلوات الله عليه ، وسره ، وتهلل وجهه ، وتبسم

ثم نظر إلىّ فقال : هؤلاء أولياؤنا وخاصتنا ، هؤلاء حزبنا وزمرتنا ، هؤلاء أتباعنا وعمدتنا ، هؤلاء خاصتنا وأهل مودتنا. هؤلاء الذين يكونون فى الجنة معنا ، كما كانوا معنا فى الدنيا ، ما أسرنى بهم ، وأبهجنى برؤيتهم ، وأحسن فى عينى منظرهم! إنى لأرى جماعتهم ، وكانوا عندى صورة واحدة ، قد تساووا فى الجمال والهيئة والبهجة ، حتى إذا خالطوا الناس من غيرهم ، فالواحد منهم متى رأيته بين الجماعة من غيرهم ، كان عندى كالعلم السنى، وكالسراج المضىء . أما أنى لأقول فى نفسى كثيرا إذا رأيت ذلك منهم ، إن ذلك لفرط محبتى لهم ، فلذلك أراهم كذلك .

فقبلوا الأرض بين يديه وقالوا : يقول ،ولانا ما يقوله بفضله علينا ، فأما نحن فى موالاتنا إياه ، ومحبتنا له ، فلأنفسنا سعينا، ورضاء ربنا بذلك أردنا ، وماذلك منا بالتكلف ، ولا بشىء نكره أنفسنا عليه ، ولا نرى عليه مشقة ولا كلفة فيه ، وما ذلك فينا دون بنينا، وخدمنا وعبيدنا . والله ما يحلف أطفالنا وعبيدنا وخدمنا إلا بحق مولانا وفضله ، ولا على ألسنتهم ولا لهم غيره . ولا يعرفون لهم مولى سواه ، وما نشأ منا ومنهم من نشأ إلا على ذلك ، وعليه يموت إن شاء الله . والله لقد حاز العدو أيام الفتنة من النساء والأطفال ، ولقد كانت وصاياهم

وكتبهم تأتينا يأمروننا بالصبر مع ولى الله ، وألاّ نعطى لمكانهم الدنية لأعداء الله . فصبرا على السراء والضراء ، والسبي والأسر ، حتى أظهرنا الله تعالى بوليه ، واستنقذناهم قسرا بحول الله وقوته . فقال صلوات الله عليه لن يضيع الله سبحانه لكم ذلك ولا ينساه . والله لو اطلعتم على ما لكم عند الله بذلك ، لقرت أعينكم ، وطابت أنفسكم ، وإن الله سبحانه تعبد الخلق بضروب المحن ، فما تعبدكم إلا بأفضلها ، وما استعملكم إلا فى خيرها وأشرفها ، موالاة أوليائه ، والجهاد فى سبيله ، فأبشروا من الله بالقسم الأوفى ، والحظ الأسنى . وسمعته ص ع يقول لبعض الأولياء والله والله ما يتخالجنى الشك فى اعتقاد صغيركم وكبيركم ، وحركم وعبدكم ، وذكركم وأنثاكم ، ولايتنا ، واجتماع قلوبكم على محبتنا . على ذلك نشأ صغيركم ، وعليه كبر كبيركم .

قال أحدهم: والله لو قد سمع مولانا ع م مايلفظ به نساؤنا وعبيدنا وصبياننا ، من القول بولايته ، والمحبة له ، ونشر فضله ، لعلم أنهم على ما ذكره فيهم. فقال ع م منا الحظ الأوفر فى المحبة لهم ، والإشفاق عليهم ، والمودة لصغيرهم وكبيرهم ، وما لم يكن مثله من أحد من آبائنا ، مع ما وهب الله تعالى لهم فى أيامنا من العز والأمن والسعة والسلطان ، وعلو الكلمة ، ما لو أدركه من مضى من أسلافهم ، ثم أمرناهم أن يلجوا النار بين أيدينا لولجوها. فقال أحدهم: والله إنا لنقول ذلك ، ونتمنى لمن مات من آبائنا وإخواننا ، أن لو مد فى أعمارهم ، حتى يكونوا بلغوا هذه الأيام ، ورأوا هذه النعم ، وشملهم هذا الفضل ، لقد كان مما يزيد فى بصائرهم ، وتعظم به نعم الله عليهم . على أنا لا نرى بمن بقى منهم ، تقصيرا فى الولاية والطاعة . قال : لا والحمد لله ، ما بهم فى ذلك تقصير ، وإنهم فى الثبات لعلى أفضل حال ممن مضى من سلفهم ، ولكنهم ربما أرادوا رضاءنا بالشىء فأخطئوه ، وربما تعلقوا بمن دوننا ، ليجعلوا ذلك وسيلة إلينا لا والله ما جعلنا لأحد عليهم فى ذلك من سبيل ، ثم قال ومن مثل هذا دخل ما دخل على من مضى من أسلافهم .

رأيت بخط القائم بأمر الله ، صلوات الله عليه ، حكاية عن قول بعض من كان من الشيوخ الأولين ، لحقهم ما لحقهم من الشك فى أيام المهدى بالله(1) ، وقد عاتبه

(1) يشير بذلك إلى ثورة أبى عبد الله الشيعى وأخيه أبى العباس . ومن انضم إليهم من كتامة .

المهدى فى ذلك ، فقال له والله يا مولانا ، ما نافقنا عليك ، ولا غيرنا ولا بدلنا والله لقد نافقنا وغيرنا وبدلنا ، من حيث لم نعلم ذلك ، ولم نقصد إليه ، ولكن شبه علينا فيه ، فدفعنا فى ذلك من حيث لم نعلم ، فإن يعف مولانا عنا فبفضله ، وإن يعاقب بما شاء من العقوبة ، فنحن أهلها ، فقال المهدى بالله : بل يعفو الله عنكم » .

الملحق الرابع عشر

اشتغال الأئمة ، فى صلاح الأمة (١)

كان المعز لدين الله يقول « للناس شغل بدنياهم وما يتلذذون به منها ، وشغلنا إقامة أودهم ، وصلاح أحوالهم ، والنظر فيما يعود عليهم ، ويحمى حماهم ، ويدفع عن بيضتهم ، ويحقن دماءهم ، ويحصن حريمهم وأموالهم ، ويكف أيدى المتطاولين إليهم ، بذلك نقطع ليلنا ونهارنا ، وهم عن ذلك بمعزل ، ومنه فى غفلة بما هم فيه متشاغلون . فمتى أردنا منهم أمرا لا بد لنا منه ، رفعوا رءوسهم كما ترفع الغنم رءوسها عند زجرة الراعى من مرعاها ، وتكلم المتكلم منهم بما لا يعنيه ، وأنكر الجاهل منهم بما لا يدريه والله المستعان على ما قلدناه من أمورهم ، وافترضه علينا من القيام بأسبابهم ، ورغب إليه فى إصلاحهم وهدايتهم ، إلى ما فيه حظهم ونجاتهم ، فى دنياهم وأخراهم » .

الملحق الخامس عشر

توقيع فى ذكر عاشوراء (٢)

يقول النعمان : « كنت رويت عن الصادقين الأئمة من أهل بيت رسول الله ص ، مما رواه إلينا الرواة عنهم ، فضائل يوم عاشوراء ، وحضر وقته ، فرأيت أن أذكرها فى خطبة الجمعة التى يتلوها وأذكر فيها مصاب الحسين صلع ، وأن الله أكرمه بالشهادة فى هذا اليوم الذى عظمه كما أكرم أباه عليا أمير المؤمنين بها فى يوم أيضا من شهر رمضان ثم رأيت أن لا أفعل ذلك حتى أطالع به المعز ص .

(١) النعمان المجالس والمسايرات جـ ١ ص ١٤٣ — ١٤٤

(٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٢١٩ - ٢٢٠

فذكرت ما رويته فى ذلك ، وما أردت أن أخطب به ، فوقع إلىّ فيه يا نعمان ، ما ذكرتُ إلا ما جاء عن الصادقين صحيحا

ويوم عاشوراء ، فقد علمت تفضيل الجهال إياه ، من غير وجه التفضيل الذى فضله الله عج ، وأنهم جعلوه م عيد وسرور ، لما سنه لهم الفسقة بنو أمية . فصف تعظيمهم له من أى وجه كان ، مثل أن تقول : فعظموا عباد الله هذا اليوم ـ عظمه الله ـ واستنوا فى تعظيمكم إياه سنة نبيكم محمد رسول الله ص ، لا أن تتخذوه يوم عيد وسرور ، كما اتخذه أعداء الله وأولياء الشيطان ، وأعداء الرحمن ، من أبناء مروان ، لما نالوا فيه من هتك حرم رسول الله ، وقتل أولياء الله فأحلوه محل السرور والجذل ، لا محل الاستغفار والعمل ، فرحم الله امرأ عمل لنفسه ، واقتنى سنة نبيه ، ورغب فى عفو ربه ، لم يغفل فى هذا اليوم العظيم عن ذكر مصاب أنبياء نبيه ، ولم يخل الظالمين فيه من لعنة ، إلا لعنة الله على الفاسقين المارقين ، أولياء الشياطين ، وقتلة المؤمنين . ثم تنسق على هذا الكلام ما يشبهه فإن الذى منعنى عن تمام الكلام الشغل بشىء نؤلفه نسأل الله عونه وتوفيقه لنا ولأوليائنا ، فلقد انفردنا بحمل ما اجتمعت الأمة الضالة على رفضه » .

الملحق السادس عشر

النهى عن الغلو فى أولياء الله (١)

قال المعز : « ينتهى إلينا أخبار عن بعض من يزعم أنه يتولانا ، وبعض من يدعى أنه يدعو إلينا ، من الغلو فينا ، والقول بما لم نقله فى أنفسنا ، وبما لم يسمعه أحد منا ، حتى كأنهم أعلم منا بما يقولونه فينا ، ونحن نبرأ(٢) إلى الله من كذبهم علينا ، وتقولهم فينا . ونحن عباد من عباد الله ، مخلوقون مربوبون ، لا علم لنا إلا ما علمنا ، وصار إلينا عن نبيه جدنا محمد ص ، مما أودعه الله إياه وأورثنا من بعده وأودعناه ، لا نحيط من علمه إلا بما شاء ، ولا من غيبه إلا ما أطلع عليه منا من ارتضاه ، كيف أحب وشاء

(١) النعمان المجالس والمسايرات جـ ٢ ص ٥٧٧ ـ ٥٨٠

(٢) فى الأصل نبرا .

لا ندعى النبوة والرسالة ، بل نحن المستحفظون على الإمامة . حلالنا من كتاب الله ، وحرامنا منه، وطاعتنا مفروضة على عباد الله بحكمه . من عرفنا فقد عرف الله ، ومن جهلنا فقد جهله نحن الدالون بحكمته عليه ، والقائمون بأمره على عباده ، نحن دون ما يقول الغالون ، وفوق ما يظن الجاهلون إنما أراد من نحلنا علم الغيب ، ونسب إلينا تنزيل الوحى، ممن يدعو بزعمه إلينا، أن يجعل ذلك مقدمة لنفاقه علينا. فإذا أراد ذلك قال لمن دعاه لم أدعكم إلا لمن وصفت لكم فيه ما وصفت [1] ، فيصدهم بذلك عنا. لعن الله الصادين عنا ؛ فإنهم عن الله يصدون ، وبدينه يتلاعبون، أرادوا الدنيا ، وعسر عليهم طلبها من وجوهها ، فالتمسوا بوجه الدين ، لينالوا من حطامها ما هو عن قليل منهم زائل وهم به مطالبون وقد سعد من أخذ عنا ما نعطيه ، واقتصر عليه ، ولم يقل بغيره ، ولا تكلف من القول ما لا يعلمه.

لقد انتهى إلىّ عن بعضهم أنه قال وددت أنه لو سئلت عما لا يكون ، فأجبت عنه ، فرأى عند نفسه ، ومن سمع ذلك ممن يصدقه ، أنه قد جاء بما أبان به من علمه ، وافتخر بذلك له. فلو تدبر هذا القول من وفق للصواب ، لوضح له من خطئه[2] أن ما لا يكون ، فلا يكون عنه جواب ، لأنه سيكون »

الملحق السابع عشر

نصيحة المعز لعماله [3]

دخل إلى المعز » رهط من كتامة ، قدموا من أعمالهم ، وارتضى سيرتهم فيها ، وهم أحداث نشئوا فى دولته ومضى آباؤهم وأجدادهم فى أيام الأئمة الطاهرين من قبله. فأثنى عليهم خيرا ، وقال : أما والله لو تعلمون ما لكم ولجميع أوليائنا عندنا من الرضا والمحبة، لاستفزتكم المسرة ؛ وما نعرض عمن نعرض عنه منكم ، ونعاقب من نعاقبه ، إلا تأديبا وتقويما ، لكى يزدادوا من الفضل والخير ولو علم آباؤكم ومن

(١) فى الأصل وما وصفت .

(٢) فى الأصل من خطاءه

(٣) النعمان : المجالس والمسايرات جـ ٢ ص ٥٨٤ - ٥٨٧

مضى (من) أسلافكم ، قبل أن يموتوا ، ما لحقهم فيكم من بعدهم ، لتمنوا الموت فى أيام حياتهم ، لما تطيب به أنفسهم لكم من بعدهم ، إذ كانوا فى دون ما أنتم فيه فى أيامنا ، وإن كان الأئمة لم يتركوا فى الإحسان إليهم ، فلم يبلغوا معهم ما بلغتم أنتم اليوم معنا ، ولكل زمان حال توجبها الحكمة ، ويجرى فيها بالعقوبة والرحمة . إنا والله إن قتلناكم ، فما نريد إلا الحياة الدائمة ، إذا وجب تطهيركم بالقتل فى العاجلة ، وإن عاقبناكم بدون ذلك ، فما نعاقبكم حنقا عليكم ، ولا مقتا وبغضا لكم ، ولكنا نفعل ذلك بأيدينا تطهيرا لكم ، وإن عفونا عنكم وأحسنا إليكم ، فنحن أهل العفو والإحسان. فأنتم والله معنا فى كل الأحوال ، وعلى جميع الأمور ، كيفما تصرفتم ، وجرى تدبيرنا فيكم ، على سبيل نجاة وخير ، وسلامة وغبطة. فاعرفوا حقنا وفضلنا ، وسلموا لحكمنا وأمرنا ، ولا ترتابوا فينا ، ولا تشكوا فيما نأتيه ونذره من أمركم ، كيفما جرت الأحوال بكم معنا ، تسلم صدوركم ، وتظفروا بحظكم فى دنياكم وآخرتكم.

فشكروا له بما قدروا عليه ، وقبلوا الأرض بين يديه ، وقالوا : نحن يا أمير المؤمنين عبيدك وصنائعك ، والمعترفون بفضلك ، فما أصبناه بتقويمك وتأديبك ، وما أخطأنا فيه ، فنحن نرجو فيه رأفتك ورحمتك . فقال عم يعصمكم الله من الخطأ بتأديبنا وتقويمنا ، إذ لا نرى لأحد منكم زلة إلا نبهناه ، ولا غفلة إلا أيقظناه ، ولا تخلفا إلا حركناه ، ولا تقصيرا إلا وعظناه . فليس يهلك مع هذا إلا الشقى الذى غلبت عليه شقوته ، والله يعيذكم من الشقوة بولايتنا وجميل رأينا فيكم إن شاء الله تعالى » .

الملحق الثامن عشر

نصيحة المعز لأحد العمال (١)

شيع المعز أحد عماله بقوله : « سر على بركة الله ، مصحوبا بعافيته ، نحن نرجو أن يجعل الله فيك من البركة ، ويوفقك من الخير ، إلى ما تكون به أفضل من أبيك . فأنت من بلادنا ، وربى أيامنا ، ونَشِىّ دولتنا ، وغذىّ نعمتنا فاشعر نفسك العمل بما أمرناك ، والانتهاء عما نهيناك ، والوقوف على ما حددناك . وخذها بذلك ولا تتعده ، تحسن أحوالك ، وتزكو أعمالك ، وتستكمل رضانا عندك . اجعل الحق

(١) النعمان المجالس والمسايرات ج ٢ ص ٦٠٢ - ٦٠٤

قصدك ، والعدل سيرتك ، وأمرنا ونهينا نصب عينيك وأمامك. إن غضبت ، فليكن غضبك لله عج (عز وجل) ولنا ، وإن رضيت ، فليكن رضاك بسبيل ذلك ، وذر الرضاء والغضب لنفسك عنك بجانب فمن تجاوز إليك ما عسى أنه يغضبك وينقصك ، فإلينا تجاوز ذلك ، ونحن من وراء الانتصار لك مالا تنتصر به لنفسك. طالعنا بأمورك ما عسى أن تريد العمل به قبل أن تعمله ، فما أتاك منه فامضه على ما نأمرك به ، تكن على سبيل نجاة وسلامة وراحة فى كل أمرك وتزول الحجة عندك فيما تخشى أن نقدم فيه عليك . فما ندم من شاورنا فى أمره ، وطالعنا به ، وما عدم ندما ، من ترك ذلك من أمثالك ، واعتمد على هواه . ورأى نفسه سر راشدا ، وفقك الله ! »

المجلس التاسع عشر

فى ترتيب استعمال العمال على العمل (١)

ذكر المعز « بعض الأولياء لبعض الأعمال فقال إنا ربما أردنا مثل هذا لمن نندبه ، فيرى نفسه فوق ما ندبناه إليه ، ويرى أنا قصرنا به فى ذلك ، وما نقصد بأحد من أوليائنا وغيرهم ، ممن نندبه إلى عمل نستعمله عليه ، إلا شرفه وترفيعه ، وما شيء استعملنا الله تعالى فيه ، فعملناه له بقليل ، ينبغى لمن ندبناه إليه ، ألا يحتقره ، ويرى نفسه فوقه ، ونحن عمال الله عج (عز وجل) عليه . وإنما ننقل الناس كما ينبغى أن ينقلوا فى الأحوال حالا عن حال . فمن رفعته كفايته ونصيحته ، رفعناه ، ومن قعد بنفسه ، فلا يلم أحدا سواه ، وليس ينبغى لنا أن نبتدىء من نبتدئه حتى نختبره بمعالى العمل ، وما سبق منه فيما هو دونه ، لأنا لو فعلنا ذلك ، لعرضنا به إلى هلاكه ، فقد قيل : إن الإنسان إذا رمى شيئا من يده من نحو صدره ، إلى ما دون ذلك من أسفل يديه انكسر والمعلوم أنه لم يرد به كسره ولا إفساده ، وإذا رفعه إلى أعلى من ذلك ، وإلى فوق رأسه ، وضرب به الأرض ، كان العلم محيطا بأنه أراد أن يكسره ويوهنه . فهذا مثل لما قلناه ، إنا لربما نعطى من نعطيه اختبارا ومحنة ، فان رأينا من أعطيناه مانعطيه ، قام به ، وشكر عليه ، وأدى الأمانة ، زدناه ، وإن قصر قصرناه به ونقصناه . وهذا آداب الله تعالى لخلقه ، فقد جعل ثوابا لمن أطاعه ، وعقابا لمن عصاه ، وقال « ولئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » .

---

(١) النعمان : المجالس والمسايرات ج ٢ ص ٥١٦ - ٥١٨

مصادر الكتاب

نورد فى الثَّبَت الآتى أهم مصادر الكتاب ، وقد رتبت أسماء المؤلفين فى جميعها حسب أحرف الهجاء

ابن الأثير (٦٣٠ هـ = ١٢٣٨ م) : على بن أحمد بن أبى الكرم
١ — ,, الكامل فى التاريخ ،، ١٢ جزءاً (بولاق سنة ١٢٧٤ هـ) .

أرنولد توماس و. Arnold Thomas W.
٢ — "The Preaching of Islam", 3rd edition by Reynold A. Nicholson (Lond., 1935).
وترجمه إلى العربيـة حسن إبراهيم حسن ، وعبد المجيـد عابدين وإسماعيل النحراوى (القاهرة سنة ١٩٤٧) .

ألتاميرا Altamira
٣ — "Cambridge Mediaeval History", vol. iii.

أمارى : ميشيل Amari : Michel.
٤ — ,, مكتبة صقلية العربية ،، Biblioteca Arabo-Sicula ، فى جزأين

أوتيخا (٣١١ هـ = ٩٢٩ م) سعيد بن البطريق
٥ — ,, التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ،، (بيروت ١٩٠٩)

أوليرى دى ليسى O'Leary De Lacy
٦ — "A Short History of the Fatimid Khalîfate" (Lond.,1923).

إيفانو فلاديمير Ivanow Valadimir
٧ — "The Rise of the Fatimids" (Calcutta, 1942).

٨ — "A Guide to Ismaili Literature" (Lond., 1934).

٩ — ,, استتار الامام ،، (نشره فى مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول سنة ١٩٣٦)

١٠ — ,, سيرة جعفر الحاجب،، لليانى (نشره فى مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول سنة ١٩٣٦)

١١ — ,,مختصر تاج العقائد،، لسيدنا على بن الوليد المتوفى سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥ م) نشره الأستاذ إيفانو بعنوان "A Creed of the Fatimids" (Cambridge, 1936.)

براون : إدوارد ج. Browne Edward G.
١٢ — "Literary History of Persia — from the Earliest Times — until Firdawsi (Lond., 1909).

بروكلمان كارل Brockelmann Carl.

١٣ — "Geschichte der Arabischer Litteratur." 2 vols. (Weimar, 1898 - 1902).

البغدادى (٤٢٩ هـ = ١٠٣٧ م) : أبو منصور عبد القاهر بن طاهر

١٤ — ،، الفرق بين الفرق ،، (القاهرة ١٣٢٨ هـ = ١٩١٠ م)

البكرى (٤٨٧ هـ = ١٠٩٧ م) أبو عبيد الله بن عبد العزيز .

١٥ — ،،كتاب المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب،، ، طبعة دى سلان DeSlane (باريس ١٩١١)

بلوشيه ل. Blochet L.

١٦ — "Le Missianisme dans l'Heterodoxie Musulmane"(Paris, 1903).

البيرونى (٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م) أبو الريحان محمد بن أحمد

١٧ — ،، الآثار الباقية عن القرون الخالية ،، (طبعة إدوارد سخاو) ليبزج سنة ٨٧٨ و١٨٧٩

وترجمه إلى الانجليزية وعلق عليه إدوارد سخاو وبعنوان "The Chronology of Ancient Nations (London, 1879).

بيمونت ومونو Bemont et Monod

١٨ — "Histoire de l'Europe au Moyen-Age" (395-1270 A.D.) (Paris, 1921).

تيلور : و. س. Taylor W. C.

١٩ — "History of Mohammedanism and its Sects" (Lond., 1839).

الثعالبى (٤٢٩ هـ = ١٠٣٧ م) أبو منصور عبد الملك .

٢٠ — ،، يتيمة الدهر ،، ٤ أجزاء (القاهرة ١٣٥٣ هـ = ١٩٣٤ م) .

جبون إدوارد Gibbon Edward

٢١ — "The History of the Decline and Fall of the Roman Emprie" 7 vols. ed. by J. B. Bury.

جوتييه إ. ف. Gautier E. F.

٢٢ — "Les Siècles Obscurs du Maghreb" (Paris, 1927).

ابن الجوزى (٥٩٧ هـ = ١٢٠١ م) أبو الفرج عبد الرحمن

٢٣ — ،، المنتظم ،، ، رسالة عن القرامطة نشرها جوزيف دى سوموجى فى Revista degli Studi Orientali, vol. xiii.

ابن الجوزى (٦٥٤ هـ = ١٢٥٧ م) : أبو المظفر قيزوغلى سبط بن الجوزى

٢٤ — ،،مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان،، ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية ، رقم ٥٥١ تاريخ

جولد تسيهر إجناز Goldziher Ignaz

٢٥ — "Le Dogme et la Loi de l'Islam", (Paris, 1920).

جويار س. Guyard S.
٢٦ — "Fragments relatifs à la Doctrine des Ismaélis"
(Paris, 1874). ،،عقيدة الاسماعيلية،،

حاجي خليفة (١٠٦٧ هـ = ١٦٥٧ م) : مصطفى كاتب شلبي
٢٧ — ،،كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون،، (ليبسك ولندن سنة ١٨٣٥ – ١٨٥٨)

ابن حزم (٤٥٦ هـ = ١٠٦٤ م) أبو محمد علي بن أحمد
٢٨ — ،، الفصل في الملل والأهواء والنحل ،، ٤ أجزاء (القاهرة سنة ١٣١٧ هـ)

حسن إبراهيم حسن دكتور
٢٩ — ،، الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص ،، (القاهرة ١٩٣٢)
٣٠ — ،، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي،، الجزء الثالث ، (القاهرة ١٩٤٦)
٣١ — ،، النظم الاسلامية ،، (بالاشتراك مع الدكتور علي إبراهيم حسن) (القاهرة سنة ١٣٥٨ هـ = ١٩٣٩ م).
٣٢ — ،، عبيد الله المهدي ، إمام الشيعة الاسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب ،، بالاشتراك مع الدكتور طه أحمد شرف (القاهرة ١٣٦٦ هـ = ١٩٤٧ م)

ابن حماد القاضي أبو عبد الله محمد بن علي بن حماد .
٣٣ — ،، أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ،، (الجزائر ١٣٤٦)

الحمادي (أواسط القرن الخامس الهجري) محمد بن مالك بن أبي الفضائل الحمادي اليماني .
٣٤ — ،، كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ،، (مصر ١٣٥٧ هـ) .

ابن حوقل (٣٨٠ هـ = ٩٩٠ م) أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي الموصلي
٣٥ — ،، كتاب المسالك والممالك والمفاوز والمهالك ،، (نشره دي غويه — ليدن ١٨٧٣ م) .

ابن خلدون (٨٠٨ هـ = ١٤٠٥ – ١٤٠٦ م) عبد الرحمن بن محمد
٣٦ — ،، مقدمة ابن خلدون ،، (مصر ١٣١١ هـ) .
٣٧ — ،، العبر وديوان المبتدا والخبر ،، ٧ أجزاء (القاهرة ١٢٨٤ هـ)

ابن خلكان (٦٨١ هـ = ١٢٨١ م): شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر الشافعي
٣٨ — ،، وفيات الأعيان ،، (مصر ١٣١٠ هـ)

دوزي : ر. ب. ا. Dozy R. P. A.
٣٩ — "Essai sur l'Hstoire de l'Islamisme" (T. R. V. Chauvin, Paris, 1879).
٤٠ — "Histoire des Musulmans d'Espagne" (Leyden, 1861).
٤١ — "Dictionnaire des Noms des Vêtements chez les Arabes" (Amsterdam, 1845).

٤٢ — "Supplément au Dictionnaires Arabes" (Leyden,1881—).

ديفريميرى م. س. Defrémery M. C.

٤٣ — "Essai sur l'Histoire des Ismaéléens de la Perse".

ابن أبى دينار (١١١٠ هـ = ١٦٩٨ م) محمد بن أبى القاسم بن عمر القيروانى .

٤٤ — ،، كتاب المونس فى أخبار إفريقية وتونس ،، (تونس ١٢٨٦ هـ)

الذهبى (٧٤٨ هـ = ١٣٤٧ - ١٣٤٨ م) شمس الدين محمد بن أحمد

٤٥ — ،، تاريخ الاسلام ،، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية ، رقم ٣٩٦ تاريخ المجلد الثالث

الرازى (٣١١ هـ = ٩٢٢ م) أبو بكر محمد بن زكريا

٤٦ — ،، رسائل فلسفية ،، (نشره بول كراوس ، القاهرة ١٩٣٩)

زكى محمد حسن دكتور

٤٧ — ،، الفن الاسلامى فى مصر ،، الجزء الأول (القاهرة سنة ١٩٣٥)

٤٨ — ،، كنوز الفاطميين ،، (القاهرة سنة ١٩٤٠)

ابن سعيد (٦٧٣ هـ = ١٢٧٥ م) على بن موسى المغربى .

٤٩ — ،،كتاب المغرب فى حلى المغرب والمشرق فى حلى المشرق،، (ليدن ١٨٩٨ — ١٨٩٩ م).

السلاوى الشيخ أحمد بن خالد الناصرى

٥٠ — ،، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ،، أربعة أجزاء (القاهرة ١٣١٠ - ١٣١٢ هـ)

السنهورى الدكتور عبد الرزاق أحمد باشا Sanhoury Dr. A. A.

٥١ — "Le Califat" (Paris, 1926)

السيوطى (٩١١ هـ = ١٥٠٥ م) عبد الرحمن بن أبى بكر جلال الدين

٥٢ — تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة (مصر ١٣٥١ هـ)

الشابشتى (٣٨٨ هـ = ٩٩٨ م) أبو الحسن على بن محمد

٥٣ — ،،كتاب الديارات،، ، مخطوط ,(Berlin, We. 1100) . وقد نشر الدكتور عزيز سوريال عطية : الجزء الخاص ،،بديارات مصر التى يقصد للشرب فيها والتنزه بها،، ، وترجمها إلى الانجليزية فى مجلة جمعية الآثار القبطية.

Extrait du Bulletin de la Sociéte d'Archéologie Copte, t.v.(1939).

أبو شامة (٦٦٥ هـ — ١٢٦٧ — ١٢٦٨ م) : عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان شهاب الدين الملقب بأبى شامة شافعى من أهالى دمشق

٥٤ — ،، كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ،، جزءان (مصر ١٢٨٧ هـ) .

٥٥ — ،، شرح لمعة من أخبار المعز ،، ، لم يعرف مؤلفه مخطوط بجامعة فؤاد الأول

أبو صالح (٦٠٥ - ٦٠٦ هـ = ١٢٠٨ م) الأرمنى

٥٦ — ،،تاريخ الشيخ أبى صالح الأرمنى،، المعروف بكتاب كنائس وأديرة مصر، نشره وترجمه ب. ت. ا. إيفتس (B. T. A. Evetts) (أكسفورد سنة ١٨٩٥ م)

الطبرى (٣١٠ هـ = ٩٢٢ م) أبو جعفر محمد بن جرير
٥٧ —— ،، تاريخ الأمم والملوك ،، ١٢ جزءا (القاهرة ١٣٢٦ هـ)

طه أحمد شرف دكتور
٥٨ —— ،، تاريخ الاسماعيلية السياسى حتى سقوط بغداد ،، ، مخطوط ، رسالة الدكتوراه
،،عبيد الله المهدى،، ، بالاشتراك مع الدكتورحسن إبراهيم حسن (القاهرة ١٣٦٦ هـ = ١٩٤٧ م).

ابن عذارى (توفى فى أواخر القرن السابع الهجرى) أبو محمد عبد الله محمد المراكشى
٥٩ —— ،،البيان المغرب فى أخبار المغرب،، ، نشره دوزى فى ثلاثة أجزاء (ليدن ١٨٤٨ – ١٨٥١ م)

على إبراهيم حسن دكتور .
٦٠ —— ،، تاريخ جوهر الصقلى (القاهرة ١٣٥١ هـ = ١٩٣٣ م)

٦١ —— ،، تاريخ مصر فى العصور الوسطى ،، (القاهرة سنة ١٩٤٧)
،، النظم الاسلامية بالاشتراك مع الدكتور حسن إبراهيم حسن (القاهرة سنة ١٩٣٩) .

على مبارك باشا
٦٢ —— ،، الخطط التوفيقية ،، ، ٢٠ جزءا (بولاق ١٣٠٦ هـ)

العينى (٨٥٥ هـ = ١٤٥١ م) بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى
٦٣ —— ،،عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان،، ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية ، ١٥٨٤ تاريخ.

De Goeje M. J. دى غويه م. ج.
٦٤ — "Mémoire sur les Carmathes du Bahraïn et les Fatimimides (Leyden, 1886).

٦٥ — "La Fin de l'Empire des Carmathes du Bahraïn" (Journal Asiatique, 1895).

٦٦ — "The Karmathians" (Encyclopaedia of Religion and Ethics).

Fayzee Asaf, A.A. فايظى أصاف ا. ا.
٦٧ — "A Chronological List of the Imams and Daïs of the Musta'lian Ismailis" (Journal of Bombay Branch of the Royal Asiatic Society, 1934).

٦٨ — "Cadi-An-Numan (J. R. A. S., 1934)

٦٩ — "The Ismailian Law of Mut'a (J. B. R. A. S., 1929).

Finlay George فنلى : جورج
٧٠ — "History of the Byzantine Empire (716 1500 A. D.)" (London, 1856).

فورنيل هنرى Fournel Henri

٧١ — "Etude sur La Conquête de l'Afrique par les Arabes" T. Second, (Paris, 1881).

ابن القلانسى (٥٥٥ هـ = ١١٦٠ م) أبو يعلى حمزة

٧٢ — « تاريخ ابن القلانسى » المسمى « ذيل تاريخ دمشق » ، مصحوب بشذرات من تواريخ ابن الفارق وسبط بن الجوزى والذهبى (بيروت ١٩٠٨ م) .

القلقشندى (٨٢١ هـ = ١٤١٨ م) أبو العباس أحمد

٧٣ — « صبح الأعشى فى صناعة الانشا » ، ١٤ جزءا (القاهرة سنة ١٩١٣ - ١٩١٧) .

كامل حسين دكتور محمد

٧٤ — « المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى » ، رسالة الدكتوراه .

٧٥ — « المجالس المستنصرية » للداعى ثقة الامام (القاهرة سنة ١٩٤٧)

كترمير : اتيين Quatremère: Etienne

٧٦ — "Mémoires Historiques sur la Dynastie des Khaliphs Fatimites (Journal Asiatique, 1836, série ii).

الكندى (٣٥٠ هـ = ٩٦١ م) : أبو عمر محمد بن يوسف .

٧٧ — «كتاب الولاة والقضاة» (نشره روفن جست (E. J. W. Gibb Memorial Series, vol. xix, 1912).

لويس برنارد Lewis: Bernard

٧٨ — "The Origins of Ismailism" (Cambridge, 1940).

لينبول : ستانلى Lane-Poole Stanley

٧٩ — The Story of Cairo" (London, 1912).

٨٠ — "History of Egypt in the Middle Ages" (London, 1892).

ماسنيو لوى Massignon Louis

٨١ — Esquisse d'une Bibliographie Carmathe " (Cambridge, 1922) مقالة نشرت فى كتاب عجب نامة

الماوردى (٤٥٠ هـ = ١٠٥٨ م) أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى .

٨٢ — « الأحكام السلطانية » (القاهرة سنة ١٢٩٨ هـ) .

أبو المحاسن (٨٧٤ هـ = ١٤٦٩ م) جمال الدين بن يوسف بن تغرى بردى

٨٣ — « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » (القاهرة ١٩٣٥) .

المراكشى (٦٦٩ هـ = ١٢٧٠ - ١٢٧١ م) محى الدين أبو محمد عبد الواحد بن على التميمى

٨٤ — « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب » (طبعة دوزى ، ليدن سنة ١٨٨١) ، وترجمه وشرحه ا. فانيان E. Fagnan (الجزائر سنة ١٨٩٣)

مرجليوث س Margoliouth D. S.

٨٥ — "Cairo, Jersusalem and Damascus" (Oxford, 1907).

المسعودى (٣٤٦ هـ = ٩٥٦ م) : أبو الحسن على بن الحسين بن على .

٨٦ — „ التنبيه والاشراف „ (القاهرة ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٨ م) .

مسكويه (٤٢١ هـ = ١٠٣٠ م) أبو على أحمد بن محمد

٨٧ — „ كتاب تجارب الأمم „ ، جزءان (طبعة هـ . ف . أمدروز (H. F. Amedroz
وترجمه د . س . مرجليوث D. S. Margoliouth (أكسفورد ١٩٢١ م) .

المقرى (١٠٤١ هـ = ١٦٣٣ م) شهاب الدين أحمد بن محمد المقرى التلمسانى .

٨٨ — „ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب„ ، أربعة أجزاء (بولاق ١٢٧٩ هـ = ١٨٦٢ م)

المقريزى (٨٤٥ هـ = ١٤٤١ م) : تقى الدين أحمد بن على

٨٩ — „ المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار „ ، جزءان (بولاق ١٢٧٠ هـ)

٩٠ — „ اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا „ (بيت المقدس ١٩٠٨ م) .

ابن منجب (٥٤٢ هـ = ١١٤٧ م) أمين الدين تاج الرياسة أبو القاسم على ، الصيرفى المصرى

٩١ — „ الاشارة إلى من نال الوزارة (القاهرة سنة ١٩٢٤)

المنصورى (٧٢٥ هـ = ١٣٢٥ م) ركن الدين بيبرس المنصورى الدوادار .

٩٢ — „زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة„ ، مخطوط مصور بمكتبة جامعة فؤاد الأول، المجلد الخامس

ميجون ج . Migeon G.

٩٣ "Manuel d'Art Musulman" 2 vols. (Paris, 1920).

ابن ميسر (٦٧٧ هـ = ١٢١٨ م) محمد بن على بن يوسف بن جلب .

٩٤ — „ تاريخ مصر „ طبعة هنرى ماسيه (Henri Massé) (القاهرة سنة ١٩١٩ م).

ميور وليام تمبل Muir William Temple

٩٥ — "The Caliphate Its Rise, Decline and Fall" (Lond. 1924).

ابن النديم (٣٨٣ هـ = ٩٩٣ م) محمد بن إسحاق

٩٦ — „ كتاب الفهرست „ (القاهرة ١٣٤٨ هـ) .

نظام الملك (٤٨٥ هـ = ١٠٩٢ م) الوزير .

٩٧ — „ سياسة نامه „ ، المجلد الثانى (باريس ١٨٩٣ م) .

النعمان (٣٦٣ هـ = ٩٧٢ - ٩٧٣ م) أبو حنيفة بن حيون المغربى

٩٨ — „ المجالس والمسايرات „ ، ثلاثة أجزاء ، مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد ، رقم ٢٦٠٦٠

٩٩ — „ الهمة فى آداب أتباع الأئمة „

النويرى (٧٣٢ هـ = ١٣٣٢ م) أحمد بن عبد الوهاب
١٠٠ —— ،، نهاية الأرب فى فنون الأدب مخطوط مصور بدار الكتب المصرية ، رقم
٢٥٧٠ تاريخ ، ٥٤٩ معارف

نيكلسون : ا. رينولد Nicholson A. Reynold
١٠١ — "Literary History of the Arabs" (Cambridge, 1930).

هامر فون Hammer Von
١٠٢ — "Histoire de l'Ordre des Assassins" (trad. par Hellert, Paris, 1833).

ابن هانىء (٣٦٢ هـ = ٩٧٣ م) ابو القاسم المكنى بأبى الحسن محمد
١٠٣ —— ،، ديوان ابن هانىء ،، (بيروت ١٣٢٦ هـ)

الحمدانى دكتور حسين
١٠٤ —— "Some Unknown Ismaili Authors and their Works" (J.R.A.S. 1933).
١٠٥ —— ،، زهر المعانى ،، A. Compendium of "Ismaili Esoterics" (Islamic Culture, 1937, Vol. ii).

وستنفلد ف. فون. Wüstenfeld F. von
١٠٦ —— "Geschichte der Fatimiden Chalifen", Göttingen,1881).

ياقوت (٦٢٦ هـ = ١٢٢٩ م) شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى
١٠٧ —— ،، معجم البلدان ،، ، ١٠ أجزاء (القاهرة ١٣٢٣ هـ = ١٩٠٦ م) .
١٠٨ —— ،، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ،،
E. J. W. Gibb Memorial, Series vi. سبعة أجزاء (القاهرة ١٩٠٧–١٩١١) .

يحيى بن سعيد الأنطاكى (٤٥٨ هـ — ١٠٦٦م)
١٠٩ —— ،،صلة تاريخ أوتيخا،، ، جزءان (بيروت ١٩٠٩ م)

فهارس الكتاب

١ — الأعلام

(ا)

الآمر — الخليفة الفاطمى ١٨٢

الأبطح بن جعفر الصادق ٢٧١

أبو بكر الصديق — الخليفة ١٥٠ ، ١٧٩ ، ٢٥١ ، ٣٣٠

أبو بكر النابلسى — الزاهد ١٣٠

أحمد بن أبى بكر بن سهل الجذامى — والى فاس : ٢٦ ، ٣٢ ، ٣٣

أحمد التقى — الامام ١٢

أحمد بن الحسن بن أحمد الكلبى (٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ١٥٨ ، ١٥٩

أحمد بن أبى سعيد الجنابى : ٧٣ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٥

أحمد بن طولون — والى مصر ٧٩ ، ٨١ ، ٩١

أحمد بن القاسم بن محمد بن إدريس ٢٩

إدريس الداعى ٢٠ ، ٢٥٨ ، ٢٧٠

أريانوس بن قسطنطين الثامن — الامبراطور : ٥١

إسماعيل بن جعفر الصادق — الامام ١٣٥ ، ٢٧٠ ، ٢٧١

أفتكين التركى — القائد ٧٥ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٦٤ ، ٢٩٤

الأفضل شاهنشاه — الوزير ١٧٢ ، ١٨٢

أفلح — غلام المعز ١٥٤

أوتو — الامبراطور ٦٠ ، ٦٣

(ب)

بختيار — أحد ملوك البويهيين ١٠٩ ، ١٣١

بدر الجمالى — أمير الجيوش ١٤٧ ١٨٢

بلكين بن زيرى بن مناد — ملك صنهاجة ٢٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٥ ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٤ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ٢٩٦

(ت)

أبو تغلب بن ناصر الدولة بن حمدان ١٠٩

تميم بن المعز ٣٠١

(ج)

جستنيان — الامبراطور ٥٩

جعفر الصادق — الامام ١٢ ، ١٣٨ ، ٢٦٢ ، ٢٧١ ، ٣٤٣

جعفر بن على الأندلسى — القائد ٣١

جعفر بن على الكلبى ١٥٩

جعفر بن الفرات — الوزير ٨٠ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ١١٤ ١٤٧ ١٤٨ ١٤٩ ١٥٠ ، ١٩٥ ، ٢٩٥

جعفر بن فلاح الكتامى — القائد ٩٠ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٩ ١١٠ ١١١ ، ١١٢ ، ١١٦ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٨٠ ، ١٨٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥

أبو جعفر بن محمد بن أحمد البغدادى — الوزير ١٤٥

أبو جعفر مسلم بن محمد — الشريف ٩٠ ، ١٤٠ ١٤١

أبو جعفر المنصور — الخليفة ١٤٥ ، ١٤٧

جعفر بن منصور اليمن ٢٥٧ ٢٦٢ ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٣٠٢

جوذر — أحد الخاصين للفاطميين ٢٠
جورج — ملك النوبة : ١٦٢
جوهر الصقلي — القائد ٢٣ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٤٤ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٧٩ ، ٨ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٤ ١٠٦ ١ ٩ ١١٠ ١١١ ١١٢ ، ١١٣ ١١٤ ١١٥ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٤ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ٤٨ ١٤٩ ، ١٦ ١٦١ ١٦٢ ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٤ ١٨٦ ١٨٧ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ٢٠٠ ، ٢٥٣ ٢٦٣ ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ٢٩٥ ٢٩٨ ٢٩٩ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣
جيش بن الصمصامة — والى دمشق ١٢٩

(ح)

الحافظ — الخليفة : ١٨٢
الحاكم بأمر الله — الخليفة ٢٥٩ ، ٢٧٢
حامد بن حمدان — القائد ٢٦
الحسن بن أحمد بن إبرهيم بن إدريس ٤٦
الحسن بن أحمد الكلبي ٥٩
الحسن الأعصم بن أحمد بن سعيد القرمطي ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١ ٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١ ١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١١٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٨٣ ، ٢٩١ ، ٣٠٧
حسان بن الجراح الطائي — الزعيم العربي ١ ٤ ، ١ ٦ ١
الحسن الصباح ٢٧٢
الحسن بن عبيد الله بن طغج ٧٣ ، ٨٠ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٦٣
أبو الحسن عدي بن محمد بن القمر ١١٦
أبو الحسن علي بن الاخشيد ٣٠٣
الحسن بن علي الكلبي — صاحب صقلية ١٣ ، ٤٣ ٥٢ ٥٦ ٦١ ١٥٥ ١٥٨ ، ٢٩٦
الحسن بن عمار — القائد الفاطمي ٥٥ ، ٥٦ ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ١١٥
الحسن بن القاسم الادريسي : ٣٣ ، ٣٤
الحسن بن القاسم اللواتي : ١٧
الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس — الحجام ٢٦ ، ٢٧ ، ١٩
الحسين بن أحمد الروذباري ١٧١
الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل الامام المستور ١٤٠
الحسين بن الحسن بن أحمد بن إبرهيم بن إدريس ٤٦
حسين بن خلف ١٥٦
الحسين بن علي بن أبي طالب ١١ ، ١٢ ، ٢٨٥
الحسين بن علي بن النعمان — القاضي ١٩٩
ابن حفصون — الثائر بالأندلس ٣٧ ، ٦٨
الحكم المستنصر — الخليفة الأموي ٣٤ ، ٤٦
حميد الدين الكرماني — الداعي ٢٦
حميد بن يصل — صاحب تاهرت : ٢٦ ، ٣٨
أبو حنيفة النعمان المغربي — قاضي القضاة ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٨٥ ، ١٩٠ ، ٩٦ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٧٠ ، ٢٨٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠٢
ابن حوشب الداعي ٧٦

(خ)

خالد بن برمك — الوزير ١٤٧
أبو خزر الزناتي ٣٥
خفيف الصقلي — صاحب الستر ، ٦٥
خمارويه بن أحمد بن طولون ٧١

(د)

الدمستق — القائد ٤٧

(ر)

الراضى — الخليفة العباسى ٧٠ ، ٧١

ابن رائق — القائد ٧٠ ، ٧١ ، ١٠٠

رجاء بن صولاب — صاحب الخراج ١٧٠

رومانس — الامبراطور ٣٣٢

روميل القائد ٨٤ ، ٨٥

ريان الخادم — والى دمشق ١٣٠ ١٦٤

(ز)

زيادة الله بن القديم ١٥٦ ، ١٥٧

زيرى بن مناد الصنهاجى ١٣ ، ٢٤ ٣٠
٣١ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٦٧ ، ٨٣ ، ١٥٥ ،
١٧٥

زيمسكس — الامبراطور ٦٣ ، ٧٩

(س)

سابور بن أبى طاهر ٩٩ ١٠٠ ١٠١
١٠٢ ، ١٠٥

ابن أبى الساج — القائد ١١٠

سعادة بن حيان — القائد ١١١ ١١٢ ،
١٢٢ ، ٣١٤ ، ٣١٥

سعيد بن أبى سعيد الجنابى ٩٢ ، ٩٩ ، ١٠٣ ،
١٠٥ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٢١

السفاح — أبو العباس الخليفة ١٤٧

سقراط — رسول ملك القسطنطينية ٥٤

أبو سلمة الخلال — وزير آل محمد ١٤٧

سلمان الفارسى ١١

سيف الدولة الحمدانى : ٤٧

(ش)

الشافعى الامام ٢٦١

الشاكر بالله — صاحب تاهرت ٣٢ ١٣٧

شمول الاخشيدى — والى دمشق ٩٥

(ص)

صلاح الدين الأيوبى ٩٣ ، ١٤٧ ، ٢٥٢

طارق بن زياد ٣٧

أبو طاهر الجنابى القرمطى ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦ ،
٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،
١٠٥ ، ١١٠ ، ١١٦ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٣ ،
١٢٥

أبو الطاهر الذهلى — القاضى ٨٩ ، ٩٣ ،
١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٠

الطائع — الخليفة العباسى : ١٣١ ، ٢٩٠

(ظ)

ظالم بن موهوب العقيلى — الزعيم العربى ٩٥ ،
٩٦ ، ٩٨ ، ١٠٤ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٢ ،
١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ،
١٣٠ ، ١٣١ ، ١٦٣ ، ١٦٤

(ع)

العاضد — الخليفة الفاطمى ١٨٢

عبد الجبار الخراسانى ١٥٦

عبد الرحمن الناصر — الخليفة الاموى ٢٥ ،
٢٦ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٦ ،
٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ،
٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٦١ ، ١٣٦ ١٨٤ ،
٢٦٣ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٢٩٥ ، ٣٢٥

عبدالسميع — الخطيب : ١٩٨

عبد العزيز بن يوسف — عامل القازم : ١١٣

أبو عبد الله الشيعى ٢٤ ، ١٧٥ ، ٣٣١

عبد الله بن طاهر والى مصر ٤٦ ، ٥١

عبد الله بن عطاء الله : ١٧١

عبد الله بن القديم — الوزير ١٤٥

عبد الله بن محمد بن أبى ثوبان القاضى ١٩٦ ،
١٩٧ ، ٢٠٠

عبد الله بن محمد الكاتب ١٥٧

أبو عبد الله محمد بن النعمان ــــ الفقيه ٢٥٧
عبد الله بن يخلف الكتامى ــــ والى طرابلس: ١٥٥
عبد الملك بن مروان ٣٨ ، ١٤٥
عثمان بن عفان ــــ الخليفة ٢٥١ ، ٣٣٠
عروبة بن إبراهيم صاحب الشرطة ١٦٧
عز الدولة بختيار : ١٠٧ ، ١٠٨
العزيز ــــ الخليفة الفاطمى ٩ ، ٣٤ ، ٦٣ ، ٧٥ ، ٩٤ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٣١ ، ١٤٢ ، ١٥١ ، ١٥٧ ، ١٦٨ ، ١٨٣ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٥٣ ، ٢٥٧ ، ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٩٦
عسلوج بن الحسن ــــ الوزير ١٥٠ ، ١٦٧ ، ١٦٨-١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٤
عضد الدولة بن ركن الدولة ١٣١
أبو على الداعى ٦٩
على الرضا بن موسى ٢٧١
على بن أبى طالب ١٠ ، ١٢ ، ٧٠ ، ٨١ ، ١١٧ ، ١٢١ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٩٢ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٦٢ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٩٩
على بن عمر بن العداس ١٧٤
على بن محمد بن طباطبا ١٧١
على بن محمد بن القاسم ٢٩
على بن النعمان ــــ القاضى ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٥٩
على بن يحيى بن العرمرم ١٧٠
عمار الكلبى ٥٤ ، ١٥٨
عمر بن الخطاب ١٥٠ ، ١٦٦ ، ٢٥١
عمر بن شعيب البلوطى ــــ الوالى ٤٦ ، ٤٧
عمر بن عبد العزيز ــــ الخليفة ٣٣٠
عمرو بن العاص ١١٣ ، ١١٤ ، ١٩٨

(غ)

غالب ــــ القائد : ٢٤

(ف)

فائك القائد ــــ غلام ملهم ٩٤
ابن الفرات ــــ أبو العباس الفضل ١٦٠
أبو الفوارس أحمد الاخشيدى ٨٠

(ق)

أبو القاسم أنوجور ٧٩
أبو القاسم بن الحسن الكلبى ٦٣ ، ١٥٩
القاسم بن محمد بن القاسم ٢٨ ، ٢٩
القائم بأمر الله ــــ الخليفة الفاطمى ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٦ ، ٥١ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ١٣٤ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٥٢ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٢٩١ ، ٣٤٧
قسطنطين الثامن ــــ الامبراطور ٤٠ ، ٥٢ ، ٥٤

(ك)

كافور الاخشيد ٤٩ ، ٥١ ، ٦٤ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ١٧١ ، ١٩٥
أبو كاليجار ــــ البويهى ٢٦ ، ٧٦
الكاهنة ٢٤

(م)

المأمون ــــ الخليفة ١٤٦
مانويل ــــ القائد ٥٥ ، ٥٧
محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ١٢ ، ٢٧١
محمد بن جعفر الصادق ٢٧١
محمد بن الحسن بن احمد بن إدريس ٤٦
محمد بن الحسن بن خزر العزاوى ٣٥
محمد بن الحسن الكلبى ٦٣
محمد بن الحسين بن مهذب ــــ صاحب بيت المال ١٧١
محمد بن طغج الاخشيد ٥١ ، ٧٠ ، ٧٩
محمد على باشا ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٧
محمد بن على بن الحسين ٣٣٩
أبو محمود بن جعفر بن جعفر بن فلاح ــ القائد ١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١

١٦٣ ١٦٤
المستنصر ــ الخليفة الفاطمى ٧٦ ، ١٧٢ ، ٢٧٢ ،
٢٨٢ ، ٢٩٣
ابن مسرة ــ الفيلسوف ٦٨
مصالة بن حبوس ــ القائد ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ،
٣٨
المطيع ــ الخليفة ٩٧ ، ١٠٤ ، ١٠٧ ، ١١١ ،
١١٦ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ٢٩٠ ، ٢٩٥
ابو المعالى بن حمدان ١٣١
معاوية بن أبى سفيان ٢٣١
معاوية بن يزيد ٢٣٠
المعتمد ــ الخليفة العباسى ٧٨
معز الدولة بن بويه ٧٥ ، ١٠٦
ابو المنجا ــ قائد الحسن الأعصم ١٢ ، ١١٧ ،
١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٢٨
المنصور ــ الخليفة الفاطمى ١٠ ، ١٢ ، ١٤ ،
١٥ ١٧ ١٩ ، ٢٠ ٢ ، ٢٣
٢٤ ، ٢٥ ٢٦ ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٩ ،
٦١ ٦٧ ٦٨ ٧١ ، ٧٢ ، ١٣٤
١٤٠ ، ١٤٢ ١٤٥ ، ٥٢ ، ١٥٨ ، ١٨٣ ،
١٩٠ ٢٥٨ ، ٢٦٢ ، ٢٦٨ ٢٩١
المنصور بن أبى عامر ــ الحاجب ٣٤
موسى بن أبى العافية ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨
٢٩ ، ٣٥ ، ٣٧ ٤٣ ، ٤٤ ، ٦٧
المؤيد الشيرازى ٢٦٠ ، ٢٧٢
المهدى عبيد الله ــ الخليفة الفاطمى: ١ ، ١١ ،
١٢ ، ١٣ ، ١٤ ١٥ ، ١٩ ٢١ ، ٢٤ ،
٢٥ ، ٢٦ ، ٥٢ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٤ ،
٩٧ ٥٨ ، ٩٩ ، ١٠٥ ، ١١٩ ١٢١
١٣٤ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٥٢ ، ٥٥ ،
٢٥٨ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ٢٦٩ ، ٣٤٧
ميسور الفتى ــ القائد ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠
ميمون القداح ١١ ١١٧

(ن)

نابليون ٨٤ ، ٨٥
نقفور فوقاس ــ الامبراطور ٥٥ ، ٥٩
٦٠ ، ٦٣ ، ٧٨
نيقولا الصفير ٦٠

(هـ)

هارون بن محمد ــ الداعى ٢٥٩
ابن هانىء الأندلسى ــ الشاعر ٩١ ، ٣٠١
هشام بن الحكم ــ الخليفة ٣٤

(و)

واصل ــ القائد ٨٤ ، ٨٥

(ى)

يحيى الرابع بن إدريس بن عمر ٢٧
أبو يزيد مخلد بن كيداد ــ الخارجى
٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ٣٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧١
يعقوب بن كلس ــ الوزير: ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٦٧ ،
١٦٨ ، ١٧٠ ١٧١ ، ١٧٣ ١٧٤ ١٨٢ ،
٢٦٠
يعلى بن محمد الزناتى: ٣١ ، ٣٨ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ١٥٥
يعيش ــ مولى الحسن الكلبى ٦١ ، ٦٠
يوسف بن تاشفين ٢٧

النساء

(ف)

فاطمة الزهراء ١٠ ، ٨١ ، ١٢١ ، ١٣٦ ، ١٣٩ ،
١٤١ ٢٥١

(ق)

قطر الندى ٧١

الأماكن

(ا)

إجدابية ١٥٦
الأحساء ١١٦

إخميم ٨٠
الاربس — مفتاح المهدية ٢٤
أذرعات — قرب عمان ١٢٥
الازهر الشريف ٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٣٠٠ ، ٣٠١
أسبانيا أنظر الاندلس
الاسكندرية ٨٥ ، ٨٦ ، ١٦٠ ، ١٨٦ ١٨٧ ١٨٩ ، ١٩٦ ، ٢٥٨
الاسكندرونة ٤٦ ، ٩٧ ،
أسيوط ١٦١ ، ١٦٢
الأشمونين ١٦١ ، ١٧٢
إفريقية ١٤ ، ٢٤ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٤ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٩٣ ، ١٢٦ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٧٥ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٤ ١٨٥ ، ١٩٠ ، ٢٦٣ ، ٢٧٤ ، ٢٩١ ، ٣٣٤
إقريطش — جزيرة ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ٥١ ، ٥٥ ٥٨ ، ٥٥ ١٨٥ ٢٦٣ ، ٢٧٧ ، ٢٩٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٢١
ألمانيا ٣٧
إنجلترا ٣٧
الأندلس : ٢٥ ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٤ ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٧٧ ، ٨٣ ، ٩٣ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٨٤ ٢٦٣ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٥ ، ٣٢٣ ، ٣٢٩ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧
أنطاكية ٧٨ ، ٩٧ ، ١١٠ ، ١٨٩
أوال — جزيرة ١٠١ ، ١١٦
إيبريا ٤٢ ، ٦٧ ، ٢٩٢
إيطاليا: ١٦ ، ٢٣ ، ٥٢ ٥٣ ٥٩ ٦٠ ١٨٥ ، ٢٧٧ ، ٢٩٣

(ب)

باغاية — مدينة بالمغرب ٣٥ ، ٣٦
البحرين ٦٩ ، ١٠٣ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٣ ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٦٩ ، ٢٩٤
البحيرة — مديرية ١٦٠
برقة ٥٠ ، ٦٦ ، ٨٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ١٧٩ ، ٢٧٤ ٢٩١ ، ٢٩٦ ، ٣٠٤
البصرة ٧٦ ، ١٨٤
بعلبك ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٦٤
بغداد ٩ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٦٤ ، ٦٨ ، ٩٧ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ٢٩٣ ، ٢٩٩
بلرمو — حاضرة صقلية ٥٣ ، ٥٦ ، ٥٩
البلقان ١٨٢
بوصير — كورة ١٦١ ١٧٤
البهنسا ١٦١ ١٦٢

(ت)

تاهرت — مدينة بالمغرب ٢٤ ، ٢٦ ٣٠ ٣١ ، ٣٢ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٣ ، ٤٤ ٤٥ ١٥٥
تروجة — قرب الاسكندرية ٨٦
ترمين — مدينة بصقلية : ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٦
تلمسان ٣٦
تنيس ٩٠ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١٧٢ ، ١٩٩
توزر ٢٤
تونس ٣٤ ، ٣٩ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٦ ، ٦٦ ، ٨٢ ، ١٥٦ ، ١٧٥ ، ١٨٠ ، ٢٧٤ ، ٢٩١
تيطوان — مدينة بجوار سبتة ٢٩

(ج)

الجابية ٣٣٠
جراتشي مدينة بايطاليا : ٥٣
الجريد ٢٤
الجزائر ٤٤ ، ٦٦ ، ١٦٩ ، ١٧٥ ، ٢٧٤ ، ٢٩١
جنوة ١٦
الجيزة ٨٦ ، ٨٨ ٩٠ ، ٩ ، ٦ ، ١٦٢

(ح)

الحجاز ٤٥ ، ٩٨ ، ١٢٦ ، ١٤٤ ، ١٦٥ ، ٢٨١
حجر النسر — قمة بالمغرب ٢٨
حلب ٧٧ ، ٧٨
حمص ٣٠ ، ١٣٢ ، ١٦٤
حوف رمسيس ١٦١

(خ)

خراسان ٦٩ ، ٧٤ ، ٧٧ ، ١٦٩
الخرطوم ١٦٢

(د)

دجلة — نهر ٨٧ ، ١٠٩
الدقهلية — مديرية : ١٦١
الدكة — مدينة قرب دمشق ١٠٩
دمشق ٦٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ،
١١٢ ، ١١٧ ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٠ ،
١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٨٠ ،
١٩٤ ، ٣١٤ ، ٣١٥
دمياط ٩٠ ، ١٦٠ ، ١٧٢ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ،
١٩٩ ، ٢٩٨
ديار بكر ٧٩

(ر)

الرحبة ١٠٩
رقادة : ٣٦
رمطة — مدينة بصقلية ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٦١ ،
١٥٩
الرملة ٩٤ ، ٩٥ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١٣ ، ١٣٠ ،
١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٨٠ ، ٣١٤ ، ٣١٥
الروضة — جزيرة ٩٠
رومة ٦٨
الرها ٧٩
الريف — إقليم بالمغرب ٢٨
ريو — جزيرة ٥٨

(ز)

الزاب — إقليم بالمغرب ٢٤ ، ٣٥

(س)

سبتة ٩ ، ٢٥ ، ٢٩ ، ٣٣ ، ٤ ٣١ ٤٤
١٨٦
سجلماسه ٢٣ ، ٤ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٤٤
٤٥ ، ١٣٧ ، ١٥٥ ١٧٦ ١٧٨ ، ٢٦٣ ،
٢٧٤ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢
سلمية — مدينة بالشام ١١ ، ٧٤
سورية ٧٨ ، ٩٢
سوسة ١٨٤ ، ١٨٥ ١٨٦ ، ٢٩٨
السويس أنظر القلزم
سيوة — واحة ٨٢

(ش)

الشام ٩ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٥٢ ، ٦ ، ٦٣ ، ٦٦ ،
٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨ ،
٨٦ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥
٩٦ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١ ٣ ، ١٠٥ ،
١٠٦ ، ٠٧ ، ١ ٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١
١١٢ ١١٤ ١١٥ ، ١٧ ، ١١٩ ، ١٢٤ ،
١٢٥ ، ١٢٦ ١٢٧ ، ٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ،
١٣١ ، ١٣٣ ، ١٤١ ١٤٤ ١٦ ، ١٦٢ ،
١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٦٩ ، ٧١ ، ١٨٠ ، ٨٣ ،
١٨٦ ، ١٨٧
الشرقية — مديرية : ١٦ ، ٦١

(ص)

الصعيد ١٢٤
صقليه ١٦ ، ١٧ ، ٢٣ ، ٣٩ ، ٤٣ ، ٥٢ ،
٥٣ ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ٥ ، ٦٠ ،
٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ،
١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ،
٢٧٣ ، ٢٧٤ ٢٧٧ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ،
٢٩٦ ، ٣٠٤
صنهاجة قبيلة مغربية : ٢٤ ، ٣٥ ، ١٨١
صور ١٨٦ ١٨٧ ١٨٩
صيدا ١٨٩

(ط)

طبرمين ٥٤ ، ١٥٩

طبرية ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٠ ، ١٠٥ ، ١٢٨

طبنة ٣٠٤

طرابلس ٦٣ ، ٦٦ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٥٦ ، ١٥٥ ،
١٦٤ ، ١٦٥ ، ٢٥٨ ، ٢٧٤ ، ٢٩١ ، ٢٩٦

طرسوس ٧٨

طنجة ٩ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٩

طوروس — جبال ٩٧

(ع)

العراق ٧٣ ، ٧٤ ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٧ ، ٩٣ ،
١٠٩ ، ١٢٨ ، ١٧١ ، ٢٩٨

عسقلان ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٤ ، ٢٩٨

عكا ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٩

عمان ١٠٠ ، ١٠٦ ، ١٦٩

عيذاب ١٨٩

عين شمس ١٢٤

(ف)

فاس ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٢ ،
٣٣ ، ٤٦ ، ٦٩ ، ١٥٥ ١٥٧ ، ٢٦٣ ،
٢٧٢

فارس ٧٤ ، ٧٦ ، ١٤٤ ، ١٦٩

الفرات — نهر ٩٢ ، ١٠٦

الفرما ١٣ ، ١١٥ ، ١٩٩

الفسطاط ٨٦ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ٩٤
١١٣ ١٢٢ ١٦١ ١٦٧ ١٨٨
١٨٩ ، ١٩٥ ، ٢٠٠ ، ٢٩٨ ، ٣١١

فلسطين ٩٤ ، ١١٧

الفيوم ١٦١ ، ١٦٢

(ق)

القاهرة ٩ ، ٨١ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ١١٣ ، ١١٤ ،
١١٥ ، ١١٧ ، ١١٧ ، ١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٤٤ ،
١٥٦ ، ١٥٩ ١٦١ ، ١٦٧ ، ١٨٠ ، ١٨٩ ،
١٩٧ ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٦١ ، ٢٦٧ ،
٢٨١ ، ٢٨٥ ٢٨٦ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦ ،
٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١

قرطبة ٢٤ ، ٢٦ ، ٣٨ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٢٩٩

القسطنطينية ٢٧ ، ٤٨ ، ٥٨ ، ٦٨ ، ٣٢٤

القطائع ٩١ ، ١٦٧

القلزم ١١٣ ، ١١٤

قلورية — جنوب إيطاليا ١٦ ، ٢٣ ، ٥٢ ،
٥٣ ٥٤ ٥٩ ٦٠ ٦٣ ١٨٥
٣٧٧ ، ٢٩٢

قرص ١٦٠ ١٦٢

القيروان ٢٤ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ١٥٧ ، ١٩٠ ، ٢٧٤

(ك)

الكعبة ١٦٦

كلبريا ٥٩

كليكيا ٧٨

(ل)

لبنان ٧٧

ليون — علكة بأسبانيا ٤١ ، ٤٣

(م)

المحلة الكبرى ١٦٠

المهدية — مدينة بافريقية ٢٤

المدينة المنورة ١٦٥ ، ٢٨٢ ، ٣٢٤

مراكش ٤٤ ، ٦٦ ، ٢٧٤ ، ٢٩١

المرية — قاعدة بالأندلس ٢٩ ، ٤٠ ، ٤٥
٦١ ، ٢٣٧

المسيلة ٣١ ، ٣٥

مسينا ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٨

٩ ، ١٧ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٣٠ ، ٣٤ ، ٣٥ ،
٣٩ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥١
٥٢ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ،
٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ،
٧٦ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٥ ،
٨٦ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٢ ٩٤ ، ٩٧ ، ١٠٣ ،
١ ٤ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١١ ،
١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٨ ،
١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١١٦ ، ١٢٧ ،
١٢٨ ، ١١٩ ، ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ،
١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ،

١٦٠ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ١٦٦ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ،
١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ١٧٩ ، ١٨٠ ،
١٨١ ، ٢٦١ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ٢٧٢ ، ٢٧٧ ،
٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ،
٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ٣٠٠ ، ٣٠١ ،
٣٠٢ ، ٣ ٤
المصيصة ٧٨
المغرب ٩ ١٠ ١١ ٢٢ ، ٢٣ ٢٤ ،
٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ،
٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ،
٥٢ ٥٣ ، ٥٦ ٦٠ ، ٦٤ ٦٦
٦٧ ٦٨ ٦٩ ، ٧٠ ٧٩ ، ٨١ ،
٨٢ ٨٣ ، ٨٣ ٨٤ ٩٣ ، ٩٤
١٠٤ ، ١١٠ ، ١١٤ ، ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٢٦
١٣٦ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٥٤ ،
١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٦٨ ،
١٦٩ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٣
١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٩٧ ، ٢٠ ، ٢٥٥ ،
٢٠٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩
المقس ١٨٦ ، ١٨٨ ، ٢٥٢
مكة المكرمة ١٦٥ ٢٨٢ ٣٢٤ ، ٣٤٠
المنصورية ٩ ، ١٤ ، ٤٧ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٧ ،
٧١ ، ٨٢ ، ١١٩ ، ١٤٤ ٢٦٧ ٢٧٣
٢٧٤ ، ٢٨٠ ، ٢٨٨ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٢٩٩
٣٠٠ ، ٣٠١
الموصل ٧٧
المهدية ١٣ ، ١٤ ٢٤ ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩ ،
٣٣ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٨ ٦٢ ، ٦٧ ، ٧٦ ،
١٥٧ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٩٠ ، ٢٥٧ ،
٢٩٨ ، ٣٢٤
ميافارقين ، ٧٩

(ن)

نصيبين ٧٩
النوبة ٨٠ ، ١٦٢ ، ١٦٤

(هـ)

هوارة — قبيلة ٢٤
وهران ٣٠

(ى)

يافا ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١٢٢ ،
٣١٤
اليمن ٦٩ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ١٤٤ ، ١٦٩ ، ٢٥٤ ،
٢٥٩ ، ٢٦٨

الأسماء التى تدل على حوادث تاريخية هامة

(ا)

الأبطحية — فرقة ٢٧١
الأتراك ١٣١ ١٨٢
الاثنا عشرية : ٢٧١
الاخشيديون ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ،
٩٣ ، ٩٥ ، ١٠٢ ، ١٠٧ ، ١٣٥ ، ١٤٧ ،
١٤٨ ١٤٩ ، ١٦٠ ١٩٤ ، ٢٩٦
الاخشيدية — فرقة من الجند ٧٩ ٨٩ ،
٩٠ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ١٠٨ ، ١١٥
الأدارسة ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ،
٢٩ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٨ ،
٦٧ ، ٦٨ ، ٨٣ ، ٢٩١
الاسماعيلية ١٠ ، ١٢ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ١٠٠ ،
١٠٢ ١٠٦ ، ١٢٠
الألمان ٤٩ ،
الأمويون ١٠ ١١ ، ١٢ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ،
٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ،
٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٢ ،
٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٢ ، ٥٩ ، ٦١ ،
٦٤ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٣ ، ٧٧ ، ٨٣ ، ٩٨ ،
١٣٥ ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ،
١٦٦ ، ١٧٧ ، ١٨٣ ، ٢٦٣ ، ٢٧٦ ، ٢٨٢ ،

٢٨٧ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤
الأيوبيون : ١٧٢
الايطاليون ١٧٢

(ب)

البرامكة ١٤٦
البربر ٦٤ ، ١٥٧
البويهيون ٧١ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ،
١٠٧ ١٠٩ ١٢٦
١٢٧ ، ١٣٠ ، ٢٧٦ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥
البيزنطيون ٤١ ، ٥٧ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٩٠ ،
١٥٨ ٢٧٧
البجة ٢٦٠

(ح)

الحمدانيون ٥٣ ، ٥٥ ، ٧٨ ، ٧٩ ١٠٠
١٠٢ ، ١٠٧ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣١ ، ٢٩٤
بنو حمود ٣٤

(خ)

الخوارج ٢٤

(د)

الديلم ٧٥ ، ١٣١ ، ١٨٢

(ر)

الروم ٢٣ ٤٠ ٤١ ٤٢ ، ٤٧ ، ٤٨
٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ٥٤ ، ٥٦ ،
٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣،
٦٤ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ٩٨

(ز)

زناتة — قبيلة بالمغرب ٢٤ ، ٣٠ ، ٣٥، ٣٦،
١٥٧ ، ١٨٣
زويلة — قبيلة بالمغرب ٣١٤

(س)

السلاجقة ٧٦

السودانية — فرقة ١٨٢

(ش)

الشيعة ٩

(ص)

الصفارية — دولة ٧٧
الصقالبة ١٨٢
الصنهاجيون ١٧٩

(ع)

العباسيون ٩ ، ١٠ ١١ ، ٣٧ ، ٤٥ ،
٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٦٠ ، ٦٤ ، ٦٩ ، ٧٠ ،
٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٥
٩٢ ، ٩٣ ، ٩٨ ١٠٥ ، ١٠٧ ١٠٨
١١١ ، ١١٢ ، ١١٦ ، ١١٧ ١٢١ ، ١٢٢،
١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥،
١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ١٣٩ ، ١٦١،
٢٥١ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٨٢ ، ٢٩٠ ٢٩١ ،
٢٩٣ ، ٢٩٤
العقدانية — فريق من القرامطة ٩٩
بنو عقيل — قبيلة عربية ٩٥
العلويون ١٠ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ٨٦ ، ٩٠

(ف)

الفاطميون ٩ ، ١٣ ١٤ ١٦ ١٩ ٢٠
٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥ ٢٦ ، ٢٧
الفرنجة ٢٩
بنو فزارة — قبيلة ٩٥ ، ٩٦

(ق)

القبط ٢٨٥ ٢٨٦
القرامطة ٦٤ ، ٦٨ ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥
٧٦ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٢ ،
٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢،
١٠٣ ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦، ١٠٨، ١١٠ ،
١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦،

١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ١٢٦،
١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٤١ ، ١٦٣ ، ١٧١ ، ١٨٠ ،
١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٥٤ ، ٢٦٩،
٢٩٣ ٢٩٤ ، ٣٠٠

(ك)

الكافورية —— فرقة من الجند ٧٩ ٨٩،
٩٠ ، ٩٤ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ١١٥

كتامة ٢٢ ، ٢٣ ٦٥ ، ٨٢ ، ٨٨ ، ٩٥ ،
١٣٥، ١٤٤ ، ١٥٣ ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٩ ،
١٨٠ ، ١٨١ ، ٣١٤ ، ٣٤٦

(م)

المذهب الاسماعيل ١٥ ، ١٦ ، ٦٩ ، ٧٣ ، ٨٧ ،
١٠٤ ١١١ ١١٧ ١٢١ ١٢٢
١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣٦ ، ١٤١ ،
١٤٤ ، ١٤٩ ، ١٧٦ ، ١٩٠ ، ١٩٧ ٢٥٠،
٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ،
٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩٧ ،
٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢

المجاز —— موقعة ٥٨

المصامدة ١٧٩

المغاربة ٢٣

(ى)

اليهود : ٤٤